

تأليف

محمد عبد الله عنان

الطبعة الخامسة

الناشر

حسين عنان

الطبعـــة الخامســـه
(١٤١٧هـ ـــ ١٩٩٧م)

الناشـــــر
ورثـــة المــؤلـــف - حســين عنـان
رقــم إيـــداع
(٩٧١٢٢٠٥)
I. S. B. N. الترقيم الدولى
971 - 19 - 2621 - 7

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

حينما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، منذ ثلاثين عاماً ، كانت المواقف الحاسمة بين الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، التي جعلتها موضوعاً له ، تبلو محدودة فى عددها ونوعها . فلما ظهرت طبعته الثانية فى سنة ١٩٣٤ ، كانت هذه الفكرة تبدو أشد قوة ووضوحاً ، مما تضمنته هذه الطبعة من بحوث وتحقيقات جديدة فىهذا الميدان . ولما ظهرت طبعته الثالثة فى سنة ١٩٥٢ متضمنة لأربع مواقع جديدة من أهم المواقع الحاسمة فى تاريخ الإسلام ، هى موقعة ملازكرد ، وموقعة المنصورة ، وموقعة عين جالوت ، وفتح الترك العثمانيين لقسطنطينية : ظهرت فكرة الكتاب فىأقوى معالمها ، وأوضح معانيها .

واليوم بعد أعوام عديدة ، وبعد أن شغلتنى البحوث الأندلسية طيلة هذه الأعوام ، أتقدم إلى القراء بالطبعة الرابعة من هذا الكتاب متضمنة لثلاث مواقع جديدة من المواقع الحاسمة ، هى موقعة باب الشزرى ، وموقعة حطّين ، وموقعة القصر ؛ وفى كل منها تبدو فكرة الصراع بين الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، فى أروع صورها . ففى الأولى كانت محاولة شارلمان عاهل الفرنج ، القضاء على دولة الإسلام فى الأندلس ، وهى ما تزال فى أولى مراحلها ، وفى الثانية كان انتصار الملك الناصر صلاح الدين ، على الفرنج الصليبيين ، وهو النصر الذى مهد لاسترداد بيت المقدس ، والقضاء على المملكة اللاتينية الصليبية ، وفى الثالثة ، كان انتصار المغرب على عدوان الاستعمار البرتغالى . ولاريب أن ما ترتب على كل من هذه الأحداث الشهيرة ، من الآثار الحاسمة فى تطور الصراع بين المعسكرين الشرقى والغربى ، يضفى على فكرة الكتاب مزيداً من القوة والوضوح .

وقد رأيت أن أعيد كتابة ثلاثة من فصول الكتاب الأندلسية ، هى « السيد الكمبيادور وقصة مملكة بلنسية » و « سقوط طليطلة » و « موقعة الزلاّقة » — وذلك

على ضوء ما انتهيت إليه فى بحوثى الأندلسية فى الأعوام الأخيرة من تحقيقات واتجاهات جديدة ، وهى فى ثوبها الجديد يمكن أن تعتبر موضوعات جديدة ؛ وكذلك تناولت سائر فصول الكتاب الأخرى بالتنقيح والتعديل ، والإضافة أحياناً ، وعنيت بذكر المراجع . وأملى أن يسبغ هذا الجهد الجديد ، الذى بذل فى إخراج الكتاب فى ثوبه الحاضر ، عليه قيمة جديدة ، تجلى من فكرته ، وتبرز معالمها التاريخية والنقدية .

أما فكرة الكتاب الأصلية ، وهى التى يعبر عنها عنوانه فقد لبثت كما هى ، وأما العبر التاريخية التى تدلى بها هذه الفكرة ، فقد لبثت حية على مدى العصور والأجيال ، دون استثناء للعصر الحديث ، وإن كانت قد تطورت فى أثوابها المحدثة ؛ فهذه المجموعة من الوقائع والأحداث الخطيرة الفاصلة فى سير التاريخ الإسلامى، تلقى أعظم ضوء على ذلك الصراع الخالد، بين الشرق والغرب، والإسلام والنصرانية ، وفيها يرى القارئ كيف لبثت الفكرة الصليبية قروناً محور هذا الصراع ، وكيف أنها كانت تشتد وتضطرم ، كلما بدرت فورة إسلامية جديدة من القوة والإحياء ، وكيف أنها لم تعرف قط سبيلا إلى المهادنة ، حتى بعد أن نبذت الخلافة فكرتها القديمة فى اجتياح الغرب ، وإخضاع النصرانية لصولة الإسلام ، واكتفت الأمم الأسلامية بأن تسير فى سبيل التوسع الإقليمى السياسى. والواقع أن الفكرة الصليبية لبثت حية فى الغرب ، حتى بعد أن خبت تباعاً قوى الإسلام فى المشرق ، وانتهت دولة الإسلام فى الأندلس ؛ وكان مبعثها عندئذ هو خطر الفتوح العثمانية التى انسابت إلى قلب أوربا . ولما خبت هذه القوة الإسلامية الغازية الأخيرة أمام الغرب المتحد بعد صراع طويل الأمد ، استحالت الفكرة الصليبية إلى ثوبها السياسى الحديد ، وهو ثوب السياسة الاستعمارية التى ترمى إلى فرض سلطان الغرب على الأمم الإسلامية والشرقية بوجه عام ، والتربص بكل فورة أو نهضة جديدة يجيش بها الإسلام أو المشرق[١] .

---

(١) نقل الأستاذ المستشرق و . ك . سميث W.C. Smith مدير المعهد الإسلامى بجامعة ماك چيل بكندا — هذه الفقرة من مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب « مواقف حاسمة » فى كتابه : Islam in Modern History (Princeton University Press 1957) p.101 ، ونوه بأن ما يبدو فى مقدمات هذا الكتاب فى طبعاته الثلاث ، سواء منها العربية أو الإنجليزية ، يدل بأن فكرة المؤلف من خصومة الغرب للشرق تزداد قوة وثباتاً . ونحن نؤيده فى صحة هذا الاستنتاج . فنحن ما زلنا —

لقد كان لقاء الإسلام والنصرانية فى ميادين الحرب أو السلام ، دائماً موطن الفصل أو التقارب بينهما ، وكانت له فى مصايرهما أعمق الآثار . فأما فى ميدان الحرب فقد كان لنصر هذا الفريق أو ذاك ، أو هزيمته ، آثارها المباشرة والحاسمة أحياناً بالنسبة للفريق الآخر ؛ وأما فى ميدان السلم ، فقد كان للمدنية الإسلامية ، التى سطعت فى المشرق والأندلس خلال العصور الوسطى ، آثارها الواضحة فى سير الحضارة الغربية ؛ ومن هذا الميدان الخصب استقينا فكرة الكتاب ومعظم موضوعاته ، ومنه اخترنا بالأخص هذه المجموعة من المواقع والمواقف الحاسمة التى نقدمها ، والتى يبدو خطرها جلياً ، فى سير الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية .

وقد عنيت بالأخص بالإفاضة فى ثلاثة من هذه المواطن الحاسمة : هى حصار العرب لقسطنطينية ، وموقعة بلاط الشهداء ، وفتح الترك العثمانيين لقسطنطينية ؛ والأول والثانى هما بلاريب أعظم الحوادث والمواقع الحاسمة فى لقاء الإسلام والنصرانية ؛ فقد كان إخفاق العرب تحت أسوار قسطنطينية ، رداً لسيل الإسلام الفتىّ عن اقتحام أوربا من الشرق ، وحياة جديدة للدولة الرومانية الشرقية امتدت إلى قرون ؛ وكان ارتداد العرب أمام الفرنج فى بلاط الشهداء ، رداً لسيل الإسلام عن افتتاح أمم الغرب والشمال ، ومختتم ظفره فى الغرب ، وكان موطن الخلاص للنصرانية ، ومهاد البعث والحياة للأمم الأوربية ؛ وأما الحدث الثالث وهو فتح الترك العثمانيين لقسطنطينية ، فالبرغم من أنه لم يكن من جانب الفاتحين منطوياً على مُثُل الفكرة الإسلامية الأولى ، وغايتها البعيدة المدى ، فى نشر دعوة الإسلام بين أمم الغرب ، فقد كان مع ذلك بالنسبة للغرب وأوربا النصرانية ، صورة جديدة للخطر الإسلامى ، وعاملا فى بعث الفكرة الصليبية . وجمع كلمة الدول الأوربية على مقاومة هذه الفورة الإسلامية الجديدة ، ومازالت أوربا النصرانية على سياستها حتى حطمت الدولة العثمانية ، وغاضت قوتها وخطرها .

= بالفعل على إيماننا العميق بنظريتنا ، التى تؤيدها حوادث التاريخ بقوة ، والتى مازالت ظاهرة بارزة فى عصرنا ، بالرغم من انهيار الجبهة الإستعمارية القديمة . فالغرب ما زال يضطرم بخصومته القديمة للشرق ، وإن كانت هذه الخصومة تتخذ اليوم صوراً أخرى ، تستتر وراء تطور السياسة الاستعمارية والتكتلات الغربية التى تقع داخل المنظمات الدولية الكبرى ، ولا سيما هيئة الأمم المتحدة ، وتعضيد الدول الغربية لعدوان الصهيونية الدولية فى اغتصاب فلسطين ، وغيرها من الظواهر .

وفى كثير من الأحداث والمواطن الأخرى ، تبدو هذه الفكرة الحاسمة فى مصاير الإسلام والنصرانية قوية واضحة ؛ فنى موقعة الزلاّقة مثلا لم يكن ظفر المسلمين ظفراً لاسبانيا المسلمة فقط ، وإنما كان هزيمة الإسلام كله للنصرانية كلها ، وكان إيذاناً باضطرام الحروب الصليبية ؛ وماكانت الحروب الصليبية ذاتها إلا طوراً جديداً عنيفاً من أطوار ذلك الصراع الخالد بين الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ؛ وماكان مصرع الأندلس والحضارة الأندلسية حادثاً إسبانياً فقط ، بل كان محنة إسلامية عامة ؛ ولنتصور مثلا أن المسلمين ظفروا بفتح رومة ، ولم يخفقوا تحت أسوارها ، فأى مصير كان يقدر للنصرانية يومئذ ؟ أو أن الجيوش الصليبية استطاعت أن تقضى على قوى مصر ، وأن تستقر فى المشرق ، فأى مصير كان يقدر للإسلام والأمم الإسلامية يومئذ ؟

تلك هى الفكرة التى حرصنا على إبرازها باختيار هذه المواقف الحاسمة فى لقاء الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية . ولاريب أننا لم نستوعب فى هذا الاختيار كل ما يقدمه لنا التاريخ الإسلامى فى هذا الموضوع ، فهنالك مواطن ومواقع كثيرة أخرى ، كانت لها نفس الآثار الحاسمة ، وهى تتفاوت فى طبيعة هذه الآثار ومداها ، بتفاوت العصور التى حدثت فيها ، والبواعث التى أدت إليها[1].

القاهرة فى ربيع الأول سنة ١٣٨٢
الموافق أغسطس سنة ١٩٦٢

محمد عبد الله عنان

---

(١) نشرت بمدينة لاهور عاصمة الباكستان الثقافية ترجمة إنجليزية لكتاب « مواقف حاسمة » بعنوان Decisive Moments in the History of Islam ، وذلك منذ سنة ١٩٤١ ، وظهرت منها حتى الآن عدة طبعات . وكذلك نشرت له ترجمة « أوردية » .

تمہید



الفصل الأول

وثبـــة العـــرب

فى التاريخ حوادث ومسائل تبدو خارقة ، تكاد تقصر عن شرحها وتعليلها الظواهر والقوانين الاجتماعية . ووثبة العرب من قفار مكة إلى غزو العالم القديم ، إحدى هذه الحوادث والمسائل الخارقة . فمن قفار الجزيرة ، خرج العرب فى قلة من العدد ، وفى نقص من الأهبة ، لغزو دولتين من أعظم دول التاريخ منعة وضخامة وحضارة ، هما الدولة الرومانية والدولة الفارسية . ولم تقف هذه القبائل التى لم تخرج بعد من غمر البداوة ، أمام هيبة هاتين الدولتين العظيمتين اللتين اقتسمتا العالم القديم ، ولم يردها ما تتمتعان به من كفاية حربية مؤثلة ، وجيوش قوية مظفرة ، وموارد زاخرة لاتنضب . وكان الظفر حليف هذه القبائل فى كل فتح وكل موقعة . ولم يمض نصف قرن حتى استطاعت أن تبنى على أنقاض ما هدمت من صروح الدولتين العظيمتين ، دولة شامخة تناهض أعظم دول التاريخ : تلك معضلة تاريخية يصعب فهمها وشرحها .

بيد أن فى ظروف العصر الذى حدثت فيه وثبة العرب الأولى . واضطرام الصراع بين دولة الخلفاء الناشئة الفتية ، وبين فارس وقسطنطينية ، ما يقرب فهم هذه المعضلة . وفى وسعنا أن نرجع وثبة العرب بالعالم القديم ، وما أصابوا من فتوح عظيمة ، وظفر باهر ، إلى عاملين أساسيين : أولهما يتعلق بتأثير الإسلام فى نفوس تلك القبائل البدوية ، التى خرجت من الصحراء إلى الغزو ، فى طلب السلطان والثروة والملك ، ويتعلق الثانى بظروف الأمم التى قضت الحوادث أن تكون مهاداً لفتوح العرب .

فأما الإسلام فآثاره فى وثبة العرب قوية بارزة . طلع الدين الجديد على قبائل مشردة مشتتة متنافرة متناجزة ، تعبث بعقليتها التقاليد الوثنية ، وتمزقها الحروب الأهلية ، فألف بينها ، وأمدها بنظم روحية واجتماعية وأخلاقية متينة . وكانت خواص العصر الذى ظهر فيه النبى العربى ، مما تمهد إلى الدعوة الجديدة ويقوى

ذيوعها وتقدمها . كان عصر انحطاط عقلي واجتماعي ، هوت فيه الطبقات الحاكمة والممتازة فى المجتمعات المتمدنة ، إلى أشد ضروب الفساد والانحلال ؛ وكانت الشعوب تموج سأماً وسخطاً من أحوال العصر ونظمه ، وتضطرم أملا ورغبة فى استبدالها بنظم أمثل وأرفع ؛ وكانت بوادر من هذه الريح العامة تهب فى بلاد العرب . يقول جيبون : « كان مولد محمد لحسن الطالع فى أشد العصور انحطاطاً بالنسبة للفرس والرومان وبربر أوربا »[١] وكان العرب يشعرون بالحاجة إلى دين أمتن فى أصوله ، وأنقى فى مبادئه وتعاليمه من الوثنية ومذاهبها المختلفة ، بل كانت شعوب فارس والشام ومصر ، تشعر بمثل هذه الحاجة إلى مبادئ وتعاليم روحية جديدة ، بعد أن عفت الزرادشتية والمانوية[٢] ، وجمدت اليهودية ووقف تقدمها منذ بعيد ، وغدت النصرانية مثار الخلاف والجدل المستفيض ، وانقسمت إلى طوائف ، تسوم القوية ، الضعيفة منها ، مر الظلم والاضطهاد .

كانت بلاد العرب خلال هذه العواصف القوية ، التى تهب على العالم القديم ، فتهزه إلى الأعماق ، أوفر هدوءاً وحرية ، تفر إليها الطوائف المضطهدة ، المهددة فى عقائدها وشعائرها . وكانت بذلك أصلح مهاد لنشأة هذه المثل العليا ، التى يتطلع إليها العالم القديم ، وتتطلع إليها القبائل العربية . يقول فون شليجل : « لم يفتح العرب فاتح قط ، وكانوا مدى تاريخهم أحراراً » ثم يقول : « فهذه الحرية الأثيلة ، والاستقلال التام عن كل فاتح وطاغية ، كان لها شأن كبير فى الارتفاع بالعرب إلى شعور قوى بالنفس »[٣] . وفى ذلك العصر الذى كانت تضطرم الجزيرة فيه بهذه الأمانى والمثل الرفيعة ، ويحفزها شغف التحرر من شوائب الحياة القديمة ، ظهر النبى العربى ، وظهر الإسلام .

جاء الإسلام دستوراً جامعاً لحياة جديدة ، تمتاز بنقائها ومتانة أسسها الأخلاقية والاجتماعية . وكان للإسلام ، من ناحيته التشريعية فى تنظيم هذا المجتمع المشتت

---

(١) Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire. Ch. L.

(٢) وهى مذهب زرادشت مؤسس دين الفرس القديم (نحو القرن الثامن قبل الميلاد) . وقد لبثت الزرادشتية دين الفرس القوى منذ أواسط القرن السادس قبل الميلاد إلى أواسط القرن السابع بعده . والمانوية مذهب مانى الفارسى أيضاً (القرن الثالث الميلادى) وقد ذاع رغم مطاردته فى فارس وما حولها من بلاد العرب وكذا مصر .

(٣) Fr. von Schlegel : Philosophie der Geschichte. Kap. XII.

المتنافر ، أعظم الأثر . فقد خلقت الشريعة الجديدة ، من القبائل العربية ، مجتمعاً منتظماً متماسكاً ، واستبدلت حكم العرف والأهواء ، بقوانين حكيمة تعبر أقوى تعبير عن أمثل الخواص والمشاعر البشرية . ولاريب أن الشرائع التي تحكم الجانب المعنوى من الحياة ، أشد ما تكون أثراً ، وأعظم ما تكون فوزاً . إذا استطاعت فى أحكامها أن تقود مناحى التفكير والعواطف ، فى المجتمع الذى سنت له . وقد كان هذا فوز الشريعة الإسلامية ، وهذا ما جعلها مدى القرون ، دستوراً سياسياً واجتماعياً لمعظم الدول والمجتمعات الإسلامية ، بل هذا هو السر فى أن كثيراً من المجتمعات الإسلامية الحديثة ، مازالت فى عصرنا تحتكم راضية مغتبطة ، إلى كثير من الأحكام والنصوص التى وضعت منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً . يقول لنا جيبون فى إعجاب ودهشة : « إن ما يثير دهشتنا هو ثبات الإسلام لا انتشاره ، فإن نفس الطابع النبى الكامل ، الذى كان له فى مكة والمدينة ، ما زالت تجيش به صدور المسلمين فى الهند وإفريقية وتركيا »[1] . ويقول فنلى : « قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول أتباعه وأعمالهم ، ووضعت عبقريته أساس نظام دينى سياسى : ما زال يحكم الملايين من البشر ، من أجناس مختلفة وصفات متباينة . إن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم الأسيوية ، وثبات نظمه مدى أجيال طويلة ، فى كل نواحى الهيكل الاجتماعى ، دليل على أن ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات ليكورغوس والإسكندر »[2] .

هذه عوامل إيجابية فى أثر الإسلام فى وثبة العرب . ويوجد ثمة عامل سلبى يرجع إلى مشاعر الشعوب التى كانت مهاداً أولى لانتشار الإسلام . ففى فارس ، وفى أقطار الدولة الرومانية ، كان الاضطهاد الدينى سياسة مقررة للدولة . وكان هذا الاضطهاد يلحق أبناء الأديان والمذاهب المختلفة ؛ حتى أبناء الدين أو المذهب الذى تقره الدولة إذا لم يعتنقوا هذا الدين أو المذهب بصورته الرسمية التى تريدها الدولة . وقد جاء الإسلام بنعمة التسامح ، ينادى بحرية الاعتقاد والضمائر ، وحرص الغزاة المسلمون على تطبيق هذا المبدأ إلى حدود لابأس بها ، فى عصر

---

(١) Gibbon : ibid ; Ch. L.

(٢) Finlay : Greece under the Romans. Ch. V-2.

كان الإسلام فيه فتياً ، وكانت جذوة الحماسة الدينية تضطرم فى نفوس الخاصة والعامة معاً ؛ فكانت هذه السياسة الحكيمة كما سنرى ، من أهم العوامل فى انتشار الفتوح الإسلامية ، واكتساب ولاء الشعوب المفتوحة .

— ٢ —

فى تلك الصورة المتباينة التى يقدمها إلينا التاريخ وقت ظهور الإسلام ، عن انحلال الدولتين الفارسية والرومانية ، وانحطاط العالم القديم ؛ ثم عن سذاجة المجتمع العربى ، وتمتعه بألوان من الحماسة والفتوة والنقاء المعنوى ، نستطيع أن نلمس كثيراً من عوامل ظفر الإسلام والعرب .

ويرسم لنا جيبون هذه الصورة فى قوله : « وبينما كانت الدولة (الرومانية) قد أنهكتها الحروب الفارسية ، والكنيسة قد شغلها جدل الطوائف ، نهض محمد والسيف فى يد ، والقرآن فى الأخرى ، فأقام عرشه على أنقاض النصرانية وأنقاض رومة . إن فى عبقرية النبى العربى ، وفى خلال أمته ، وفى روح دينه ، أسباب انحلال الدولة الشرقية وسقوطها ، وإن أبصارنا لتتجه دهشة إلى ثورة من أعظم الثورات التى طبعت أمم الأرض بطابع خالد » .[1] ويرسمها فون شليجل فى قوله : « فإذا قارنت بانحطاط الرومان ، وفساد البلاط البيزنطى ، ونعومة الأشوريين ، وتهتك المدن الأسيوية الكبرى ؛ ذلك الخلق العربى البدوى الذى حفظ نقاوته فى ظل الحرية العريقة ؛ فإنه يبدو بلا ريب أقل فساداً ، وأمتن خلالا وأكرم عنصراً . ولاريب أن العرب كانوا يتمتعون فى عصور تاريخهم الأولى ، بعزم معنوى عظيم فى الإرادة ، وقوة فى الخلق ، بل إنك لتلمح هذه الخلال فيهم ، حتى فى عصور انحلالهم »[2] .

بينما كانت الجزيرة العربية تضطرم بهذه الحياة الجديدة القوية ، كانت الدولتان اللتان تسيطران على العالم القديم ، وتشرفان بحدودهما وأملاكهما على أطراف الجزيرة ، وهما الدولتان الفارسية والرومانية ، تجوزان مرحلة من الإنحلال الإجتماعى والسياسى . فى فارس كان حكم الطغيان يعصف بجميع طبقات المجتمع ،

---

(١) Gibbon : ibid ; Ch. L.

(٢) Fr. von Schlegel : ibid ; Kap. XII.

ويخنق جميع الحريات ؛ وكان هذا الحكم ذاته يضطرب فوق بركان من الدسائس والمؤامرات والمطامع ؛ وكانت حماسة الفرس الحربية التى دفعت جيوشهم من قبل إلى قاصية الأناضول ، قد خبت منذ بعيد ، وغاضت فى حياة الترف والدعة ، واضمحلت سلطة العرش القوية ، وعجزت عن ضبط الأطراف البعيدة ، وسادت الفوضى فى أنحاء الدولة ، وبث حكم العسف والهوى ، السخط إلى جميع طبقات المجتمع . وكانت الدولة الرومانية قد شاخت وتقاسمت القبائل البربرية نصفها الغربى . ولم يطل بالدولة الشرقية عصر الأحياء ، الذى افتتحه الإمبراطور يوستنيان بإصلاحاته وفتوحاته فى أوائل القرن السادس ، ولم تلبث أن سرت إليها عوامل الإنحلال والتفكك . وكانت النظم والقوانين الرومانية أقوى عامل فى هذا الإنحلال . ذلك أنها كانت تمعن فى التفريق بين الطبقات والأفراد ، وتؤثر الرومانيين بجميع الحقوق والمناصب والامتيازات ، وتحرم منها غير الرومانيين من رعايا الدولة . وكان من أثر ذلك أن قسم المجتمع الرومانى إلى طبقتين : السادة الحاكمون وهم الرومان (الروم)[1] والرعايا المحكومون ؛ وهؤلاء وهم أكثرية السكان ، يحرمون من جميع الحقوق والامتيازات ويسامون الخسف ، ولاسيما فى الولايات النائية ، البعيدة عن رقابة السلطة المركزية ؛ ويرهقون بالضرائب والمغارم الفادحة ؛ فكانوا لذلك يمقتون النير الرومانى ؛ ويتوقون إلى الخلاص منه ، وكانت الجيوش الرومانية أيضاً فى العصر الذى نتحدث عنه قد فقدت صبغتها القومية ؛ وانتظم فيها المرتزقة وأبناء البلاد المفتوحة ، الذين اضطرت الدولة أن تلجأ إليهم فى حمايتها وتأييد سلطانها فى شاسع أقطارها ؛ فكان لهذا المزيج بين العناصر الرومانية الخالصة ، والعناصر الأجنبية ، أثره فى انحلال عصبية الجيش وهى قوام الدولة ، حيث غاضت منه الروح القومية ، التى جعلت منه فيما سلف رعب العالم القديم ، ودفعته إلى آكام إيقوسيا وسواحل البلطيق .

---

(١) تطلق الرواية الإسلامية كلمة « الروم » على رعايا الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية . فنراها فى حوادث فتح الشام ومصر وآسيا الصغرى وحصار قسطنطينية مستعملة بهذا المعنى . وأحياناً تستعمل بطريق أعم فتطلق على جميع سكان الأمم الواقعة شمالى البحر الأبيض . وقد تطلق فى الروايات الإسلامية الأولى على جميع الأمم النصرانية (ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧) . على أن الاستعمال الأول هو الأغلب والأصح .

على أن ظفر العرب الحربى يرجع من بعض الوجوه إلى أسباب عرضية ، لا علاقة لها بما كانوا يتمتعون به من الخواص والمزايا الحربية . والواقع أن جيوش الصحراء الناشئة ، لم تكن لتضارع الجيوش الرومانية والفارسية المنظمة فى الكفاية ، أو تناهضها فى الأهبة ؛ على أن قسماً كبيراً من الجيوش العربية تلقى تجاربه الحربية فى الحروب الفارسية ، وكانت الحماسة الدينية ، تقوم لدى الفتية الأحداث مقام النظام والكفاية ، بل كانت هذه الحماسة تبز شجاعة الجيوش الرومانية وتطغى عليها. وكانت الطاعة العمياء لأوامر الرؤساء والقادة ، خاصة واضحة فى الصفوف العربية ، وكانت تعوضها عما يعتورها من نقص فى الأهبة والخبرة . كذا كانت المفاجأة والسرعة من خواص الفتوحات العربية الأولى ومن عوامل نجاحها . ذلك لأن الحماسة مهما بلغت من الاضطرام ، لاتثبت فى حرب طويلة الأمد ، ولأن النظام والكفاية ينتهيان غالباً بالفوز ، متى زال أثر المفاجأة والصدمة الأولى . على أن العرب استطاعوا فى معظم فتوحاتهم ، أن يفوزوا سريعاً باجتناء الثمرة المنشودة ، وتثبيت أقدامهم فى الأرض المفتوحة ، بين شعوب تمزقها الخلافات الدينية ، ويضنيها الإرهاق والعسف ، وتحفزها البغضاء والسخط . فكانت الجيوش الرومانية تخسر فى معظم هذه المعارك ما كانت تتفوق به على العرب من مزايا النظام والدربة ، وما كانت تستطيع أن تستمده من عطف الشعوب المحكومة ، التى ضنت منذ بعيد بعطفها ومؤازرتها ؛ على حكومة تعانى من جورها وبطشها أمر ضروب الظلم والإرهاق .

وقد تلقت الدولة الرومانية وثبات العرب ، فى وقت أنضبت فيه الحروب الفارسية مواردها ، وأضنت قواها ، وحطمت نفوذ الحكومة المركزية ، وعاونت جماعة من الزعماء وحكام الولايات ، على تحدى السلطة المركزية ، والفوز بنصيب وافر من الاستقلال . وكانت العاطفة القومية قد غاضت منذ بعيد فى نفوس الزعماء والسادة ، فكانت المطامع والمصالح الشخصية وحدها ، تحركهم وتوجه سياستهم وأعمالهم ؛ وكانت غايتهم القصوى أن يدعموا استقلالهم المحلى بكل الوسائل . هذا إلى أن رعايا الولايات أنفسهم ، كانوا يبغضون نير الدولة لأنها كانت لضعف سلطتها ، تسلمهم إلى حكام وموظفين يسومونهم الخسف ، ويثقلون كاهلهم

بمختلف الضرائب والمغارم . وكانت المطاردة الدينية من جهة أخرى ، تزيد في هذا البغض وتذكيه . ذلك لأن السياسة الرومانية كانت منذ القرن الرابع تحملها نزعة قوية من التعصب ، وكانت تذهب في الاضطهاد الديني إلى حدود مروعة . وكان أحبار مصر والشام ، وأكابر النصارى الذين لا يعتنقون مذهب الدولة الرسمي ، يمقتون هذه السياسة ويقاومونها ، ويؤازرهم في ذلك فريق كبير من الشعب . فلما ظهر الإسلام ، واندفع سيل الفتح العربي إلى أراضي الدولة الرومانية ألفي مهاداً صالحة للظفر ، واستطاع البطارقة والزعماء ، واستطاعت الشعوب المحكومة ، أن تقدر اعتدال أولئك الغزاة الجدد ، وقناعتهم في فرض سلطانهم وأحكام دينهم .

والحقيقة أن العرب قدموا في فتوحهم الأولى ، أمثلة سامية من الاعتدال وضبط النفس ، واجتناب الكبائر والأساليب الوحشية ، التي كانت تسود صحف الحرب في تلك العصور . فقارن مثلا وصية أبي بكر إلى الجيش الذاهب لقتال المرتدين : « لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المرأة ، ولا تغرقوا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة . ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل . . الخ »[1] . وحديث عمر عن العمال : « وإني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلي ، فوالذي نفسي بيده لأقصينه »[2] ، ثم قارن مقدم عمر إلى بيت المقدس ليتسلمها بنفسه من أهلها نزولا على رغبتهم ، في غير ما جلبة ولا موكب ، وكيف أنه نهر قادته حينما استقبلوه في ركب فخم ، وكتب عهده وهو الظافر لأهل المدينة « بأنهم آمنون على دمائهم ، وأولادهم ونسائهم ، وجميع كنائسهم لا تسكن ولا تهدم » ، وكيف أنه أبى أن يصلي داخل كنيسة القيامة (قبر المسيح)[3] .

---

(١) ابن خلدون ج ٢ (القسم الثاني) ص ٦٥ .

(٢) راجع ابن الجوزي : سيرة عمر بن الخطاب (مصر) ص ٨٢ .

(٣) هذا هو الإسم الذي تطلقه الرواية العربية على كنيسة « القبر المقدس » ويسميها النصارى « كنيسة القيامة » لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته بها . والسبب في كون الرواية العربية تسميها بهذا الإسم يرجع إلى أسباب تخطيطية وتاريخية . ذلك أنه وفقاً لما ورد في إنجيل يوحنا ، ووفقاً للروايات القديمة المتواترة ، قد تم « صلب » السيد المسيح في بقعة تقع خارج بيت المقدس على مقربة من سور ـ

خشية أن يحتج المسلمون فيما بعد بصلاته لأخذها[1]. قارن ذلك وغيره مما تراه مسطوراً فى سير الفتوحات العربية الأولى ، بما كانت الجيوش الرومانية والفارسية ، تمعن فيه من صنوف السفك والتخريب والنهب ، فى غمار الحروب التى كانت تضطرم بينهما قبيل وثبة العرب ، وما كان يحف مقدم القياصرة وعمالهم إلى الأقاليم من ضروب الفخامة والبذخ ، والتسامى عن مخاطبة الشعب أو الإصغاء لظلاماته ؛ ثم قارن صرامة القواد العرب فى توقيع الأحكام ورفع الظلامات ، وحماية أهل البلاد المفتوحة من عسف الجند الظافرين ، بما كان ينزله عمال الإمبراطور وضباطه بهم من صنوف المظالم والمغارم دون وازع ولا عقوبة . هذه الفروق بين العدالة والجور ، والاعتدال والتطرف ، والعفة والشراهة ، والتسامح والإرهاق ، كانت من أقوى العوامل التى ذللت للعرب سبل الظفر والفتح ، وعاونتهم على اغتنام مسالمة الشعوب المفتوحة وتأييدها ، وبعثت إلى هذه الشعوب نوعاً من الطمأنينة على مصايرها فى ظل سادتها الجدد ، وخففت لديها من وقع هذا التحول فى السيادة ، فلم يحط مقدم العرب بما يحيط مقدم العدو المغير عادة ، من ضروب التوجس والجزع والارتياع .

هذه السياسة الحكيمة التى رسمها المسلمون الأوائل لم تكن عامة ، ولم تكن طويلة الأمد . بيد أنها لبثت حيناً فى عصر انحلال وتطور ، تفيد من عوامل

— المدينة ، تسمى بالعبرية « جلجوتا » ، ويسميها اللاتين « كالفاريا » . وكانت هذه البقعة ، يقصدها أهل المدينة لإلقاء القمامة ، ويصلب بها اللصوص والمفسدون . وكان الوثنيون قد أقاموا فوق هذا الموقع معبداً لبث عصوراً حتى تهدم . فلما اعتزم الإمبراطور قسطنطين أن يشيد للمسيح قبراً يليق بمكانته ، بحث مهندسوه ، وفقاً للنصوص المقدسة ، والروايات المتواترة ، عن موقع « جلجوتا » من خطط المدينة القديمة وأسوارها ، حتى تم العثور على مكان القبر ، فبدأ بأن أنشأ فوقه بناء تزينه الأعمدة (سنة ٣٣٦ م) ، ثم أنشئت إلى جانبه كنيسة لخمة ، ثم أدخل موقع القبر بها فيما بعد ، وهو محفور فى صخرة ، وعليها نصب من الرخام ، وغير بناء هذه الكنيسة مراراً خلال مختلف العصور ، وهى ما تزال منذ أيام قسطنطين تقوم فى مكانها حتى اليوم ، ولا يشك ملايين الحجاج من النصارى الذين يقصدونها أنهم يشاهدون فى هذه الصخرة ، موقع المكان الذى صلب فيه السيد المسيح . راجع ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة « قمامة » وكذلك :

G. Finlay : Greece under the Romans, App. III. Site of the Holy Sepulchre

(١) راجع ابن خلدون ج ٢ (١) ص ٢٢٥ ، و (٢) ص ١٠٦ .

السخط واليأس التي تجيش بها مجتمعات مظلومة مهيضة ، وكان القليل من بوادرها المادية يشيد للعرب من العطف والتأييد قوى لا تغنمها الجيوش الجرارة ، وتمهد لهم سبلا من الوئام وحسن التفاهم لا يحققها عنف ولابطش . ولنا من ذلك أمثلة لا حصر لها فى عصر الفتوحات الأولى ؛ فقد كان التسامح كما سنرى ، سياسة مقررة للخلافة ، وكان للنصرانى أو اليهودى ، ما للمسلم تقريباً من حرية الاعتقاد والشعائر ؛ وكانت الطوائف غير المسلمة تتمتع فى الغالب بالاحتكام إلى شرائعها وتقاليدها الخاصة ؛ وكانت الضرائب تفرض على وجه العموم بالمساواة ، وروح الاعتدال .

وأثر هذه السياسة واضح فى الظروف التى أحاطت بقيام السيادة الإسلامية فى البلاد المفتوحة . فقد كانت تقوم فى الغالب عقب الفتح على أسس قوية ، لا توهنها عوامل السخط ، التى تجيش بها صدور المغلوبين عادة نحو الفاتح المغير ، وتجعل سلطانه محفوفاً بالمخاطر ، يقوم على بركان مستتر من البغضاء وظمأ الانتقام ، ورغبة التحرر ، وينفجر لأقل بادرة ولأول فرصة . لذلك استطاع العرب رغم اشتغالهم بالفتح ، أن يعنوا فى الوقت نفسه بتنظيم الأمم والمجتمعات الجديدة ، وأن يوثقوا عرى الوئام والتفاهم مع الشعوب المغلوبة ؛ وأن يخضعوها لنظم الإسلام وروحه فى مراحل متفاوتة متعاقبة ، اتقاء لعواقب العنف والتسرع ، وما تؤذن به عادة من اضطرام الآثار والعوامل الرجعية ، وتقويضها لدعائم دولة قامت على أسس من العنف والإرهاق المستمر ، وتجاهلت كل العواطف والمشاعر والأمانى والحقوق .

تلك هى العوامل والظروف التى أذكت فورة الفتوح الإسلامية الأولى ؛ وذللت سبلها ، وجعلت من الشعوب المفتوحة شبه حلفاء للعرب ، يرون فى مقدمهم نوعاً من الخلاص وتحسين المصير . وفى مهاد هذه العوامل والظروف استطاع العرب أن يكتسحوا سواد العالم القديم شرقه وغربه ، وأن يقتحموا البحر من الغرب إلى قلب الأمم النصرانية ، فى أقل من قرن . على أن فورة الظفر ما لبثت أن خبت ، مذ نعم العرب فى ظل الدولة المنظمة بالسلام والرخاء والدعة ، وعندئذ استطاعت الدولة الرومانية ، واستطاعت النصرانية ، أن تستكملا أهبة

الدفاع والمقاومة ؛ وعندئذ لقى العرب هزيمتهم الحاسمة الأولى ، تحت أسوار قسطنطينية ، فأوصدت دونهم أبواب أوربا من جهة المشرق ؛ ثم لقوا هزيمتهم الثانية ، فى سهول تور (بلاط الشهداء) ، فكانت فصل الختام فى سير الفتح الإسلامى فى غرب أوربا ؛ وارتد الإسلام عندئذ إلى الجنوب حيث امتنع بالأندلس ؛ ومزقت الدولة الإسلامية الكبرى ، إلى دول عديدة خصيمة متنافسة ، واختتم إلى الأبد عصر قصير من الظفر الباهر .

الفصل الثانى

سياســـــة العرب الدينية

وغزو الإسلام السلمى للعالم القديم

إذا كان خروج العرب من القفر ، ومن غمر البداوة ، إلى حياة الظفر الباهر ، وإقدامهم فى قلة من العدد ونقص فى الموارد والأهبة ، على غزو دولتين من أعظم دول العالم القديم ، وأشدها منعة ، وأوفرها أهبة وموارد ، هما الدولتان الفارسية والرومانية ، وإقامتهم فى أقل من قرن دولة عظيمة شامخة فوق أنقاض ما هدموا من صروح العالم القديم وغنموا من أقطاره : إذا كان ذلك ظاهرة مدهشة من ظواهر التاريخ ، فإن ظفر الإسلام بالأديان القديمة ، واجتياحه للشعوب المفتوحة بسرعة خارقة ، ظاهرة من أغرب ظواهر التاريخ أيضاً . وإذا كان ظفر العرب يرجع من بعض الوجوه إلى ظروف وعوامل خارجة عن إرادتهم وتدبيرهم ، فكذلك يرجع ظفر الإسلام من بعض الوجوه إلى ظروف الشعوب المفتوحة ، وإلى أحوال المجتمعات الحديدة ، التى انضوت تحت لواء الإسلام ، وإلى خواصها النفسية والاجتماعية .

ليس فى صحف الدعوة الإسلامية شىء من تلك السير والمطاردات الدموية ، التى اقترنت بظهور معظم الأديان القديمة ، والتى نراها ماثلة بالأخص فى عصور النصرانية الأولى . وقد انتشرت الدعوة الإسلامية بوسائلها السلمية الخاصة ، وكان ظفرها أعظم ما سجل تاريخ الأديان والعقائد . يقول المؤرخ فون جوت شميت : « إن الإقبال العام على اعتناق دين جديد على أثر فتح أجنبى ، أمر لا يكاد يعرفه العصر القديم ، ولكن الإسلام يقف وحيداً فى هذا الفوز » . ويقول دوزى : « إن هذه الظاهرة تبدو لأول وهلة لغزاً غريباً ، ولاسيما متى علمنا أن الدين الجديد لم يفرض فرضاً على أحد »[1] . والواقع أن الدعوة الإسلامية قامت منذ البداية على مبدأ التسامح واحترام العقائد والضمائر ، خصوصاً إزاء

---

(1) Dozy : Essai sur l'Islamisme.

اليهود والنصارى أعنى أهل الكتب التى يقر الإسلام قدسيتها . وكانت النصرانية واليهودية فى الوقت الذى ظهر فيه النبي العربى ، ووثب الإسلام من الصحراء ، هما دين السواد فى كثير من البلاد التى فتحها العرب ، فكانت الجزية ، هى كل ما فرضه الدين الجديد على غير المسلمين ، للاحتفاظ بحرية عقائدهم وشعائرهم . وكان هذا الامتياز مقصوراً على اليهود والنصارى بادئ ذى بدء ، ولكنه لم يلبث أن امتد فى زمن النبي ذاته إلى أبناء أديان أخرى مثل قبائل البحرين وسوادهم من الزرادشتية . وفى عهد عثمان ثالث الخلفاء ، امتد هذا الامتياز إلى بربر إفريقية التى فتحت فى عهده ، وشُبه البربر باليهود والنصارى والزرادشتية فى التمتع بحرية الاعتقاد والشعائر نظير الجزية . والظاهر أن الوثنية كانت ما تزال تسود يومئذ قبائل البربر ؛ وكانت الوثنية بلا ريب دين البربر قبل الفتح الرومانى ، ولكن رومة فرضت النصرانية منذ الفتح على البربر ، فغلبت على سكان إفريقية منذ القرن الرابع . والظاهر أيضاً أن كثيراً من هذه القبائل كانت لعهد الفتح الإسلامى تدين باليهودية[١] . وعلى أى حال فقد شملت سياسة التسامح الدينى كل الشعوب المفتوحة ، وكانت منها مجتمعات كثيرة تدين بالشعائر الوثنية . يقول العلامة جولدسهر : « سار الإسلام ، لكى يصبح قوة عالمية ، على سياسة بارعة . ففى العصور الأولى لم يكن اعتناقه أمراً محتوماً ؛ فإن المؤمنين بمذاهب التوحيد ، أو الذين يستمدون شرائعهم من كتب منزلة كاليهود والنصارى والزرادشتية ، كان فى وسعهم متى دفعوا ضريبة الرأس (الجزية) ، أن يتمتعوا بحرية الشعائر وحماية الدولة الإسلامية ؛ ولم يكن واجب الإسلام أن ينفذ إلى أعماق أرواحهم ، وإنما كان يقصد إلى سيادتهم الخارجية . بل لقد ذهب الإسلام فى هذه السياسة إلى حدود بعيدة ؛ ففى الهند مثلا كانت الشعائر القديمة تقام فى الهياكل والمعابد ، فى ظل الحكم الإسلامى »[٢] . وينوه دوزى بأهمية هذا التسامح فى حديثه عن فتح الأندلس ويقول : « لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف إلى ذلك أن العرب

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧

(٢) Goldziher : Die Religion des Islams (die Religionen des Orients) S. 106

كانوا يتحلون بكثير من التسامح ، فلم يرهقوا أحداً فى شئون الدين . . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم ، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج،[1] . والخلاصة أن التسامح الدينى كان أصلا ثابتاً من أصول السياسة الإسلامية ، يرجع إلى عصر النبي ذاته ، وقد دفع فيما بعد إلى حدود ، لعلها جاوزت ماكان يراه النبي وخلفاؤه الأوائل .

هذا التسامح وإن كان نسبياً معلقاً على افتداء الحرية الدينية بالجزية ، إلا إنه كان ظاهرة جديدة فى عصور سودت صحفها سير الاضطهاد الدينى ، وفيها كانت تضطرم الخلافات والمعارك الدينية ، فلا تخمد إلا فى سيول من الدماء ؛ وكانت الدولة تملى دينها على الشعوب ، سيدة كانت أومسودة ، ولا تقنع بالإيمان والشعائر اللفظية ، بل تدفع العسف إلى أعمق ظروف الحياة الخاصة ، فضلا عن الحياة العامة . وقد عصفت هذه السياسة بمنعة الدولة الرومانية الشرقية أيما عصف ، وقوضت من هيكلها الإجتماعى أيما تقويض ؛ وكانت لها أيضاً آثارها المخربة الهدامة فى الدولة الفارسية . أما الدولة الإسلامية فقد عرفت منذ نشأتها قيمة التسامح ، واستطاعت أن تغزو به قلوب الشعوب والطوائف ، التى أضناها عسف المطاردة الدينية فى ظل العهد القديم ؛ وكانت فضلا عن الاضطهاد الدينى تنوء بأعباء الضرائب والمغارم الفادحة ، ونزعات السلب والمصادرة ، التى ترتكب غالباً باسم الدين .

تقدمت الدولة الإسلامية إذن إلى الشعوب المفتوحة بمزيتين أو نعمتين لم تعرفهما فى عهد الحكم السابق : الأولى نعمة التسامح والحرية الدينية ؛ والثانية نعمة الضرائب العادلة المعتدلة ، التى تفرض طبقاً لأصول وحدود معينة . وقد كان لهذا التسامح ، وهذه القناعة ، كما بينا ، أيما أثر فى تذليل سبل الفتح أمام العرب ، وفى اغتنامهم لعطف الشعوب المفتوحة ، بل فى اغتنام معاونتها الفعلية فى الوقوف إلى جانبهم فى وجه الدولة الرومانية فى كثير من المواطن .

أليس لنا أن نتساءل بعد ذلك : كيف ذاع الإسلام بسرعة خارقة بين الشعوب المفتوحة ؟ ولماذا آثرت هذه الشعوب التى منحت حرية الإعتقاد والضمائر أن تنزل عن أديانها وعقائدها لتعتنق دين الحكومة الجديدة ؟ وكيف

---

(١) Dozy : Hist. des Musulmans de l'Espagne (1932) II, p. 41-43

استطاعت السياسة الإسلامية فى كثير من التسامح والرفق، أن تخلق فى أقل من قرن أمماً إسلامية عظيمة فى فارس والشام ومصر وإفريقية واسبانيا؟ كانت هذه الظاهرة العجيبة نتيجة لعدة عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، أملت على حكومة الخلفاء سياستها نحو رعاياها الجدد؛ وكان للأطماع الشخصية، والحرص على المكانة الاجتماعية، فى خلقها نصيب أيضاً. بل سنرى أن حدوثها بتلك السرعة لم يكن دائماً متفقاً مع مصالح الخلافة المادية. ذلك أن تسامح الحكومة الإسلامية، كان قاصراً على حرية الضمائر والشعائر. ولم يكن يشمل فى حياة الفرد، كل مظاهرها الاجتماعية والمدنية. كانت الطوائف غير المسلمة، تعتبر دائماً فى نظر المجتمع الإسلامى، منحطة من الوجهة الاجتماعية، وكانت من أجل ذلك لاتلقى فى ميادين الحياة العامة، ما يلقاه المسلمون، من الرعاية والاحترام والعزة. وترجع هذه التفرقة إلى عصر الإسلام الأول؛ وكانت تفرقة رسمية تقررها الدولة وتقصد إليها. وكان عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء، أول من صاغ هذه السياسة نحو الذميين (غير المسلمين) فى تشريع وأوامر خاصة، كانت مصدر هذا النوع من التشريع فى الدول الإسلامية؛ وكانت تختلف باختلاف الظروف ليناً وشدة. وخلاصتها أنه لايسمح للذميين ببناء كنائس أو بيع جديدة، أو إعادة بناء ما تهدم منها؛ أو يرفعوا الصلبان فوق الكنائس، أو يظهروا كتبهم المقدسة فى الطرق أو الأماكن العامة، وألا يرفعوا أصواتهم بالترتيل فى الكنائس إذا كانت واقعة فى حى إسلامى، وألا يوقدوا الشموع؛ وأن يلزموا السكينة فى الجنائز إذا مرت بأحياء إسلامية؛ وألا يحاولوا تنصير مسلم، أو يحولوا دون إسلام نصرانى، وأن يحافظوا على مراسيم الخضوع والاحترام للمسلمين فى المواكب والمحافل العامة؛ كألا يجلسوا فى حضرة مسلم إلا إذا أذنوا، وألا يلبسوا أزياء المسلمين، بل يتخذوا أزياء وألواناً خاصة؛ كذا كان يحظر عليهم أن يتسموا بالأسماء العربية، أو ينقشوا الأحرف العربية على أختامهم، أو يستعملوا السروج أو يحملوا السلاح أو يسترقوا مسلماً. ومما كتبه عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص فاتح مصر وأول حكامها من المسلمين بشأن الذميين: «أن تختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجزوا نواصيهم، ويركبوا على الأكف

عرضاً ، ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه الموسى ، ولا يضربوها على النساء ولا على الولدان ، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين فى لبوسهم »[1] .

كانت هذه التفرقة الرسمية تخلق من الطوائف غير المسلمة فى ظل الدولة الإسلامية مجتمعاً آخر ، ذا حياة ونفسية ونظم اجتماعية خاصة ، تنظر إليه الحكومة الإسلامية ، وينظر إليه المسلمون بعين غير تلك التى ينظرون بها إلى أبناء دينهم . وكانت هذه الأحكام الخاصة بغير المسلمين تطبق فى العصور الأولى فى رفق ولين ؛ وكان حكام النواحي والسلطات المحلية أكثر تسامحاً ورفقاً فى تطبيقها من السلطة المركزية ، وكثيراً ما عقد الذميون مع حكام النواحى معاهدات محاباة للتخلص من هذه الأغلال والفوارق الإجتماعية المهينة . ومع ذلك فقد كان مركز الذميين من النصارى واليهود ، فى الدول الإسلامية ، دائماً منحطاً من الوجهة الاجتماعية ؛ وهو يشبه من وجوه كثيرة مركز اليهود فى الأمم الأوربية فى العصور الوسطى ، بل فى عصرنا هذا فى بعض الأمم التى تضطرم أحياناً بنزعة الخصومة السامية[2] . وكانت وطأة هذه التفرقة تشتد بالذميين ، ولاسيما النصارى ، فى كثير من المآزق والأزمات السياسية ؛ وقد تنقلب أحياناً إلى مطاردة عنيفة تسام فيها الكنيسة ، والنصارى ألواناً من القمع والاضطهاد والذلة . وكان الذميون فوق ذلك موضع التوجس والريب من السلطات الحاكمة ؛ وقلما كانت الحكومات الإسلامية الأولى تجيزهم إلى وظائف الدولة ، اللهم إلا أعمال المحاسبة والجباية حيث كانت لهم فيها براعة خاصة ؛ أو ترفعهم إلى مراتب النفوذ والثقة ، أو تعهد إليهم بالمهام الخطيرة ، أو تأتمنهم على مصلحة ذات شأن . فليس غريباً إذاً أن يتوق الذميون فى تلك العصور ، إلى التحرر من أعباء هذا النظام ووصماته ؛ وأن يؤثر الأذكياء والطامعون منهم ، اغتنام كل ما ينعم به المسلم من المزايا الاجتماعية والاقتصادية باعتناق الإسلام ، وأن يشقوا لأنفسهم إلى الحياة سبلا طيبة باهرة بالاندماج فى المجتمع الإسلامى ، وأن يتمتعوا خلال ذلك كله بنعمة الحرية الفكرية ، التى كانت من أسمى ظواهر الحياة الإسلامية . ولم يكن دخول الذمى فى الإسلام

---

(١) راجع طرفا من هذه الوثائق فى أخبار مصر وفتوحها لابن عبد الحكم ، ص ١٥١ ، وخطط المقريزى (بولاق) ج ١ ص ٧٦ ، وفى ج ٢ ص ٤٩٤ ، وص ٤٩٨ .

(٢) مثل ألمانيا ورومانيا والمجر ، قبل الحرب العالمية الثانية .

يفضى دائماً لأول وهلة ، إلى تمتعه بكل ما يتمتع به المسلم من الحقوق والمزايا . بيد أن اعتناق الإسلام كان أول خطوة فى تحرره من الأعباء المرهقة والتقاليد المزرية والعرف المؤذى . وإذا كان الجيل الأول من الذميين الداخلين فى الإسلام يلقى صعاباً فى سبيل الإندماج التام فى المجتمع الإسلامى ، أو الفوز العاجل بكل ما ينعم به المسلم المؤثل من صنوف التجلة والإيثار ، أو اغتنام عطف السلطات الحاكمة وثقتها ، فقد كان الزمن وحده كفيلا بمحو هذه التقاليد وإزالة هذه التفرقة ، وإدماج أبناء الوطن الواحد فى مجتمع واحد . وكان تعاقب الأجيال والذرية وحده سبيلا إلى النسيان ، ورفع أبناء الذين أسلموا إلى صف المسلمين القدماء ، هذا إلى أن عقبهم كانوا ينتحلون الأنساب العربية ، فيرجعون ألقابهم وأنسابهم إلى أصل من الأصول العربية المعروفة ، لكى يقضوا بذلك على آخر الآثار والذكريات التى قد تشوب مركزهم الاجتماعى ، بعد أن دخلوا فى حظيرة الإسلام ، وغدوا مسلمين خلص أوفياء .

وقد كان فوز الإسلام فى الشام ومصر ، أسرع وأيسر منه فى أى بلد آخر من البلاد المفتوحة . وكانت النصرانية قد سادت مصر والشام لعهد الفتح الإسلامى ، ولكنها فرضت عليهما بالنار والسيف ؛ وسرى الخلاف غير بعيد إلى أصولها ومبادئها ، فاضطربت أسسها ووهنت عقائدها ، وتعددت الطوائف والمذاهب ، واضطرمت بينها الخصومات ، واشتد العسف والإرهاق ، فسادت الفوضى السياسية والاجتماعية ؛ ولم يكن فى أصول الإسلام ما يحفظ القلوب المؤمنة ، وكانت خصومته للعقيدة النصرانية رفيقة لينة . وكان فوز العرب فى اجتياح العالم القديم بسرعة مدهشة آية قوته ورجحان دعوته ، كما أن ما اقترنت به سياسة الفاتحين من ضروب العدالة والرفق والعفة والزهد ، كان حجة ناهضة على جور الحكومات النصرانية فى تلك العصور ، وعلى أن الكنيسة لم تكن رمزاً صحيحاً لمثل العدالة والإخاء . ألم تكن هذه كلها شواهد قاطعة عميقة الأثر على أن الدين الجديد أجدر بالاتباع ، وأنه وهو الظافر ، دين الحق ؟ كان طبيعياً أن تطبع هذه الظواهر روح التفكير فى هذا العصر ، وكان الإيمان بالمعجزات سلاحاً مسموماً ارتد إلى صدر الكنيسة ، فإنه لم تحدث معجزة ترد عادية الإسلام عن النصرانية ،

ولم تنقض الصواعق على تلك الجيوش المظفرة ، التى اجتاحت سواد العالم القديم فى زهاء جيل فقط .

وكذا كان ظفر الإسلام سريعاً فى باقى الأمم المفتوحة . وفى ذلك يقول الفيلسوف فون شليجل : « نستطيع أن نبحث دين العرب الجديد وفتوحهم على ضوء هجرة جديدة للأمم ، فإن قسما كبيراً من الأمة العربية هاجر إلى اسبانيا . وأحدثت هذه الهجرة العربية فى آسيا وإفريقية انقلاباً خطيراً فى السلطان واللغة والخلال والأنظمة السياسية ، أعظم وأشد من ذلك الذى أحدثته غزوات القبائل الجرمانية فى أوربا »[١] .

ولكن هل كان إنتشار الإسلام بتلك السرعة الخارقة بين أبناء الشعوب المفتوحة متفقاً دائماً مع سياسة الخلافة ومثلها ولاسيما بعد أن استحالت إلى ملك سياسى ؟ الظاهر أنه لم يكن كذلك فى كثير من الأحيان ، بل لقد كان بالعكس يضر بمصالحها المادية أكبر الضرر ، حتى أنها منذ العصر الأول — عصر الدعوة والفتوة الدينية — لم تكن تشجع هذه السياسة . ولذلك تعليل ظاهر . فقد كانت موارد الحكومة الإسلامية من الجزية والمغارم المختلفة التى تفرض على الذميين ، عظيمة فادحة ؛ وكانت هذه الموارد تتأثر كلما حدثت وثبة عامة من شعب مفتوح لاعتناق الإسلام. ولم يكن هذا الأثر عظيما بادئ ذى بدء ، لأن أغلبية الشعوب المفتوحة لبثت حيناً تؤثر التمتع بمنحة الجزية — أجل منحة الجزية أو نعمتها بالقياس إلى ما كانوا يلقون من الحكومات الذاهبة — للاحتفاظ بدين الآباء والأجداد ، وإقامة الشعائر القومية . هذا إلى أن الثروات الطائلة التى كانت تفيض على خزائن الحكومة الإسلامية من تركات الحكومات المغلوبة وأسلابها ، وأموال الأمراء والحكام والقادة والزعماء المغلوبين ، وفدى الأسرى ، كانت أكثر من أن تعوض على الخلافة فى عصرها الأول ، ماكانت تخسره من آن لآخر بإقبال جمهور الذميين على اعتناق الإسلام ، تحرراً من الجزية وما إليها من الفروض والأعباء .

ونستطيع أن نكون فكرة عن موارد الخلافة من الجزية ومختلف المغارم والثروات التى كانت تحصل من البلاد المفتوحة ، بما تذكره الرواية العربية فى فتح

---

(١) Fr. von Schlegel: ibid; Kap. XII.

مصر ، من أنه لما صالح عمرو بن العاص القبط على أن يدفع كل رجل منهم جزية قدرها ديناران ، بلغ من وجبت عليهم الجزية السنوية ستة آلاف ألف نفس أو ثمانية آلاف ألف على رواية أخرى ، ليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا صبي . فكان دخل الخلافة من ذلك اثنى عشر مليون أو ستة عشر مليون دينار فى العام[1] . وثمة رقم آخر هو أن قرى مصر أحصيت من أجل الجزية ، فوجدت أكثر من عشرة آلاف قرية لم يحص فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة رجل وجبت عليهم الجزية[2] ، وما تذكره الرواية العربية عما حصله العرب عند فتح الأندلس من الثروات والذخائر والمغانم الهائلة ، وما تذكره غير ذلك فى سير معظم الفتوحات العربية .

وقد كانت الجزية نوعين ؛ جزية على رؤوس الرجال ؛ وجزية تفرض جملة على أهل القرية ، وتحصل منها جملة باعتبارها وحدة مستقلة ، فمن هلك دون وارث عادت أرضه إلى القرية فى جملة ما عليها من الجزية . وقد يكون هذا النوع أحياناً كالغرامة الحربية تفرض على مدينة ثائرة أومفتوحة أوتقتضى كأثر لمعاهدة الصلح ؛ غير أن تطبيقه بهذه الصورة لم يكن عاماً ، ولا يقع إلا فى ظروف خاصة[3] .

أما جزية الرجال فكانت ضريبة دائمة على رأس البالغين ، بيد أنها لم تكن محددة ولا مضبوطة بنسب وقيود معينة ، بل كانت تجبى طبقاً لظروف الأشخاص والزمان من يسر وضيق ؛ فيروى لنا ابن عبد الحكم مثلا ، أن عمر بن الخطاب كان يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ماسمى على نفسه ، لا يضع من ذلك شيئاً ولا يزيد عليه ، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئاً يؤديه نظر عمر فى أمره ، فإذا احتاجوا خفف عنهم ، وان استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم ؛ ثم يروى أن صاحب إخنا قدم على عمرو بن العاص فقال له أخبرنا ما على أحدنا من الجزية

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ص ٧٠ ، ٨٧ ، وهى رواية ظاهرة المبالغة إذ يجب أن يكون سكان مصر وقت الفتح على هذه النسبة ثلاثين أو أربعين مليون . على أن هذا الإحصاء يقدم لنا على أى حال فكرة عن فداحة الدخل الذى كانت تقتضيه الخلافة من الجزية السنوية .

(٢) فتوح مصر ، ص ١٥٦ ، ويبدو أيضاً أن هذا الرقم مبالغ فيه ، لأن قرى مصر فى عصرنا ، وهو الذى بلغ فيه العمران مبلغاً عظيماً ، لا تعدو أربعة آلاف قرية .

(٣) هنالك آراء أخرى فى تعريف الجزية وتحديدها . وقد عقد ابن الحكم فى ذلك فصلا أورد فيه عدة تفاصيل وروايات هامة (أخبار مصر وفتوحها ص ١٥١ — ١٥٦) .

فيصبر لها ، فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة : لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك ، إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم ، وإن خفف عنا خففنا عنكم[١] . ولم تكن الجزية تقف عند القدر المفروض من المال ، بل كانت تتعدى ذلك إلى جباية مقادير أخرى من الحنطة والزيت والعسل والثياب ؛ ويلحق بذلك إضافة الذميين للمسلمين أياماً معينة[٢] .

على أن توزيع هذه المغارم وطرق جبايتها ، كانت تقرن فى معظم الأحوال بالاعتدال والرفق ؛ فقد رأيت أنها لم تكن تفرض على الصبية والنساء والشيوخ ، وكان يراعى فى التقدير والتحصيل أن يخرج الذميون قبل كل شىء من غلة أرضهم ما يكفى لتعهد كنائسهم ومرافقهم ومؤنهم[٣] ؛ وكان الرفق يتعدى إلى الإمهال فى أداء الخراج ، فقد حدث مثلا أن عمراً تأخر فى تقديم خراج مصر فى الميعاد المحدد ، فكتب إليه عُمر يعزّره ويؤنبه ويقول : « أما بعد ، فقد عجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلى ببنيات الطرق . وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين ، ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج ؛ وحسن سياستك . فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج ، فإنما هو فىء المسلمين » . فكتب إليه عمرو : « أما بعد ، فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ، ويزعم أنى أحيد عن الحق وأنكب عن الطريق ، وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم . ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم ، فنظرت للمسلمين . فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى عنه والسلام »[٤] .

فلما اتسعت الفتوحات الإسلامية ، زادت نفقات الدولة والجيش زيادة كبيرة . واشتدت حاجة الخلافة إلى المال ، فلم يك مما يتفق مع حاجتها ومصالحها المادية

---

(١) فتوح مصر ، ص ١٥٣ و ١٥٤

(٢) فتوح مصر ، ص ١٥٢

(٣) فتوح مصر ، ص ١٥٣

(٤) راجع ابن عبد الحكم ، ص ١٦٠ ، و ١٦١ ، وقد نقل المؤرخون المتأخرون كثيراً من أمثال هذه الوثائق عن عصر الفتح ، ولكن ابن عبد الحكم هو أول مصادرهم وأوثقها .

أن تشجع سياسة تؤدى إلى نضوب خزائنها واضطراب دخلها ، ولو أدت هذه السياسة إلى ذيوع دين الدولة ، وزادت فى عدد المسلمين . وفى الوقت الذى غدت فيه الطوائف غير المسلمة ، أشد شعوراً بانحطاطها الإجتماعى ، وأخذت تجنح إلى التحرر من أغلال التشريع والأحكام الخاصة ، باعتناق دين الدولة ، أخذت الخلافة تنظر إلى مواردها بعين الجزع . ولما بلغ تناقص الجزية أقصاه ، رأت الخلافة أن تفرضها حتى على من اعتنق الإسلام من الذميين . وكان أول من فرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة ، الحجاج بن يوسف الثقفى عامل العراق . ثم أمر عبد الملك بن مروان حاكم مصر بجبايتها ممن أسلم من المصريين ، فاعترض على ذلك بعض رجال ديوانه وخاطبه أحدهم بقوله : « أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر ، فوالله إن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف نضعها على من أسلم منهم » فتركهم عند ذلك . وكان عمر بن عبد العزيز أشد خلفاء بنى أمية ورعاً وحماسة لفكرة ذيوع الإسلام ، فرفع الجزية عمن أسلم من الذميين فى كافة أنحاء الدولة ، وسوى بينهم وبين المسلمين الخلص ؛ ومما يؤثر عنه فى ذلك أنه كتب إلى حيان بن شريح عامل مصر « أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى قال : فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » . فكتب إليه شريح يراجعه فى ذلك ويقول : « إن الإسلام قد أضر بالجزية » وإن خزائن الحكومة قد نضبت مواردها ؛ فكتب إليه عمر بن عبد العزيز يؤنبه ويعزره ويقول له : « فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً . ولعمرى لَعُمَرُ أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه »(١) . وهكذا لبثت الخلافة حيناً تتردد بين السياستين ، حتى تم الاندماج بفعل الزمن ، وتحولت معظم الشعوب المحكومة إلى كتل مسلمة ، ليس فيها من غير المسلمين سوى أقليات ضئيلة ؛ فزالت فوارق الدين بحكم الظروف ، وأضحى التميز عسيراً بل مستحيلا بين المسلم العريق والمسلم الحادث ، وتضاءلت أهمية

---

(١) راجع هذه الوثائق فى ابن عبد الحكم ، ص ١٥٩ ، ١٥٦ ، والمقريزى فى الخطط ج ١ ص ٧٨

الجزية كسبيل للإيراد ، واستعاضت الخلافة عما كسبته من عصبية وقوة معنوية ، عما خسرته من المصالح المادية ؛

وهكذا أسفرت هذه السياسة السلمية المستنيرة التى سنتها حكومة الخلفاء نحو رعاياها الجدد، عن اغتنام تأييدهم أولا عن طريق التسامح الدينى ، ثم موازرتهم المادية عن طريق الجزية ، ثم ضمهم أخيراً إلى حظيرة الإسلام ، واغتنام موازرتهم الروحية والمادية معاً . وهكذا يبدو أن ذيوع الإسلام بسرعة شاملة لم يكن دائماً متفقاً مع سياسة الخلافة ، وأنه كان فى وقت ما ضاراً بمصالحها المادية . إن فى ذلك ما يفسر حقيقة تاريخية مدهشة ينكرها ويشوهها معظم كتاب الغرب الذين يتحدثون عن الإسلام ، ووسائل نشره وعوامل رسوخه ، وفيه ما يوضح لنا كيف استطاعت حكومة الخلفاء أن تكون فى وقت واحد حكومة مطلقة (أوتوقراطية) تمعن فى الاستئثار بالسلطة ، وأداة لينة رفيقة تغلب النزعات الديمقراطية والحرة ؛

• • •

هذا كله فيما يتعلق بانتشار الإسلام فى عصوره الأولى . فلنر الآن كيف انتشر الإسلام فى العصور الوسطى ، والعصر الحديث ، فى سائر أنحاء العالم القديم ، وفى أقاصى أركانه .

لقد امتدت الإمبراطورية الإسلامية الكبرى ، منذ أواخر القرن الأول للهجرة ، من السند شرقاً حتى المغرب وشواطئ المحيط الأطلنطى غرباً ؛ ومن جبال البرنيه وأواسط آسيا شمالا ، حتى الصحراء الإفريقية الكبرى ؛ وبحر العرب جنوباً ؛ ولبثت زهاء أربعة قرون تحتفظ بهذه الحدود المترامية ، وذلك بالرغم مما كان يمزقها فى الداخل أحياناً من تطورات وانقلابات مختلفة .

ولم يكن الفتح هو الوسيلة الوحيدة لانتشار الإسلام . ذلك أن الإسلام قد انتشر دون غزو ودون سيف ، فى كثير من الأنحاء القاصية التى لم يصل إليها الفاتحون المسلمون قط . ونظرة عابرة إلى خريطة العالم الإسلامى ، تؤيد هذه الحقيقة . ففى الصين ، وفى منغوليا ، ومنشوريا ، والهند الصينية ، وفى جزائر الهند الشرقية (إندونيسيا) وفى بلاد الملايو ، وفى جزائر الفلبين ، وفى بورنيو : فى سائر هذه البقاع النائية من الشرق الأقصى ، تقوم مجتمعات إسلامية قوية يبلغ تعدادها أكثر من مائة مليون من الأنفس ؛

وفى القسم الغربى من العالم القديم فى شرق إفريقية ، وفى مدغشقر ، وزنجبار وموزنبيق ، ودار السلام ، وفى روديسيا ، وفى بلاد النيجر ، وسيراليون ، وساحل الذهب ، وليبريا ، والكونغو ، وفى قلب الصحراء الكبرى ، وفى غيرها من بقاع القارة الإفريقية الوسطى والجنوبية ، تقوم كذلك مجتمعات إسلامية كبيرة ، يبلغ مجموعها نحو خمسين مليوناً من الأنفس .

ومن الواضح أن ذيوع الإسلام فى هذه المناطق النائية لم يكن نتيجة فتح ما . ذلك أن الفاتحين المسلمين لم يصلوا قط إلى هذه المناطق فى أى عصر من العصور ، وإنما توجد وراء ذيوع الإسلام فى تلك المناطق النائية ، قصة من أعجب قصص الغزو السلمى فى التاريخ .

افتتح المسلمون آسيا الوسطى أوبلاد ما وراء النهر ، وهى التى تعرف اليوم بتركستان الروسية ، فى عصر مبكر فى القرن الثامن الميلادى ، ووصلت فتوحاتهم إلى مدينة كشغر فى غربى الصين . وأخذ التجار والمستعمرون المسلمون من ذلك الحين ، يقصدون إلى مختلف أنحاء الصين الشمالية والشرقية ، حاملين معهم تعاليم الإسلام ، يبثونها أينما استقروا ، ووصل الإسلام بمضى الزمن إلى منغوليا ومنشوريا على أيدى هؤلاء الغزاة السلميين . وكذا انتشر الإسلام فى أواسط الصين وجنوبها ، حتى أن الرحالة الشهير ابن بطوطة الطنجى ، حينما نفذ إلى جنوب الصين فى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى ، رأى كثيراً من المسلمين فى مختلف المدن التى زارها . ويوجد اليوم فى القارة الصينية زهاء خمسين مليون مسلم ، منتشرين فى أنحائها الجنوبية والوسطى والشمالية حتى منشوريا .

وانتشر الإسلام فى الهند عقب افتتاح المسلمين للسند فى أوائل القرن الثامن الميلادى ، ثم امتدت الفتوحات الإسلامية بعد ذلك إلى الجنوب والشرق ، وذاع فى قلب القارة الهندية ، وكان كثير من هذه الأنحاء الهندية فى العصور الوسطى ، تحت حكم حكومات مسلمة . واتجه التجار والمستعمرون المسلمون من الهند نحو الشرق ، إلى جزائر الهند الشرقية . وكانت سومطرة منذ القرن السابع الميلادى مملكة هندية حتى القرن الثالث عشر ، حينما دخلها المستعمرون المسلمون ، وبثوا فيها دعوة الإسلام . ثم دخلوا شبه جزيرة الملايو ، وعبروا منها إلى جاوة ، وكانت تدين يومئذ بالدين البرهمى ، فنشروا فيها الإسلام . ولما زار ابن بطوطة

هذه الجزائر فى أواسط القرن الرابع عشر ، ألفى بها عدة إمارات مسلمة . وقصد المستعمرون المسلمون إلى جزائر الهند الشرقية النائية ، واستقروا فى جزيرة بورنيو وجزائر الفلبين ، وكان الإسلام ينتشر أينما استقروا . وقامت بتلك الجزائر مجتمعات وحكومات إسلامية ، قبل أن يسيطر عليها الإستعمار الهولندى فى القرن السادس عشر. ويوجد اليوم فى جزائر الهند الشرقية نحو ستين مليون مسلم .

وتوجد وراء انتشار الإسلام فى قلب إفريقية ، وفى غربها قصة مماثلة . فنحن نعرف أن العرب افتتحوا شمال إفريقية فى أواخر القرن السابع الميلادى ، بعد مقاومة عنيفة من جانب القبائل البربرية . وانتهى الأمر بمعظم هذه القبائل إلى اعتناق الإسلام . وفى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كانت طوائف من الأعراب من بنى هلال وبنى سليم وبنى رياح وغيرهم ، ممن قدموا إلى مصر ، أيام المعز لدين الله الفاطمى فى ركب القرامطة . قد نزحت من مصر إلى افريقية ، وأخذت تتجول فى أنحائها . وتغير على البوادى الوسطى والجنوبية . ووصلت هذه القبائل العربية فى غاراتها حتى قلب الصحراء الكبرى ، وإلى حوض نهر النيجر ، ونشرت تعاليم الإسلام بين القبائل السودانية النائية ، وفى مملكة مالى السوداء ، الواقعة فى شمال نهر النيجر . وهى التى يذكرها ابن بطوطة فى رحلاته ، ويصف أحوالها وأحوال المناطق المتاخمة لها . وذلك حينما زارها فى سنة ١٣٥٣ م ، وكان الإسلام قد غلب على معظم أهلها .

ثم وصلت تعاليم الإسلام بعد ذلك إلى السنغال وغيرها من المناطق المجاورة على يد الرواد والتجار المغاربة ، وكانت قد انتشرت شمالا فى منطقة موريتانيا منذ القرن الحادى عشر ، على يد القبائل المرابطية المتحمسة من لمتونة وغيرها ، ونفذ الرواد المسلمون بعد ذلك إلى أشانتى وغرب افريقية ، بحثاً عن الذهب ، وهناك انتشر الإسلام على يدهم أينما حلوا .

وأخذ الإسلام ينتشر فى شرقى إفريقية منذ القرن الثامن الميلادى على يد بعض المستعمرين العرب ، والتجار المسلمين الذين قدموا إلى تلك الأنحاء من ثغور الخليج العربى ، وإلى ثغور إفريقية الشرقية وجزائرها . ونظموا العلائق والمعاملات التجارية مع جزيرة مدغشقر وسواحل الصومال ، ومومبسة ، وجزيرة زنجبار ، وموزنبيق ، ونمت بعثاتهم التجارية تباعاً ، ونفذت غرباً إلى روديسيا ، التى كانت فى بعض العصور ، مملكة سوداء قوية مستقلة .

وكان لانتشار الإسلام بين القبائل السوداء فى مختلف أنحاء القارة الإفريقية آثار طيبة ، فقد حررهم من كثير من الرسوم والخرافات الوثنية المثيرة ، ورفع مستوى حياتهم من الناحيتين المادية والأدبية .

هذا وقد لبث الإسلام قروناً يسيطر على معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية ، ويبث فيها أضواء حضارته الرفيعة على يد الأمة الأندلسية المجيدة . فلما شاء القدر أن تطوى صفحة الأندلس والإسلام من اسبانيا ، كان الإسلام ينفذ إلى أنحاء القارة الأوربية من مداخل أخرى . فنراه فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ينفذ إلى جنوبى أوربا وشرقيها على يد غزوات التتار لشرقى روسيا ، ودفع التتار بعد ذلك غزواتهم إلى بلاد القوقاز وشبه جزيرة القرم ، ووصلوا فى تقدمهم حتى مشارف بولونيا .

ولما افتتح الترك العثمانيون قسطنطينية ، ودفعوا غزواتهم إلى قلب البلقان وحوض الدانوب ، وبولونيا واليوكرين ، كانت الدعوة الإسلامية تنتشر فى تلك الأنحاء مع هذه الغزوات. بيد أن انتشارها كان محدوداً ، ولا يتناسب مع اتساع نطاق الفتوحات العثمانية فى أوربا ؛ بل ولا مع استقرار سلطان الترك العثمانيين فى تلك الأنحاء مدى قرون . والسبب فى ذلك يرجع قبل كل شىء إلى طابع العنف والتخريب ، الذى تميزت به الفتوحات العثمانية ، وكراهية الشعوب المفتوحة لأن تعتنق دين أولئك الغزاة البرابرة ، ويرجع أيضاً إلى أن الحكم العثمانى كانت تنقصه دائماً العناصر الإنشائية للحضارة . ومن ثم فإنا نجد اليوم فى بلاد البلقان نحو خمسة ملايين مسلم فقط ، من ثلاثين مليوناً ، مع العلم بأن بلاد البلقان لبثت تحت سيطرة الحكم العثمانى نحو أربعة قرون . وكذلك لانجد فى المجر وبولونيا ولتوانيا وفنلندة ، سوى طوائف مسلمة صغيرة لاتعدو بضعة آلاف .

ونلاحظ أخيراً ما تبديه العقيدة الإسلامية من حيوية وقوة معنوية مدهشة ، فى كونها تنتشر فى عصرنا فى عدة من البلاد الغربية العظمى ، ذات الحضارات المؤثلة ، مثل ألمانيا وانجلترا والنمسا والولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك دون أن تخدمها أية دعاية أو حركة تبشيرية منظمة . وذلك أن الإسلام يدعو لنفسه ويغزو هذه العقول المستنيرة التى تقبل على اعتناقه ، ببساطة مبادئه وديمقراطيته ، وتسامحه المؤثر .

مواقف حاسمة
في تاريخ الإسلام

- ١ -

الفصل الأول

حصار العرب لقسطنطينية

سنة ٣٢ و ٤٨ و ٩٩ هـ

— ٦٥٣ و ٦٦٨ و ٧١٧ م

وثب العرب وثبتهم الأولى بالدولة الرومانية ، فانتزعوا منها الشام ومصر وإفريقية ، ثم نفذوا إلى هضاب آسيا الصغرى ، فاجتاحوا الولايات الرومانية الجنوبية ، ولم يمض ربع قرن على بدء هذه الحياة الظافرة حتى اقترب العرب من أسوار قسطنطينية عاصمة الدولة الشرقية . ولم يقف تيار الفتح سوى فترة قصيرة شغل العرب خلالها بالفتنة والحروب الداخلية . فلما انقضت الفتنة ، عاد العرب إلى استئناف الغزو والفتح فى ظل الدولة الأموية الفتية ، فتوغلوا فى أقطار الدولة الشرقية حتى مياه البسفور . وتوغلوا فى إفريقية غرباً حتى شاطئ المحيط ، ثم جازوا إلى اسبانيا ، فاقتحموا غرب أوربا حتى قلب فرنسا وضفاف اللوار .

غير أن الإسلام وصل فى ظل الدولة الأموية أيضاً إلى ذروة مجده الحربى ؛ ثم خبا تيار ظفره ؛ وكانت ثمة كلمة فصل بينه وبين النصرانية فى المشرق والمغرب . فأما فى المشرق فقد ارتد أمام أسوار قسطنطينية التى رأى أن يجوز منها إلى أوربا بادئ ذى بدء . وأما فى المغرب فقد ارتد أدراجه فى سهول تور وبواتييه ، وقنع من غرب أوربا بإسبانيا . ولبث فيها قروناً يغالب النصرانية وتغالبه .

كان فتح قسطنطينية مشروع الخلافة الأول ، لاقتحام الغرب وسحق النصرانية فى مهادها . وكانت الدولة الشرقية بلا ريب حصن أوربا ومعقل النصرانية فى المشرق . وقد أثخن العرب لأول وثبتهم فى أراضى الدولة الشرقية ، وانتزعوا أهم أقطارها ، وتوغلوا فى آسيا الصغرى على مقربة من عاصمتها ، فكان فتح قسطنطينية غاية طبيعية لهذه الفتوح . على أن الرواية الإسلامية تسبغ على هذا المشروع صبغة دينية تستمد من أقوال تنسب إلى النبى ذاته ؛ وهنالك أكثر من

حديث يذكر فيه فتح العرب لقسطنطينية ، من ذلك الحديث الآتى : « لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق ؛ فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا قالت الروم ، خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون لا والله لا نخلى بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم فيهزم ثلث لايتوب الله عليهم أبداً ، ويقتل ثلث أفضل الشهداء عند الله ، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتحون قسطنطينية . . . الخ »[١]. ومهما كان مبلغ هذه الأحاديث ، من الصحة فإنها عنوان ما تسبغه الرواية الإسلامية على مشروع فتح قسطنطينية من لون دينى خاص .

— ١ —

وكانت أول محاولة قام بها العرب لفتح قسطنطينية فى أواخر سنة ٣٢ هـ (٦٥٣ م) فى خلافة عثمان ؛ فقصدها من البر جيش بقيادة معاوية بن أبى سفيان حاكم الشام يومئذ ، واخترق آسيا الصغرى حتى ضفاف البسفور ؛ ويقول لنا ثيوفانس ، مؤرخ الدولة البيزنطية ، إن أسطولا عربياً بقيادة بُسر بن أرطاه سار فى الوقت نفسه من طرابلس صوب قسطنطينية وهزم الأسطول الرومانى بقيادة الإمبراطور قسطانس الثانى تجاه جبل فينقية (فينكس) ، وهلك من الرومان زهاءعشرين ألف ؛ ولكن الأسطول الإسلامى لم يستطع بعد ما أصابه من الخسائر أن يسير إلى قسطنطينية فارتد أدراجه . ويضع ثيوفانس تاريخ هذه الحملة ، فى سبتمبر سنة ٦٥٣ م (صفر سنة ٣٣) متفقاً بذلك مع الرواية العربية تقريباً[٢].

وفى سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) كانت الحملة الثانية . وكانت الخلافة قد صارت يومئذ إلى معاوية بن أبى سفيان ، وقامت الدولة الأموية فى دمشق . وكان استئناف الغزو والفتح إحدى وسائل الزعيم الظافر لتحويل الأنظار عن ظفره ، واشتغال القادة والزعماء الذين يخشى بأسهم عن منافسته ومناوأته ، فكانت إعادة الكرة على قسطنطينية واستئناف غزو إفريقية[٣] . وكانت الحملة بقيادة عبد الرحمن بن خالد

---

(١) راجع هذا الحديث وأحاديث أخرى عن فتح قسطنطينية فى صحيح مسلم (مصر) ج ٨ ص ١٧٦ و١٧٧ .

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٥٠ و Finlay : Greece under the Romans. Ch. V.-3

(٣) كان استئناف غزو إفريقية سنة ٤٥ هـ

ابن الوليد ، فاخترق هضاب الأناضول حتى برجاموس (برجان)[1] على مقربة من قسطنطينية ، وقاد أمير البحر بسر بن أرطاه الأسطول حتى مياه المرمره ؛ ولكن الشتاء دخل قبل أن يتمكن المسلمون من تنفيذ مشروعهم ، فقضوا الشتاء فى الأناضول ، وقنعوا بالغارات المحلية ، ولم يتقدموا فى تلك المرة أيضاً لحصار قسطنطينية .

غير أنه لم تمض أعوام قلائل حتى كان معاوية قد أتم أهبته لافتتاح عاصمة الدولة الشرقية . وكان معاوية قد خبر بنفسه مفاوز آسيا الصغرى ومسالكها ، وعاث فيها بقواته أكثر من مرة ، ووقف على أحوال الدولة الشرقية ومبلغ ما انتهت إليه من الإنحلال والضعف . فحشد فى تلك المرة أعظم قواته ، وحشد أسطولا ضخماً فى ثغور مصر والشام ، وبعث طليعة قواته بقيادة فضالة بن عبيد الأنصارى ، فاخترق الأناضول (سنة ٤٨ هـ – ٦٦٨ م) وافتتح حصونها حتى خلقيدونه . وفى العام التالى (٤٩ هـ – ٦٦٩ م)[2] سار إلى قسطنطينية جيش ضخم بقيادة سفيان بن عوف ومعه يزيد بن معاوية وجماعة من أكابر الصحابة والأنصار ، منهم عبد الله بن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وأبو أيوب الأنصارى . وسار الأسطول بقيادة أمير البحر بسر بن أرطاه واخترق مضيق هيليس (الدردنيل) دون مقاومة ، ونقل الجيش إلى الشاطئ الأوربى بالقرب من قصر هبدومون على قيد أميال قليلة من عاصمة الدولة الشرقية .

وتختلف الرواية البيزنطية ، كما تختلف الرواية العربية فى تاريخ هذا الحصار الشهير ، فيقول ثيوفانس إن العرب بدأوا زحفهم على قسطنطينية فى خريف سنة ٦٦٦ م (٤٦ هـ) ؛ وتقول رواية أخرى إن بدأ الحصار كان فى ربيع سنة ٦٦٨ (٤٨ هـ) أو فى ربيع سنة ٦٧٢ م (٥٣ هـ)[3] . والمرجح على أى حال أن العرب كانوا

---

(١) برجاموس أو برجام (وبالعربية برجان) تقع فى شمال غربى آسيا الصغرى .

(٢) تختلف الرواية العربية فى تاريخ هذه الحملة ، فيضعه البعض سنة ٤٩ هـ (الطبرى ج ٢ ص ٨٦ ، وابن الأثير ج ٢ ص ١٨٧) والبعض سنة ٥٠ ، والبعض الآخر سنة ٥١

(٣) راجع : Gibbon : Roman Empire, Ch. LII., Ency. de l'Islam art. Const· Finlay: ibid, Ch. V-3

تحت أسوار قسطنطينية منذ سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) . وكان الجالس على عرش الدولة الشرقية يومئذ الإمبراطور قسطنطين الرابع ، وكان قد وقف على أنباء هذه الغزوة منذ إعدادها ، واستعد لردها بكل ما وسعت وسائل الدفاع .

وهكذا بدأ العرب أعظم معاركهم البحرية بمحاصرة قسطنطينية ، فطوقوها من البر والبحر بصفوف كثيفة من السفن والجند ؛ ولبثوا عدة أيام من الفجر إلى المساء يهاجمون واجهتها الشرقية حتى القرن الذهبي دون أن يظفروا بالدنو من أسوارها وأبراجها المنيعة . والواقع أن المسلمين أخطأوا تقدير منعة قسطنطينية ، ومنعة وسائل الدفاع الرومانية ، وما أثاره الخطر الداهم فى أنفس الرومانيين من الشجاعة والاستبسال فى الدفاع عن حاضرتهم وآخر معاقلهم ، والذود عن دينهم ومدنيتهم ؛ وهالهم جلد العدو وصبره ، وراعهم بالأخص فتك النار اليونانية(١) بسفنهم وصفوفهم وعتادهم ؛ وكان اليونانيون قد وقفوا على سرها قبل ذلك بقليل فكانت لديهم أنجع وسائل الدفاع . ولما لحق الإعياء صفوف المسلمين من تلك الهجمات العقيمة ، تحولوا إلى نهب ضفاف البروبونتس (المرمره) الأسيوية والأوربية ؛ وبعد أن استمروا فى حصار المدينة بحراً من أبريل إلى سبتمبر ؛ ارتدوا عند اقتراب الشتاء إلى جزيرة كيزكوس الواقعة على قيد ثمانين ميلا من قسطنطينية حيث أنشأوا مراكزهم العامة ؛ فقضوا بها الشتاء . غير أنهم عاودوا الحصار فى صيف العام التالى ؛ وعاودوا الارتداد فى الشتاء إلى كيزكوس. واستمروا كذلك يعاودون حصار قسطنطينية كل صيف ؛ ويرتدون عنها كل شتاء ستة أو سبعة أعوام متوالية قبل أن يؤمنوا بفشل محاولتهم ؛ أويفكروا فى العدول عن مشروعهم الضخم . ولكن الجهود المتوالية أضنت قواهم واستنفدت جلدهم ؛ وفقدوا كثيراً من رجالهم وسفنهم ومؤنهم ودوابهم ؛ وعصف الفشل المستمر بحماستهم ، وسرى المرض والاختلال إلى صفوفهم . فقرروا الانسحاب العام فى النهاية (سنة ٦٧٨ م — ٥٨ هـ) . واخترق الجيش الأناضول نحو الجنوب بعد أن مزقت صفوفه بالحصار والمطاردة ، وأغرقت العواصف كثيراً من سفن الأسطول حين ارتداده ؛ وفقد العرب فى تلك المعارك المشهودة

---

(١) سنعود إلى النار اليونانية فى فصل خاص .

زهاء ثلاثين ألف مقاتل ، وقتل عدة من الزعماء ، منهم الصحابى الشهير أبو أيوب الأنصارى الذى قتل ودفن تحت أسوار قسطنطينية فى الهجوم الأول أو الثانى (سنة ٥١ أو ٥٢ هـ) . وقيل إن قبره اكتشف بعد ذلك بثمانية قرون حينما فتح الترك العثمانيون قسطنطينية سنة ١٤٥٣ م . واعتبر هذا الاكتشاف حادثاً دينياً كبيراً .

وكانت حوادث هذا الحصار المشهود ، وما لقى العرب فيه من الفشل ، وما أصاب قواتهم وأهباتهم الزاخرة من التمزق ، عوامل أحيت هيبة الحرب الرومانية فى الشرق والغرب ، وأسبلت سحابة موقته على مجد العرب ؛ فعاد الخليفة الأموى (معاوية) إلى التفاهم مع الإمبراطور الرومانى ، وعقد الصلح بين الفريقين مدى أربعين عاماً [1] .

— ٢ —

ولكن الخلافة كانت ترمى بغزو قسطنطينية إلى أكثر من الاستيلاء على عاصمة الدولة الشرقية . وكانت غايتها أجل خطراً وأبعد مدى . فقد كانت ترى أن تجوز قسطنطينية إلى الغرب ، وأن تحمل دعوة الإسلام إلى أمم النصرانية ، وأن تفرض عليها سيادته . فلما ارتدت جيوشها أمام أسوار قسطنطينية ، شقت إلى الغرب وإلى النصرانية طريقاً آخر ؛ فجازت جيوشها إلى اسبانيا بعد أن اجتاحت شمال إفريقية ، وافتتحت مملكة القوط النصرانية ، واقتحمت جبال البرنيه إلى غاليس [2] ، وفكر موسى بن نصير منظم هذا الفتح أن يخترق أوربا النصرانية من المغرب إلى المشرق ، وأن يصل إلى دمشق من طريق قسطنطينية ، فيحقق بذلك مشروع الخلافة فى القضاء على النصرانية والدولة الشرقية معاً . ولكن تردد الخلافة وتفرق الكلمة قضيا على ذلك الحلم البديع ؛ فوقف تيار الفتح الإسلامى عند جنوب فرنسا .

غير أن السياسة الأموية لبثت ترعى مشروعها فى غزو قسطنطينية واقتحام أوربا عن طريق الدولة الشرقية . ففى سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) تولى الخلافة سليمان ابن عبد الملك وكانت الدولة الأموية قد وصلت عندئذ إلى ذروة قوتها وبأسها

---

(١) راجع فى حوادث هذا الحصار ، الطبرى ج ٢ ص ٨٦ ، وابن الأثير ج ٣ ص ١٧٥ و ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٦ . وأيضاً Finlay: ibid, Ch. V-3; Gibbon: ibid, Ch. LII.

(٢) وبالفرنسية La Gaule وهو اسم فرنسا القديم .

ومجدها الحربى . وكانت الدولة الشرقية قد انتهت بالعكس إلى شر ضروب الإنحلال والضعف والفوضى ؛ وغدا عرشها فريسة هينة تتناوبه عواصف الولاية والعزل بسرعة ، حتى عزل من قياصرتها ستة فى نحو عشرين عاماً فقط ؛ واقتحم البلغار والصقالبة أقاليمها الشمالية وأشرفوا على أسوار العاصمة ، واقتحم العرب آسيا الصغرى وامتدت غزواتهم إلى ضفاف البسفور . وكانت قسطنطينية حينما ارتقى سليمان عرش الخلافة ، مسرحاً للثورة والحرب الأهلية ، وقد تعاقب على عرشها ثلاثة من القياصرة الغاصبين فى ستة أعوام فقط ؛ أولهم أنستاسيوس الثانى (نسطاس) ؛ انتزع العرش سنة ٧١١ م ، ثم خلفه والمتغلب عليه تيودسيوس الثالث (تيدوس) ، ثم ليون الثالث (إليون) الذى انتزع العرش فى أوائل سنة ٧١٧م .

رأى سليمان بن عبد الملك منذ ولايته أن ما تجوزه الدولة الشرقية من عوامل الضعف والانحلال مما يشجع على استئناف الكرة على قسطنطينية . ويقال إن بعض الفقهاء حدثوه بأن الذى يفتتح قسطنطينية إسمه إسم نبى ، ولم يكن فى خلفاء بنى أمية من ينطبق عليه هذا الوصف غيره[1] . وهنا أيضاً نلمس فى الرواية العربية قصد التنويه بالصبغة الدينية لهذا المشروع . وحشد سليمان قوات عظيمة فى البر والبحر ، وزودها بمقادير هائلة من المؤن والذخائر والعدد وآلات الحصار لحرب الشتاء والصيف . وسار سليمان إلى دابق ؛ وانتدب أخاه مسلمة بن عبد الملك لقيادة الحملة ، وأمره ألا يبرح قسطنطينية حتى يفتحها أو يأتيه أمره[2] . فسار مسلمة فى أوائل سنة ٩٨ هـ (سبتمبر أو أكتوبر سنة ٧١٦ م) مخترقاً هضاب الأناضول ، وافتتح عدة من مدن العدو وحصونه ؛ ثم قصد عمورية (أموريوم) قاعدة الأناضول فحاصرها . وكان حاكمها والمدافع عنها ليون الأسورى أو فى الرواية العربية ليون أو إليون المرعشى . وكان ليون جندياً مغامراً وافر الذكاء والجرأة ؛ وكان يتطلع إلى عرش قسطنطينية ويدبر أمره لانتزاعه من صاحبه الإمبراطور تيودسيوس الثالث ، فتفاهم مع مسلمة على خطة وشروط تختلف فى تصويرها الروايات المختلفة . فتقول الرواية العربية إن ليون تعهد لمسلمة بأن يرشده ويعاونه فى فتح

(١) كتاب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (طبعة دى جويه) ج ٣ ص ٢٤ ، وهو لمؤلف مجهول وبه رواية ضافية دقيقة عن هذا الحصار (ص ٢٤ – ٣٣) .

(٢) الطبرى ج ٢ (٥) ص ١٣١٤

قسطنطينية ، وإنه قطع من قبل مثل هذا العهد لسليمان بن عبد الملك ، وأغراه بإعداد الحملة وأقنعه بسهولة المشروع[1] . وتقول الرواية البزنطية إن ليون عاون العرب بالإرشاد والنصح ، ولكنه لم يقصد قط أن يسلمهم قسطنطينية ، وإنما أراد أن يمهد الطريق لنفسه بإضعاف قوات الدولة وشغلها برد الفاتحين[2]. واستطاع ليون فى الواقع أن ينتهز الفرصة لنفسه فنادى بنفسه قيصراً فى عمورية ، ثم سار على رأس قواته صوب قسطنطينية ، وهزم الجيش الذى بعثه تيودسيوس لقتاله ، فنزل الإمبراطور عن عرشه وارتد إلى أحد الأديار ، ودخل ليون قسطنطينية بجيشه الظافر ، وتوج إمبراطوراً للدولة الرومانية باسم ليون الثالث فى مارس سنة ٧١٧ م .

وسار مسلمة بجيشه الزاخر إلى قسطنطينية فى ربيع هذا العام (أواخر سنة ٩٨ هـ — ٧١٧ م) ، وسار الأسطول إلى مياه المرمره ؛ وأظهر سليمان منتهى العزم والأهبة ، فأمد أخاه بقوات أخرى ، وأخذ يحشد المدد فى جميع الجهات والثغور . واستولى مسلمة على برجاموس (برجان) ، ثم أشرف على قسطنطينية فى قوة من أكبر وأعظم القوى التى جردها الإسلام على النصرانية . وتقدر الرواية البزنطية جيش مسلمة وحده بثمانين ألف مقاتل ؛ وتقدر ما اجتمع للعرب تحت أسوار قسطنطينية فى البر والبحر بمائة وثمانين ألف[3] . وعبر مسلمة البحر عند أبيدوس (أبدس) حيث التقى بالأسطول العربى ، ثم نقل جيشه إلى ضفة الدردنيل (الهيليس) الأوربية ، وسار على ضفاف المرمره حتى قسطنطينية ، وطوقها من البر والبحر بقوات كثيفة ، ونصب عليها المجانيق الضخمة ؛ وحاول المسلمون بادئ ذى بدء أن يقتحموا المدينة بالهجوم والمفاجأة ، ولكنهم أخفقوا بعد عدة جهود ومحاولات عنيفة ، وردتهم مناعة الأسوار ، ومهارة المهندسين البزنطيين ، ووفرة آلات الدفاع من قاذفات النار اليونانية والأحجار ؛ فعول مسلمة عندئذ على أخذها بالحصار الصارم المستمر ؛ فشدد من حولها الضغط ،

---

(١) الطبرى ج ٢ (٥) ص ١٣١٦ ، والعيون والحدائق ج ٣ ص ٢٥

(٢) Finlay : Byzantine Empire Ch. 1—2

(٣) Finlay : Byzantine Empire Ch. 1—2

وقطع جميع علائقها من البر ، وحفر حول معسكره خندقاً عميقاً ، وأقام حوله سداً منيعاً ، وأطلق سريات من الجند لإتلاف المزارع والمروج القريبة ،واقتناص جميع الأقوات التي يمكن أن تتسرب إلى المدينة المحصورة . وقطع الأسطول علائق المدينة من البحر . وكان هذا أعظم أسطول حشده العرب ، بل لعله أعظم قوة بحرية استطاعت أن تحشدها دولة إسلامية ؛ وقد بلغت سفنه طبقاً للرواية البيزنطية ، ألفا وثمانمائة سفينة كبيرة للحرب والنقل . ورأى أمير البحر سليمان بن معاذ الأنطاكي[١] أن يقسم الأسطول إلى قسمين كبيرين ، رابط أولهما على الشاطئ الأسيوي في ثغري أتريبوس وأنتيموس ليقطع سير الأقوات الواردة من بحر الأرخبيل (إيجه) ، واحتل الآخر ساحل البسفور الأوربي تجاه لسان غلطه ليقطع كل صلة للمدينة بثغور البحر الأسود ولاسيما شرمسون وطرابزون . ووقعت أول معركة بحرية حينما سار أسطول الشاطئ الأوربي إلى مرافئه ، فقد عصفت به الريح والموج عصفاً هائلا ، فاصطدمت السفن بعضها ببعض ، وانتهز البيزنطيون هذه الفرصة فوجهوا إليها النار اليونانية ، فأحرقوا بعضها ودفعوا البعض الآخر إلى أسفل السور ، فاعتزم أمير البحر أن ينتقم لتلك الهزيمة الجزئية بنصر كامل . فحشد أمنع سفنه وزودها بسريات من خيرة جنده شجاعة وأهبة ، وزحف على أسوار المدينة وبذل جهداً عنيفاً لاقتحامها ، ولكن ليون كان على قدم الحذر والأهبة ، فرد الهاجمين بسيل من النار الحامية ، وسحب سليمان أسطوله المرابط في الشاطئ الأوربي إلى خليج سوستنيان[٢] .

بدأ المسلمون حصارهم الثاني لقسطنطينية في ١٥ أغسطس سنة ٧١٧ م(ثاني المحرم سنة ٩٩) أي قبل دخول الشتاء بقليل . واستعد مسلمة لحصار صارم طويل الأمد ، فجمع حوله المؤن حتى صارت كالجبال ، وأنشأ لجنده أسراباً وبيوتاً من الخشب[٣] . وكان مسلمة رغم جرأته وشجاعته عاجزاً قليل الخبرة بفنون الحرب ، كثير الإيمان ، سريع الاغترار ، ولم يكن بين معاونيه قواد من

(١) لم تذكر الرواية العربية إسم أمير البحر ، ولكن الرواية البيزنطية تذكر أن اسمه سليمان ولما كان سليمان بن معاذ الأنطاكي من قادة الحملة طبقاً للرواية العربية فالظاهر أنه هو أمير البحر أيضاً.

(٢) Finlay: ibid, 1—2

(٣) الطبري ج ٢ (٥) ص ١٣١٥

الطراز الأول[١] . والظاهر أنه كان يعتمد على تسليم سريع من جانب البزنطيين ، وأنه خدع بما كان يبذله له ليون الثالث من الوعود ؛ وقد كان ليون كلما اشتد الحصار يلجأ إلى مفاوضة مسلمة ومصانعته ، فتخف وطأة الحصار وتتسرب المؤن إلى المدينة . وتقول الرواية العربية إن ليون تعهد فعلا بأن يسلمه المدينة ، وخزائن الروم ، وكل الذخائر ؛ وأن يتولى ملكه باسم الخليفة ، وأن يدفع الجزية . ولكن لا ريب أن ليون لم يبذل مثل هذه الوعود إلا نفاقاً وغدراً واكتساباً للوقت[٢] .

ولم تمض أسابيع قلائل على بدء الحصار حتى توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك (١٠ صفر سنة ٩٩) قبل أن يستطيع إمداد مسلمة ؛ ثم دخل الشتاء بقره ، وكان شديداً قاسياً ، فلبثت الأنحاء المجاورة للمدينة عدة أسابيع مغطاة بالثلج والجليد ، وذهب كثير من خيرة الجند المحاصرين ضحية البرد وأهواله ، ونفقت معظم الخيل والدواب ، وعصفت ندرة الأقوات والسعى إلى تحصيلها ، بنظام الصفوف ، ودب الخلل إلى الأسطول بموت أميره سليمان . أما البزنطيون فقضوا الشتاء داخل الأسوار فى أمن وسلام . وفى الربيع التالى قدم إلى مسلمة أسطول ضخم يحمل الأقوات من الإسكندرية فدخل البسفور ورسا فى كالوس أرجوس ، ثم جاء فى أثره أسطول آخر من إفريقية ورسا فى شاطئ بتنيا (شرقى المرمره) . وكان معظم بحارة هذه السفن القادمة من الإسكندرية وإفريقية من النصارى المرتزقة . فراعهم حال المعسكر الإسلامى وخشوا عاقبة انحلاله وضعفه ، فتآمر كثير منهم على الفرار ، واستقلوا القوارب تحت جنح الظلام ، ودخلوا المدينة وقصوا على الإمبراطور حقيقة الحال فى معسكر المسلمين ، وما نزل بهم من الشدائد والصعاب . فعجل ليون بانتهاز الفرصة ودفع إلى خارج الميناء بقسم من سفنه مزود بقاذفات النار ، فانقض على سفن المسلمين وأوقع فيها الاضطراب والخلل ، وأحرق بعضها وأسر البعض الآخر ، وجنح كثير منها إلى الشاطئ[٣] .

---

(١) العيون والحدائق ص ٢٧ و٢٨

(٢) العيون والحدائق ص ٢٩

(٣) Finlay : ibid, 1—2

وتبدلت الحال عندئذ ، فحل الضيق والقحط بمعسكر المسلمين ، بينما تنفس المحصورون الصعداء ؛ ولكن مسلمة استمر فى حصار المدينة براً ، وألح فى ذلك حتى مزقت سراياه التى تجرد فى طلب القوت ، وعمت المجاعة والقحط ، واستنفدت جميع المؤن والدواب ، ولقى الجند أروع الشدائد والأهوال «وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شىء غير التراب»[1] . ثم وصلت أوامر الخليفة الجديد (عمر بن عبد العزيز) برفع الحصار والعودة . فقرر مسلمة الإنسحاب ، ونقل بقية جيشه إلى الشاطئ الأسيوى على بقية أسطوله ؛ ورفع العرب حصارهم الثانى عن قسطنطينية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م (ثانى عشر المحرم سنة مائة) بعد أن حطمت أمام أسوارها قوة من أضخم وأعظم القوى التى استطاع الإسلام أن يجردها على النصرانية . وارتدت بقية الجيش جنوباً إلى دمشق . وأما بقية الأسطول فدهمتها العواصف الثائرة فى بحر الأرخبيل وفرقتها ، وانقض اليونانيون فى الجزائر على وحداتها فأغرقوا كثيراً منها ، حتى قيل بأنه لم يعد من أسطول مسلمة الضخم إلى ثغور الشام سوى سفن قلائل[2]

* * *

وهكذا ارتد الإسلام أمام أسوار قسطنطينية فى حملتيه العظيمتين . وأخفقت الخلافة فى مشروعها الضخم ، وقضى على آمالها فى اقتحام الغرب من طريق المشرق .

ويرجع هذا الإخفاق إلى أسباب عدة : منها حداثة عهد العرب بالمعارك البحرية ، وقسوة الإقليم إلى درجة لم يعتدها جند الجنوب الذين نشأوا فى أقاليم الشام ومصر وإفريقية ؛ ويرجع بالأخص إلى براعة البيزنطيين فى أساليب الدفاع عن الحصون والمدن المحصورة ، وإلى حذقهم فى استعمال النار اليونانية . وكان فن الحرب لايزال فى الدولة الشرقية محتفظاً بتفوقه رغم ذلك الإنحلال الذى سرى إلى جميع نواحى حياتها الاجتماعية والاقتصادية ؛ هذا إلى منعة أسوار قسطنطينية ووفرة وسائل الدفاع والآلات التى زودت بها لرد الغزاة .

---

(١) الطبرى ج ٢ (٥) ص ١٣١٦ ، وابن الأثير ج ٥ ص ١٠

(٢) Finlay : ibid. 1-2

كان هذا الإخفاق حاسماً فى تاريخ الإسلام ، عميق الأثر فى مصايره ؛وكان حصار قسطنطينية أعظم مجهود بذله الإسلام ليحمل لواءه إلى أمم الغرب فى وقت كان يسودها فيه التفرق والضعف ، وتتنازع الوثنية والنصرانية سيادتها الروحية . ولم يكن توغل العرب فى سهول فرنسا حتى ضفاف اللوار بعد ذلك بقليل (سنة ١١٤ هـ — ٧٣٢ م) مقروناً بنفس الأهبة والخطورة ، ولا بنفس العزم والإصرار التى اقترنت بها حملات قسطنطينية ؛وإن كان هذا التوغل قد تم تنفيذاً لنفس السياسة ، وتحقيقاً لنفس الغاية التى قصدت الخلافة إلى تحقيقها .

ولم تحاول الخلافة بعد ذلك أن تعمل جادة لافتتاح قسطنطينية ، وإن كانت جيوشها قد اقتربت بعد ذلك غير مرة من عاصمة الدولة الشرقية . ووقعت أشهر هذه الغزوات أيام الخليفة المهدى . حيث سار ولده هرون (الرشيد) فى صيف سنة ١٦٥ هـ (٧٨٣ م) غازياً لأراضى الدولة البيزنطية ، واخترق هضاب الأناضول حتى أشرف على ضفاف البسفور الأسيوية ، وعسكر فوق تلال خريسوبوليس (اسكوتارى) فى مواجهة قسطنطينية . وكان على عرش القياصرة يومئذ طفل هو قسطنطين السادس ، ومقاليد الحكم بيد أمه الإمبراطورة إيرينى (رينى) . وهزم المسلمون البيزنطيين هزيمة شديدة ، واضطرت إيرينى أن تعقد الصلح وأن تتعهد بدفع جزية سنوية . ولم يحاول المسلمون فى هذه المرة أن يضربوا الحصار حول قسطنطينية بالرغم من وقوفهم تحت أسوارها ، مما يدل على أن الخلافة لم تعد عندئذ تداعب مشروعها القديم فى افتتاحها .

ولو ظفر العرب بالاستيلاء على قسطنطينية لتغيرت مصاير أوربا ومصاير التاريخ ؛ ولنشأت فى أوربا أمم غير الأمم ، وقام دين غير النصرانية ، ولكان مرجحاً أن يسود الإسلام والعربية أمم الشمال . وسنرى فى الفصل القادم ، كيف تستحيل المعركة بين الإسلام والنصرانية فى الغرب إلى معركة الحياة والموت ، وكيف تجتمع أمم الشمال على ضفاف نهر اللوار لترد سيل الإسلام والعرب . وسنرى كيف يهتف مؤرخو الغرب بخلاص أوربا والنصرانية من قبضة الإسلام فى موقعة تور (بلاط الشهداء) . وبينا يقول لنا جيبون « إن حوادث هذه الموقعة قد أنقذت أسلافنا البريطانيين وجيراننا الغاليين من نير القرآن المدنى والدينى ،

واستبقت لبهاء رومة وجلالها ، وأخرت استعباد قسطنطينية ، وشدت بأزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والانحلال » ، إذا بالمؤرخ فنلى يرى بالعكس أن خلاص أوربا والنصرانية كان أمام أسوار قسطنطينية وعلى يد ليون الثالث ؛ ويقول لنا : « إن أثرة الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهبة من عرب اسبانيا ، وصورته كانتصار باهر ، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج ، فى حين أن حجاباً ألقى على عبقرية ليون الثالث وعزمه ، مع أنه نشأ جندياً يبحث وراء طالعه ولم يكد يجلس على العرش حتى أحبط خطط الفتح التى أنفق الوليد وسليمان طويلا فى تدبيرها »[١].

وعلى أى حال فقد كانت قسطنطينية معقل النصرانية من المشرق ، وكانت ضفاف اللوار مرد الفتوح العربية فى غرب أوربا ؛ وأمام أسوار قسطنطينية وعلى ضفاف اللوار ، كانت رجعة الإسلام وخلاص النصرانية . وكانت كلمة الفصل فى مصاير الإسلام والنصرانية[٢]

---

(١) Finlay : ibid. 1—2

(٢) سنعنى فى الفصل القادم بتفاصيل معركة بلاط الشهداء .

الفصل الثانى

بـــلاط الشهــــــداء

١١٤ هـ – ٧٣٢ م

فى أواخر أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، كان قد انقضى ألف ومائتا عام كاملة على حادث كان له أعظم الآثار وأبعدها فى تاريخ الإسلام والنصرانية ؛ بل كان كلمة الفصل الحاسمة فى مصاير الإسلام والنصرانية .

هذا الحادث الجلل ، هو موقعة بلاط الشهداء التى تعرف فى التواريخ الفرنجية بموقعة « تور أو بواتييه » ؛ والتى نشبت بين العرب والفرنج فى سهول فرنسا على ضفاف نهر اللوار ، فى أكتوبر سنة ٧٣٢ م .

وقد مضى على بلاط الشهداء أكثر من ألف ومائتى عام ، وتغير وجه التاريخ ؛ ومحيت آثار الإسلام من غرب أوربا ومن الأندلس منذ أكثر من أربعة قرون ونصف . ومع ذلك فإن ذكريات بلاط الشهداء ما زالت حية فى الغرب ، وما زالت وقائعها وآثارها التاريخية موضع التقدير والتأمل من جانب المؤرخ الغربى . وكان انقضاء الألف ومائتى عام على حدوثها ، ذكرى جديدة نظمت من أجلها الاحتفالات فى فرنسا ، وكانت مثار تأملات وتعليقات جديدة ، تدور كلها حول الصيحة التاريخية القديمة : لو لم يُرد العرب والإسلام ، فى سهول تور ، لما كانت ثمة أوربا نصرانية ، بل لعله ما بقيت نصرانية على الإطلاق ، ولكان الإسلام اليوم يسود أوربا . وكانت أوربا الشمالية تموج اليوم بأبناء الشعوب السامية ، ذوى العيون الدعج والشعور السود ، بدلا من أبناء الشعوب الآرية ذوى الشقرة والعيون الزرقاء .

وهذا الحادث الجلل ، وهذه الذكريات والتأملات التى أثارها وما زال يثيرها ، هى موضوعنا فى هذا الفصل . وسنعنى بشرح مقدماته وتفاصيله على ضوء أوثق المصادر العربية والغربية ، وسيرى القارئ بعد إذ يتلو هذه التفاصيل ،

أن التاريخ الإسلامى كله ، قد لا يقدم إلينا حادثا له من الخطورة والأهمية وبعد الأثر ، ما لموقعة بلاط الشهداء .

افتتح العرب اسبانيا ، وغنموا ملك القوط فى سنة ٩١ — ٩٢ هـ (٧١٠ — ٧١١ م) على يد الفاتحين العظيمين طارق بن زياد وموسى بن نصير . فى عهد الوليد بن عبد الملك : وأضحت اسبانيا من ذلك التاريخ كمصر وإفريقية ، ولاية من ولايات الخلافة الأموية ، وتعاقب عليها الولاة من قبل الخليفة الأموى ؛ ينظمون شئونها ، ويدفعون الغزوات الإسلامية إلى ما وراء جبال البرنيه[١] . فلم تمض عشرون عاماً على افتتاح الأندلس ، حتى استطاع العرب أن يجتاحوا ولايات فرنسا الجنوبية ، وأن يبسطوا سلطانهم على سهول الرون وأن يتقدموا بعيداً فى قلب فرنسا .

ولكن اسبانيا المسلمة على حداثة عهدها ، لم تلبث أن اضطرمت بالفتن والمنازعات الداخلية . ولم تلبث النصرانية أن أفاقت من صدمتها الأولى . وتأهبت للنضال والمقاومة ؛ ولقى العرب بعد فورة الظفر التى اجتاحت جنوب فرنسا ، هزيمتهم الأولى فى موقعة تولوشة (تولوز) فى ذى الحجة سنة ١٠٢ هـ (يونيه سنة ٧٢٢ م) وقتل أميرهم وقائدهم السمح بن مالك . فارتدوا إلى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم . وسقط منهم عدة من الزعماء الأكابر .

وقطعت الأندلس بعد ذلك زهاء عشرة أعوام من الاضطراب والفوضى ، وخبت ثورة الفتح وشغل الولاة بالشئون والمنازعات الداخلية . حتى عين عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقى والياً للأندلس فى صفر سنة ١١٣ هـ (أبريل سنة ٧٣١ م) .

ولسنا نعرف كثيراً عن سيرة الغافقى الأولى ، ولكنا نعرف أنه من التابعين الذين دخلوا الأندلس ، ثم نراه بعد ذلك من زعماء اليمانية وكبار الجند . ونراه فى سنة ١٠٢ هـ ، على أثر موقعة تولوشة ومقتل السمح بن مالك . يتولى قيادة الجيش وإمارة الأندلس باختيار الزعماء والقادة مدى أشهر ، ثم لا نسمع عنه بعد ذلك ، حتى يولى إمارة الأندلس للمرة الثانية من قبل الخليفة فى سنة ١١٣ هـ[٢] .

---

(١) فى الرواية العربية ، جبال البرت أو الممرات .

(٢) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ ولاية عبد الرحمن فيقول الضبى إن تعيينه كان فى —

على أن الذى لاريب فيه هو أن عبد الرحمن الغافقى كان جندياً عظيما ، ظهرت مواهبه الحربية فى غزوات غاليس ، وحاكماً قديراً ، بارعاً فى شئون الحكم والإدارة ، ومصلحاً مستنيراً يضطرم رغبة فى الإصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعاً . وتجمع الرواية الإسلامية على تقديره والتنويه برفيع خلاله ، والإشادة بعدله وحلمه وتقواه[1] ؛ فرحبت الأندلس قاطبة بتعيينه ؛ وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه ، وجمعت هيبته كلمة القبائل ، فتراضت مضر وحمير ، وساد الوئام نوعاً فى الإدارة والجيش ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً .

وبدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة ، فنظم شئونها وعهد بادارتها إلى ذوى الكفاية والعدل ؛ وقمع الفتن والمظالم ما استطاع ، ورد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم المغصوبة ، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة ، وقضى صدر ولايته فى إصلاح الإدارة وتدارك ما سرى إليها فى عهد أسلافه من عوامل الاضطراب والخلل ؛ وعنى بإصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصة ؛ فحشد الصفوف من مختلف الولايات ، وأنشأ فرقاً جديدة مختارة من فرسان البربر بإشراف نخبة من الضباط العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية ، وتأهب لإخماد كل نزعة إلى الخروج والثورة .

وكانت الثورة توشك أن تنقض فى الواقع فى الشمال ، وبطلها فى تلك المرة زعيم مسلم هو حاكم الولايات الشمالية ؛ وهو الذى تسميه الرواية العربية « منوسة » والإفرنجية Munuza أو Munez . وقد كان منوسة فيما يبدو من زعماء البربر الذين دخلوا الأندلس عند الفتح مع طارق[2] . وقد عين فيما بعد حاكماً لولايات

= حدود سنة ١١٠ هـ (بغية الملتمس رقم ١٠٢١) وكذا ابن بشكوال (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦) . ويقول ابن عذارى إنه كان فى صفر سنة ١١٢ (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨) . وابن حيان إنه كان فى صفر سنة ١١٣ (نفح ج ٢ ص ٥١) وهى أرجح رواية فيما نعتقد ، وبها أخذنا لاتفاقها مع سير تواريخ الولاة المتقدمين .

(١) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٦ ، و١٢٧ ، وبغية الملتمس للضبى (فى المكتبة الأندلسية) رقم ١٠٢١ ، والحميدى فى جذوة المقتبس (القاهرة) ص ٧

(٢) تناولت شخصية « منوسة » وما يدور حولها من الجدل فى كتابى « دولة الإسلام فى الأندلس » (الطبعة الثالثة) ص ٨٤ — ٨٦

البرنيه وسبتمانيا . وقد كان الخلاف يضطرم منذ الفتح بين العرب والبربر ، وكان البربر يحقدون على العرب إذ يرون أنهم قاموا بمعظم أعباء الفتح ، واستأثر العرب دونهم بالمغانم الكبيرة ومناصب الرياسة . وكان منوسة كثير الأطماع شديد التعصب لبنى جنسه ؛ وكان يطمع أن يفوز بولاية الأندلس أو بالتغلب عليها بصورة من الصور ، ومن ثم فقد أخذ يترقب الفرص للخروج والثورة . وكان أثناء غاراته أو رحلاته فى أكوتين قد اتصل بأميرها الدوق أودو وتفاهم معه . وكان الدوق منذ رأى خطر الفتح الإسلامى يهدد ملكه يسعى إلى مهادنة المسلمين . وقد فاوضهم فعلا منذ اقتحموا أراضيه ؛ فانتهز كارل مارتل محافظ القصر الفرنجى هذه الفرصة لإعلان الحرب على الدوق ، وكان يخشى نفوذه واستقلاله ، وغزا أكوتين مرتين وهزم الدوق ، فكان أودو فى الواقع بين نارين ، يخشى الفرنج من الشمال ، والعرب من الجنوب . وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث فى أرضه (سنة ٧٣١ م) فى نفس الوقت الذى سعى فيه منوسة لمحالفته والاستعانة به على تنفيذ مشروعه فى الخروج على حكومة الأندلس ، والاستقلال بحكم الولايات الشمالية . فرحب الدوق بهذا التحالف وقدم ابنته الحسناء لامبجيا عروساً لمنوسة . وفى بعض الروايات أن منوسة أسر إبنة الدوق فى بعض غاراته على أكوتين ثم هام بها حباً وتزوج بها . وعلى أى حال فقد وثقت المصاهرة عرى التحالف بين الدوق والزعيم المسلم . ورأى منوسة كتماناً لمشروعه أن يسبغ على هذا الاتفاق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج . ولكن عبد الرحمن ارتاب فى أمر الثائر ونياته ، وأبى إقرار الهدنة التى عقدها ، وأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ابن زيان للتحقق والتحوط لسلامة الولايات الشمالية ؛ ففر منوسة من مقامه بمدينة الباب[1] الواقعة على البرنيه إلى شعب الجبال الداخلية ، فطارده ابن زيان من صخرة إلى صخرة حتى أخذ وقتل مدافعاً عن نفسه ؛ وأسرت زوجه لامبجيا وأرسلت إلى بلاط دمشق حيث زوجت هنالك من أمير مسلم[2] . ولما رأى

---

(١) واسمها بالقشتالية **Ciudad de la Puerta** وقد كانت تقع على أحد ممرات البرنيه وتسمى أحياناً بويكاردا .

(٢) تحيط الرواية سيرة لامبجيا بكثير من القصص الخيالية الشائقة التى اتخذت فيما بعد مستقى لخيال الكتاب والشعراء . غير أن معظم هذه القصص لا يخرج عن حد الأساطير .

أودو ما حل بحليفه ، واستشعر الخطر الداهم ، تأهب للدفاع عن مملكته ، وبدأ الفرنج والقوط فى الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل السّمح وهزيمة المسلمين عند أسوار تولوشة ، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها ؛ فلما رأى الخطر محدقاً بالولايات الشمالية لم ير بداً من السير إلى الشمال قبل أن يستكمل كل أهبته . على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره المسلمون إلى غاليس (فرنسا) منذ الفتح . وفى أوائل سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقاً أراجون (الثغر الأعلى) ونافار (بلاد البشكنس) ودخل فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م ، وزحف توا على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون لتخلفها عن أداء الجزية ، واستولى عليها بعد معركة عنيفة نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو . ثم زحف غرباً وعبر نهر الجارون ، وانقض المسلمون كالسيل على ولاية أكوتين[1] يثخنون فى مدنها وضياعها ، فحاول أودو أن يقف زحفهم ، والتقى الفريقان على ضفاف الدردون فهزم الدوق هزيمة فادحة ومزق جيشه شر ممزق . قال إيزيدور الباجى : « والله وحده يعلم كم قتل فى تلك الموقعة من النصارى » . وطارد عبد الرحمن الدوق حتى عاصمته بوردو (بردال) واستولى عليها بعد حصار قصير ، وفر الدوق فى نفر من صحبه إلى الشمال ، وسقطت أكوتين كلها فى يد المسلمين . ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون كرة أخرى ، واخترق الجيش الإسلامى برجونية ، واستولى على ليون وبيزانصون[2] . ووصلت سرياته حتى صانص التى تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط . وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غرباً إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج[3]

---

(١) كانت إمارة أكوتين فى ذلك الحين تمتد بين نهر الرون شرقاً وخليج غسقونية غرباً وبين اللوار شمالا ونهر الجارون جنوباً ، وتشغل من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبيرجور وسانتونج وبوا تو وڤنده وجزءاً من أنجو .

(٢) وهى مسقط رأس الشاعر الفرنسى الأشهر ڤكتور هوجو .

(٣) يقدم كاردون شرحاً آخر لسير عبد الرحمن ، فيقول إنه زحف أولا على آرل وحاصرها فبادر الكونت إلى انجادها ، فلقيه عبد الرحمن وهزمه وألجأه إلى الفرار . ثم عبر عبد الرحمن نهر جارون واستولى على بوردو . وكان الكونت قد جمع جيشاً جديداً وحاول رده فهزم مرة أخرى =

وتم هذا السير الباهر وافتتح نصف فرنسا الجنوبى كله من الشرق إلى الغرب فى بضعة أشهر فقط. قال إدوارد جيبون: «وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار. وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى إيقوسيا. فليس الرين بأمنع من النيل أو الفرات، ولعل أسطولا عربياً كان يصل إلى منصب التيمز دون معركة بحرية، بل وربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد أكسفورد، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة»[1].

— ٢ —

أجل كان اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية، والشرق والغرب: على وشك الوقوع. وكان اجتياح الإسلام للعالم القديم سريعاً مدهشاً. فإنه لم تمض على وفاة النبى العربى نصف قرن، حتى سحق العرب دولة الفرس الشامخة، واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية من الشأم إلى أقاصى المغرب، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقاً والمحيط غرباً، وامتدت شمالا حتى قلب آسيا الصغرى. وكانت سياسة الفتح الإسلامى مذ توطدت دولة الإسلام، ترمى إلى غاية أبعد من ضم الأقطار وبسطة السلطان والملك. فقد كان الإسلام يواجه فى الأقطار التى افتتحها من العالم القديم، أنظمة راسخة مدنية واجتماعية تقوم على أصول وثنية أو نصرانية. وكانت النصرانية قد سادت أقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع. فكان على الخلافة أن تهدم هذا الصرح القديم، وأن تقيم فوق أنقاضه فى الأمم المفتوحة نظماً حديثة، تستمد روحها من الإسلام، وأن تذلل النصرانية لصولة الإسلام، سواء بنشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة،

— ثم اخترق عبد الرحمن بيرجور وسانتونج وبواتو وهو يثخن فى تلك الأنحاء حتى انتهى إلى تور. (Cardonne : Hist. de l'Afrique et de l'Espagne I,p. 129). ولكن عبد الرحمن اقتحم وادى الرون أيضاً كما بينا. وقد شرحنا سيره طبقاً لجميع الروايات مجتمعة وطبقاً للمواقع الجغرافية التى تتعلق بهذه الغزوة. وقد يكون أن عبد الرحمن لم يسر بنفسه شمالا نحو برجونية ولكن الجيش الإسلامى اقتحم هذه الأنحاء بلا ريب.

(١) Gibbon : ibid, Ch. LII.

أوبإخضاعها من الوجهة المدنية والاجتماعية لنفوذ الإسلام وسلطانه . وكان هذا الصراع بين الإسلام والنصرانية قصير الأمد فى الشام ومصر وإفريقية ، فلم يمض نصف قرن حتى غمر الإسلام هذه الأمم بسيادته ونفوذه ، وقامت فيها مجتمعات سلامية قوية شاملة ، وغاضت الأنظمة والأديان القديمة . ثم دفعت الخلافة فتوحها إلى أقاصى آسيا الصغرى من المشرق ، وجازت إلى اسبانيا من المغرب . فأما فى المشرق فقد حاول الإسلام أن ينفذ إلى الغرب من طريق قسطنطينية ؛ وبعثت الخلافة جيوشها وأساطيلها الزاخرة إلى عاصمة الدولة الشرقية مراراً ، وحاصرتها مرتين كما قدمنا . وكانت قوى الخلافة فى كل مرة تبدى فى محاصرة قسطنطينية غاية الإصرار والعزم والجلد ، ولكنها فشلت فى المرتين ، وارتدت عن أسوار قسطنطينية منهوكة خائرة ، وأخفق مشروع الخلافة فى فتح الغرب من تلك الناحية. ولقى الإسلام هزيمته الحاسمة فى المشرق أمام أسوار بيزنطية . وقامت الدولة الشرقية فى وجه الإسلام حصناً منيعاً يحمى النصرانية من غزوه وسلطانه . ولكن جيوش الإسلام جازت إلى الغرب من طريق اسبانيا . وأشرفت من هضاب البرنيه على باقى أمم أوربا النصرانية ؛ ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء . لاستطاع موسى بن نصير أن ينفذ مشروعه فى اختراق أوربا من المشرق إلى المغرب والوصول إلى دار الخلافة بطريق قسطنطينية ، ولكان من المرجح أن تلقى النصرانية ضربتها القاضية يومئذ . وأن يسود الإسلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب . ولكن الفكرة قبرت فى مهدها لتوجس الخلافة وترددها .

على أن الفتوح التى قام بها ولاة الأندلس بعد ذلك فى جنوبى فرنسا كانت طوراً آخر من أطوار ذلك الصراع بين الإسلام والنصرانية . فقد كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ . وكانت تقوم فى الغرب بحماية النصرانية ، على نحو ما كانت الدولة الرومانية فى الشرق . بل كانت مهمتها فى هذه الحماية أشق وأصعب ، إذ بينما كان الإسلام يهدد النصرانية من الجنوب . كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق . وكانت الغزوات الإسلامية تقف فى المبدأ عند سبتمانيا ومدنها ، ولكنها امتدت بعدئذ إلى أكوتين وضفاف الجارون ، ثم امتدت إلى شمال الرون ، وولاية برجونية وشملت نصف فرنسا الجنوبى كله ؛

وبذا بدا الخطر الإسلامى على مصير الفرنج والنصرانية قوياً ساطعاً ، وبدت طوالع ذلك الصراع الحاسم ، الذى يجب أن يتأهب لخوضه الفرنج والنصرانية كلها .

كانت المعركة فى سهول فرنسا إذاً بين الإسلام والنصرانية . بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية والمتنافسين فى اجتناء تراثها . كانت بين العرب الذين اجتاحوا أملاك الدولة الرومانية فى المشرق والجنوب ، وبين الفرنج الذين حلّوا فى ألمانيا وغاليس (فرنسا) . والفرنج هم شعبة من أولئك البربر الذين غزوا رومة وتقاسموا تراثها من وندال وقوط وآلان وشوابيين ، فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج فى سهول فرنسا ، أكبر من نزاع محلى على غزو مدينة أو ولاية بعينها : كان هذا النزاع فى الواقع أبعد ما يكون مدى وأثراً ، إذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع ، الذى فاز العرب منه بأكبر غنم ، ثم أرادوا أن ينتزعوا ما بقى منه بأيدى منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال .

وكانت هذه السهول الشمالية التى قدر أن تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية ، تضم مجتمعاً متنافراً لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس متينة . ذلك أن القبائل الجرمانية التى عبرت نهر الرّين وقضت على سلطان رومة فى الأراضى المفتوحة . كانت مزيجاً مضطرباً من الغزاة الظمأى إلى تراث رومة من الثروة والنعماء . وكان القوط قد اجتاحوا شمالى إيطاليا منذ القرن الخامس ، وحلوا فى جنوب غاليس واسبانيا . ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار ، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا . وانتزعوا نصفها الشمالى من يد حاكمه الرومانى المستقل بأمره ، وانتزعوا نصفها الجنوبى من القوط ، وحلت فى غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد . وكان الغزاة فى كل مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها ، ويقتسمون السلطة فى نوع من الإقطاع . فلا يمضى وقت طويل حتى تقوم فى القطر المفتوح عدة إمارات محلية ؛ ولم يعن الغزاة بإقامة مجتمع متماسك ذى نظم سياسية واجتماعية ثابتة . ولم يعنوا بالأخص أن يندمجوا برعاياهم الجدد . فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغاليين الذين لبثوا قروناً يخضعون لسلطان رومة ، ما تزال تسود فيهم لغة رومة ، وحضارتها ،

ولكن القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة ، وتكون وحدها مجتمعاً منعزلا ، لبثت تسوده الخشونة والبداوة أحقاباً ، قبل أن يتأثر بمدنية رومة وتراثها الفكرى والاجتماعى . وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عصر كلوڤيس ، أكبر عامل فى تطور هذه القبائل وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية . ثم كان استقرارها بعد حين فى الأرض المفتوحة ، وتوطد سلطانها ، وتمتعها بالنعماء والثراء بعد طول المغامرة والتجول وشظف العيش ، وحرصها على حياة الدعة والرخاء ، عوامل قوية فى انحلال عصبيتها الحربية ، وفتور شغفها بالغزو ، وإذكاء رغبتها فى الاستعمار والبقاء . وهكذا كانت القبائل الجرمانية التى عبرت الرين تحت لواء الفرنج واستقرت فى غاليس ، قد تطورت فى أوائل القرن الثامن إلى مجتمع مستقر متماسك ؛ ولم تكن غاليس ، قد استحالت عندئذ إلى فرنسا ، ولكن جذور فرنسا المستقبلة كانت قد وضعت ؛ وهيئت الأسباب والعوامل لنشوء الأمة الفرنسية . بيد أن هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك ، كان وقت أن نفذ العرب إلى فرنسا فريسة الإنحلال والتفكك ؛ وكان الخلاف يمزقه كما بينا . وكانت أكوتين وباقى فرنسا الجنوبية فى أيدى جماعة من الأمراء والزعماء المحليين ، الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية فاستقلوا بما فى أيديهم من الأقاليم والمدن . ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية فيما وراء الرين من جهة أخرى ، تحاول اقتحام النهر من آن لآخر وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج . فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات . ويقتحمون النهر بين آونة وأخرى لدرء هذا الخطر ولإرغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية . فكانت المسألة الدينية أيضاً عاملا قوياً فى هذا النضال ، الذى يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب . ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها[1] .

هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجى فى أوائل القرن الثامن أعنى حينما

---

(١) راجع Creasy : Decisive Battles of the World, Ch. VII. الفصل السابع — ففيه استعراض حسن لأحوال المجتمع الجرمانى فى هذا العصر ، وعرض شائق لحوادث موقعة تور . وراجع أيضاً : Zeller : Hist. de l'Allemagne, I, p. 67.

نفذ تيار الفتح الإسلامى من اسبانيا إلى جنوب فرنسا . وكان قد مضى منذ وفاة النبى العربى إلى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢ م) مائة عام فقط . ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن قد افتتحوا جميع الأمم الواقعة بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، واكتسحوا العالم القديم فى وابل مدهش من الظفر الباهر ، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية من الشام إلى أقاصى المغرب واسبانيا ، وعبروا البرنيه إلى أواسط فرنسا ، هذا بينما أنفقت القبائل الجرمانية الشمالية أكثر من ثلاثة قرون فى افتتاح أقطار الدولة الشمالية ومحاولة الاستقرار فيها . وبينما قامت الدولة الإسلامية ثابتة وطيدة الدعائم ، وقامت فى جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية ، ومجتمعات إسلامية مستنيرة ، وجيوش غازية منظمة ، إذا بمعظم القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال ، ما يزال إذا استثنينا مملكة الفرنج ، على حاله من البداوة والتجوال والتفرق . وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية فى هذا الصراع الذى نشب فى سهول فرنسا ، وأذن طوره الحاسم بعبور المسلمين إلى فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م . وكان سيل الفتح الإسلامى ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاماً . أعنى مذ عبر المسلمون جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير لأول مرة واستولوا على سبتمانيا ، ثم اقتحموا بعد ذلك وادى الرون وأكوتين أكثر من مرة . ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية ، وتقتتل حول السلطان والرياسة ، حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر ، وأنفق أعواماً أخرى فى توطيد سلطانه ، بينما كان خصمه ومنافسه أودو أمير أكوتين يتلقى وحده ضربات العرب . فلما استفحل خطر الفتح الإسلامى وانساب نحو الشمال حتى برجونية ، فزع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية فى أوستراسيا لتذود عن سلطانها وكيانها .

وكان الخطر على الفرنج والنصرانية داهماً حقيقياً فى تلك المرة ، لأن المسلمين عبروا البرنيه عندئذ فى أكبر جيش حشد ، وأتم أهبة اتخذت منذ الفتح . وكان على رأس الجيش الإسلامى قائد وافر الهمة والشجاعة والبراعة هو عبد الرحمن الغافقى ، وهو أعظم جندى مسلم عبر البرنيه . وكان قد ظهر ببراعته فى القيادة منذ موقعة تولوشة ، حيث استطاع إنقاذ الجيش الإسلامى من المطاردة عقب

هزيمته ومقتل قائده السّمح ، والارتداد إلى سبتمانيا . وتبالغ الرواية الفرنجية في تقدير جيش عبد الرحمن وأهبته فتقدره بأربع مائة ألف مقاتل ، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها لاستعمار الأرض المفتوحة[١] . وهو قول ظاهر المبالغة . وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين أو ثمانين ألف مقاتل ، وهو أقرب إلى الحقيقة والمعقول . بل لقد أثارت هذه الغزوة الإسلامية الشهيرة وهذا الجيش الضخم ، خيال الشاعر الأوربي الحديث ، فنرى الشاعر الإنجليزي سوذى يقول في منظومته عن ردريك آخر ملوك القوط :

« جمع لا يحصى .
« من شأم وبربر وعرب وروم خوارج ؛
« وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة .
« يجمعها إيمان هائم راسخ الفتوة ؛
« وحمية مضطرمة ، وأخوة مروعة .
« ولم يك الزعماء ،
« أقل ثقة بالنصر ، وقد شمخوا بطول ظفر .
« يتيهون بتلك القوة الخارقة ؛
« التي أيقنوا أنها كما اندفعت ،
« حيثما كانوا بلا منازع ؛ ستندفع ظافرة إلى الأمام .
« حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق ؛
« يطأطئ الرأس إجلالا لاسم محمد .
« وينهض الحاج من أقاصي المنجمد .
« ليطأ بأقدام الإيمان ، الرمال المحرقة ،
« المنتثرة فوق صحراء العرب وأراضي مكة الصلدة »[٢] .

ونفذ عبد الرحمن في جيشه الزاخر إلى فرنسا كما قدمنا في ربيع سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) واقتحم وادي الرون وولاية أكوتين ، وشتت قوى الدوق

---

(١) Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien I, p. 61

(٢) Southy : Roderic the last of the Goths.

أودو طبق ما أسلفنا ؛ وأشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف اللوار . وتقول بعض الروايات الكنسية إن أودو هو الذى استدعى عبد الرحمن إلى فرنسا ليعاونه على محاربة خصمه كارل مارتل . ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة ، لما قدمنا من أن أودو هو الذى بادر إلى مقاومة عبد الرحمن ورده ؛ وكانت مملكته وعاصمته أول غنم للمسلمين[1] . وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع ، ولكن ملوك الفرنج كانوا فى ذلك العصر أشباحاً قائمة فقط . وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك الحقيقى ، يستأثر بكل سلطة حقيقية ، وعليه يقع عبء الدفاع عن مَلكه وأمته . وكان منذ استفحل خطر الفتح الإسلامى يتخذ أهبته ويحشد قواه . ولكن عبد الرحمن نفذ إلى قلب فرنسا قبل أن يتحرك للقائه . وترد الرواية الإسلامية هذا البطء إلى خطة مرسومة مقصودة فتقول فى هذا الموطن : « فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارله وهذه سمة لملوكهم . فقالت له ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب ، كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم . فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لاتعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ؛ ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر »[2] . ونستطيع أيضاً أن نعلل تمهل كارل مارتل بقصده إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون غوث ، حتى يقضى المسلمون على ملكه وسلطانه ، فيتخلص بذلك من منافسته ومناوأته . وعلى أى حال فإن عبد الرحمن كان قد اقتحم أكوتين وجنوب فرنسا كله ، حينما تأهب كارل مارتل للسير إلى لقائه . وجاء الدوق أودو بعد ضياع

---

(١) رواية القديس دنى فى موسوعة Bouquet (Vol.III. p. 310) وراجع أيضاً موسوعة (Bayle) تحت كلمة (Abderame)

(٢) المقرى عن الحجارى فى المسهب (نفح الطيب ج ١ ص ١٢٩) . ويورد الحجارى هذه الرواية لمناسبة عبور موسى بن نصير إلى فرنسا . ولكن ظاهر من اسم قارله (كارل) أن الأمر يتعلق بالغزوة الكبيرة التى نتحدث عنها — وإليها ترجعها الرواية الكنسية اللاتينية (راجع : Gibbon: ibid, Ch. LII.) حيث يترجم نفس هذه الفقرة فى كلامه عن موقعة تور .

ملكه وتمزيق قواته ، يطلب الغوث والنجدة من خصمه القديم أعنى كارل مارتل . وكان كارل قد حشد جيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة، والعصابات المرتزقة ، فيما وراء الرّين ، يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ، وجله جند غير نظاميين ، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب ، وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية . وسار زعيم الفرنجة فى هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقاة العرب فى حمى الهضاب والربى ، حتى يفاجئ العدو فى مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة لرده . وكان الجيش الإسلامى قد اجتاح عندئذ جميع أراضى أكوتين التى تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونج وپواتو ، وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية حيثما يلتقى بثلاثة من فروعه هى « الكريز» « والڤين » و« الكلين » .

ومن الصعب أن نعين بالتحقيق مكان ذلك اللقاء الحاسم فى تاريخ الشرق والغرب والإسلام والنصرانية . ولكن المتفق عليه أنه هو السهل الواقع بين مدينتى پواتييه وتور حول نهرى كلين وڤيين فرعى اللوار ، على مقربة من مدينة تور. والرواية الإسلامية مقلة موجزة فى الكلام عن تلك الموقعة العظيمة ، وليس فيما لدينا من المصادر العربية عنها أى تفصيل شامل ، وإنما وردت تفاصيل للرواية الإسلامية عن الموقعة ، نقلها إلينا المؤرخ الإسبانى كوندى سنعود إليها بعد . وتفيض الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس فى حوادث الموقعة وتقدم إلينا عنها تفاصيل شائقة ، ولكن يحفها الريب وتنقصها الدقة التاريخية . وقد رأينا أن نجمل وصف الموقعة أولا مما لدينا من أقوال الروايتين . ثم نورد كلتيهما بعدئذ بتفاصيلها.

انتهى الجيش الإسلامى فى زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتى پواتييه وتور كما قدمنا . واستولى المسلمون على پواتييه ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة ، ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى واستولوا عليها وخربوا كنيستها أيضاً . وفى ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار دون أن يشعر المسلمون بمقدمه بادئ بدء ، وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده وعدته ؛ فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار لملاقاة العدو على ضفته اليمنى ، فاجأه كارل مارتل بجموعه الجرارة ، وألفى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه

فى الكبرة ، فارتد من ضفاف النهر ثانية إلى السهل الواقع بين تور وپواتييه ، وعبر كارل مارتل اللوار غرب تور وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش الإسلامى بأميال قليلة بين نهرى كلين وڤيين فرعى اللوار .

وكان الجيش الإسلامى فى حال تدعو إلى القلق والتوجس ، فإن الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش ، وكانت تتوق إلى الانسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة ؛ وكان المسلمون فى الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية ، وأثقلوا بما لا يقدر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبى ؛ فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل فى صفوفهم وتثير بينهم ضروب الخلاف . وقدر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته ، وخشى مما تثيره فى نفوس الجند من الحرص والانشغال . وحاول عبثاً أن يحملهم على ترك جزء منها ، ولكنه لم يشدد فى ذلك خيفة التمرد ؛ وكان المسلمون من جهة أخرى ، قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة منذ دخلوا فرنسا ، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم فى كثير من القواعد والمدن المفتوحة ؛ ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة فى عزم وثقة .

وبدأ القتال فى اليوم الثانى عشر أو الثالث عشر من اكتوبر سنة ٧٣٢ م (أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ) فنشبت بين الجيشين معارك جزئية مدى سبعة أيام أو ثمانية ، احتفظ فيها كل بمراكزه . وفى اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة فاقتتلا بشدة وتعادل ، حتى دخول الليل ؛ واستأنفا القتال فى اليوم التالى . وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد ، حتى بدا الإعياء على الفرنج ولاح النصر فى جانب المسلمين ؛ ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامى ، وخشى عليه من السقوط فى أيديهم . أو حدث كما تقول الرواية أن ارتفعت صيحة مجهول فى المراكز الإسلامية بأن معسكر الغنائم يكاد يقع فى يد العدو ، فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم . وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم ، فدب الخلل إلى صفوف المسلمين ، وعبثا حاول عبد الرحمن أن يعيد النظام وأن يهدئ روع الجند ،

وبينما يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته . فسقط قتيلا من فوق جواده ؛ وعم الذعر والاضطراب فى الجيش الإسلامى ، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين . وكثر القتل فى صفوفهم ؛ ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل وافترق الجيشان دون فصل . وكان ذلك فى اليوم الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ)[١].

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامى ، واختلف الرأى وهاجت الخواطر وسرى التوجس والفزع ؛ ورأى الزعماء أن كل أمل فى النصر قد غاض فقرروا الانسحاب على الأثر ؛ وفى الحال غادر المسلمون مراكزهم ، وارتدوا فى جوف الليل وتحت جنح الظلام جنوباً صوب قواعدهم فى سبتمانيا ، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنما للعدو . وفى فجر الغد لاحظ كارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية فتقدما منها بحذر وإحجام ، فألفياها خاوية خالية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب . فذبحوا على الأثر ، وخشى كارل الخديعة والكمين فاكتفى بانسحاب العدو . ولم يجرؤ على مطاردته ، وآثر العود بجيشه إلى الشمال .

هذه هى أدق صورة لحوادث تلك الموقعة الشهيرة طبقاً لمختلف الروايات . والآن نورد ما تقوله الرواية الفرنجية الكنسية ثم الرواية الإسلامية .

أما الرواية الفرنجية الكنسية فيشوبها كثير من المبالغة والتحامل والتعصب ؛ وهى تصف مصائب فرنسا والنصرانية من جراء غزوة العرب فى صور مثيرة محزنة ، وتفصل حوادث هذه الغزوة فتقول إحداها : « لما رأى الدوق أودو أن الأمير شارل (كارل) قد هزمه وأذله . وأنه لا يستطيع الانتقام إذا لم يتلق النجدة

---

(١) تجمع معظم الروايات الفرنجية والكنسية على أن الموقعة كانت فى أكتوبر سنة ٧٣٢ م . وهذا التاريخ يوافق بالهجرة شعبان سنة ١١٤ هـ . بيد أن الرواية الإسلامية تختلف فى تحديد هذا التاريخ فالبعض يقول إنها كانت سنة ١١٥ هـ (ابن عبدالحكم ص ٢١٧ ، والضبى فى بغية الملتمس رقم ١٠٢١ ، وابن عذارى فى البيان المغرب ج ١ ص ٢٧ ، ولكنه يعود فيذكر أن الموقعة كانت سنة ١١٤ هـ ، ج ٢ ص ٢٨) . ولكن ابن الأثير (ج ٥ ص ٦٤) وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٩) والمقرى عن ابن حيان (ج ١ ص ١٠٩ وج ٢ ص ٥٦) متفقون على أنها كانت فى سنة ١١٤ هـ . ويقول الأخير إنها كانت فى رمضان سنة ١١٤ هـ وهو أصح تعيين يتفق مع الرواية الغربية .

من إحدى النواحى ، تحالف مع عرب اسبانيا ودعاهم إلى غوثه ضد الأمير شارل وضد النصرانية . وعندئذ خرج العرب وملكهم عبد الرحمن ، من اسبانيا مع جميع نسائهم وأولادهم وعُددهم وأقواتهم فى جموع لا تحصى ولا تقدر ، وحملوا كل ما استطاعوا من الأسلحة والذخائر ، كأنما عولوا على البقاء فى أرض فرنسا . ثم اخترقوا مقاطعة جيروند واقتحموا مدينة بوردو ، وقتلوا الناس ونهبوا الكنائس ، وخربوا كل البسائط وساروا حتى بواتيو . »[1] .

وتقول أخرى : « ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه ، اقتحم الجبال ووطئ السهول بسيطها ووعرها . وتوغل مثخناً فى بلاد الفرنج ، وسحق بسيفه كل شىء ، حتى أن أودو حينما تقدم لقتاله على نهر الجارون وفر منهزماً أمامه لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده . ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو . وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها . التقى بكارل أمير فرنج أوستراسيا ، وهو رجل حرب منذ فتوته . وكان أودو قد بادر بإخطاره . وهنالك قضى الفريقان أسبوعاً فى التأهب واصطفا أخيراً للقتال . ثم وقفت أمم الشمال كسور منيع ومنطقة من الثلج لا تخترق . وأثخنت فى العرب بحد السيف» .

« ولما أن استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج) بقوة أطرافهم الضخمة . وبأيديهم الحديدية التى ترسل من الصدر توا ضرباتها القوية . أن يجهزوا على جموع كبيرة من العدو ، التقوا أخيراً بالملك (عبد الرحمن) وقضوا على حياته . ثم دخل الليل ففصل الجيشين ، والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقاراً للعدو . فلما استيقظوا فى فجر الغد ورأو خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم ، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جاثمة فيها . ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم . ألفوا جموع المسلمين قد فرت صامتة تحت جنح الليل مولية شطر بلادها . على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من جهات أخرى ، فأحاطوا بالمعسكر حذرين دهشين . ولكن الغزاة كانوا قد فروا . وبعد أن اقتسم الفرنج

---

(١) هذه هى رواية القديس دنى (Saint Denis) وردت فى موسوعة بوكيه : (Dom Bouquet: Recueil des Historiens de Gaule et de la France; III. p. 310). ووردت فى هذه الموسوعة أيضاً أقوال آخرين من الرواة الأحبار .

الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام ، عادوا مغتبطين إلى ديارهم »[١] .

وأما الرواية الإسلامية فهي ضنينة في هذا الموطن كل الضن كما أسلفنا . ويمر معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث العظيمة بالصمت أوالإشارة الموجزة كما سنرى . غير أن المؤرخ الإسباني كوندي يقدم إلينا خلاصة من أقوال الرواية الأندلسية المسلمة[٢]عن غزو فرنسا وعن موقعة تور ننقلها مترجمة فيما يلي :

« لما علم الفرنج وسكان بلاد الحدود الإسبانية بمقتل عثمان بن أبي نسعة ، وسمعوا بضخامة الجيش الإسلامي الذي سير إليهم ، استعدوا للدفاع جهدهم وكتبوا إلى جيرانهم يلتمسون الغوث . وجمع الكونت وسيد هذه الأنحاء (يريد أودو) قواته ، وسار للقاء العرب ، ووقعت بينهما معارك كانت سجالا . ولكن النصر كان إلى جانب عبد الرحمن بوجه عام ، فاستولى تباعاً على كل مدن الكونت . وكان جنده قد نفخ فيهم حسن طالعهم المستمر ، فلم يكونوا يرغبون إلا في خوض المعارك واثقين كل الثقة في شجاعة قائدهم وبراعته .

« وعبر المسلمون نهر الجارون وأحرقوا كل المدن الواقعة على ضفافه ، وخربوا جميع الضياع . وسبوا جموعاً لاتحصى . وانقض هذا الجيش على البلاد كالعاصفة المخربة فاجتاحها ، وأذكى اضطرام الجند نجاح غزواتهم ، واستمرار ظفرهم وما أصابوا من الغنائم .

« ولما عبر عبد الرحمن نهر الجارون اعترضه أمير هذه الأنحاء، ولكنه هزمه ففر أمامه وامتنع بمدينته . فحاصرها المسلمون ولم يلبثوا أن اقتحموها وسحقوا

---

(١) هذه هي رواية يزيدور الباجي وهو معاصر للموقعة . راجع (Creasy: ibid; Ch. VII) و Gibbon : Ch LI و Hodgkin: Charles the Great Ch. III. ففيها تنقل هذه التفاصيل أو تلخص .

(٢) لم تقف في أي المصادر العربية التي بين أيدينا على أصل هذه الأقوال التي يقول كوندي إنه اقتبسها من الرواية العربية ولم يذكر هو مصدر اقتباسه . ومن المحقق أنه نقلها عن بعض المخطوطات أو المجموعات الخاصة التي لم تتداول حتى عصرنا . ولعله نقلها على الأغلب من شذور لابن حيان وابن بشكوال لم تصل إلينا . ويلوح لنا أن الحجاري في كتابه « المسهب » قد تناول هذه الحوادث بالتفصيل حيث نقل المقري عنه شذرة تفيد ذلك (نفح ١ ص ١٢٩) . ولعل كوندي وقف على بعض أوراق مخطوطة منها كانت في عصره بمكتبة الإسكوريال، ولا توجد اليوم . راجع حديث كوندي عن مصادره في مقدمته
J. Conde : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana ; Prólogo

بسيوفهم الماحقة كل شيء . ومات الكونت مدافعاً عن مدينته واحتز الغزاة رأسه[1]. ثم ساروامثقلين بالغنائم فى طلب انتصارات أخرى، وارتجت بلادالفرنج كلها رعباً لاقتراب جموع المسلمين ، وهرع الفرنج إلى ملكهم قلدوس فى طلب الغوث ، وأخبروه بما يأتيه الفرسان المسلمون من العيث والسفك وكأنهم فى كل مكان ، وكيف أنهم احتلوا واجتاحوا كل أقاليم أربونة وتولوشة وبردال[2] وقتلوا الكونت . فهدأ الملك روعهم ووعدهم بالغوث العاجل . وفى سنة ١١٤ هـ سار على رأس جموع لا تحصى للقاء المسلمين . وكان المسلمون قد اقتربوا عندئذ من مدينة تور وهنالك علم عبد الرحمن بأمر الجيش العظيم الذى سيلقى . وكان جيشه قد دب إليه الخلل ، لأنه كان مثقلا بالغنائم من كل ضرب . ورأى عبد الرحمن وأولوا الحزم من زملائه ، أن يحملوا الجند على ترك هذه الأثقال والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم ، ولكنهم خشوا التمرد أو أن يثبطوا عزائم الجند، واستسلموا لرأى الواثقين المستهترين ، واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده ، وحسن طالعه المستمر . ولكن الإضطراب خطر خالد على سلامة الجيوش . نعم إن الجند يحملهم ظمأ الغنم قد أتوا جهوداً لم يسمع بها ، فطوقوا مدينة تور وقاتلوا حصونها بشدة رائعة حتى سقطت فى أيديهم أمام أعين الجيش القادم لإنقاذها ، وانقض المسلمون على أهلها كالضوارى المفترسة وأمعنوا القتل فيهم . قالوا : ولعل الله أراد أن يعاقب المسلمين على تلك الآثام ، وكان طالعهم قد ولى .

« وعلى ضفاف نهر « الأوار» (اللوار) اصطف رجال اللغتين ، والتقى المسلمون والنصارى ، وكلاهما جزع من الآخر . وكان عبد الرحمن ثقة منه بظفره المستمر ، هو البادئ بالهجوم ، فانقض بفرسانه على الفرنج بشدة وقابله الفرنج بالمثل . ودامت المعركة ذريعة مروعة طوال اليوم حتى جن الليل وفرق بين الجيشين . وفى اليوم التالى استؤنف القتال منذ الفجر بشدة . وشق بعض مقدمى المسلمين طريقهم إلى صفوف العدو وتوغلوا فيها . ولكن عبد الرحمن لاحظ

---

(١) وهذا خطأ بين لأن الكونت أودو لم يقتل عندئذ ، بل فر نحو الشمال وعاد لقتال عبدالرحمن فى تور كما قدمنا .

(٢) مدينة بوردو .

والمعركة فى أوج اضطرامها ، أن جماعة كبيرة من فرسانه غادرت الميدان بسرعة لحماية الغنائم المكدسة فى المعسكر العربى ، لأن العدو أخذ يهددها . فاحدثت هذه الحركة خللا فى صفوف المسلمين ؛ وخشى عبد الرحمن عاقبة هذا الاضطراب فأخذ يثب من صف إلى صف يحث جنوده على القتال ؛ ولكنه ما لبث أن أدرك أنه يستحيل عليه ضبطهم ، فارتد يحارب مع أشجع جنده حيثما استقرت المعركة ، حتى سقط قتيلا مع جواده وقد أثخن طعاناً . وهنا ساد الخلل فى الجيش الإسلامى ، وارتد المسلمون فى كل ناحية ، ولم يعاونهم على الانسحاب من تلك المعركة الهائلة سوى دخول الليل .

« وانتهز النصارى هذه الفرصة فطاردوا الجنود المنهزمة أياماً عديدة . واضطر المسلمون أثناء انسحابهم أن يحتملوا عدة هجمات ، واستمر الصراع بين مناظر مروعة حتى أربونة .

« وقد وقعت هذه الهزيمة الفادحة بالمسلمين وقتل قائدهم الشهير عبد الرحمن سنة ١١٥ هـ . ثم إن ملك فرنسا حاصر مدينة أربونة ، ولكن المسلمين دافعوا عنها بشجاعة متناهية حتى أرغم على رفع الحصار ، وارتد إلى داخل بلاده وقد أصابته خسائر كبيرة »[١] .

وأورد المؤرخ كاردون من جهة أخرى فى كلامه عن الموقعة فقرة ذكر أنه نقلها عن ابن خلكان جاء فيها : لما استولى العرب على قرقشونة خشى قارله (كارل) أن يتوغلوا فى الفتح ، فسار لقتالهم فى الأرض الكبيرة (فرنسا) فى جيش ضخم ، وعلم العرب بقدومه وهم فى لوذون (ليون) وأن جيشه يفوقهم بكثرة فعولوا على الارتداد . وسار قارله حتى سهل أنيسون دون أن يلقى أحداً إذ احتجب العرب وراء الجبال وامتنعوا بها ، فطوق هذه الجبال دون أن يدرى العرب . ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم وفر الباقون إلى أربونة . فحاصر قارله أربونة مدة ولم يستطع فتحها ، فارتد إلى أراضيه وأنشأ قلعة وادى رذونة (الرون) ووضع فيها حامية قوية لتكون حداً بينه وبين العرب[٢] .

---

(١) Conde : ibid. V. I. p. 86-88

(٢) راجع : Cardonne: ibid, I, p. 129 - 131 وقد بحثنا طويلا فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان فى مظان وجوده هذه التفاصيل فلم نعثر عليها . ولعل كاردون وقد كتب فى أواسط القرن الثامن عشر واستعان بمخطوطات عربية فى المكتبة الملكية فى باريس ، قد نقل عن نسخة لابن خلكان =

ونعود بعد ذلك إلى الرواية الإسلامية ، فنقول إن المؤرخين المسلمين يمرون على حوادث هذه الموقعة الشهيرة إما بالصمت أو الإشارة الموجزة . ويجب أن نذكر بادئ بدء أن موقعة تور تعرف فى التاريخ الإسلامى بواقعة البلاط أوبلاط الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها من أكابر المسلمين والتابعين . وفى هذه التسمية ذاتها ، وفى تحفظ الرواية الإسلامية ، وفى لهجة العبارات القليلة التى ذكرت بها الموقعة ، ما يدل على أن المؤرخين المسلمين يقدرون خطورة هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، ويقدرون فداحة الخطب الذى نزل بالإسلام فى سهول تور . ويدل على لون الموقعة الدينى ما تردده الأسطورة الإسلامية من أن الأذان لبث عصوراً طويلة يسمع فى بلاط الشهداء[١] : ونستطيع أن نحمل تحفظ المؤرخين المسلمين فى هذا المقام ، على أنهم لم يروا أن يبسطوا القول فى مصاب جلل نزل بالإسلام ، ولا أن يفيضوا فى تفاصيله المؤلمة ، فاكتفوا بالإشارة الموجزة . ولم يكن ثمة مجال للتعليق أيضاً ولا التحدث عن نتائج خطب لا ريب أنه كان ضربة للإسلام ولمطامع الخلافة ومشاريعها . وإذا استثنينا بعض الروايات الأندلسية التى كتبت عن الموقعة فى عصر متأخر ، والتى نقلناها فيما تقدم ، فإن المؤرخين المسلمين يتفقون جميعاً فى هذا الصمت والتحفظ . وهذه طائفة من أقوالهم وإشاراتهم الموجزة :

قال ابن عبد الحكم وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية وأقرب من كتب عن فتوح الأندلس ما يأتى : « وكان عبيدة (يريد والى إفريقية) قد ولى عبد الرحمن ابن عبد الله العكى على الأندلس ، وكان رجلا صالحاً . فغزا عبد الرحمن إفرنجة وهم أقاصى عدو الأندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم ... ثم خرج إليهم غازياً فاستشهد وعامة أصحابه . وكان قتله فيما حدثنا يحيى عن الليث فى سنة خمسة عشر ومائة »[٢] . ولم يذكر الواقدى والبلاذرى والطبرى وهم أيضاً من أقدم رواة الفتوح شيئاً عن الموقعة . وقال ابن الأثير فى حوادث سنة ثلاث عشرة ومائة

—فيها زيادات عن النسخة التى بين أيدينا . ولسنا نعلم من جهة أخرى أن لابن خلكان مؤلفاً تاريخياً آخر يمكن أن يحتوى مثل هذه التفاصيل .

(١) المقرى عن ابن حيان (نفح ج ٢ ص ٥٦) .

(٢) فتوح مصر وأخبارها ، ص ٢١٦ و ٢١٧

مردداً لرواية ابن عبد الحكم . « ثم إن عنبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله ، فغزا إفرنجة وتوغل فى أرضهم وغنم غنائم كثيرة . ثم خرج غازياً ببلاد الفرنج فى هذه السنة (أعنى ١١٣ هـ)وقيل سنة أربع عشرة ومائة وهو الصحيح فقتل هو ومن معه شهداء »[١] . وينسب ابن خلدون الموقعة خطأ لابن الحبحاب والى مصر وإفريقية فيقول : « وقدم بعده (أى بعد الهيثم) محمد بن عبد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة وغزا إفرنجة وكانت له فيهم وقائع وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين »[٢] ولدينا من الرواية الاندلسية ما قاله صاحب (أخبار مجموعة) عند ذكر ولاة الأندلس وهو : « ثم (أى وليها) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وعلى يده استشهد أهل البلاط الشهداء واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن »[٣] . ونقل الضبي فى ترجمة عبد الرحمن ما ذكر ابن الحكم عن الموقعة[٤] . وقال ابن عذارى المراكشي : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فغزا الروم واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥ بموضع يعرف ببلاط الشهداء »،[٥] وقال فى موضع آخر : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن هذا (أى الغافقى) ثانية وكان جلوسه لها فى صفر سنة ١١٢ . فأقام والياً سنتين وسبعة أشهر وقيل وثمانية أشهر . واستشهد فى أرض العدو فى رمضان سنة ١١٤ »[٦] . وقال المقرى فيما نقل : « ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة ، وغزا الإفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١١٩ . وفى نسبته الموقعة لمحمد بن الحبحاب خطأ بين لأن ابن الحبحاب كان عامل مصر ولم ينتدب لولاية إفريقية سوى سنة ست عشرة ومائة . ولم يول هو أو ولده الأندلس قط (راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٧) .

(٣) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس (مدريد سنة ١٨٦٧) ص ٢٥

(٤) بغية الملتمس (مدريد سنة ٨٤) رقم ١٠٢١

(٥) البيان المغرب ج ١ ص ٣٧

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨

فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة »[١] . ونقل فى موضع آخر « وذكر أنه قتل (والإشارة هنا خطأ إلى السمح بن مالك) فى الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط ، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه فأحاطت بالمسلمين فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حيان « فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن » . ونقل عن ابن حيان : « قال دخل الأندلس (أى عبد الرحمن) حين وليها الولاية الثانية من قبل ابن الحبحاب فى صفر سنة ثلاث عشرة ومائة ، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمة إلى أن استشهد ، وأصيب عسكره فى شهر رمضان سنة ١١٤ فى موضع يعرف ببلاط الشهداء . قال ابن بشكوال وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط »[٢] .

هذه الفقرات والإشارات الموجزة التى تكاد تتفق جميعاً فى اللفظ والمعنى ، هى ما ارتضت الرواية الإسلامية أن تقدمه إلينا فى هذا المقام ، وإن كان فى تحفظها ذاته ما ينم كما قدمنا عن تقديرها لرهبة الحادث وخطورته وبعد آثاره . وإذا كان صمت الرواية الإسلامية تمليه فداحة الخطب الذى أصاب الإسلام فى سهول تور ، فإن الرواية النصرانية تفيض بالعكس فى تفاصيل الموقعة إفاضة واضحة ، وتشيد بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الإسلامى ، وترفع بطولة كارل مارتل إلى السماكين . وتذهب الرواية النصرانية ومعظم كتابها من الأحبار المعاصرين ، فى تصوير نكبة المسلمين إلى حد الإغراق ، فتزعم أن القتلى من المسلمين فى الموقعة ، بلغوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألف ، فى حين أنه لم يقتل من الفرنج سوى ألف وخمسمائة . ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو إلى البابا جرجورى الثانى ، يصف فيها حوادث الموقعة وينسب النصر لنفسه ؛ فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة واللاحقة كأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها. بيد أنها ليست سوى محض خرافة . فإن الجيش الإسلامى كله لم يبلغ حين دخوله إلى فرنسا على أقصى تقدير أكثر من مائة ألف[٣] . والجيش الإسلامى لم يهزم

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦

(٣) وهذا التقدير يأخذ به بعض المؤرخين الغربيين أيضاً ، مثال ذلك المؤرخ الفرنسى ميزرى Mezerai . راجع التعليقات فى موسوعة Bayle تحت كلمة Abderame .

فى تور ولم يسحق بالمعنى الذى تفهم به الهزيمة الساحقة . ولكنه ارتد من تلقاء نفسه بعد أن لبث طوال المعركة الفاصلة يقاتل حتى المساء محتفظاً بمراكزه أمام العدو ؛ ولم يرتد أثناء القتال ولم يهزم . ومن المستحيل أن يصل القتل الذريع فى جيش يحافظ على ثباته ومواقعه إلى هذه النسبة الخيالية . ومن المعقول أن تكون خسائر المسلمين فادحة فى مثل هذه المعارك الهائلة ، وهذا ما تسلم به الرواية الإسلامية . ولكن مثل هذه الخسائر لا يمكن أن تعدو بضع عشرات الألوف فى جيش لم يزد على مائة ألف . وأسطع دليل على ذلك هو حذر الفرنج وإحجامهم عن مطاردة العرب عقب الموقعة ، وتوجسهم أن يكون انسحاب العرب خديعة حربية ؛ فلو أن الجيش الإسلامى انتهى إلى أنقاض ممزقة لبادر الفرنج بمطاردته والإجهاز عليه . ولكنه كان ما يزال من القوة والكثرة إلى حد يخيف العدو ويرده[١] . على أن خسارة المسلمين كانت بالأخص فادحة فى نوعها تتمثل فى مقتل عبد الرحمن ونفر كبير من زعماء الجيش وقادته . بل كان مقتل عبد الرحمن أفدح ما فى هذه الخسارة ؛ فقد كان خير ولاة الأندلس ؛ وكان أعظم قائد عرفه الإسلام فى الغرب ، وكان الرجل الوحيد الذى استطاع بهيبته وقوة خلاله أن يجمع كلمة الإسلام فى اسبانيا ؛ فكان مقتله فى هذا المأزق العصيب ضربة شديدة لمثل الإسلام ومشاريع الخلافة فى افتتاح الغرب[٢] .

ويعلق النقد الحديث على هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية أهمية كبرى ، وينوه بخطورة آثاره وبعد مداها فى تغيير مصاير النصرانية وأمم الغرب ، ومن ثم فى تغيير تاريخ العالم كله . وإليك طائفة مما يقوله أكابر مؤرخى الغرب ومفكريه فى هذا المقام :

---

(١) قال إدوارد جيبون تعليقاً على مزاعم الرواية الفرنجية « ولكن تلك القصة الخرافية يمكن ردها بحذر القائد الفرنسى (كارل ماتل) إذ توجس من شراك المطاردة ومفاجآتها ورد حلفاءه الألمان إلى أوطانهم . إن سكون الفاتح ينم عن فقد الدماء والقوة ؛ وان أشنع تمزيق للعدو لا يقع حين التحام الصفوف ، وإنما حين الانسحاب وتولية الأدبار » .

(٢) راجع موسوعة **Bayle** التاريخية تحت كلمة (**Abderame**) ففيها أيضاً إنكار للرواية الفرنجية عن خسائر العرب . وفى الترجمة الإنكليزية للموسوعة تعليقات وملاحظات مفيدة لطائفة من المؤرخين الفرنسيين تجمع كلها على التنديد بمبالغة الرواية الفرنجية .

قال إدوارد جيبون إن حوادث هذه الموقعة « أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الغاليين (الفرنسيين) من نير القرآن المدنى والدينى ، وحفظت جلال رومة ، وأخرت استعباد قسطنطينية ، وشدت بأزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والانحلال »[١] . ويعتبر المؤرخ أرنولد الموقعة « إحدى هاته المواقف الرهيبة لنجاة الإنسانية وضمان سعادتها مدى قرون »[٢] . ويقول السير إدوارد كريزى : « إن النصر العظيم الذى ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ وضع حداً حاسما لفتوح العرب فى غرب أوربا ، وأنقذ النصرانية من الإسلام ، وحفظ بقايا الحضارة القديمة وبذور الحضارة الحديثة ، ورد التفوق القديم للأمم الهندية الأوربية على الأمم السامية »[٣] . ويقول فون شليجل فى كلامه عن الإسلام والإمبراطوريةالعربية : « ماكاد العرب يتمون فتح اسبانيا حتى تطلعوا إلى فتح غاليا وبرجونية . ولكن النصر الساحق الذى غنمه بطل الفرنج كارل مارتل بين تور وپواتييه وضع لتقدمهم حداً ، وسقط قائدهم عبد الرحمن فى الميدان مع زهرة جنده . وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أمم الغرب النصرانية من قبضة الإسلام الفتاكة الهدامة إلى الذروة »[٤] . ويقول رانكه : « إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ . ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا . وقد وثبت الوثنية كرة أخرى إلى ما وراء الرين . فنهض إزاء ذلك الخطر فتى من عشيرة جرمانية هو كارل مارتل ، وأيد هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء . بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ، ودفعها إلى بلاد جديدة »[٥] . ويقول زيلر : « كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية . وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه لا فى غاليا وحدها ولكن فى جرمانيا التى أشركها فى نصره »[٦] . على أن هنالك فريقاً من مؤرخى الغرب لا يذهب إلى هذا الحد

---

(١) Roman Empire - Ch. LII.

(٢) History of the Latter Roman Commonwealth

(٣) Decisive Battles of the World.

(٤) Philosophie der Geschichte.

(٥) History of the Reformation.

(٦) Hist. d'Allemagne.

فى تقدير نتائج الموقعة وآثارها . ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندى وميشليه . فهما لا يعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل . ويقول چورج فنلى « إن أثرة الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهبة من عرب اسبانيا ، وصورته كانتصار باهر ، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج ؛ فى حين أن حجاباً ألقى على عبقرية ليون الثالث (إمبراطور قسطنطينية) وعزمه ، مع أنه نشأ جندياً يبحث وراء طالعه ، ولم يكد يجلس على العرش حتى أحبط خطط الفتح التى أنفق الوليد وسليمان طويلا فى تدبيرها »[1] .

ونحن مع الفريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أيما إكبار ، ونرى أنها كانت أعظم لقاء حاسم بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب . ففى سهول تور وپواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره ، وتغيرت مصاير العالم القديم كله ، وارتد تيار الفتح الإسلامى أمام الأمم الشمالية كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية ؛ وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب وإخضاع النصرانية لصولة الإسلام . ولم تتح للإسلام المتحد فرصة أخرى لينفذ إلى قلب أوربا فى مثل كثرته وعزمه واعتزازه يوم مسيره إلى بلاط الشهداء . ولكنه أصيب قبل بعيد بتفرق الكلمة ؛ وبينما شغلت اسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية ، إذ قامت فيما وراء البرنيه إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة ، تهدد الإسلام فى الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ .

---

(١) **Byzantine Empire.**

الفصل الثالث

موقعة رونسفال أو باب الشزرى

١٦١ هـ - ٧٧٨ م

لم تكن غزوة عبد الرحمن الغافقي الكبرى، آخر غزوة قام بها المسلمون لفرنسا، ولم تكن موقعة بلاط الشهداء آخر صدام وقع بين عرب الأندلس والفرنج؛ ذلك أنه بالرغم من هزيمة المسلمين على ضفاف اللوار، فقد عبر ولاة الأندلس جبال البرنيه بعد ذلك. وغزوا جنوبي فرنسا غير مرة. وكان ملوك الفرنج منذ أيام كارل مارتل، يتوقون إلى وضع حد نهائي لهذا الخطر، الذي يهدد فرنسا من جنوبي البرنيه. وكانت أول خطوة في تأمين فرنسا من هذه الناحية، هو استيلاء الفرنج على القواعد الإسلامية في ولاية سبتمانيا، وإجلاؤهم عن أراضي غاليس، وردهم إلى ما وراء جبال البرنيه، وقد تم ذلك على يد پپين الذي خلف أباه كارل مارتل كمحافظ للقصر الفرنجي، ثم انتزع العرش لنفسه، وكان أول ملوك الأسرة الكارلية الفرنجية. وكان ثغر أربونة آخر معقل إسلامي، استولى عليه پپين في سنة ٧٦٠ م. وانتهت بذلك سيادة المسلمين في غاليس.

وفي خلال ذلك وقعت الأندلس فريسة الحرب الأهلية، واستمرت تعاني من تلك المحنة، حتى انهارت الخلافة الأموية في المشرق (١٣٢هـ - ٧٥٠ م)، وقيض لعبد الرحمن بن معاوية الأموي، أن ينجو من المذبحة الذريعة التي شملت سائر آله وذويه، وأن يفر طريداً إلى إفريقية، وأن يعبر بعد ذلك إلى الأندلس بعد أن مهد له أنصاره وموالي أسرته سبيل العبور، وأن يفوز بولايتها بعد انتصاره على خصومه ومناوئيه، في معركة المسارّة الشهيرة على مقربة من قرطبة، وذلك في سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م).

وبدأ عبد الرحمن الأموي، أو عبد الرحمن الداخل، يعمل لتوطيد سلطان أسرته بالأندلس، بعد أن انهار سلطانها بالمشرق. ولكنه كان يواجه ظروفاً

صعبة ، وتعترض سبيله سائر القوى والزعامات التى رأت فى ولايته قضاء على سلطانها . فلبث أعواماً طوالا ، يخوض معارك متعاقبة مع الخارجين عليه فى فى مختلف النواحى ، ولبثت الأندلس حيناً كالبركان المضطرم ، لاتعرف سكينة ولا استقراراً ، والحرب الأهلية تمزق وحدتها وتماسكها ، والداخل يعالج هذا المعترك المروع بكل ما وسع من قوة وموارد ، ومن دهاء وخديعه ، وهو يهزم خصومه واحداً بعد الآخر ، ويسير إلى غايته من إخماد الثورة وتوطيد الدولة ، بهمة لا تعرف الكلل .

كانت مملكة الفرنج فى ذلك الحين ، قد آلت بعد وفاة عاهلها پپين إلى ولده كارل المعروف بشارلمان أو كارل الأكبر (سنة ٧٦٨ م) . ولم تمض أعوام قلائل ، حتى توفى أخوه كارلومان ، فورث بلاده ، وغدا يسيطر على مملكة الفرنج العظيمة كلها ، من ضفاف نهر الرين ، إلى جبال البرنيه . وكان شارلمان ملكاً عظيما ، بل كان أعظم ملوك النصرانية فى عصره ، وقد غدا فيما بعد إمبراطور « الدولة الرومانية المقدسة » . وكان فوق مقدرته الحربية العظيمة ، يتمتع بصفة أخرى لها خطرها ، وهى كونه بطل النصرانية وحاميها الأكبر . وكان شارلمان مذ ولى الملك يشهر الحرب دون هوادة ، على القبائل الوثنية السكسونية فيما وراء نهر الرين ، ويرغمها على اعتناق النصرانية تباعاً . وكان فى نفس الوقت ينظر إلى قيام دولة الإسلام فى الأندلس ، بعين التوجس والحذر ، ويرى فى قيامها خطراً دينياً وسياسياً معاً ، يجب التحوط منه والعمل على درئه ما سنحت الفرص ، وكانت حوادث الحرب الأهلية فى الأندلس ، وما تغرق فيه يومئذ من ضروب الشقاق والتطاحن ، تبدو للعاهل الفرنجى فرصة طيبة للتدخل والعمل ، فإذا ما فرغ من مشاغل الحرب السكسونية ، كان فى استطاعته أن ينتهز هذه الفرصة السانحة ، لضرب اسبانيا المسلمة .

وهيأت الحوادث فى اسبانيا المسلمة نفسها لشارلمان هذه الفرصة المنشودة . ففى سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤م) ثار سليمان بن يقظان الكلبى والى برشلونة وجيرندة ، والحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة ، وتحالفا على محاربة عبد الرحمن الأموى وخلعه . وكان استمرار الثورة فى جنوبى الأندلس ، وانشغال عبد الرحمن الدائم

بقمعها ، وطبيعة الشمال الجبلية ، وصعوبة اقتحامه ، مما يشجع مشاريع أولئك الزعماء الخوارج . ورأى عبد الرحمن ، بالرغم من عجزه عن السير بنفسه لمقاتلة الخوارج ، أن يبادر إلى مدافعتهم ، فأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامى ، فهزمه سليمان وأسره ، وتفرق جيشه . واستفحل أمر الثورة فى الشمال . ولكن زعماء الثورة وعلى رأسهم سليمان بن يقظان ، لم يطمئنوا إلى ذلك النصر المؤقت ، لما يعلمونه من عزم عبد الرحمن وبأسه ، وروعة انتقامه . ففكروا فى الاستنصار بملك الفرنج . وسار سليمان (وتسميه الرواية اللاتينية ابن الأعرابى) مع نفر من صحبه ، إلى لقاء شارلمان ، فى ربيع سنة ٧٧٧ م . وكان يومئذ يقيم بلاطه فى مدينة پادربورن من أعمال وستفاليا (شمال غربى ألمانيا). وكان قد فرغ يومئذ من هزيمة السكسونيين ، وأخذ ينظم تنصيرهم . فهنا وفد عليه سليمان وصحبه ، وعرض عليه المحالفة على قتال عبد الرحمن ، واقترح عليه أن يقوم بغزو الولايات الأندلسية الشمالية ، وتعهد بمعاونته فى مشروعه . وبأن يسلمه المدن التى يحكمها هو وصحبه من قبل أمير قرطبة ، ولاسيما مدينة سرقسطة ؛ وتقول الرواية الإسبانية النصرانية ، أن الذى دعا شارلمان إلى غزو اسبانيا هو ألفونسو أمير إمارة جليقية النصرانية ، ولكن الروايتين العربية والفرنجية كلتاهما صريحة فى أن الدعوة جاءت من سليمان بن يقظان وحلفائه . والرواية العربية تقول لنا بمنتهى الوضوح إن سليمان استدعى قارله (كارل أو شارلمان) ملك الفرنج إلى بلاد المسلمين ، ووعده بتسليم برشلونة أو سرقسطة[١] . وتوافق الرواية اللاتينية على ذلك ، وتزيد أن سليمان وحلفاءه . أعلنوا خضوعهم لملك الفرنج ، وانضوائهم تحت حمايته[٢] .

ولبى ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين . ووافق على مشروعهم . وكان سليمان بن يقظان زعيم أولئك الخوارج يعمل مستقلا لنفسه . ويرمى قبل كل شىء إلى تحطيم سيادة إمارة قرطبة ، والاستقلال بما فى يده تحت حماية ملك الفرنج . ولكن

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤

(٢) تراجع الرواية اللاتينية فى موسوعة بوكيه Bouquet : Vol. V. p. 14, 40, & 142 وكذلك Reinaud : Invasions des Sarraznis en France ,p.94

ملك الفرنج كانت له مشاريع أخرى . وكانت السياسة الفرنجية ، ترمى إلى تعضيد روح الثورة والخلاف ، فى اسبانيا المسلمة ، وتحطيم قوتها ، وكان سليمان زعيم الثورة فى الشمال يتصل بملك الفرنج قبل ذلك بأعوام ، منذ سقوط أربونة ، واتصال الحدود الفرنجية بحدود اسبانيا المسلمة . وهكذا بدأت العلائق تنتظم بين الزعماء المسلمين ، الخوارج على حكومة قرطبة ، وبين الفرنج المتربصين بدولة الإسلام فى الأندلس . فكان الزعماء الخوارج كلما حاولوا الثورة والاستقلال بحكم مدينة أو ولاية ، اتجهوا إلى الفرنج يستمدون عونهم ومناصرتهم ، وكان الفرنج يسارعون إلى تلبية هذه الدعوات ، ويتخذون منها ذريعة للتدخل فى شئون اسبانيا المسلمة ، واذكاء روح التفرق فيها .

وكانت اسبانيا المسلمة تجوز إزاء هذا الخطر الأجنبي الذى يتربص بها ، ظرفاً من أدق ظروفها ، فقد كانت مصايرها تهتز فى يد القدر ، وكانت روح الخلاف تمزقها ، والثورات تضطرم فى سائر أرجائها ، وأميرها عبد الرحمن الأموى ، مشغول بقمع الثورة هنا وهناك . هذا بينما كانت مملكة الفرنج بالعكس قد اجتمعت كلمتها وتوطدت دعائمها . وكان شارلمان مذ ولى العرش سنة (٧٦٨م) يشغل عن التدخل فى اسبانيا المسلمة بمحاربة القبائل السكسونية فيما وراء الرين ، ليرد خطرها عن مملكته ، وليخضعها إلى سلطانه ، وكانت غزوات الأسرة القارلية ، تتخذ فيما وراء الرين منذ عهد كارل مارتل ، لوناً دينياً عميقاً ، كالذى تتخذه حروب الفرنج مع العرب فى غاليس ، فكانت بذلك تتخذ مظهر حماية النصرانية من خطر الوثنية المتدفق من المشرق ، على يد القبائل السكسونية ، وكانت حروبهم فى غاليس تتخذ مظهر حماية النصرانية من وثبات الإسلام المتدفق من الجنوب . فلما ظفر الفرنج برد تيار الإسلام إلى ما وراء جبال البرنيه ، واستولوا على جميع ثغوره ومعاقله فى أرض فرنسا ، بقيت الأطماع والبواعث السياسية ، تحفز الفرنج إلى مقاتلة الإسلام ومطاردته ، فيما وراء البرنيه ، وانتزاع اسبانيا أو على الأقل ولاياتها الشمالية من قبضته ، لتكون معقلا لدرء فوراته ووثباته من الجنوب .

وتشير الروايات اللاتينية إلى غايات السياسة الفرنجية من التدخل فى شئون

اسبانيا المسلمة ، وتحدثنا عن هذا المزج بين الغايات الدينية والدنيوية . فأما عن الناحية السياسية ، فإن إجنهارت مؤرخ شارلمان يقول لنا إن الحملة التى نظمها الملك الفرنجى إلى اسبانيا ، كان يقصد بها مهاجمة قرطبة ذاتها . وإنه ليبدو من ضخامة الجيش الذى حشده شارلمان ، أن الأمر لم يكن متعلقاً فقط بالاستيلاء على المدن التى وعد سليمان بن يقظان بتسليمها ، وأن شارلمان كان يرمى بالعكس إلى السيطرة على اسبانيا كلها ، أو على الأقل على نصفها الشمالى . ومن جهة أخرى ، فإنه يبدو أن شارلمان كانت تحمله البواعث الدينية إلى جانب البواعث السياسية ، وهذا ما تؤيده روايات لاتينية كثيرة معاصرة ولاحقة ، ويؤيده بالأخص كون شارلمان قد أبلغ البابا هادريان بأمر هذه الحملة . قبل أن يضطلع بها . وأن البابا بارك مشروعه ، ووعده بإقامة الصلوات لكى يعود ظافراً إلى مملكته (١).

وكان كارل الأكبر أو شارلمان ، حينما استدعاه الخوارج المسلمون لغزو اسبانيا ، قد انتهى من الحرب فى سكسونية ، وهزم القبائل الوثنية الجرمانية ، وأخضع زعيمها القوى « ڤيدوكنت » فجاءت الدعوة إليه فى وقت ملائم . وانتظر كارل حتى مضى الشتاء . ثم سار إلى الجنوب وقضى أعياد الفصح فى أكوتين على مقربة من بوردو . وفى فاتحة ربيع سنة ٧٧٨ م . حشد قواته المؤلفة من فرنج نوستريا . ومن الجرمان واللونبارد ، وجنود بريتانيا وأكوتين ، واخترق ولاية أكوتين . معتزماً أن يفتتح الغزوة الإسبانية تواً حتى لايفاجئه الشتاء . وقسم جيشه الضخم إلى قسمين ، عبر أحدهما جبال البرنيه من الناحية الشرقية ، وعبرها القسم الثانى بقيادة كارل نفسه من الناحية الغربية ، من الطريق الرومانى القديم فوق آكام « چان دى لابور » الشاهقة التى تشرف على مفاوز رونسڤال (٢)، الوعرة ، على أن يلتقى الجيشان على ضفاف نهر الإيبرو أمام سرقسطة ، حيث يلتقى شارلمان بحلفائه المسلمين . وكان عبوره لجبال البرنيه من « باب الشزرى » أوباب شيزروا . واخترق شارلمان بلاد البشكنس أو ناڤار الحديثة ، وحاصر عاصمتها بنبلونة قلعة الناڤاريين ، واستولى عليها بعد قليل . وقد كان أولئك الناڤاريون

---

(١) راجع فى ذلك مؤلف المؤرخ الإسبانى الكبير الاستاذ بيدال R.M. Pidal: La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Madrid 1959) p.181—184

(٢) Roncevalles

يكونون دائماً شعبة خاصة من « البشكنس » . وكان البشكنس دائماً يحرصون على الاحتفاظ باستقلالهم منذ أيام القوط ، وكثيراً ما لجأوا فى سبيل ذلك إلى الثورة ، والامتناع بهضابهم وجبالهم الشاهقة . وقد كان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة ، فقد كانوا يحرصون على هذا الاستقلال ، ولايودون الخضوع لأية سلطة أو أية مملكة ، ومن ثم كانت مقاومتهم للعاهل الفرنجى ، ومن ثم كانت محاصرته لبنبلونة وأخذها بالعنف . أما الجيش الفرنجى الذى اخترق شرقى البرنيه ، فقد كان يسير فى منطقة يسيطر عليها الفرنج ، وقد تقلص عنها سلطان المسلمين ، منذ أيام پپين والد شارلمان ، ومن ثم فقد كان يخترق بلاداً صديقة ، يرحب أهلها بمقدمه ، ويستظلون بحمايته .

وكان سليمان بن يقظان ، منذ مقدم شارلمان ، يتردد على بنبلونة لمفاوضته ، وقد سلمه الرهائن ، وفقاً لتعهداته ، وفى مقدمتها ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن . وقيل إن ثعلبة كان قد سلم إلى شارلمان قبل مقدمه إلى اسبانيا ، وإنه اعتقله لديه بفرنسا . فلما انتهى شارلمان من إخضاع بنبلونة ، سار ومعه سليمان إلى سرقسطة[1] وهى أهم الأماكن التى اتفق على تسليمها فى پادربورن . وكان القسم الآخر من الجيش الفرنجى ، قد وصل عندئذ إلى منطقة برشلونة ، واتجه غرباً إلى سرقسطة ، ليلتقى بالقوات التى يقودها شارلمان . وكان شارلمان ، يعتقد حينما اتجه إلى سرقسطة أنه سيلقى هنالك حلفاءه المسلمين على أهبة لمعاونته ، وتحقيق رغباته فى الاستيلاء على المدينة الكبرى . ولكن الحوادث كانت قد تطورت عندئذ ودب الخلاف بين الخوارج المسلمين . وكان الحسين بن يحيى الأنصارى ، والى سرقسطة وحليف سليمان منذ البداية ، ومؤيده فى مشروعه لاستدعاء الفرنج ، قد وافق على الحلف الذى عقده سليمان مع شارلمان ، وعلى العهود التى قطعها له . ولكن الحسين ما لبث فيما يبدو أن نقم على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذى اتشح به إزاء الفرنج ، فنشبت بينهما الخصومة . أولعله خشى عاقبة التورط فى حلف الفرنج ، فعدل عن موقفه فى آخر لحظة ، حينما شعر بسير الفرنج إلى مدينته . والظاهر **أيضاً أنه لم** يكن فى سرقسطة حينما أقبل إليها **الجيش** الفرنجى ، إذ تقول لنا الرواية

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٥

الإسلامية ، إنه سبق إليها سليمان وتحصن بها ، فلما أشرف شارلمان ومعه سليمان على سرقسطة ، رفض الحسين أن يستقبله ، وألفى المدينة محصنة ، متأهبة للدفاع والمقاومة ، ولم يستطع سليمان أن يفعل شيئاً لإقناع الحسين بفتح أبواب المدينة ، ولم يستطع شارلمان من جهة أخرى الاستيلاء عليها . وردت المدينة المحصورة كل هجماته بشدة[١] ،وعجز سليمان عن أن يحقق شيئاً من وعوده فى تسليم المدن والحصون الواقعة فى تلك المنطقة . ولم يشأ ملك الفرنج أن يخوض فى تلك الوهاد والهضاب الصعبة ، معارك لم يتأهب لخوضها ، وارتاب من جهة أخرى فى نية سليمان وموقفه ، فقبض عليه[٢] ، وارتد بجيشه نحو الشمال الشرقى فى طريق العودة . وكان ذلك فى شهر يوليه سنة ٧٧٨ م (شوال سنة ١٦١ هـ) .

وهنا يبدو شىء من الغموض حول تصرف شارلمان ، وارتداده فجأة بجيشه من أمام سرقسطة دون أن تقع أية معارك ، ودون أن يبذل محاولة صادقةللاستيلاء عليها ، وقد كانت لديه وهو يقود جيشه الضخم كل وسيلة لتحقيق تلك الغاية . وتفسر بعض الروايات اللاتينية لنا ذلك الغموض بقولها إن شارلمان تلقى وهو تحت أسوار سرقسطة . أنباء عن تحرك خصومه السكسونيين ، وانتهازهم فرصة غيابه فى اسبانيا ، وقيامهم باجتياح أراضيه فيما وراء الرين ، فقرر عندئذ أن يعود مسرعاً إلى فرنسا .

ارتد شارلمان على رأس قواته المجتمعة ، ومعه أسيره سليمان بن يقظان ، وعدد من الرهائن ، وسار شمالا نحو بلاد البشكنس . وكان النافاريون فى تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم . واعتزموا الدفاع عن بلادهم وعن عاصمتهم ، خصوصاً وقد شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الفرنجى ، وانضم إليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة للتعاون فى دفع العدو المشترك . ولكن شارلمان هاجم بنبلونة بشدة ، ولم تجد بسالة النافاريين وحلفائهم المسلمين شيئاً ، فتركوا المدينة ، وتفرقوا فى مختلف الأنحاء ، واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية ، وهدم حصونها وأسوارها ، حتى لاتعود إلى المقاومة ، وحتى يمهد لجيشه طريق العود المأمون إلى فرنسا .

---

(١) أخبار مجموعة ص ١١٣

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥

وغادر شارلمان بنبلونة ، متجهاً إلى جبال البرنيه ، من طريق هضاب رونسڤال المؤدية إلى باب الشزرى . أحد ممرات البرنيه . فما الذى حدث عندئذ ؟ تقول الرواية العربية إن شارلمان « لما أبعد عن بلاد المسلمين واطمأن ، هجم مطروح وعيشون إبنا سليمان فى أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ، ورجعا به إلى سرقسطة »[١] . وفى هذه الكلمات القليلة ، تشير الرواية العربية إلى النكبة الهائلة ، التى أصابت الجيش الفرنجى أمام باب الشزرى ، والتى تقدم إلينا الروايات اللاتينية اللاحقة تفاصيلها .

والظاهر أيضاً من الرواية العربية ، أن ولدى سليمان ، حينما قبض شارلمان على أبيهما ، عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الفرنج ، وجمعا فى الحال قوات أبيهما وأتباعه ، وسارا بها فى أثر ملك الفرنج يحاولان مهاجمته وإنقاذ أبيهما من أسره . وكان شارلمان فى ذلك الحين قد غادر بنبلونة بعد تخريبها ، متجهاً صوب البرنيه ليعبرها كرة أخرى إلى فرنسا . وكان عبوره من نفس الطريق التى أتى منها ، أعنى من مفاوز رونسڤال . ويقع ممر رونسڤال الذى يسمى بالعربية « باب شزروا » أو « باب الشزرى »[٢] فى طرف البرنيه الغربية ، شمال شرقى بنبلونة ، وعلى مقربة منها ، وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرنيه من الشمال أوالجنوب ، وهى نفس الممرات والأبواب التى كان يستعملها العرب للعبور إلى غاليس والعودة منها . وقد لبثت هذه الجبال الوعرة الشاهقة على ممر القرون ، حاجزاً منيعاً ، يفصل بين شبه الجزيرة الإسبانية ، وبين غاليس ، ولايتأتى للغزاة عبوره إلا خلال هذه الممرات الشهيرة . فى مفاوز رونسڤال الوعرة وتجاه ممر البرنيه المسمى بهذا الإسم أعنى باب شزروا ، وقعت المفاجأة الهائلة . ذلك أن الجيش الفرنجى ، ماكاد يبدأ عبور الجبال ، حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته ، وهاجموه بشدة رائعة . وفصلوا عنه مؤخرته ، وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى ، وفيهم سليمان بن يقظان . والرواية العربية صريحة فى أن المسلمين ، هم الذين دبروا هذا الهجوم الفجائى ،

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

(٢) هذه هى تسمية الشريف الإدريسى وهى مشتقة من الإسم الرومانى القديم Portus Ciserei .

على مؤخرة الجيش الفرنجى ، وذلك بالرغم مما تقوله لنا بعض الروايات اللاتينية ، التى تتحدث عن الموقعة ، من أن الذين دبروا هذا الهجوم ، هم البشكنس النصارى ، إنتقاماً لما أنزله الفرنج ببلادهم وعاصمتهم بنبلونة من العيث والتخريب .

والرواية الراجحة فى هذا الشأن ، هو أن المسلمين دبروا هذا الهجوم ، على مؤخرة الجيش الفرنجى بمعاونة البشكنس ، وقد كانت لكل من الفريقين بواعثه لتدبير هذا الهجوم المشترك . فالمسلمون كانوا يتوقون إلى تخليص الأسرى والرهائن واستنقاذ زعيمهم ابن يقظان ، والبشكنس كانوا يتوقون إلى الانتقام لما وقع على بلادهم من العيث والتخريب . وقد تعاون الفريقان ، لأن أحدهما لم يكن ليستطيع بمفرده أن يدبر مثل هذا الهجوم على جيش عظيم كالجيش الفرنجى . وكون المسلمين هم الذين اضطلعوا فى ذلك بالدور الرئيسى ، يؤيده مضمون أنشودة رولان الذى نقدمه فيما بعد .

وقد وصفت لنا إحدى الروايات اللاتينية ، تعاون المسلمين والبشكنس فى الهجوم على النحو الآتى : « أن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس ، من ذوى الأسلحة الثقيلة ، وعدد مماثل من المشاة ، وأن المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها دواب الحمل ، وأن الكمين وقع فى الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد . وقد تعاون بشكنس بنبلونة والمسلمون ، ولاسيما مطروح وعيشون ولدى ابن الأعرابى (سليمان) ، وكان هذا التحالف ضرورياً ، لأن المسلمين كانوا فى حاجة إلى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد ، وهو ما يتقنه البشكنس ، وكان البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين فى التنظيم العسكرى ، وهما معاً ، قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف ، التى ارتجت لها سائر اسبانيا »[1] .

وقع هذا الهجوم الفجائى من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجى بمعاونة البشكنس ، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن تصورها . ذلك أن الفرنج لم يحسنوا الدفاع عن أنفسهم ، فى تلك الشعاب الضيقة المنحدرة . وقد فصلت مؤخرة الجيش الفرنجى ، وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة ، وفى مقدمتها الخزانة الملكية ، وكذلك الرهائن ، وفى مقدمتهم سليمان ، ومزقت المؤخرة نفسها شر ممزق ،

---

(١) R.M. Pidal : ibid; cit. Anales Regios, p. 197

وهلك خلال المعمعة الهائلة ، عدد كبير من سادة الجيش الفرنجي وفرسانه ؛ ولم تسمح المفاجأة المذهلة ، بأى عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة . وكانت نكبة مروعة لبث صداها يتردد مدى عصور فى أمم الغرب والنصرانية .

وتضع الرواية الفرنجية تاريخ الموقعة فى ١٨ أغسطس سنة ٧٧٨ (ذى القعدة سنة ١٦١ هـ)[١] . وقد رأينا فيما تقدم كيف تقنع الرواية العربية ، بالإشارة إليها فى عبارات موجزة ؛ وإن كانت مع إيجازها فى منتهى الدقة ، وكيف أن الرواية اللاتينية ، الفرنجية والكنسية ، تفيض بالعكس فى تفاصيلها إفاضة واضحة . وربما كانت رواية إجنهارت (أينهارت) مؤرخ شارلمان عن الموقعة ، هى أدق هذه الروايات وأوثقها . فقد كتبت فى سنة ٨٢٩ م ، بعد وفاة شارلمان بقليل ، واعتمد فيها على كثير من أقوال المعاصرين وشهود العيان ، وهو يفصل لنا حوادث الموقعة ، ويذكر من هلك فيها من الأمراء والسادة الفرنج ، ومنهم إجهارد رئيس الخاص ، وأنسلم محافظ القصر ، وهردولاند حاكم القصر البريتانى ، وهردولاند هو رولان Roland بطل الأنشودة الشهيرة ، التى نظمت فيما بعد عن هذه الموقعة ، واستمدت من أناشيد معاصرة لها ، والتى مازالت أثراً خالداً لقريض الفروسة فى العصور الوسطى . بيد أن أنشودة رولان تنحرف فى كثير من مناحيها إلى الأسطورة . وقد اتخذت الأسطورة من حوادث الموقعة موضوعاً لقصة حربية حماسية ، حرفت فيها الوقائع الأصلية ، أيما تحريف ، ولكنها تستبقى مكان الموقعة ، وبعض أشخاص التاريخ ، وقد رأينا أن نورد فيما يلى خلاصة هذه القصة والأنشودة الشهيرة :

« غزا شارلمان إسبانيا ، ولبث يحارب فيها سبعة أعوام ، حتى افتتح ثغورها ومدنها ، ما عدا سرقسطة وهى معقل الملك العربى مارسيل . وكان يعسكر بجيشه بجوار قرطبة ، حين جاءته رسل مارسيل يعرض عليه الطاعة ، بشرط أن يجلو

---

(١) ولكن الرواية العربية تقدم تاريخها عن ذلك فتضعها فى سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) وهى رواية ابن الأثير (ج ٦ ص ٥) والمقرى فى نفح الطيب (ج ٢ ص ٧٣) . والظاهر من نص الرواية العربية أنها تنصرف هنا إلى بداية الحوادث ، لا إلى الموقعة ذاتها ، وقد وقعت فيما بعد ، وهو ما يفسر التباين بين التاريخين . ولا ريب أن الرواية الفرنجية أقرب إلى الصحة والتحقيق لأنها معاصرة قريبة من مسرح الحوادث .

الفرنج عن إسبانيا . فعقد شارلمان مجلسا من البارونات ومنهم رولان ابن أخيه ، وكان رولان يرى أن تستمر الحرب ، ولكن فريقاً آخر من السادة يرأسه جانلون كونت ما يانس ، كان يرى الصلح والمهادنة ، فغلب رأى هذا الفريق ، لأن الفرنج سئموا الحرب والقتال ، وأرسل جانلون إلى الملك مارسيل ليعقد معه شروط الهدنة . فأغراه مارسيل واستماله بالتحف والذخائر ، واتفق معه على الغدر برولان وفريقه . ثم عاد إلى شارلمان وزعم أن مارسيل قبل شروط الفرنج ، وبذا قرر شارلمان الانسحاب . وتولى رولان قيادة المؤخرة . وكان معه الأمراء الإثنا عشر ، وزهرة الفروسية الفرنجية . ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات الجبلية ، رأى أوليفر أحد الأمراء ، جيشاً من العرب ، يبلغ أربعمائة ألف مقاتل ، فتضرع إلى رولان أن ينفخ فى بوقه ليدعو شارلمان إلى نجدته . فأبى رولان . وانقض الجيش المهاجم على مؤخرة الفرنج ، ونشبت بينهما عدة معارك هائلة . واستمر رولان يأبى طلب النجدة ، حتى مزق جيشه ، ولم يبق منه سوى ستين رجلا ، وعندئذ نفخ فى بوقه يدعو شارلمان ، ثم قتل بقية أصحابه ، ولم يبق سوى رولان وأوليفر واثنين آخرين . ولما شعر العرب أن شارلمان سيرتد بجيشه لقتالهم ، قرروا الانسحاب . وكان زملاء رولان الثلاثة قد قتلوا ، وأثخن رولان نفسه جراحاً ، حتى أشرف على الموت ، ولكنه استطاع أن ينفخ فى بوقه مرة أخرى قبل أن يموت ، وأن يسمع صرخة شارلمان الحربية . وسمع شارلمان صوت البوق على بعد مراحل عديدة . فعاد مسرعاً وطارد جيش العدو وسحقه . ودفن الفرنج قتلاهم ، وعوقب جانلون الخائن أروع عقاب . وتوفيت ألدة ، خطيبة رولان ، حينما علمت بموته » .

هذه هى خلاصة القصة التى ترددها أنشودة رولان الشهيرة ، وهى أبعد ما تكون عن وقائع التاريخ الحق . بيد أنها تتخذ مادتها من بعض هذه الوقائع ، ومن الذكريات ، والروايات الشفوية المتناقلة ، والأناشيد الحربية المعاصرة ؛ وهى نورمانية الأصل ظهرت لأول مرة فى القرن الحادى عشر ، أعنى بعد الموقعة بنحو ثلاثة قرون ، ودونت أولا فى بعض القصص اللاتينية ، ثم دونت بالنظم فى ملحمة طويلة تبلغ أربعة آلاف بيت بعنوان « أنشودة رولان » ،

Chanson de Roland ، ولبثت تعتبر مدى عصور من أعظم الآثار الأدبية ، ومن روائع القريض الحربى .

وكانت حوادث هذه الموقعة الشهيرة — موقعة باب الشزرى — مستقى خصباً لكثير من الكتاب والشعراء ، وكانت بالأخص مستقى لقصص الفروسية ، والملاحم الحماسية المغرقة ، التى تملأ فراغاً كبيراً فى الأدب الفرنجى فى العصور الوسطى .

ومما يلفت النظر فى حوادث الموقعة أن شارلمان لم يحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى ، أن يعجل بالانتقام لنكبة جيشه ومقتل فرسانه ، وأن يعود فيطارد تلك العصابات ، التى تحدته واجترأت عليه ، سواء من المسلمين أو البشكنس . وتعليل ذلك هو أن شارلمان شغل قبل كل شىء ، بخطورة الأنباء التى وصلته عن تحرك السكسونيين . وهم ألد أعداء الفرنج وأخطرهم ، فارتد أدراجه مسرعاً ، ليخوض معهم حرباً جديدة . استطالت زهاء سبع سنين .

ولم يبق بيد شارلمان ، بعد استنقاذ المسلمين للرهائن ، سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن . وقد لبث فترة أخرى معتقلا بفرنسا ؛ حتى تمت المفاوضة بشأنه ، وأطلق سراحه لقاء فدية كبيرة .

وهكذا اختتمت محاولة شارلمان . غزو اسبانيا المسلمة والتدخل فى شئونها ، بنكبته والقضاء على زهرة جنده ، وقد أسبغت هذه النكبة مدى حين سحابة على مجده الحربى . ولو قيض لشارلمان أن يفتتح سرقسطة ، وقواعد الثغر الأعلى ، لمهد له سبيل الزحف إلى الجنوب ، ولعرضت حياة الأندلس المسلمة لخطر محقق . ولكن القدر شاء أن يقضى على محاولته على يد جيش صغير من المسلمين المغامرين البواسل . بيد أنها لم تكن آخر محاولة من نوعها لعاهل الفرنج ، فإن السياسة الفرنجية لبثت بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة ، ترقب سير الحوادث فى الأندلس ، لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها . وقد سنحت بعد ذلك أكثر من فرصة انتهزها شارلمان للتدخل فى شئون اسبانيا المسلمة ، وغزو أراضيها[1] .

* * *

(١) راجع حوادث هذه الموقعة الشهيرة فى أخبار مجموعة ص١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص٥ و ٢١ ، وابن خلدون ج ٤ ص١٢٤ . وراجع أيضاً : Bouquet; Vol. V. p. 14, 26, 42, & 208 وكذلك R.M. Pidal : Chanson de Roland, Cap. VI. p. 171—215

وقد نوهنا فيما تقدم بما تجنح إليه الروايات العربية عن موقعة باب الشزرى من الإيجاز ، وذلك فى الوقت الذى تميل فيه الروايات اللاتينية إلى الإفاضة الواضحة . وقد كان خليقاً بالرواية العربية أن تبسط القول فى حوادث موقعة لها من الخطورة البالغة ، ما لموقعة باب الشزرى ، خصوصاً وقد كان التفوق فيها للجانب الإسلامى . ولكن الرواية العربية لم تنظر إلى الموقعة ، إلا من حيث ارتباطها بحوادث الأندلس . ومن جهة أخرى . فإنها لم تكن على علم تام بما يدور فى الناحية الأخرى من جبال البرنيه ، فى مملكة الفرنج الشاسعة . ولم تقف على آثار الصدى الهائل الذى أحدثه تمزيق جيش شارلمان داخل مملكة الفرنج ، وفى سائر الأمم المتصلة بها ، ولاسيما القبائل السكسونية ألد أعداء الفرنج يومئذ .

ومع ذلك فإن الرواية العربية على إيجازها . تقدم إلينا ممهدات الموقعة ، وعناصرها الأساسية بمنتهى الدقة . بل أن العلامة المؤرخ الأستاذ پيدال ، وهو آخر من تناول حوادث هذه الموقعة من النقدة المحدثين بإفاضة . وبأسلوبه النقدى الرائع ، يقرر لنا أن الرواية العربية هنا هى أرق بكثير من الرواية اللاتينية .وأنها فيما يتعلق بغزوة شارلمان لإسبانيا ، أبعد من أن تنحدر إلى الغموض والتناقض ، وأنها بالعكس تقدم إلينا بعض أنباء فى منتهى الأهمية والدقة .(١)

---

(١) R.M.Pidal : ibid, p. 177 & 178

الفصل الرابع

المسلمون سادة البحر

كان القرن التاسع الميلادى (القرن الثالث الهجرى) عصر السيادة البحرية الإسلامية . وكان البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) بما تغص به شواطئه فى الشرق والجنوب والغرب من الثغور الإسلامية القوية ، ميدان هذه السيادة . وقد بدأ العرب معاركهم البحرية الأولى فى تردد وروعة من البحر وأهواله ؛ ولكنهم بدأوها إبان فورة الفتح الأولى ، ولم يمض سوى نصف قرن حتى كان البحر لهم كاليابسة محط الغزوات والفتوح الجريئة . ومنذ خلافة عثمان خرج العرب إلى البحر فى أساطيل وحملات قوية ليفتتحوا الجزائر القريبة من الشواطئ الإسلامية . فنى سنة ٢٨ أو ٢٩ هـ (٦٤٨ م) غزا معاوية بن أبى سفيان جزيرة قبرس[1] وفرض عليها الجزية ؛ وفى سنة ٣٢ هـ سار إليها ثانية فى أسطول ضخم وافتتحها . وفى خلافة معاوية غزا العرب صقلية لأول مرة ، وافتتحوا جزيرة رودس[2] ؛ وفى خلافة الوليد بن عبد الملك ، غزوا إقريطش وصقلية وسردانية ، وافتتحوا جزائر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) . وكانت حملات قسطنطينية ، وما سيرته الخلافة لحصارها من الأساطيل الضخمة والقوى الجرارة ، من أعظم الحملات البحرية التى عرفت فى تلك العصور .

وما زالت الحملات البحرية الإسلامية فى قوة وازدياد ، حتى إذا كانت فاتحة القرن التاسع ، كان المسلمون سادة البحر يقبضون على ناصية المياه الجنوبية والوسطى فى ذلك البحر الشاسع الذى يتوسط العالم القديم ، ويشرف عليه من كل نواحيه . وكانت دول العالم القديم ومجتمعاته تعانى يومئذ نوعاً من الاضطراب العام ؛ فالحرب الأهلية تكاد تغشى كل أمة ؛ وقد أخذت عوامل الانحلال التى أصابت الدولة البيزنطية وحضارتها ، تتسرب أيضاً إلى الدول الإسلامية ، ودولة

---

(١) هكذا اسمها فى ياقوت (معجم البلدان) والبلاذرى . ولكن ابن خلدون يكتبها قبرص .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان (مصر) ص ١٥٨ و ٢٣٧

الفرنج القوية . وكان من أهم خواص هذا العصر ازدهار حرب المغامرة ، وكثرة العصابات القوية ، التى تستطيع أن تتحدى الحكومات القائمة . وكان البحر محط هذه الحروب ، وثغوره الغنية مهبط هذه الحملات . وكانت هذه العصابات القوية التى تجوس خلال البحر الأبيض المتوسط مسلمة فى الغالب ، تعمل لحساب نفسها أو فى ظل إحدى الحكومات المسلمة ؛ مستقلة أو إلى جانب الحملات الرسمية ؛ وقوامها بالأخص رجال من الطبقة الوسطى ، وزعماؤها بعض الأكابر الذين دفعتهم خيبة الأمل أو صروف الزمن إلى أن يبحثوا وراء طالعهم. وكان انتشار الرق فى هذا العصر يسهل عليهم حشد الرجال المخاطرين البواسل . وكان هؤلاء المغامرون يحفزهم روح استعمار قوى . كذلك الذى دفع الأمم الغربية فى العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها[1] .

وقد لبثت هذه الحملات البحرية الإسلامية زهاء قرنين تبث الروع والرعب فى شواطئ البحر المتوسط وثغوره النصرانية ، وتحدث الاضطراب والفزع فى كثير من الدول ، وتذكى أطماع الناقمين والمتنافسين فى طلب الرياسة والملك . وكانت المياه الإيطالية والبيزنطية بالأخص مقصد هذه الحملات ، وثغورها وجزائرها الغنية محط رحالها وقبلة أنظارها . وسنقدم فى هذا الفصل لمحة من أخبار هذه الحملات البحرية الشائقة ، وغزواتها وفتوحها ، وآثارها السياسية والاجتماعية .

١ — فتح إقريطش

بدأ المسلمون فتوحهم البحرية كما قدمنا بغزو الجزائر القريبة من شواطئهم وافتتاح بعضها مثل قبرس ورودس . وقصدوا إقريطش (كريت) فى عهد الوليد ابن عبد الملك ، ثم فى عهد الرشيد ، فلم يوفقوا إلى فتحها . ولم تفتتحها سوى إحدى هذه العصابات البحرية المغامرة التى أشرنا إليها . وكان قوامها جماعة من عرب الأندلس الذين خرجوا على الحكم بن هشام أمير الأندلس فيمن خرج عليه من أهل قرطبة فى رمضان سنة ٢٠٢ ﻫ (٨١٨ م) ، وهم أهل الربض الجنوبى للمدينة وتعرف ثورتهم من أجل ذلك بثورة الربض . ولكن الحكم هزم الثوار

---

(١) Finlay : Byzantine Empire ; Ch. III-I

ومزق شملهم وفتك بكثير منهم ، ثم أمر بديارهم فهدمت وأحرقت وأمر بخروج من بقى منهم فى الحال من قرطبة ، وأن لا أمان لديه لمن تخلف منهم ، ففرت فلولهم إلى مختلف الأنحاء ، وهاجر بعضهم إلى المغرب ، وقصد معظمهم إلى مصر فى عدة من السفن ، ونزلوا بثغر الإسكندرية ، واشتركوا فى الحرب الأهلية التى كانت تضطرم بمصر يومئذ ، ثم استولوا على الإسكندرية من يد حاكمها ، واتخذوها قاعدة لغاراتهم وحملاتهم الناهبة على جزر بحر الأرخبيل . فلما قدم عبد الله بن طاهر قائد المأمون إلى مصر ليقمع الثورة فيها ، اضطر الأندلسيين إلى إخلاء الإسكندرية (سنة ٢١٢ هـ — ٨٢٧ م) وكانت جماعة منهم قد أغارت قبل ذلك ببضعة أعوام على إقريطش واستولت على ناحية منها . وأقامت بها ، فلم ير الأندلسيون خيراً من اللحاق برفاقهم وافتتاح الجزيرة التى خبروا ثروتها وخصبها فيما سبق من غاراتهم .

خرجت هذه العصبة المغامرة الجريئة وقوامها نحو عشرة آلاف مقاتل من مياه الإسكندرية فى نحو أربعين سفينة بقيادة جندى وبحار جرىء هو أبو عمر حفص ابن عيسى الأندلسى المعروف بالإقريطشى أو البلوطى (وتسميه الرواية البيزنطية أبو شابس) . ورست على شواطئ إقريطش فى أواخر سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧م) . وانقض المسلمون على الجزيرة ؛ ففرت الحامية البيزنطية ، وارتاع السكان فلم يبدوا كبير معارضة ؛ ولم تستطع حكومة قسطنطينية أن تبعث بالمدد إلى الجزيرة لاشتغال الإمبراطور ميخائيل الثانى بقمع الثورة الداخلية . ويروى المؤرخون البيزنطيون أن أبا حفص لما نزل إلى الجزيرة أمر بإحراق السفن وأنه قال لجنده حينما احتجوا على هذا العمل : « فيم شكواكم ؟ لقد حملتكم إلى أرض تفيض باللبن والشهد . هذه أرضكم الحقة فاسترخوا وانسوا أوطانكم المجدبة » فقالوا : وأولادنا ؟ » فأجابهم « سوف تؤدى الأسيرات الحسان لكم وظائف الزوجات . ومن ثم تصبحون آباء جيل جديد » . فأقاموا حيث نزلوا وأحاطوا معسكرهم بخندق ضخم . أطلق اسمه على إقريطش حيث سميت « بالخندق » وهو الإسم الذى حرفه الغربيون إلى كانديا . وأسس الأندلسيون فى إقريطش حكومة جديدة ، واتخذوا الجزيرة قاعدة لطائفة من الحملات الناهبة على الجزر المجاورة ، ووفد

عليهم سيل من المغامرين من جميع الثغور الإسلامية . ليحصلوا نصيبهم من الغنائم اليونانية . وجزع الإمبراطور ميخائيل لذلك الخطر الجديد فجهز حملة بحرية كبيرة بقيادة أمير البحر أوريفاس جاست خلال جزر الأرخبيل وطاردت البحارة المسلمين . غير أنها ارتدت أمام غزاة إقريطش ؛ وجهز خلفه الإمبراطور تيوفيلوس حملة كبيرة أخرى فمزقها المسلمون بالقرب من تاسوس . ولبث المسلمون فى إقريطش زهاء قرن وثلث يزعجون جزائر الأرخبيل بالغزوات المتوالية ، حتى استعاد اليونانيون الجزيرة منهم فى عهد الإمبراطور رومانوس الثانى سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ)[١] ؛

٢ — فتح صقلية وسردانية وكورسيكا
وحنوبى إيطاليا

وفى نفس الوقت الذى افتتحت فيه إقريطش ، افتتح المسلمون جزيرة صقلية وأسسوا بها دولة زاهرة . وكانت الجزر الثلاث الكبرى فى وسط البحر الأبيض المتوسط أعنى صقلية وسردانية وكورسيكا ، تجذب أنظار الغزاة بضخامتها وغناها . فتقصدها الحملات البحرية من ثغور إفريقية والأندلس ، وهى حملات كان ينقصها الطابع الرسمى فى أغلب الأحيان . وتتألف عادة من جموع من المجاهدين أو النواتية المغامرين ، على النحو الذى اتبعه فيما بعد كثير من أبطال البحر الإنجليز والإسبان فى القرن السادس عشر .

وكانت صقلية تقع فى هذا العصر تحت سيادة الدولة البيزنطية (الدولة الشرقية) الفعلية ؛ أما سردانية وكورسيكا فكانتا تقعان تحت سيادتها الإسمية ؛ وكان الفرنج قد استولوا على كورسيكا ، وانضوت سردانية تحت لوائهم تطلب حمايتها من الغزاة . ومع أن السرايا البحرية الإسلامية غزت هذه الجزيرة غير مرة أيام الدولة الأموية ، فإنها لم تستطع أن تقوم فيها بفتوحات ثابتة نظراً لضخامتها ، وبعدها عن شواطئ إفريقية والأندلس ، ونظراً لصغر الحملات المسيرة ، وطبيعة هذه الغزوات ذاتها .

---

(١) راجع عن فتح إقريطش : البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٢٧٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ١٣٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ٢١١

ولكن الأساطيل الإسلامية بلغت فى أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فى إفريقية والأندلس مبلغاً من القوة والاستعداد لم تبلغه من قبل ، وحملت غزوات النورمانيين لشواطئ الأندلس حكومة قرطبة على الاهتمام بإنشاء أسطول قوى يستطيع حماية الثغور ، ورد العدوان بمثله . وكذا عنيت حكومة الأغالبة فى إفريقية (تونس) بإنشاء قوى بحرية تكفى لحماية شواطئها من عدوان البيزنطيين والبيزيين والفرنج . وكان الأغالبة يسيطرون من تونس على المياه الوسطى للبحر المتوسط ؛ وكانت أساطيلهم القوية تجوس خلال هذه المياه فيما بين قلوريه (كلابريا) وحتى سردانية وكورسيكا ، وتثخن فى شواطئها ، وكانت صقلية نظراً لضخامتها وغناها وقربها من الشاطئ الإفريقى ، تبدو لهم بالأخص غنيمة قيمة هينة ، فكانت مطمح أنظارهم يتحينون الفرص لافتتاحها وامتلاكها .

ولافتتاح المسلمين لصقلية قصة طريفة تبدو كأنها قطعة من الخيال الشائق ، وكان افتتاحها على يد شخصية عجيبة تبدو كأنها من شخصيات الأساطير الأولى . فأما قصة الفتح حسبما تقدمها إلينا الرواية البيزنطية ، فخلاصتها أن سيداً من أشراف صقلية يدعى يوفيميوس (ويسميه العرب فيمى) هام بحب راهبة حسناء واختطفها من ديرها ، فقضى الإمبراطور ، وهو يومئذ ميخائيل الثانى ، بجدع أنفه ، عقاباً له على جرمه ، ففر إلى بلده سرقوسة ، وثار فى عصبته وأنصاره على حاكم الجزيرة البيزنطى ، وانتزع منه سرقوسة ، وبسط حكمه عليها . ووقعت بالجزيرة حرب أهلية لم يثبت فيها فيمى ؛ واخرج من سرقوسة ، ففر إلى إفريقية (تونس) واستغاث بأميرها ، وهو يومئذ زيادة الله الأغلب ، ودعاه إلى فتح صقلية ووعده بملكها[1] . ولكن الرواية الإسلامية لا تذكر لنا شيئاً عن قصة الراهبة المخطوفة ، وتقول لنا فقط إن الإمبراطور غضب على فيمى ، وهو مقدم أسطوله ، وأمر بالقبض عليه ، وأنه ثار فى شيعته واستولى على سرقوسة ، ثم انتزعها منه زعيم آخر يدعى بلاطه ، فسار فيمى فى سفنه إلى إفريقية واستنجد بأميرها زيادة الله بن الأغلب ، فاستجاب إلى دعوته وسير أسطوله إلى صقلية لافتتاحها بقيادة قاضى القيروان أسد بن الفرات بن بشر المرى .

Finlay : ibid, Ch. III. (١)

وكان أسد بن الفرات فقيهاً وعالماً من أعظم علماء عصره . وهو أندلسى من إقليم غرناطة ؛ رحل فى شبابه إلى المشرق ولقى الإمام مالك بن أنس بالمدينة وأخذ عنه ، ثم عاد إلى إفريقية وولى قضاء القيروان وألف كتاب « المختلطة » فى الفقه المالكى[١].
ومما يدعو حقاً إلى الإعجاب والدهشة ، أن أسد بن الفرات كان إلى جانب علمه الغزير ، أيضاً جندياً جريئاً وبحاراً مغامراً ، وقد قام من قبل فى هذه المنطقة من مياه البحر المتوسط بغزوات سابقة ؛ ويقول لنا ابن خلدون إنه افتتح جزيرة قوصرة[٢] قبل ذلك . وفى التواريخ الإفرنجية أن المسلمين قاموا سنة ٨٠٦ م بعدة غزوات فى كورسيكا . وفى سنة ٨١٠ ظفروا بالاستيلاء عليها مؤقتاً حتى أخرجتهم منها جنود كارل الأكبر (شارلمان) . ولكنهم غزوها بعد ذلك مراراً . والظاهر أن أسد بن الفرات ، وقد كانت هذه المياه وقتئذ مسرحاً لأساطيل الأغالبة ، كان له نصيب بارز فى هذه الغزوات .

ولما اعتزم ابن الأغلب فتح صقلية حسبما تقدم ، استنفر الناس للجهاد ، فهرعوا لتلبية دعوته ، وجمعت السفن من مختلف السواحل ، وندب ابن الفرات لقيادة الحملة .وخرج القاضى وأمير البحر الشيخ على رأس سفنه مرة أخرى فى ربيع سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) متجهاً إلى جنوبى صقلية . ولم تكن هذه الحملة من السرايا الصغيرة ، بل كانت فيما يبدو أعظم حملة عربية قادها أسد بن الفرات ، وكانت حسبما تذكر الرواية الإسلامية تضم تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل غير النواتية . وكان معظمهم من الجند المجاهدين فى سبيل الله . ورست السفن الإسلامية فى ثغر مازر (أو مازارا) فى طرف الجزيرة الغربى . وهو أقرب ثغورها إلى الشاطئ الإفريقى ، ونفذ أسد بن الفرات على رأس جنده إلى شرقى الجزيرة ورفض الاستعانة بالروم الذين اجتمعوا بقيادة فيمى لمعاونته فى القتال . واستولى المسلمون على عدة حصون ، وحاصروا سرقوسة وبلرم . ووقعت بينهم وبين الروم (البيزنطيين) معارك طاحنة ، وبعث الإمبراطور بالأمداد . فاشتد

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة بن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ص ٤٣٠ – ٤٣١ .

(٢) ابن خلدون المقدمة ص ٢١١ . وجزيرة قوصرة هى جزيرة بنتلاريا (Pantellaria) الصغيرة وهى واقعة شرقى تونس .

الأمر على المسلمين ، وهزموا فى عدة مواقع ، ومات منهم كثيرون بالوباء ومنهم قائدهم ابن الفرات (٢١٣ هـ) . وشدد الروم الحصار عليهم فبعث ابن الأغلب الأمداد إلى صقلية ، ووصل إليها فى الوقت نفسه أسطول من الأندلس من السرايا المجاهدة المغامرة سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) ، فأعاد المسلمون الكرة وفتحوا بلرم ؛ واستمر ابن الأغلب فى تسيير البعوث والأمداد إلى صقلية ، واستمر المسلمون فى افتتاح مدنها وحصونها تباعاً : بلرم وقصر يانه (كسترو جوڤانى) وجرجنت (جرجنتو) وقطانيه ومسينى وغيرها ؛ بيد أن تقدمهم فى الجزيرة كان بطيئاً لوعورة أرضها ، فاستقروا فيما افتتحوه منها ، وأسسوا بها إمارة يتولى عليها الولاة حتى تم افتتاح الجزيرة بافتتاح سرقوسة آخر معاقلها فى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) . وقامت فى صقلية دولة إسلامية لبثت زهاء قرنين ، وازدهرت فى ظلها الجزيرة ، وغدت حديقة يانعة ، تزهو بعلومها وتجارتها وصناعتها ، حتى إذا أدرك الوهن والانحلال تلك الدولة الإسلامية الصغيرة ، توالت حملات الفرنج على الجزيرة ، حتى استعادها الدوق روجر (رجّار) النورمانى سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) ، وانتهت بذلك دولة الإسلام فى صقلية كما ينتهى الحلم السعيد[1] .

ومما هو جدير بالذكر ، أن الحضارة الإسلامية ، لبثت حيناً تزدهر فى صقلية ، بعد افتتاح الفرنج النورمان لها . وكان أولئك الأمراء النورمان من ذوى الأفق الواسع ، وممن يقدرون تفوق المسلمين الحضارى ، ويؤثرون الانتفاع بعلومهم ومعارفهم . ومن ثم فقد استطاعت بقية الجالية الإسلامية فى صقلية ، أن تعيش فى ظلهم مدى حين آمنة متمتعة بشعائرها ونشاطها العلمى والمهنى ، وفى ظل هذا التسامح المحمود ، دعا الدوق روجر الثانى ولد فاتح الجزيرة للعمل فى بلاطه رهطاً من العلماء المسلمين ، من الصقليين المحليين ، ومن إفريقية والأندلس ؛ وكان فى مقدمة هؤلاء العلامة الجغرافى الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإدريسى السبتى ، المشهور بالشريف الإدريسى . دعاه الدوق ، وأغدق عليه رعايته ، وعهد إليه بأن يعمل له كرة أرضية من الفضة الخالصة ترسم عليها

---

(١) راجع فى فتح صقلية ودولة الإسلام بها . ابن الأثير ج ٦ ص ١١٣ – ١١٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ ، و١٩٩ و٢٢٠ ، و٢٠٧ – ٢١١ ، ومعجم ياقوت تحت كلمة « صقلية »

الأقاليم السبعة التى هى أساس التقسيم الجغرافى القديم ، فقام العلامة المسلم بمهمته على أكمل وجه ، وأثابه الدوق عنها أعظم إثابة .

ثم عهد الدوق بعد ذلك إلى الإدريسى ، بوضع موسوعة جغرافية توصف فيها أحوال بلاد الأرض . وصورها وبحارها وجبالها . وخواصها ، وذكر أحوال أهلها . فوضع الإدريسى موسوعته الجغرافية الشهيرة التى خلدت اسمه وهى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . وانتهى من كتابتها فى أوائل سنة ١١٥٤ م ، قبيل وفاة الدوق بقليل . ولما كان هذا المؤلف العظيم قد وضع بإشارة الدوق ورعايته . فقد أهدى إليه فى مقدمته . وسمى أيضاً « بكتاب رجار » أو « الكتاب الرجارى » تنوبهاً من مؤلفه المسلم بفضل هذا الأمير العالم المستنير . ويعتبر « نزهة المشتاق » أعظم مؤلف جغرافى فى العصور الوسطى . وهو يشغل عدة مجلدات كبيرة . وهو يمثل بظروف تأليفه ثمرة من أجل ثمار التعاون المستنير بين الشرق والغرب[١] .

* * *

وغدت صقلية منذ افتتحها المسلمون قاعدة لطائفة كبيرة من الحملات والغزوات البحرية التى ينظمها الأغالبة أو ولاة صقلية . أوتنظمها العصابات الخاصة ، لغزو الثغور والشواطئ الإيطالية ونهبها . وكانت هذه الحملات تنقض بلا انقطاع على الشواطئ الإيطالية الشرقية والغربية فتنشر الذعر والروع فى الإمارات النصرانية . وتعود مثقلة بالغنائم والأسرى . وتقيم للرقيق فى الثغور الإسلامية أسواقاً رائجة . ففى سنة ٨٤٣ م (٢٢٩ هـ) اختلف أميران من اللومبارد على إمارة بنفونتوم (جنوب إيطاليا) فاستنصر أحدهما بأمير صقلية الفضل بن جعفر . فبعث إلى قلورية[٢] بحملة قوية ، فاستولت على ثغر بارى (باره) واستقرت به . وأنشأت فيه قاعدة قوية للغزو فى هذه المياه . وعاثت فى نواحى قلورية وفرضت الجزية على معظم مدنها . وفى سنة ٨٤٦ م (٢٣٢ هـ) سارت

---

(١) نشر مختصر كتاب « نزهة المشتاق » فى رومة سنة ١٥٩٢ . ونشرت منه الأجزاء الخاصة بجغرافية اسبانيا وإفريقية وإيطاليا وصقلية . وقد ألفت أخيراً لجنة من العلماء المستشرقين للقيام على نشر الموسوعة كلها .

(٢) يسمى العرب كلابريا وهى أقصى جنوب إيطاليا بقلورية أو الأرض الكبيرة أو البر الكبير .

حملة بحرية أخرى من صقلية إلى شاطئ إيطاليا الغربى ، وبعد أن عاثت فى ثغوره ونهبت فوندى ، رست أمام مصب نهر تڤيرى (التيبر) الذى تقع عليه رومة ؛ ثم نفذت إلى رومة ونهبت كنيستى القديس بطرس والقديس بولس ، وكانتا وقتئذ خارج رومة . ولم ينقذ « ملكة العالم » (رومة) من الوقوع فى يدها سوى جند الإمبراطور لويس الثانى (سنة ٨٥٠م) فارتدت إلى محاصرة جايتا . واضطر البابا ليون الرابع إلى تحصين ضاحية الڤاتيكان ، وأدخل كنيستى القديس بولس والقديس بطرس فى المدينة الجديدة المعروفة « بمدينة ليون »[1] واستولى المسلمون فى نفس الوقت على ثغر تارانتو (تارانت) ثم على راجوزا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية . وتوالت حملات البحارة المسلمين بعدئذ على الثغور الإيطالية حتى اضطر سكانها أن ينشئوا على طول الشاطئ أبراجاً وقلاعاً وافرة المنعة لكى ترد الهجوم المفاجئ ، شامخة الارتفاع لكى لاتصل النيران التى تضرم فى أسفلها إلى طبقاتها العليا . وهبت على إيطاليا فى هذا العصر عاصفة من الخوف والذعر المستمر ، وسرت الفوضى إلى جميع طبقات المجتمع[2] .

ولم يكن خطر الحملات الإسلامية البحرية على ثغور الدولة البيزنطية فى شرق بحر الروم أقل منه فى المياه الإيطالية . ففى سنة ٨٨١ م (٢٦٧ هـ) خرج أمير طرسوس فى ثلاثين سفينة وهاجم شاليس ، ولكن أونيانيس القائد البيزنطى أشرف عليه بقوة كبيرة ، ونشبت بين الفريقين معركة قتل فيها أمير طرسوس ، وهزم المسلمون . ولم تمض على ذلك بضعة أعوام حتى انقضت عصابة من إقريطش على شواطئ خيليس (الدردنيل) ونهبت جزيرة بركنيسوس . ثم ارتدت أمام الأسطول الإمبراطورى بقيادة أوريفاس ، غير أنها عادت بسفن جديدة وانقضت على شواطئ اليونان الجنوبية . فاضطر أوريفاس أن يلجأ إلى حيلة قديمة معروفة هى أن ينقل السفن من المياه الشرقية إلى مياه الأدرياتيك فوق مضيق كورنثة ، وبذلك استطاع أن يداهم سفن المسلمين عند مدخل الأدرياتيك وأن تمزقها .

---

(٢) سنعود إلى غزو المسلمين لرومة فى فصل خاص .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٢ ، وابن الأثير ج ٦ ص ١٧٧ ، وكذلك Finlay: ibid ; Book II - s. 11, (I)

٣ — أعظم بحار مسلم

وفى أواخر القرن الثالث الهجرى (أواخر القرن التاسع الميلادى) ظهر فى شرق بحر الروم أعظم بحار فى ذلك العصر ، وأعظم بحار مسلم على الإطلاق ، وهو أمير البحر الذى تعرفه الرواية البيزنطية باسم ليون الطرابلسى (Leo of Tripolis) وتفيض فى سرد حملاته وغزواته البحرية الجريئة على ثغور الدولة البيزنطية ، وماكانت تحدثه هذه الغزوات فى الدولة وثغورها من الروع والاضطراب .

فمن ليون الطرابلسى هذا ؟ لقد انتهينا بالبحث والتحقيق إلى القطع بأنه هو أمير البحر أو القائد الذى يطلق عليه المؤرخون المسلمون اسم « غلام زرافة » . وليس فى الرواية العربية ما يلقى الضياء على نشأته . ولكن الرواية البيزنطية تحدثنا عن هذه النشأة ، فتقول إن ليون الطرابلسى ولد من أبوين نصرانيين فى أتاليا من أعمال بامفليا[١] . ولكنه اندمج منذ حداثته فى العصابات المسلمة واعتنق الإسلام ، واستقر فى طرابلس من أعمال الشام[٢] . ونشأ ليون منذ حداثته فوق متن السفن ، وتلقى دروسه الحربية فى لجة البحر ، واشترك فى كثير من الغزوات والحملات الناهبة التى كانت تنظمها العصابات البحرية المسلمة . للإغارة على شواطئ بحر الأرخبيل وثغوره وجزره . ثم انتقل إلى طرسوس وجمع تحت لوائه أمهر وأشجع البحارة المسلمين فى هذا العصر ، واتخذ طرسوس محط رحاله ، ومرفأ سفنه ، وأضحى فى عصبته القوية المغامرة ، قوة تروع الدولة البيزنطية وثغورها .

وكانت أعظم غزوة قام بها ليون الطرابلسى أو غلام زرافة ، هى غزوة تسالونيكا[٣] فى سنة ٩٠٤ م (٢٩١ هـ) . والرواية الإسلامية موجزة أيضاً فى أخبار هذه الغزوة الشهيرة بينما تفيض الرواية البيزنطية فى تفاصيلها. وتجمل الرواية

---

(١) فى جنوب شرق آسيا الصغرى .

(٢) Finlay : ibid.

(١) تسالونيكا أو تسالونكى هى ثغر سلانيك الحديث . وقد كانت فى العصر الذى نتحدث عنه أعظم ثغور الدولة الشرقية وأغناها بعد قسطنطينية ، وكان سكانها يبلغون يومئذ زهاء ربع مليون .

الإسلامية خبرها فيما يأتى : « فى سنة ٢٩١ هـ سار القائد المعروف بغلام زرافة من طرسوس نحو بلاد الروم ففتح مدينة « أنطاكية » وهى تعادل القسطنطينية ، فتحها بالسيف عنوة فقتل خمسة آلاف رجل وأسر مثلها ؛ واستنقذ من أسرى المسلمين مثلها ، وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع والرقيق ، فقسمها مع غنائم أنطاكية فكان السهم ألف دينار »[1] . ويرى أن أنطاكية المقصودة هنا هى تسالونيكا لا أنطاكية الشام التى كانت يومئذ ثغراً مسلماً . وسننقل فيما يلى تفاصيل الرواية البيزنطية ، وقد دونها مؤرخ معاصر شهد الموقعة بنفسه هو يوحنا كامنياتس .

خرج ليون الطرابلسى من طرسوس فى أربع وخمسين سفينة فى كل منها نحو مائتى مقاتل عدا جماعة مختارة من الرؤساء والضباط . وانضم إليه فى مسيره أشجع خوارج البحر (القرصان)[2] فى مياه المشرق . ولم يجرؤ الأسطول البيزنطى الذى بعثه الإمبراطور ليون السادس لحماية ثغور الدولة على لقاء سفن المسلمين . فارتد إلى ضفاف الهليس (الدردنيل) تاركاً مياه الأرخبيل (إيجه) مفتوحة لسفن الغزاة . وذاع فى قسطنطينية أن الغزاة يقصدون ثغر تسالونيكا ، وكانت عندئذ أعظم الثغور البيزنطية ، أمنعها وأغناها بعد قسطنطينية . وقد جعلتها الطبيعة مخرج إقليم غنى خصب . وتقع تسالونيكا على هضاب أولمبوس ، وتشرف على رأس خليج ضيق تستطيع أن تمتنع به السفن ؛ وكان يفصلها عنه سور ضخم يمتد نحو ميل على طول الشاطىء ، وتحميها بعد ذلك قلاع حصينة شيدت على آكام مرتفعة ، ولكنها كانت يومئذ واهية متداعية ، وكان السور الكبير قد تهدمت حافته العليا مما يلى البحر فكان فى وسع السفن أن تدنو من أسوار المدينة . ولذا حاول بتروناس قائد الحامية أن يرد السفن الغازية بأن يلقى فى الماء على مسافة من الأسوار ، مقادير كبيرة من الصخور الضخمة وقطع الرخام الذى كانت تزدان به القبور اليونانية ، لكى يعرض بذلك سفن الغزاة لنبال اليونانيين ونيرانهم . أما سكان المدينة أنفسهم فقد وضعوا ثقتهم فى حامى مدينتهم « القديس دمتريوس »

---

(١) هذه رواية ابن الأثير (ج ٧ ص ١٧٦) وابن خلدون (ج ٣ ص ٣٥٧) مجتمعين .

(٢) كلمة قرصان كلمة معربة عن الأصل الفرنجى (Corsaire) ومعناها خوارج البحر وقد رأيناها مترجمة فى « صبح الأعشى » بكلمة « كرصالية » ولكنا لا نستحسن هذه الترجمة .

وأيقنوا أنه أهل لرد الخطر الجديد ، كما رد الصقالبة عن المدينة مراراً ، وتقدم لغوثهم فى كل حصار وغزوة ، وحماهم بالأخص من عدوان المسلمين والوثنيين. وكانت الإشاعات المزعجة تتردد كل يوم بمقدم الغزاة ، وكان ليون الطرابلسى قد طارد الأسطول البيزنطى حتى مضيق الهيليس ثم عاد إلى تاسوس . ثم توفى بتروناس فجأة ، فتولى القيادة مكانه ضابط يدعى نيكيتاس ، وبذل جهداً كبيراً فى إعداد وسائل الدفاع ، واستقدم بعض الجند الصقالبة من الأنحاء القريبة . بيد أن سكان المدينة لم ينزعوا ثقتهم من القديس دمتريوس ، فهرعوا وراء القسس والأسقف إلى كنيسة هذا القديس ، وانهمكوا فى الصلاة العامة ليل نهار . أما ليون الطرابلسى فوقف قليلا فى تاسوس ليصلح سفنه ، وليعد المجانيق وغيرها من آلات التدمير . وفى يوم الأحد ٢٩ يوليه سنة ٩٠٤ طار الخبر فى المدينة ، بأن الغزاة قد وصلوا إلى الخليج واحتجبوا عن الأنظار . فعم الاضطراب والذعر ، وارتفع الصراخ والعويل ، وتأهب السكان للقتال بين دموع الزوجات والأطفال ؛ ثم ظهرت سفن المسلمين أخيراً ، وتقدمت من المدينة . وكان مرفأها محميا بسلاسل ضخمة مدت بين الضفتين ، وقد أغرقت فيه سفن عدة لتحول دون اقتراب الهاجمين ، فاستطلع أمير البحر المسلم مدخل المدينة وحصونها ، ثم قام بهجوم محلى ليختبر منعتها ، وليتعرف مبلغ استعداد أهلها للدفاع عنها .

وفى اليوم التالى هاجم المسلمون المدينة من الشرق ، وحاولوا اقتحام السور بنصب السلالم ، وإطلاق المجانيق ، ولكنهم ردوا أمام سيل من أحجار البيزنطيين وسهامهم . فلجأ ليون الطرابلسى عندئذ إلى وسيلة أخرى ، وبعث طلائعه بحراقات غطيت حتى لا تصلها نار المدافعين ، وأضرم الطلائع النار تحت أبواب المدينة من الشرق وارتدوا تحت وابل من السهام والأحجار ، فارتفعت ألسنة اللهب وتداعت الأبواب الحديدية ، ولكن المسلمين لم يظفروا بجديد إذ ظهر أن الممرات التى تلى الأبواب قد سدت بالبناء المحكم وأقيمت فوقها أبراج منيعة . وكان ليون الطرابلسى يرمى بكل هذه المقدمات إلى تحويل عناية المدافعين عن غايته الحقيقية .

وكان قد رأى أنه يستطيع محاذاة السور فى عدة مواضع عينها بدقة ، وعندئذ

يدأ بتنفيذ خطته النهائية بمنتهى البراعة والسرعة ؛ فربطت عدة سفن كل اثنتين معاً ربطاً وثيقاً محكماً ، وأقيم فوق كل اثنتين برج خشبي مرتفع . وفى صباح اليوم التالى دفعت هذه الأبراج نحو المواضع المنخفضة فى السور ، وفى كل منها نخبة من المسلمين تستطيع أن تشرف على أبراج المدافعين من عل ؛ فنشبت بين الفريقين معركة هائلة ، وقذف المسلمون البيزنطيين بوابل مستمر من الأحجار والسهام والنار اليونانية التى بدأوا باستعمالها فى هذا العصر[1] فارتد اليونانيون عن الأبراج ؛ وكان بحارة السفن السكندرية أول من اقتحم السور ، فانقضوا على باقى الأبراج وأجلوا اليونانيين عنها ، ثم فتحوا أبواب المدينة ، فانقض المسلمون عليها من كل ناحية ، ودخل البحارة المكلفون بجمع الأسلاب شاهرين السيوف وليس عليهم سوى السراويل ، وفر البيزنطيون والصقالبة من كل صوب .

ثم قسم المسلمون أنفسهم إلى جماعات أخذت تجوس خلال المدينة قتلا ونهباً وسبياً ؛ وكان المؤرخ البيزنطى يوحنا كامنياتس وعدد من أفراد أسرته بين الأسرى ، وقع فى يد جماعة من الأحباش فالتمس الرحمة منهم ، ووعد بأن يدل على مخبيء أودعت به ثروات أسرته . وكان بين الأحباش من يفهم اليونانية ، فقاده رئيس الجماعة إلى أمير البحر فأرسل معه من ينقل الكنز ؛ وكان من حسن طالع كامنياتس ان وجد الكنز سليما ، فرضيه ليون الطرابلسى فداء لحياة المؤرخ وأسرته . وأمر بحمله مع من أسر حتى يستبدل فى طرسوس بمن فى يد البيزنطيين من أسرى المسلمين . وبعد أن أنفق المسلمون بضعة أيام فى النهب والسبي ، غادر ليون الطرابلسى ثغر تسالونيكا مثقلا بغنائم فادحة ، وعدد كبير من الأسرى يقدره يوحنا كامنياتس باثنين وعشرين ألفاً بين رجال ونساء وغلمان ، أنتخبوا لغنى ذويهم لكى يستطيعوا فداءهم ، أو لجمالهم لكى يجدوا فى أسواق الرقيق أثماناً رابحة ؛ وكان بين الأسرى كثير من أشراف اليونانيين قاسوا الأهوال فوق متن السفن ، ومات كثير منهم من الجوع والبرد .

---

(١) سنرى فى فصل قادم أنه قد وجد نوعان من هذه النار ، نوع استعمل منذ أقدم العصور ، ونوع اخترعه البيزنطيون بعد ذلك ، ولم يعرف العرب سره إلا فى القرن الحادى عشر . ونريد بالنار اليونانية هنا النوع الأول .

وسار ليون الطرابلسى فى سفنه متجنباً لقاء الأسطول البيزنطى ، حتى لا يرهقه وهو مثقل بغنائمه ، ورسا فى زنتاريون من ثغور إقريطش ، وهنالك أنفق بضعة أيام فى توزيع الغنيمة والسبى ، ثم تفرقت السفن ، وسارت كل جماعة من البحارة إلى مرافئها فى مياه مصر والشأم ؛ ووصل ليون إلى طرابلس فى ٢٤ سبتمبر سنة ٩٠٤ ، ثم سار إلى طرسوس التى كانت قاعدة للفداء أو استبدال الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين ، وهنالك استبدل أشراف تسالونيكا ومن بينهم المؤرخ كامنياتس ، وهو الذى استخرجنا من كتاباته قصة هذه الغزوة الكبرى ، بطائفة من أسرى المسلمين[1] .

* * *

هذه لمحة فى أخبار البحارة المسلمين ، ومنها نرى أن السيادة البحرية فى بحر الروم كانت للمسلمين مدى أحقاب طويلة ، وأن سير تلك الفتوحات والحملات البحرية ، التى انتهت بفتح إقريطش وصقلية وثغور إيطاليا الجنوبية ، واستطاعت أن تجوس خلال البحر حتى قسطنطينية عاصمة الدولة الشرقية ، وحتى رومة عاصمة النصرانية ، وجنوه أقصى الثغور الإيطالية ، ليست تقل فى الأهمية والجرأة عن غزوات البحارة الإسبان والإنجليز فى القرن السادس عشر ، فى المياه الأمريكية ؛ وليست أعمال بحارة كأبى حفص عمر البلوطى وليون الطرابلسى ، أقل رنيناً وروعة من أعمال أمراء البحر المحدثين مثل أندريا دوريا ، وچون هوكنس ، وفرنسيس دريك ، وكورتيز ، وبيزارو وغيرهم ، ممن تملأ سيرهم وأعمالهم صحفاً من أبدع وأمتع صحف التاريخ الحديث . وفى سير هذه الحملات والغزوات الإسلامية نستشف اضمحلال الدولة البيزنطية ، وضعف حكومة قسطنطينية ، وفساد بلاط يؤثر طغيانه تبديد أموال الدولة فى مظاهر الترف وتشييد القصور والكنائس . على تحصين أطراف الدولة وإعداد جيوشها وأساطيلها . بيد أنا نستطيع أن نلاحظ أيضاً أن ميول الشعوب التى تحكمها الدولة كانت عاملا هاماً

(١) كان الفداء بين المسلمين والنصارى ينظم بصفة رسمية بين الخلافة والدولة البيزنطية ، وينفذ دائماً فى أحد ثغور الشأم أو الأناضول ، فينقذ بهذه الوسيلة عشرات الآلاف من أسرى الحرب المسلمين ، نظير تسريح أمثالهم من الأسرى النصارى . وقد نظمت عدة فدى رسمية فى عصور مختلفة (راجع طرفاً من أخبار هذا النظام فى خطط المقريزى ج ٢ ص ١٩١ ، و١٩٢) . وراجع رواية المؤرخ كامنياتس فى : (Finlay : ibid, Book II. Ch. I.)

فى تسهيل غزوات المسلمين ، فإن هذه الشعوب لم تر فى حكم المسلمين من الغضاضة ما كانت تقدره حكومة قسطنطينية ، التى بلغ عسفها وجورها مبلغاً لم تبلغه حكومة إسلامية فى هذا العصر ؛ ولنا دليل فى فتح صقلية التى انضم أهلها إلى المسلمين فى محاربة البيزنطيين .

وكانت هذه الحملات والغزوات تقترن عادة بضروب رائعة من العيث والسفك من الجانبين المتحاربين ، وكانت تغذى أسواق المشرق كلها وقصوره بأسراب السرارى والرقيق . بيد أنا نلاحظ أن خوارج البحر المسلمين كانوا يختصون الثغور النصرانية بعدوانهم ، مما يدل على أن نزعة قومية أو دينية كانت غالبة فيهم ؛ وكانوا يؤدون إلى الحكومات الإسلامية خدمات جليلة بإضعاف جيوش الدولة البيزنطية وأساطيلها ، واستبدال أسرى المسلمين بمن يأسرون فى غزواتهم ؛ ثم نلاحظ فى النهاية أن البحارة المسلمين كانوا مستعمرين حقاً ، فقد استعمروا إقريطش وغيرها من جزر الأرخبيل عصوراً ؛ وكانوا عضداً قوياً للدولة الإسلامية ، التى قامت فى صقلية وازدهرت زهاء قرنين .

الفصل الخامس

غزو المسلمين لرومة

٢٣٦ و٢٥٦ هـ — ٨٥٠ و ٨٧٠ م

فى أوائل القرن التاسع الميلادى افتتح المسلمون كما قدمنا إقريطش وصقلية . وافتتحوا بعض ولايات إيطاليا الجنوبية ، وقاموا فى المياه الإيطالية بسلسلة من الغزوات والمعارك البحرية تكون فصلا فريداً فى صحف التاريخ الإسلامى .وكانت الحروب والفتوح الإسلامية قبل ذلك تقتصر على اليابسة ، مما يلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ولم يخرج المسلمون إلى البحر إلا فى بعض الغزوات القليلة . ثم كان حصارهم لقسطنطينية مرتين ، وهو من أعظم حملاتهم البحرية ، وكان جوازهم إلى فتح الأندلس . وكانت نكبة المسلمين أمام أسوار قسطنطينية فى المرتين عاملا جديداً فى روعة المسلمين من البحر وأهواله ، فكان عليهم أن يمضوا قرناً آخر فى تعرف أسراره ودرس طبائعه وأحواله . وقد حملوا على ذلك بسير الظروف والحوادث فكانت غارات النورمان على شواطئ الأندلس وثغورها مثلا ، عاملا فى اهتمام حكومة قرطبة بإنشاء الأساطيل والقوى البحرية ، وكان الخطر الذى يهدد الأغالبة فى إفريقية من جهة البحر ، عاملا فى اهتمامهم بالتحصينات والمنشآت البحرية ، وحشد جيش مدرب من أمراء البحر وجنوده . وكان القرن الثامن الميلادى عصر التجارب البحرية بالنسبة للأساطيل الإسلامية ، فنراها تقنع بالدفاع ، ولا تقدم على الهجوم أو التوغل فى عرض البحر إلا فى فرص نادرة . ولكن لم يبزغ فجر القرن التاسع حتى تبدلت الحال ، وحتى كانت هذه الأساطيل تجوس خلال البحر المتوسط من أقصاه إلى أقصاه، وتفتتح جزائره وتثخن فى شواطئه وثغوره . فكان القرن التاسع كما رأيت عصر السيادة البحرية الإسلامية .

ويصف ابن خلدون عصر هذه السيادة البحرية فيما يأتى : « وكان المسلمون

لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر (بحر الروم) من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ؛ مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج . وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوه فتنقلب بالظفر والغنيمة ، وافتتح مجاهد العامرى صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية فى أساطيله سنة خمس وأربعمائة وارتجعها النصارى لوقتها ، والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجيز البحر فى الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن فى ممالكهم »(١) .

ولم يكن فضل الحكومات الإسلامية فى إحراز هذه السيادة ، قدر فضل المغامرين من أمراء البحر المسلمين . وكانت مياه البحر الأبيض المتوسط ميداناً لجولات هذه الأساطيل غير الرسمية ، وكانت جزائره الغنية محط رحالها ومطمح أنظارها . وكانت شواطئ صقلية وقلورية (كلابريا) التى استولى المسلمون على بعض ثغورها ، ملاذاً لطائفة من هذه العصابات الحربية القوية . ولم تكن هذه العصابات الغازية الناهبة تعمل دائماً بوحى الحكومات الإسلامية . ولكنها كانت فى الغالب تتمتع على الأقل بتأييدها المعنوى ، فكانت تعمل تحت سمعها وبصرها وتحتمى بثغورها وتتزود منها بالمؤن والذخائر . وكانت تؤدى لها خدمات جليلة ، إذ تنهك بغاراتها المتوالية قوى أعدائها من النصارى . وتساعد فى فرص كثيرة بما تحمل من أسرى النصارى على افتداء أسرى المسلمين بطريق المبادلة . وكانت فى بعض الأحيان تعمل لحساب هذه الحكومات مباشرة ، فتحارب مع القوات النظامية جنباً إلى جنب وتسهل مهمتها فى الهجوم أو الدفاع .

وليس فى سير الحملات البحرية الإسلامية أغرب وأمتع من غزو المسلمين

---

(١) المقدمة ، ص ٣١٢

لمدينة رومة . فقد غزا المسلمون مدينة القياصرة مرتين . وليس لدينا سوى لمحات ضئيلة من أخبار هذه الغزوة التى عنيت بالإشارة إليهاتواريخ الفرنج فقط . وقد نحمل صمت الرواية العربية على أن هذه الغزوة لم تكن لحساب حكومة إسلامية منظمة ، وإنما قامت بها عصابات قوية من المسلمين . غير أنه يلوح لنا من تكرر هذه الحملات على الشواطئ الإيطالية وعلى رومة ؛ ومن ضخامتها وانتظامها ، ومن تعاهد قادتها مع البابا كما سنرى ، ومن خروجها من ثغور صقلية وعودها إليها ، أنها كانت على الأقل تعمل بوحى حكومة صقلية ، أوبالحرى حكومة إفريقية التى كانت صقلية تابعة لها .

وكانت « ملكة العالم » (رومة) لا تزال حتى فى ذلك العهد الذى فقدت فيه منعتها القديمة ، تتمتع بلمحة من هيبتها الذاهبة . وكان القوط والوندال واللومبارد قد غزوها مراراً وأثخنوا فى أنحائها الفخمة ، ولكنهم احترموا دائماً أحياءها ومعاهدها المقدسة ، التى كانت تقع فى ظاهر الڤاتيكان وفى طريق ثغر أوستيا الواقع على مصب تقبرى (التيبر) ، ولكن المعاهد والأساطير النصرانية لم تبث مثل هذه الروعة فى أنفس البحارة المسلمين . فى سنة ٨٤٦ م (٢٣١ هـ) سارت حملة كبيرة من صقلية نحو الشمال بحذاء الشاطئ الإيطالى ، وبعد أن عاثت فى ثغوره وحاصرت جايتا ونهبت فوندى ، رست عند مصب نهر تقبرى . وليس فى الرواية الإسلامية ما يلقى ضياء على هذه الغزوة . ولكنها وقعت فى عهد أبى العباس محمد بن الأغلب أمير إفريقية (٢٢٦ — ٢٤٢ هـ) ؛ وكان على صقلية يومئذ الفضل بن جعفر الهمذانى . والظاهر أنها كانت من السرايا البحرية الخاصة ، ولكن لا ريب أن لأمير صقلية يداً فى تنظيمها وتوجيهها . وكان على كرسى البابوية يومئذ البابا سرجيوس الثانى . وكانت أسوار رومة لا تشمل كل المدينة القديمة ، بل كان الحى المقدس ، وفيه كنيستا القديس بطرس والقديس بولس وطائفة كبيرة من المعابد والقبور القديمة ، خارجاً عن الأسوار ، معرضاً للاعتداء. فانقض البحارة المسلمون على ذلك الحى وجردوا الهياكل والأصنام من حليها النفيسة ، وانتزعوا هيكلا فضياً من قبر القديس بولس ، وضربوا الحصار على مدينة القياصرة . فارتاع البابا ، واهتز الشعب الرومانى فرقاً ورعباً . وبادر

الإمبراطور لويس الثانى ملك الفرنج واللومبارد بإرسال حملة من جنده لمقاتلة الغزاة، وجهزت ثغور نابولى (نابل) وأمالنى وجايتا حملة بحرية لمطاردتهم. وقدمت فى ذلك الحين سفن مسلمة أخرى لتشد أزر الحملة. على أن الذى أنقذ المدينة الخالدة من الوقوع فى يد المسلمين هو خلاف الزعماء المسلمين أنفسهم، فرفعوا الحصار بعد أن قاتلوا جند الإمبراطور وسفن الثغور الإيطالية قتالا رائعاً غرق فيه بعض سفنهم، وعادوا إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والأسرى (سنة ٨٥٠ م).

فكشفت هذه الجرأة للبابوية والنصرانية ضعف المدينة الخالدة وما تتعرض إليه من المخاطر؛ ونشط خلف سرجيوس، ليون الرابع إلى تحصينها، وأدخل الحى المقدس وكنيستى القديس بطرس والقديس بولس فى حمى الأسوار، وحصن هذه الضاحية التى ما زالت تسمى «المدينة الليونية» تخليداً لاسمه؛ وأغلق مصب نهر تفيرى بسلسلة ضخمة من الحديد تحول دون تقدم الهاجمين.

وتوالت حملات السرايا المسلمة بعدئذ على الثغور الإيطالية. وكانت فى الغالب حملات ناهبة. ولكن فكرة غزو المدينة الخالدة لبثت تجول فى أذهان المسلمين أعواماً أخرى. ففى سنة ٨٧٠ م (٢٥٦ هـ) نشط أمراء البحر المسلمون فى ثغور إفريقية والأندلس إلى تجهيز حملة كبيرة. ولم نجد فى الرواية الإسلامية ما يلقى الضياء أيضاً على أخبار هذه الحملة. ولكن هنالك ما يدل على أن حكومتى إفريقية وصقلية هما اللتان أشرفتا على إعدادها وأمدها بالموازرة المادية. وكان أمير إفريقية يومئذ محمد بن أحمد بن الأغلب (٢٥٠ — ٢٦١ هـ)، وعلى صقلية محمد بن خفاجة. وكان ابن الأغلب قد افتتح مالطة قبل ذلك بعام (٢٥٥ هـ). وظهر خفاجة بن سفيان أمير صقلية بحملاته البحرية فى مياه قلورية. واجتمعت الوحدات المختلفة فى بعض ثغور سردانية، ثم قصدت إلى الشاطئ الإيطالى فأثخنت فيه كعادتها، ورست عند مصب تفيرى على قيد ستة عشر ميلا من رومة. وكان البابا ليون الرابع قد عقد محالفة دفاعية مع مجمع الثغور الإمبراطورية أعنى نابولى وأمالنى وجايتا، فبادر أسطولها فى الحال بالزحف على سفن المسلمين. تحت إمرة قائد شجاع فتى يدعى قيصريوس. فخف المسلمون إلى لقائه. ونشبت بين الفريقين معركة بحرية كبرى فى مياه أوستيا ثغر رومة. ولكن عاصفة هائلة

هبت عندئذ فارتد الأسطول الفرنجى إلى الشاطئ ، واصطدمت سفن المسلمين بعضها ببعض فغرق عدد منها . بيد أن هذه الخسارة الجزئية لم ترد المسلمين عن عزمهم ، فلبثوا يهددون المدينة بالحصار حتى اضطر البابا يوحنا الثامن خلف البابا ليون أن يفاوضهم فى الجلاء ، على أن يدفع لهم جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الفضة .

وهكذا كانت خاتمة المحاولة التى بذلها المسلمون لغزو مدينة القياصرة . فلم يعودوا إلى تلك المياه فى حملات كبيرة منظمة . ولم يكن فتح رومة فى ذلك العصر أمنية بعيدة المنال كفتح قسطنطينية مثلا . ولكن الخلاف كان يجثم دائماً فى طى هذه الحملات ، وكان ظمأ الكسب يغلب على فكرة الإستقرار والفتح السياسى المنظم : وكانت دولة الأغالبة فى ذلك الوقت فى طور انحلالها ، وقد بدأ حكام صقلية يعملون على فصلها عن الحكومة المركزية . أما حكومة قرطبة فكانت تعنى يومئذ بقمع الثورات الداخلية التى كانت تمزق أوصال الأندلس ، ورد غارات النورمان والفرنج ، وكانت بعيدة عن فكرة الفتوحات البحرية القاصية . فكانت فكرة افتتاح رومة فى الواقع فكرة المغامرين من أمراء البحر والبحارة المسلمين ، عليهم غرمها ، ولهم غنمها ، وإن كانت حكومة إفريقية لم تضمن عليهم كما قدمنا مؤازرتها المادية أحياناً ، والمعنوية دائماً[1] .

---

(١) راجع فى أخبار هذه الغزوة فى Famin : Invasions des Sarrazins en Italie و Finlay : ibid • و Gilbbon : ibid , Ch LII ففيها تفاصيل مفيدة عن غزوات المسلمين فى المياه الإيطالية . وراجع أيضاً ابن خلدون (ج ٤ ص ١٠٠ — ٢٠٥) .

الفصل السادس

موقعة ملازكرد

٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م

كانت تجتمع منذ منتصف القرن الخامس الهجرى أو منتصف القرن الحادى عشر الميلادى فى الأفق ، أعراض الفتنة العالمية الكبرى التى أخذت عناصرها تختمر ببطئ ثم تسفر ما بين آن وآخر عن صدام مضطرم بين الشرق والغرب ، وبين الإسلام والنصرانية . فى المشرق كانت الدولة الفاطمية أعظم الدول الإسلامية فى بداية القرن الخامس الهجرى ، قد أخذت فى عهد المستنصر بالله تنحدر إلى غمر الضعف والفوضى . وكانت خصيمتها الكبرى الدولة البيزنطية قد أخذت تتفوق عليها فى ميدان الحرب والسياسة ، وتوطد أقدامها فى الولايات التى اقتطعتها فى شمالى الشأم . وكانت الدولة العباسية قد فقدت منذ بعيد مركزها القديم كدولة الإسلام الكبرى . وأما فى الغرب فقد انهارت الدولة الأموية بالأندلس ، وقامت مكانها دول الطوائف الضعيفة . وظهرت عليها اسبانيا النصرانية ، وأخذت تنتزع منها القواعد الأندلسية التالدة . فى تلك الآونة التى لاحت فيها إمارات التفكك والضعف على دول الإسلام فى الشرق والغرب ، كانت أوربا النصرانية تتمخض عن مقدمات مشروعها الضخم لغزو الشرق الإسلامى . وكانت الدولة البيزنطية ما تزال تعتبر حصن أوربا النصرانية من الشرق. وكانت غزواتها فى الأراضى الإسلامية توسم غالباً بميسم الحرب الصليبية . ولكن الدولة البيزنطية أخذت منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . تواجه أخطار فورة إسلامية جديدة هى فورة السلاجقة . وكان السلاجقة قد ظهروا منذ أوائل القرن الخامس الهجرى فى سهول التركستان ونزح جدهم ومنشىء دولتهم سلجوق فى أهله وعشيرته إلى أحواز بخارى ، وقوى أمره شيئاً فشيئاً . ولما توفى خلفه فى الرياسة ولده ميكائيل . وغلب ميكائيل على كثير من القبائل التركية المجاورة ،

واتسع سلطانه ، ولكنه قتل فى إحدى المواقع . فخلفه فى الرياسة ولداه طغرلبك وداود . ولما آنس السلاجقة نهوض قوتهم ، اتجهوا فى غزواتهم نحو الجنوب والجنوب الغربى ، نحو خراسان وفارس ، وغلبوا فى خراسان وما يليها على الدولة الغزنوية (٤٣١هـ — ١٠٣٩ م) . ثم تدفقت جموعهم على فارس فاقتحموها ، وسحقوا بها سلطان آل بويه ، وغدا زعيمهم طغرلبك سيد دولة تمتد من خراسان شرقا حتى حدود العراق وأرمينية غرباً . وفى سنة ٤٤٨ هـ استولى طغرلبك على الموصل ، ثم سار إلى بغداد فاستقبله الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وقدم الفاتح خضوعه لزعيم الإسلام الروحى ، وأعلنه الخليفة ملكاً على جميع ما ولاه الله من بلاده . ولما قام الثائر أرسلان البساسيرى بثورته على الخليفة القائم بالله وعزله عن الخلافة ، ودعا لخليفة مصر الفاطمى المستنصر بالله . استغاث القائم بطغرلبك فهرع إلى بغداد ، وقاتل البساسيرى حتى هزم وقتل ، ورد القائم إلى رياسته (٤٥١ هـ — ١٠٥٩ م) وتوثقت بذلك أواصر المودة والتحالف بين العاهلين . ثم زوج الخليفة ابنته للفاتح التركى . ولكنه توفى بعد ذلك بأشهر قلائل فى سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) .

وكان داود أخو طغرلبك قد اختص بولاية خراسان . ولما توفى فى سنة ٤٥٠هـ خلفه فى الملك ولده محمد الملقب بألب أرسلان[١] . وكان ألب أرسلان يومئذ فتى فى نحو الثلاثين من عمره . صارماً قوى النفس والعزم . فلما توفى عمه طغرلبك دون عقب ولى الملك مكانه بعد نزاع قصير الأمد واستقر فى الرّى . وغدا سيد إمبراطورية عظيمة تمتد من سهول التركستان إلى ضفاف دجلة . وكان عضده ومدبر دولته الوزير الشهير نظام الملك ، فوطد سلطانه . وقمع أعراض الخروج والثورة . وساد الأمن والسلام فى عهده .

وقد كان السلاجقة لأول ظهورهم من القبائل الوثنية . ثم اعتنق زعماؤهم الإسلام عندما نزحوا من سهول التركستان إلى الأراضى الإسلامية المجاورة ، ويقال إن جدهم الأكبر سلجوق كان أول من أظهر الإسلام منهم[٢] . وعلى أى حال فقد سارت غزواتهم منذ البداية باسم الإسلام وتحت لوائه ، ثم قامت

---

(١) ومعناها « الأسد الباسل » .

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٣٣٨

دولتهم الكبرى تمثل صولة الإسلام فى الشرق ، وتبث إلى الدولة البيزنطية التى أشرفوا على حدودها الشرقية كثيراً من ضروب التوجس والجزع .

— ٢ —

وكانت الدولة البيزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) مذ خبت قوة الدولة العباسية خصيمتها الكبرى ، قد استطاعت أن تدفع فتوحاتها نحو الشرق والجنوب ، وأن تسيطر على أرمينية ، وأن تفرض الجزية على كثير من الأمراء المسلمين فى شمالى الجزيرة وشمال الشأم . وكان من الواضح حينما اضطرمت فورة السلاجقة فى فارس . وتدفقت تلك القوة الإسلامية الجديدة نحو الغرب ، أن الدولة البيزنطية سوف تتعرض لضربات أولئك الغزاة الجدد ، وأن الصراع سوف يضطرم كرة أخرى فى هضاب الأناضول بين الشرق والغرب وبين الإسلام والنصرانية . والواقع أن طغرلبك ما كاد يتوطد ملكه فى فارس ، وتتصل حدوده بأراضى الدولة البيزنطية فى أرمينية ، حتى عول على دفع فتوحاته غرباً . ففى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) سير جيشاً بقيادة ابن عمه قطلمش فغزا ديار بكر ؛ وكان أميرها المسلم ناصر الدولة بن مروان ينضوى يومئذ تحت لواء الدولة البيزنطية ، ويؤدى لها الجزية . ولم يمض قليل على ذلك حتى سير طغرلبك جيشاً ضخماً بإمرة أخيه إبراهيم إينال ، فغزا أرمينية وسار إلى ملازكرد وأرزن ، وبلغ فى سيره ثغر طرابزون ، ووقعت بين المسلمين والروم عدة معارك شديدة كانت سجالا وانتهت بظفر المسلمين[١] ، وتزيد الروايات البيزنطية على ذلك أن إبراهيم حاول أن ينتزع مدينة أرزن الغنية ، وكانت يومئذ من أعظم مراكز التجارة فى آسيا الصغرى ، فلما لم يستطع أخذها لمناعتها ووفرة المدافعين عنها ، أضرم فيها النار ، وكان حريقاً من أعظم حرائق التاريخ أتى على المدينة بأسرها وجعلها حطاماً دارسة . ويقال إنه قد هلك فيه مائة وأربعون ألفاً . وعاد السلاجقة بجموع عظيمة من الأسرى بيعت فى أسواق الرقيق . وكان خراب أرزن أعظم كارثة نزلت بأرمينية وكانت بداية انهيار الوطن الأرمينى[٢] ، وكان بين الأسرى ليبارتيس القائد البيزنطى ، فعرض قيصر قسطنطينية ، وهو يومئذ الإمبراطور

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٨٨

(٢) Finlay : Byzantine Empire(Everyman) p. 408-409

قسطنطين السابع افتداءه بمبلغ طائل فرفض طغرلبك عرضه ، ولكنه عاد بعد ذلك فأفرج عنه دون فدية . ورد الإمبراطور على هذه المجاملة بأن أمر بإصلاح مسجد قسطنطينية والدعاء فيه لطغرلبك[١] .

ولكن مساعى الصلح لم تنجح بعد ذلك بين السلاجقة وبين الإمبراطور ، ولم تلبث أن نشبت الحرب بينهما مرة أخرى ، وسار طغرلبك بنفسه لغزو الأراضى البيزنطية ، فهاجم قارص وهزم الأرمن هزيمة شديدة ، ثم زحف على ملازكرد وحاصرها بشدة ، ولكنها استطاعت أن تصمد لمناعتها وحسن استعدادها ؛ (١٠٥٠ م) . ولم يمض عامان أو ثلاثة حتى عاد طغرلبك إلى غزو أراضى الدولة ، فسار إلى ملازكرد مرة أخرى ووصل إلى « أرزن الروم » . ولكنه لما نمى إليه أن الروم قد احتشدوا فى قوات عظيمة ، وانضم إليهم مدد كبير من الفرنج آثر أن يعود أدراجه دون قتال (٤٤٦ هـ — ١٠٥٤ م)[٢] .

وتكررت غزوات السلاجقة بعد ذلك لأراضى الدولة دون نتائج حاسمة . ولما توفى طغرلبك سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣م) وخلفه فى رياسة الإمبراطورية السلجوقية العظيمة ، ولد أخيه ألب أرسلان ، كانت حدود هذه الإمبراطورة تمتد غرباً إلى قلب أرمينية ، وهضاب آسيا الصغرى ، وكان من الواضح أن الصراع بين السلاجقة وبين الدولة البيزنطية سوف يزداد عنفاً واضطراماً وخصوصاً بعد أن أدرك بلاط قسطنطينية فداحة الخطر الذى يهدد الدولة من الشرق . ولم يكن ألب أرسلان أقل من طغرلبك عزماً وطموحاً إلى دفع غزواته إلى الغرب ، وإلى انتزاع تلك الأقاليم الغنية التالدة التى لبثت قروناً مسرح النضال بين الدولة البيزنطية وبين الدول الإسلامية المتعاقبة .

— ٣ —

وماكاد ألب أرسلان يستقر فى الملك وينظم شئونه الداخلية حتى بدأ غزواته لأراضى الدولة البيزنطية . فسار إلى قلب الأناضول . وغزا مدينة قيصرية الغنية ونهب كنائسها . ولم تمض أشهر أخرى حتى سار ألب أرسلان فى أوائل سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٤ م) إلى أذربيجان ثم إلى أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) فى جيش

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٢

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٧ و Finlay : ibid ; p. 409

ضخم ، ومعه ولده وولى عهده ملكشاه ، ووزيره الشهير نظام الملك . وتولى ملكشاه والوزير إخضاع معظم القواعد الجبلية ، وأتم ألب أرسلان فى هذه الغزوة فتح أرمينية وفتح بلاد الكرج بأسرها وفرض عليها الجزية[1] .

وشغل ألب أرسلان بعد ذلك ببعض الحوادث والثورات الداخلية . ثم عاد فى سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) إلى غزو أراضى الدولة الرومانية . وكان قد تعاقب على عرش قسطنطينية فى تلك الفترة القصيرة عدة من القياصرة . وكان على العرش أيام طغرلبك الإمبراطورة زوى وأختها الإمبراطورة تيودورا وهما ابنتا قسطنطين الثامن وقد حكمتا معاً لأمد قصير . ثم تزوجت زوى بأحد عشاقها القدماء وهو قسطنطين مونوماكوس ، ورفعته إلى العرش باسم قسطنطين التاسع . ولما توفيت زوى سنة ١٠٥٠ م ، حكم قسطنطين التاسع منفرداً حتى توفى سنة ١٠٥٤ م ، فخلفته على العرش الإمبراطورة تيودورا وحكمت حتى وفاتها فى سنة ١٠٥٧ م ، ثم تولى العرش إسحاق كومنينوس أحد أكابر الأشراف لمدة عامين ؛ وخلفه قسطنطين العاشر ، واستمر فى الملك حتى سنة ١٠٦٧م . ولما توفى تولت زوجه الإمبراطورة يودوشيا الوصاية على الملك حتى يكبر أولاده ؛ ولكنها لما رأت اضطرام الدسائس حولها من كل ناحية وخشيت أن تفقد العرش . تزوجت بالقائد رومانوس ديوجنيس ورفعته إلى العرش باسم رومانوس الرابع . وهكذا تعاقب على عرش الدولة الرومانية الشرقية ثمانية قياصرة فى أقل من عشرة أعوام . وكان هذا الاضطراب أثره فى منعة الدولة وأهبتها فى وقت توالت فيه غزوات السلاجقة لأراضيها ؛ وكان الخلاف القديم يضطرم فى الوقت نفسه بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الرومانية ، وأدى اضطهاد أساقفة قسطنطينية للكنائس اللاتينية إلى النتيجة المحتومة ، وهى وقوع الانفصام بين الكنيستين منذ سنة ١٠٥٣ م . وكان هذا الجفاء بين الشرق والغرب يقضى على كثير من أسباب العطف والتأييد التى كان الغرب يسبغها على الدولة الشرقية . كلما دهمتها الخطوب وتدفق عليها سيل الغزوات الإسلامية . ولكن سنرى كيف أدى تفاقم خطر السلاجقة على الدولة إلى التقرب بين قسطنطينية وبين الغرب ، وكيف كان له أثره فى يقظة الغرب واهتمامه بنجدة الدولة الشرقية .

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٤ ، وكذلك Gibbon : ibid , Ch. LVII

وكان القيصر رومانوس ديوجنيس (وتسميه الرواية الإسلامية أرمانوس) جندياً عظيما ؛ وكان يقدر فداحة الخطر الذى يهدد الدولة والعرش من غزوات السلاچقة ، فلما زحف ألب أرسلان فى قواته ، إلى قلب آسيا الصغرى فى ربيع سنة ١٠٦٨ م ، خرج رومانوس إلى لقائه على رأس قواته ، وبث القيصر بمثله إلى جنده روحاً من الإقدام والحماسة ، وتفرقت قوات السلاچقة بقيادة الأمراء فى هضاب كليكيه وفرچيا وأثخنت فى مدنها ، واستولت على كثير من الغنائم والسبى . ولكن القوات البيزنطية صمدت لها وأخذت تلاحقها ، ولبثت المعارك بين الفريقين سجالا زهاء عامين ؛ وقاد الإمبراطور رومانوس بنفسه جنده فى معظم المعارك ، وهزم الغزاة فى الشمال على مقربة من طرابزون ؛ ثم تولى القيادة من بعده مانويل كومنينوس وانتهى الأمر بانتصاره على السلاچقة وردهم نحو الفرات (سنة ١٠٧٠ م) .

— ٤ —

وشجع هذا النصر رومانوس ورأى الفرصة سانحة للعمل على تحرير أراضى الدولة الشرقية من نير السلاچقة . فحشد كل ما استطاع من القوى ، وفى أوائل سنة ١٠٧١ م سار رومانوس نحو الولايات الشرقية فى جيش ضخم من الروم والصقالبة وقبائل مولدافيا وبعض طوائف الفرنج . وانضم إليه أثناء السير كثير من الأرمن والكرج ؛ وبلغ جيش رومانوس يومئذ زهاء مائة ألف أو مائتى ألف حسبما تقدره الرواية الإسلامية ، وهى أعظم قوة جردتها الدولة الدولة الرومانية الشرقية على قوى الإسلام ؛ وسار الإمبراطور صوب أرمينية . وترامت أنباء هذا الزحف المروع إلى ألب أرسلان وهو بمدينة خوى من أعمال أذربيجان ، فسير الغنائم والأثقال مع وزيره نظام الملك إلى داخل المملكة ؛ وسار من فوره للقاء الروم فى جيش تقدره الرواية الفرنجية بأربعين ألف فارس ، والرواية الإسلامية بخمسة عشر ألفاً فقط . وكان رومانوس قد اخترق عندئذ بقواته ولاية جالاتيا (خلاط) فى قلب الأناضول ودخل أرمينية وسار إلى ملازكرد أو منازجرد[1] وهى بلدة حصينة تقع على فرع نهر مرادسو بين مدينتى إرضروم ووان . ومازالت

---

(١) هكذا يوردها ياقوت فى معجمه ويقول إنها تسمى أيضاً « مناز كرد » وهذه التسمية أصح من الناحية الجغرافية . ذلك لأنها مشتقة من أصل الكلمة الأرمينى **Manavazakert** ومعناها «دار مناز» وهى أسرة أرمينية اشتهرت فى العصور الوسطى . ولكن المراجع التاريخية توردها جميعاً باسم « ملازكرد » وهو الذى عرفت به الموقعة الشهيرة . ويكتب بالافرنجية **Manzikert** (راجع ياقوت فى منازجرد ، وكذلك بشر فى دائرة المعارف الإسلامية تحت كلمة **Manzikert**) .

تقوم إلى عصرنا ، وضرب رومانوس حولها الحصار . وكان مسير ألب أرسلان سريعاً جارفاً . والتقت طلائع السلاجقة بطلائع الروم فهزم الروم وأسر قائدهم بازيلكوس ، وأبدى السلاجقة بهذه الضربة الأولى تفوقهم فى النظام والسرعة والجرأة . وبالرغم مما أحرزه رومانوس من فوز بإخضاع ملازكرد ، فإن عوامل التفكك أخذت تدب إلى جيشه الضخم . ذلك أن الفرق الفرنجية انسحبت وأبت مواصلة القتال ؛ وأبدت العشائر الروسية بوادر التمرد ؛ ومع ذلك فإن رومانوس كان واثقاً من تفوقه موقناً بالنصر . أما ألب أرسلان فقد كان بالرغم من ظفره الأول بهزيمة الطلائع الرومية جزعاً متوجساً من تفوق العدو فى العدد والعدة ؛ ومن ثم فقد عول حين اقترابه من العدو على أن يحاول عقد الهدنة معه ، وأن يرتد دون أن يخوض معركة حاسمة . وبعث ألب أرسلان إلى رومانوس بالفعل يطلب عقد الهدنة ؛ ورأى الإمبراطور فى ذلك نذير الإحجام والضعف ؛ فرد عليه بأنه لا سلام ولا هدنة إلا بالرّى ، فعندئذ لم ير السلطان مناصاً من خوض المعركة مؤملا أن تغنى شجاعة فرسانه عن كثرة العدد ؛ واختار الاشتباك مع الروم يوم الجمعة ، فصلى بجنده ظهراً وبكى خشوعاً وتأثراً وبكى الناس معه ؛ ثم امتطى فرسه وقد لبس البياض وتحنط استعداداً للموت ، وأعلن أنه إن هزم فإن ساحة الحرب تغدو قبره [1] . ثم زحف على رأس قواته نحو الروم وزحف الروم للقائه . وكان ألب أرسلان يعتمد بالأخص على براعة حملة السهام من فرسانه . ووقع الاشتباك بين الجيشين فى ظاهر ملازكرد على ضفاف نهر اراكساس . وزحف رومانوس فى قواته دفعة واحدة ؛ ولم يلجأ إلى نظام القوات المتلاحقة والاحتياطية المأثور فى الخطط الرومانية . واستمر القتال حتى مغرب الشمس وثبت المسلمون وأبدوا منتهى البراعة والجلد . ولما رأى رومانوس مالحق جيشه من الإعياء والتعب عول على الارتداد ليستأنف القتال فى اليوم التالى ؛ ولكن السلاجقة شددوا الضغط على الصفوف المتراجعة حتى أحدثوا ثغرة ، وعندئذ هرع الفرسان الترك وانثالوا إلى قلب الروم ، وأمطروهم وابلا من السهام المميتة ، وانقض السلاجقة على الروم من كل ناحية وحصدوهم حصداً ، وقتلوا منهم جموعاً عظيمة ، ونهبوا المعسكر الرومانى . وحاول رومانوس أن يجمع من حوله قواته الممزقة ، ولبث يقاتل بمن بقى معه حتى جرح وأسر فى النهاية ، وأخذ إلى

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٣ و Gibbon : ibid , Ch. LVII

المعسكر الإسلامي . ووقعت هذه الهزيمة المروعة بالروم في يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٠٧١ م (أواخر ذى القعدة سنة ٤٦٣ هـ) .

وفى صباح اليوم التالى أخذ القيصر الأسير إلى حضرة السلطان ألب أرسلان . ويقال إن السلطان ضربه بيده ثلاث مقارع ، وأنبه على مسلكه وعلى رفضه الهدنة التى اقترحها[١] أو أن السلطان وضع قدمه على هامته إيلاماً وتحقيراً . ولكن هذه الروايات يشك فيها . ويقول لنا جيبون إنه إذا كان السلطان فى ساعة الكبرياء قد سار على بعض عاداته القومية ، فإن مسلكه بعد ذلك اقد أثار مديح أعدائه ، وإن فى مسلكه لدرساً لأشد العصور مدنية[٢] ، وعلى أى حال فقد انتهت المفاوضة بين العاهلين بعقد معاهدة صلح يتعهد فيها رومانوس بأن يدفع فدية قدرها مليون ، وجزية سنوية قدرها ثلاثمائة وستون ألفاً ، وأن يزوج بناته من أبناء السلطان ، وأن يطلق جميع الأسرى المسلمين [٣] .

وعلى أثر توقيع المعاهدة خلع السلطان على الإمبراطور ، وأطلق معه عدة من أكابر الأشراف والبطارقة المأسورين ، وزوده بمال وحرس ليسير إلى عاصمته . ولكن رومانوس ما كاد يصل إلى داخل أراضيه ، حتى علم أن انقلاباً حدث فى قسطنطينية ، وأن العرش قد انتزعه قيصر جديد هو ميخائيل السابع ، فجمع رومانوس ما استطاع من المال ، وأرسل إلى السلطان مائتى ألف هى كل ما حصل فى يده ؛ معتذراً عن عجزه وقصوره ، وسأله العون على استرداد عرشه ؛ فوعده السلطان خيراً . ولكن رومانوس ما لبث أن هزم فى الحرب الأهلية التى نشبت بينه وبين منافسه وأسر وتوفى فى سجنه ، وذلك لأشهر قلائل فقط من موقعة ملازكرد .

— ٥ —

وكانت هزيمة ملازكرد أفدح خطب نزل بالدولة الرومانية الشرقية منذ أحقاب طويلة . وكان لها أكبر الأثر فى تحطيم منعتها . وتفكك أوصالها . وقد مهدت لقيام مملكة الروم الإسلامية فى قلب آسيا الصغرى . ذلك أن السلطان ألب أرسلان عين على أثر الموقعة أميراً من أبناء عمومته هو سليمان قطلمش حاكماً إقطاعياً على الأراضى الإسلامية فى آسيا الصغرى ؛ واستطاع هذا الأمير أن

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٣

(٢) Gibbon : ibid; Ch. LVII

(٣) Gibbon : ibid; Ch. LVII

يوسع أملاكه غرباً حتى قرب المرمره وشواطئ البحر الأبيض ، وأن ينتزع أنطاكية من الروم وكانت بيدهم منذ أجيال ، وجعلت قونية عاصمة الدولة الإسلامية الجديدة ، واشتد بأسها تباعاً ولبثت قائمة زهاء قرنين ، ولعبت دوراً كبيراً فى الحروب الصليبية .

وتوفى السلطان ألب أرسلان بعد ملازكرد بعامين فقط وهو فى طريقه إلى فتح التركستان ، متأثراً من طعنة أصابته من ثائر محكوم عليه (١٠٧٣ م) . فخلفه فى الملك ولده ملكشاه . واستمرت غزوات السلاجقة لأراضى الدولة الشرقية وقواعد الشأم ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع السلاجقة أن يطوقوا آسيا الصغرى من الجنوب وأن يبسطوا سلطانهم على الشام وفلسطين .

وكان لهذا الخطب الجلل الذى نزل بالدولة الشرقية أعمق وقع فى أوربا . وبدا لأوربا من جديد أن سيل الغزوات الإسلامية ينذر باقتحام الدولة الشرقية ، وأنها لم تعد السد المنيع الذى يتحطم عليه هذا السيل . وشعر بلاط قسطنطينية بأن الدولة صائرة إلى السقوط والفناء إذا لم يتدا ركها الغرب بالعون والإنجاد ؛ وأرسل القيصر ميخائيل إلى البابا جريجورى السابع يسأله الغوث والعون . وبالرغم مما كان هنالك من خلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية ، فقد رأى البابا أنه لابد من العمل لإنقاذ الدولة الشرقية وتقويتها ، وحشد البابا بالفعل جيشاً كبيراً كان يعتزم تسييره إلى آسيا الصغرى ، ولكن حالت الظروف دون تنفيذ مشروعه . وكرر القيصر ألكسيوس كومنينوس الذى خلف ميخائيل على العرش الصريخ إلى أمراء الغرب وإلى البابا أوربان الثانى خلف جريجورى . وكان سير الحوادث فى اسبانيا المسلمة من جهة أخرى ينذر بتطورات خطرة . ذلك أنه لم تمض على ملازكرد خمسة عشر عاماً حتى استطاعت جيوش الأندلس والمرابطين أن تسحق قوى اسبانيا النصرانية فى موقعة الزلاقة الشهيرة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) . وكان نهوض قوى الإسلام وتفوقها على هذا النحو يذكى جزع النصرانية ومخاوفها . وكان صريخ الدولة الشرقية يلقى عندئذ عناية مضاعفة . وكانت البابوية ترى فى هذه الظروف أعظم عامل لتغذية الفكرة الصليبية ، وحشد قوى النصرانية لتحقيقها . وشاء القدر أن تلقى النصرانية والكنيسة فى البابا أوربان الثانى خير منفذ لمشروعها الخطير . وسرعان ما اضطرمت نار الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ، وبين الإسلام والنصرانية .

الفصل السابع

فكرة الحروب الصليبية

الفكرة الصليبية أقدم عهداً وأوسع مدى ؛ من تلك المعارك التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بالحروب الصليبية . فالفكرة الصليبية تقوم على الصراع بين الإسلام والنصرانية ؛ وقد بدأ هذا الصراع منذ وثبة الإسلام إلى الفتح فى عصره الأول . ولم تبدأ الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر ، ولم تقع أول معركة صليبية فى سهول الشأم . بل نستطيع أن نرجع بدأ الحروب الصليبية الحقيقية إلى أوائل القرن الثامن . حينما عسكر الإسلام تحت أسوار قسطنطينية يهدد باقتحامها إلى الغرب . وحينما انساب من اسبانيا إلى سهول فرنسا يهدد النصرانية وأمم الشمال . ومنذ أوائل القرن الثامن شعرت النصرانية بفداحة الخطر الذى يهددها من فورة الإسلام وظفره فى الجنوب ، ومن تقدم الوثنية فيما وراء نهر الرين . وكانت هذه المعارك التى اضطرمت بين النصرانية والإسلام ، على ضفاف اللوار ، وبين النصرانية والوثنية على ضفاف الرين . أول مرحلة فى ذلك الصراع العنيف الذى يصطبغ بالصبغة الصليبية ؛ ولم تكن المعارك المتوالية التى وقعت بعد ذلك بثلاثة قرون فى سهول الشأم ومصر بين المسلمين والفرنج ، واستطالت زهاء قرن ونصف ، سوى طور آخر من أطوار ذلك الصراع العام .

فى الوقت الذى انهار فيه صرح العالم الرومانى الشامخ . واجتنى الإسلام معظم تراثه ، لم تكن غاية الفتح الإسلامى تقف عند افتتاح الأقطار وبسطة الملك ، ولكنها كانت ترمى إلى غاية أبعد مدى وأجل خطراً ، هى تحقيق سيادة الإسلام الروحية والاجتماعية إلى جانب سلطانه السياسى . وكانت جيوش الخلافة يوم قصدت قسطنطينية ، ويوم عبرت جبال البرنيه واجتاحت جنوبى فرنسا ، ترمى إلى تحقيق تلك الغاية البعيدة . ولكن الإسلام ارتد أمام أسوار قسطنطينية ، ثم ارتد بعد ذلك أمام الفرنج فى بلاط الشهداء ؛ وارتدت الوثنية فى الوقت نفسه إلى ما وراء الرين

أمام نفس أولئك الفرنج الذين وقفوا للإسلام سداً . ونجت النصرانية ، ونجت أمم الشمال من خطر الفناء ، وتأهبت للدفاع عن نفسها كلما لاح شبح هذا الخطر ؛ وغدت مملكة الفرنج حصن أوربا والنصرانية من الغرب ، كما كانت الدولة البيزنطية وقسطنطينية حصنها فى الشرق ، يحميانها من وثبات الإسلام وفوراته . واعتبرت النصرانية كارل مارتل بطل بلاط الشهداء ، حاميها ومنقذها من قبضة الإسلام ، ومن نير القرآن المدنى والدينى ؛ وأسبغ شارلمان من بعده على تلك الحماية لوناً واضحاً ، فطارد القبائل الوثنية نحو الشرق وفرض النصرانية على سكسونية وبوهميا ولومبارديا ، ورد الإسلام إلى ما وراء البرنيه . ولبثت النصرانية زهاء قرنين تقنع بالدفاع عن نفسها . فلما تفككت عرى الدولة الإسلامية الكبرى ، واستحالت فى القرن العاشر إلى دول وإمارات متنافسة ، واضمحل شأن القبائل الوثنية فى شرق أوربا ، استطاعت النصرانية أن تتحدى الدول الإسلامية ؛ واضطرمت بين النصارى والمسلمين سلسلة من الحروب والمعارك الطاحنة . وكان يقوم بمحاربة المسلمين ، الأمم والدول التى تجاورهم أو تخشى نهوضهم ، كإمارات اسبانيا النصرانية ، ودويلات إيطاليا ، والدولة البيزنطية . ولم تكن الفكرة الدينية هى التى تجثم فى ثنية هذه المعارك ، بل كانت شهوة التغلب والسلطان السياسى والحريات القومية ، هى النزعات الغالبة فيها ، وهى التى تسيرها . بيد أن الكنيسة كانت تسبغ بدعوتها وتعاليمها على كثير من هذه الحروب الخالية لون الحرب الصليبية التى تشهر إما لبث دعوة الدين ، أو لسحق أعدائه ، أو حماية البقاع المقدسة . وكان الباعث الدينى ينتحل فى الغالب ليحيط هذه المعارك بجو من الروعة قل أن يخلقه باعث آخر ، بل كان بين الجند الذين يحتشدون حول العلم الكنسى كثير يعتقدون أنهم يضحون بمصالحهم المادية وأطماعهم الدنيوية ، لخير أخراهم وخير النصرانية .

على أن الحماسة الدينية أو نزعة الجهاد لم تبلغ فى النصرانية ما بلغته فى العالم الإسلامى ؛ ففى عصور الإسلام الأولى يرجع كثير من الفضل إلى هذه العاطفة فى تدفق الفتوح الإسلامية ، وقوتها وسرعتها ، وفى ظفر الإسلام باجتياح معظم أقطار الدولة الشرقية واسبانيا ؛ ولكنها لم تسفر فى أوربا النصرانية إلا عن حركات

صغيرة متقطعة ، ولم تسفر فى أية حال عن حركات عظيمة كالتى اضطرمت بها بلاد العرب وآسيا وإفريقية ، ولم تؤد إلى فتوحات عظيمة بعيدة المدى كتلك التى قامت بها الدول الإسلامية فى بغداد ومصر واسبانيا .

ومع ذلك فقد تتفوق الفكرة الصليبية على نزعة الجهاد الإسلامية فى معنى من المعانى ؛ ذلك أن أوربا الغربية كانت قد جازت منذ عصور طويلة غمار البداوة والانحلال القومى ؛ وكانت الطبقات الحاكمة رغم ماكان يحفزها أحياناً من هوى التقلب وشغف التنقل ، قد استقرت وارتبطت بأوطانها القومية بروابط عديدة . ولئن كان الاضطرام الدينى فى الغرب أضعف منه فى الشرق ، فقد كانت المادة التى يقوم عليها ويستطيع إضرامها ، أشد مراساً وأعرق أصولا . وكان ثمة من الميادين والفرص القريبة . ما تستطيع الكنيسة أن تحشد له جموع المتطوعين بلا صعوبة ، بيد أنها كانت تميل إلى تحقيق غايات بعيدة خطرة شاقة ؛ ولم يكن لمعظم الأمراء والفرسان الذين لبوا دعوتها فى الحروب الصليبية الكبرى كبير أمل فى الفوز بثمار دنيوية خلابة . ولهذا كانت المشاريع الضخمة التى خصتها الكنيسة بالعناية والرعاية أوفر المشاريع كلفة وأقلها ثمرة ؛ وكانت النصرانية الغربية تسير إلى الغنم والظفر لا فى سهول الشام القاصية . ولكن فى اسبانيا وجنوبى إيطاليا حيثما كانت تغالب الدول الإسلامية . وفى أواسط أوربا حيثما كانت تشتبك مع الوثنية بلا انقطاع .

بدأت هذه النزعة الصليبية فى اسبانيا قبل مجلس كليرمون ودعوة البابا أوربان الثانى إلى الحرب الصليبية الكبرى بنحو قرن . والواقع أن الحماسة الدينية كانت تسبغ منذ البداية على حروب الأندلس لوناً عميقاً من التعصب ؛ وكانت النصرانية الإسبانية مذ ردت إلى الشمال . وألجئت إلى هضاب البرنيه والأسترياس ، تستعر حماسة إلى استرداد أوطانها الجنوبية من قبضة الإسلام ؛ وكانت الإمارات الشمالية تنسى فى الحال خلافاتها السياسية والقومية . وتحتشد حول كلمة الدين كلما هددها المسلمون من الجنوب . ولنا ما يوضح ذلك فى عهد الناصر لدين الله (٣٠٠—٣٥٠هـ) (٩١٢ — ٩٦١م) . وكذلك فى عهد الحاجب المنصور (٣٦٦ — ٣٩٣ هـ) (٩٧٦ — ١٠٠١م) حينما نشط الإسلام إلى مطاردة اسبانيا النصرانية ، وغزا أقصى وأمنع معاقلها الشمالية ؛ وكذلك حينما جازت جموع البربر إلى الأندلس تحت لواء المرابطين ، ثم الموحدين من بعدهم ، لتنقذ الأندلس من خطر الفناء ، ولتجدد عهد

الجهاد ، ولترث فى نفس الوقت تراث الدولة الأموية . فقد أثار هذا الإنفجار الإسلامى الجديد ارتياع الإمارات النصرانية ، وبعث إليها نزعة قوية من التعصب الدينى ، فاستصرخت جيرانها باسم الدين ، واقتحم البرنيه سيل من المتطوعة من نورماندى ، وأكوتين ، وبرجونية وغيرها من الولايات الفرنجية ؛ هرعوا متحمسين لينصروا الصليب ، وليأخذوا قسطهم من أسلاب المسلمين . وشملت رومة هذه الحركة برعايتها ، وأذن البابا جريجورى السابع المتطوعين ، فى الحرب باسم الدين على أن يحكموا الأرض المفتوحة باسم البابوية . وهكذا كانت البابوية تسبغ الصفة الدينية على كل حرب تشهرها النصرانية على الإسلام .

على أن الأطماع الدنيوية والثمار المادية كانت تجثم فى ثنايا هذه النزعة الدينية التى عمل الزعماء على إضرامها فى صدور الجند والدهماء ؛ فنرى مثلا بعض كبار المغامرين من فرسان النصرانية مثل السيد الكمبيادور[1] يحاربون إلى جانب النصارى والمسلمين طوراً بعد طور ، ثم نرى الظافرين يقنعون من الأرض المفتوحة بالأسلاب ومن المسلمين بالإتاوة ، بل نراهم يعتنقون عادات الشعب المغلوب وتقاليده الاجتماعية ؛ وكانت جميع الطبقات فى اسبانيا النصرانية تستفيد من كل أرض تنتزع من اسبانيا المسلمة ، إذ يغنم النبلاء إقطاعات جديدة ؛ وتهرع الطبقات الوسطى إلى المدن الجديدة لتستبدل بغنائها ونعمائها فقر الوطن القديم وبؤسه ؛ ويهرع العامة والفلاحون إلى وديان الأندلس الجميلة ومروجها الخصبة الزاهرة ، فراراً من جدب الشمال وقفره .

* * *

هذه العوامل التى أذكت فى اسبانيا نار الصراع المستمر بين الإسلام والنصرانية هى نفسها التى حولت فكرة الحروب الصيلبية نحو المشرق ؛ فكما أن الانفجار الإسلامى فى عهد المرابطين والموحدين ، كان ينذر باجتياح اسبانيا النصرانية ويستثير حماسة الأمم الشمالية ، فكذلك كان الانفجار الإسلامى فى المشرق يثير جزع النصرانية ويثير بالأخص مخاوف الدولة البيزنطية التى هى معقل النصرانية من المشرق ، وكان الإسلام يضطرم يومئذ بقوة جديدة فتية هى الدولة السلجوقية . وكانت وثبات

---

(١) Cid el Campeador وهو الدون ردريجودى بيار علم الفروسية الإسبانية ، وقد توفى فى سنة ١٠٩٩ م . وسنعنى بسيرته فى فصل قادم .

السلاجقة وتدفق فتوحهم فى عهد ألب أرسلان وملكشاه (٤٥٥ — ٤٨٥ ﻫ) ، (١٠٦٣ — ١٠٩٢ م) إلى ناحية الأراضي البيزنطية وشاطئ البحر المتوسط ، نذير الحرب الصليبية الأولى . وكان أولئك الغزاة الأشداء قد اغتصبوا تراث الدولة العباسية واجتاحوا أرمينية وآسيا الصغرى والشام فى أقل من ربع قرن ، وسحقوا جيوش الدولة البيزنطية فى موقعة ملازكرد (٤٦٣ﻫ — ١٠٧١م) حسبما فصلنا ، وأسسوا إلى جانب دولتهم الشامخة فيما بين السند والفرات ، سلطنة «الروم» فى آسيا الصغرى ، فامتدت حدودها حتى مياه المرمره وشاطئ البحر المتوسط . فاستغاثت قسطنطينية إزاء الخطر الداهم بأمم الغرب ، ورفع الحاج الذين زاروا البقاع المقدسة أصواتهم بمر الشكوى مما لقوا من عسف الفاتحين واضطهادهم للنصرانية وشعائرها . وكان على رأس الكنيسة يومئذ رجل وافر العزم والدهاء ، هو هلدبراند الذى ارتقى كرسى البابوية باسم جرجورى السابع ؛ فراعه ذلك الخطر الجديد . ورأى أن يبادر بإعداد حملة لحماية الدولة الشرقية ، التى كان يعتبرها بحق سداً منيعاً لحماية أوربا من وثبات الإسلام من جهة المشرق . فوجه دعوة عامة إلى أمراء أوربا يطلب إليهم الغوث والمعونة . ولكن جرجورى لم يستطع رغم ذكائه وحزمه أن ينفث فى الأمراء أو الجموع تلك الحماسة المستعرة التى هى روح الحملات الصليبية . وكان الشك يحيط بنيته فى توجيه الحملة إلى محاربة النورمان فى جنوبى إيطاليا ، ولذلك لم تثمر دعوته ، ولم يلبها إلا نفر قليل من المغامرين .

فكان على خلفه أوربان الثانى أن يحيى مشروعه وأن يحسن إعداده وتنفيذه . وكان أوربان حبراً شديد الحماسة ثاقب البصيرة . فلم يقصر دعوته على الأمراء والسادة ، بل وجهها إلى الدهماء والكافة . وكان ترجمانه إلى العامة راهب فرنسى من مواطنيه يذكرنا بالأقدمين من الدعاة والرسل واسمه بطرس الزاهد . وكان قد زار البقاع المقدسة (سنة ١٠٩٣ م) وعاد إلى أوربا يروى أشنع القصص عن عسف السلاجقة وانتهاكهم لقبر المسيح . ومهما كانت أقوال هذا الراهب من الصحة ، أو من الادعاء والمبالغة ، فقد كان لدعوته شأن عظيم فى إثارة تعصب العامة ؛ وكان يطوف أرجاء أوربا فوق حمار ، وهو حافى القدمين ، يرتدى ثياباً خشنة ويحمل صليباً كبيراً ويخطب فى الدهماء والعامة ، فيبكيهم ويثير حماستهم ويذكى

ظمأهم إلى الانتقام واسترداد القبر المقدس . وكانت فورة السلاجقة قد هدأت فى ذلك الحين وتفككت عرى دولتهم على أثر موت ملكشاه (١٠٩١ م) . ولكن أحبار الكنيسة وأمراء الغرب لم يطمئنوا إلى ذلك السكون المؤقت لاسيما وقد عرفوا من تاريخ الماضى أن الإسلام لا يكاد يخبو له انفجار حتى يتمخض عن انفجار أشد . وكان أوربان يرى مثل سلفه جريجورى وجوب تقوية الدولة الشرقية ، غير أنه كان يرى أن يكون ذلك بإنشاء دولة لاتينية فى فلسطين تسهر على بيت المقدس ، وترقب وثبات الإسلام من الجنوب والشرق ؛ فكان ما أرادت الكنيسة ولبى الأمراء والسادة دعوتها وحشدوا جموعهم الزاخرة ، وتدفق سيل النصرانية على المشرق ، وبدأت سلسلة الحروب الكبرى التى عرفت باسم الحروب الصليبية .

وانسابت طوائف الفرسان الصليبية إلى المشرق عن طريق قسطنطينية . واخترقت ظافرة مملكة « الروم » المسلمة التى أقامها الترك السلاجقة فى آسيا الصغرى . ونمت جنوباً شطر سوريا وفلسطين فى ربيع سنة ١٠٩٨ م (٤٩١ هـ) . وكان كل شىء فى الشرق الإسلامى يومئذ يمهد السبيل فى وجه الغزاة ، فقد كانت الدولة الفاطمية المصرية التى بسطت سلطانها القوى زهاء قرن على سواحل الشام حتى آسيا الصغرى ، تجوز فترة من التفكك والانحلال ؛ وكانت الترك السلاجقة قد اقتطعوا معظم قواعد الشام ، وأقام بها الأمراء السلاجقة حكومات إقطاعية مستقلة متنافسة . وأصبحت هذه الدويلات الإقطاعية الصغيرة فى الجزيرة والشام ، دون عضد قوى يعصمها وقت الخطر الداهم . وكانت الخصومة المضطرمة بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، بين بغداد والقاهرة ، تذكى عوامل الفوضى والضعف فى تلك المنطقة التى جعلها القدر على كر الأحقاب مسرحاً للمعارك والحروب المختلفة . ولم تكن هذه الحقائق المرة تخفى على الصليبيين ، ولم يخف عليهم أنهم يسيرون إلى فتح قواعد وثغور متنابذة متنافسة لا تكاد تقوى على دفع عدو قوى . وكانت أنطاكية أول قاعدة عظيمة وقعت فى أيدى الصليبيين . وكان سقوطها بعد أن صمدت لحصار دام أشهراً نتيجة لخيانة بعض الزعماء المحليين (٣ يونيه ١٠٩٨ م) . وتخلف الصليبيون قليلا أمام أسوار طرابلس ، ونشبت بينهم بعض الخلافات المحلية ، ثم حزموا أمرهم واستأنفوا سيرهم المظفر جنوباً بحذاء الساحل ، وعلى رأسهم كبير زعمائهم جودفروا دى بويون ، وقد خفت فى عضد أمراء الشام ، ولم يستطيعوا أن يجمعوا أمرهم

بسرعة لتدارك الخطر الداهم . وكانت بيت المقدس هى اللؤلؤة التى تجذب أنظار الغزاة وتخلب ألبابهم . وظهر الصليبيون أمام أسوار بيت المقدس فى أوائل يونيه سنة ١٠٩٩ ، وكانت المدينة المقدسة قبل ذلك ببضعة أعوام فى حوزة بعض الأمراء السلاجقة ، فلما زحف الصليبيون على الشام انتهزت مصر صاحبة فلسطين الشرعية يومئذ الفرصة ، وسيرت جيوشها إلى بيت المقدس واستردتها من السلاجقة ، وولت عليها أميراً من قبلها هو افتخار الدولة . ودهم الصليبيون المدينة بعد ذلك وهى على حالها من ضعف الأهبة والدفاع وضربوا حولها الحصار ؛ ودام الحصار أربعين يوماً ، والمسلمون يدفعون الغزاة من فوق الأسوار ، واستطاع الصليبيون أخيراً بعد رمى المدينة بالمجانيق والسهام بشدة أن يقتحموا الأسوار . وأن يستولوا عليها (١٥ يوليه سنة ١٠٩٩ م) ، وقتل الصليبيون من أهلها عشرات الألوف فى الأقصى والصخرة وغيرهما من الحرم ، وخضبت سائر ربوعها بالدماء . وكانت محنة مروعة للعالم الإسلامى .

وهكذا تحقق حلم البابوية ، وحلم الصليبيين . وقامت المملكة اللاتينية فى قلب الأمم الإسلامية عنواناً لظفر النصرانية . وأخذت تغير تباعاً على ما حولها من الأراضى والقواعد حتى أضحت قوة ذا خطرها . وضعف سلطان المسلمين بالشام إلى أقصى حد ، وانكمشت قوى الخلافة الفاطمية فى مصر ، وأضحت مصر ذاتها من ذلك الحين مطمح الحملات والمشاريع الصليبية ، تلوح للغزاة خلال القفر درة خضراء يانعة . ويعتبرونها دعامة الإسلام والشرق ، فإذا انهارت هذه الدعامة غدوا سادة الشرق الإسلامى كله ، وأضحت المملكة اللاتينية وإمارات الشام الصليبية فضلا عن كونها رمزاً لظفر النصرانية المعنوى . بالنسبة لطوائف الفرسان الصليبية ، رمز الأمانى والمغانم الدنيوية .

ولم تمض زهاء نصف قرن حتى اضطرمت الحرب الصليبية الثانية . وكما كانت الحرب الصليبية الأولى رداً على انفجار الإسلام فى عهد السلاجقة ، وتقدم الغزاة نحو قسطنطينية ، فكذلك كانت الحرب الصليبية الثانية سنة ١١٤٧م (٥٤٢هـ) رداً على فورة جديدة للسلاجقة ، واستيلاء عماد الدين زنكى على الرُّها (إديسا) معقل المملكة اللاتينية فى الشمال (١١٤٤ م) . وكانت الحرب الصليبية الثالثة سنة ١١٨٨م (٥٨٤ هـ) رداً على نهضة مصر فى عهد صلاح الدين واستيلائه على بيت المقدس ،

وسحقه للمملكة اللاتينية التى عاشت فى فلسطين زهاء تسعين عاماً . وكانت فورة الإسلام عندئذ قوية رائعة تنذر باجتياح الأناضول والدولة الشرقية ، ولذا هرع أعظم ملوك النصرانية فى هذا العصر لاتقاء الخطر الداهم . واشتبكت مصر فى حروب طاحنة مع جيوش فرنسا وانجلترا وألمانيا وغيرها من الدول الأوربية ، وألقى جندها على المغير دروساً قاسية ، وأثخن صلاح الدين فى جيوش الفرنج ، وغدت قوة مصر فى ذلك الحين مثاراً للإجلال والروع ، وانهارت آمال النصرانية فى المشرق . واستحالت الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م (٦٠٠ هـ) إلى عصابات ناهبة استقر زعماؤها فى قسطنطينية ، واقتسموا أشلاء الدولة البيزنطية ، ونبذوا مغامرة الحرب المقدسة . واستنفدت الجيوش الصليبية فى حملتها الخامسة سنة ١٢١٧م (٦١٤ هـ) والسابعة سنة ١٢٤٨ م (٦٤٧ هـ) قواها ومواردها فى محاولات عقيمة فى مياه مصر وأراضى دمياط ، انتهت بنكبتها وتمزيقها . أما الحملة السادسة سنة ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) فقد استطاعت أن تستعيد بيت المقدس إلى حين.

تلك هى الفكرة التى قامت حولها الحروب الصليبية : فكرة الخطر الإسلامى ، ومعركة الحياة والموت بين الإسلام والنصرانية . وقد استطاعت الكنيسة أن تحفز أمراء النصرانية لمحاربة الإسلام باسم الدين حرصاً على سلطانها ؛ واستطاعت أن تبث هذه النزعة الفياضة بالتعصب والحماسة الدينية فى المجتمعات النصرانية عصوراً طويلة ؛ وأن تحشد من فروسة القرون الوسطى حملات كبيرة تسير نحو غايات خيالية لا تغرى ثمارها الدنيوية . بيد أن هذه النزعة الدينية لم تخمد فى زعماء المجاهدين شهواتهم وأطماعهم المادية . وكما أن الدين كان علماً فى يد الكنيسة تدعو حوله الأمراء والفرسان ؛ فكذلك كانت الدعوة الدينية وسيلة نافذة فى يد الفرسان والسادة لحشد جموع العامة وضمان طاعتهم وخضوعهم . ولئن جاشت أنفس الزعماء والفرسان بنوع من الحماسة الدينية ؛ فقد كانت الأطماع الدنيوية أقوى البواعث التى زجت بهم فى غمار تلك المخاطرات النائية . بل لقد شق التنافس على الملك والرياسة بينهم طريقه منذ البداية . ولنا ما يوضح ذلك فى معظم الحملات الصليبية ، فقد سار جودفروا دى بويون وزملاؤه الأمراء على رأس الحملة الأولى بعد أن تعهدوا بأن يحكموا البلاد المفتوحة باسم البابوية ؛ فلما وصلوا إلى قسطنطينية تعهدوا أن يحكموها باسم الإمبراطور مقابل اختراق الجيوش

الصليبية أراضي الدولة ؛ غير أنهم ماكادوايصلون إلى طرسوس وأنطاكية حتى ثارت بينهم عاصفة شديدة من الخلاف والتنازع ، فافترق بلدوين عن زملائه واستقر فى إمارة حمص ، واستقر بوهموند فى أنطاكية وأبى السير إلى الجنوب ، واشتغل ريمون دى تولوز بغزو طرابلس ، واستقل جودفروا بإمارة بيت المقدس . وحكم الجميع الإمارات الجديدة باسمهم ولحسابهم ، وأنشأوا القصور ، وأقطعوا القطائع . وقد رأينا أن الحملة الخامسة لم تصل إلى الأرض المقدسة بل استقرت فى قسطنطينية ، وخاض أمراؤها غمار الدسائس التى كانت تعصف حينئذ بعرش القياصرة ، وآثروا فى النهاية أن يلتهموا أشلاء الدولة الشرقية على أن يحجوا إلى قبر المسيح .

فى وسعنا إذاً أن نستخلص مما تقدم أن بواعث الحروب الصليبية ترجع إلى عاملين أساسيين ، أحدهما معنوى ، والآخر اجتماعى أومادى .

فأما الأول فهو ثورة العواطف والعقائد الدينية ؛ فقد رأينا النصرانية تصارع الإسلام منذ القرن السابع ، وترده عن أوربا بعد أن كان ينذرها بالتغلب والفناء ، وتحصره فى اسبانيا أخيراً ، وهنالك تمضى فى مغالبته ومناهضته . وأن الحروب الصليبية لم تكن فورة فجائية أثارتها قصص الحاج الناقمين ولادعوة بطرس الزاهد ، ولكنها كانت تتمة أو ذروة للمعركة الكبرى التى كانت تضطرم منذ أربعة قرون بين الإسلام والنصرانية . وكان مسرح هذه المعركة حتى القرن الحادى عشر فى أوربا فنقلته الحروب الصليبية إلى آسيا . وإذا كان لنا أن نقارن بين حوادث هذين العهدين فإنا نستطيع أن نلاحظ أن النصرانية كانت تعرض لنا مدى حين فى آسيا بعض المظاهر التى يعرضها الإسلام فى أوربا وتجوز نفس المصاير فى معنى من المعانى ؛ فقد كان الإسلام مستقراً فى اسبانيا ، وكان قد أسس هنالك إمارات وممالك ؛ وقد فعل النصارى مثل ذلك فى آسيا فافتتحوا الشام وأنشأوا المملكة اللاتينية وغيرها من الإمارات الصغرى ؛ وكان موقفهم هنالك بالنسبة للمسلمين يشبه موقف المسلمين من بعض الوجوه فى اسبانيا بالنسبة للنصارى ، وبعبارة أخرى كانت مملكة بيت المقدس النصرانية فى المشرق تشبه بعض الشبه دولة الأندلس المسلمة فى الغرب ؛ ولكن الظاهرة الكبرى وروح النضال دائماً هى معركة النظامين الكبيرين اللذين ينضوى تحت لوائهما العالم القديم : معركة الإسلام والنصرانية التى لقيت ذروتها فى الحروب الصليبية .

وأما العامل الثانى ، المادى أوالاجتماعى ، فيرجع إلى حالة أوربا فى القرن الحادى عشر . كانت النظم الإقطاعية قد بلغت شاواً بعيداً فى إرهاق المجتمع الأوربى بما تفرض عليه من أغلال وقيود ، وكانت أوربا قد بدأت تتلمس أفقاً أوسع وأعم ، وأخذ الذهن البشرى يحاول أن يجوز النطاق الضيق الذى حصر فيه ، فجاءت الدعوة إلى الحروب الصليبية تحقق هذا الأفق ، وهرعت الجماعات إليها كأنما آنست فيها حياة أرحب وأشد تبايناً ، وبدا أمامها المستقبل فياضاً بالآمال الكبيرة . وكانت الحروب الصليبية أول حادثة أوربية عامة ، وربما كان ذلك أهم مميزاتها ؛ فقد اشتركت فيها أوربا كلها ؛ ولم نر قبل الحروب الصليبية أوربا تهتز لعاطفة واحدة وتعمل لقضية واحدة . ولم تكن الحروب الصليبية حادثة أوربية فقط ، بل كانت فى كل بلد حادثاً وطنياً ؛ ففى كل بلد أيضاً كانت طوائف المجتمع كلها تضطرم بشعور واحد . وكان الملوك والسادة والكهنة والتجار والعامة والفلاحون يشعرون جميعاً نحو الحروب الصليبية بشعور واحد ، ويعملون فيها يداً واحدة ؛ فكانت الحروب الصليبية للأمم الأوربية مهاد الوحدة المعنوية ؛ وهى ظاهرة جديدة ، بل كانت فاتحة الوحدة الأوربية ذاتها .

لسنا بحاجة لأن نصدر حكماً على هذه الحروب والغزوات البربرية التى أثارتها النصرانية وأثارها التعصب الأوربى ، فى المشرق زهاء قرنين . فقد حكم عليها من قبل كثير من مفكرى الغرب ومؤرخيه . ونكتفى بأن ننقل إلى القارئ تلك الفقرة الرنانة التى يحكم بها على الحروب الصليبية ، مؤرخ من أعظم مؤرخى النصرانية ومفكريها ، وهو إدوارد جيبون مؤرخ الدولة الرومانية :

« قامت الحروب الصليبية على مبدأ التعصب الوحشى ، وكانت أهم النتائج مشابهة للسبب . كان كل حاج يطمع فى الرجوع بأسلابه المقدسة : آثار اليونان وفلسطين . وكان كل أثر يتقدمه أو يعقبه قطر من المعجزات والأحلام . وقد أفسدت عقيدة الكاثوليك بأساطير جديدة ، وأفسدت عاداتهم بخرافات جديدة ؛ وانبثق من النبع المخرب للحرب المقدسة ، نظام محكمة التحقيق (محكمة التفتيش) ، وجماعات الرهبنة المتسولة ، ثم مفسدة الرخص الدينية ، ثم تقدم الشعائر الوثنية ؛ وفتك روح اللاتينيين الناهض بحيوية عقلهم ودينهم . وإذا كان القرنان التاسع

والعاشر هما عصر الظلام ، فإن القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، هما عصر السخف والخرافة »(١) .

وهل نحن بحاجة لأن نقول إن الصراع بين الإسلام والنصرانية ما زال قائماً ، وإن الغرب ما زال فى عصرنا ينظم حملاته الصليبية على الإسلام، فى ظل الإستعمار السياسى والاقتصادى ، بأساليب جديدة تستتر بأثواب التمدين والتهذيب والتثقيف ؟.

* * *

أما عبرة الحروب الصليبية وآثارها السياسية والاجتماعية فلا يتسع المقام لبحثها. غير أنا نستطيع أن نقول إجمالا إنها كانت مبعث القومية الأوربية ؛ وقد أنقذت المجتمع الأوربى من طوائف كبيرة من الفرسان والسادة كانت تعيث بحريات الطبقات الوسطى والعامة وحقوقها . بيد أن الحروب الصليبية لم تحمل غنما كبيراً من المشرق إلى الحضارة الغربية . وكان غنم هذه الحضارة من منهل الحضارة الإسلامية أعظم ، لا فى غمار الخطوب والمعارك الطاحنة ، ولكن فى مهاد السلام ، وفى بسائط الأندلس وصقلية حيثما كان الإسلام والنصرانية يلتقيان فى أحيان كثيرة متصافحين ويعملان فى تفاهم وتعاون . أما المشرق فلم يغنم شيئاً من خوض هذه المعارك البربرية مع جموع متعصبة لم تعن إلا بالنار والسيف وتحصيل الأسلاب والغنائم .

Gibbon : Roman Empire, Ch. LXI. (١)

الفصل الثامن

النار اليونانية

أشرنا فيما تقدم إلى النار اليونانية وأهميتها كوسيلة للدفاع ؛ والآن نعرض إلى تاريخ هذه النار والدور الذى أدته فى حروب العالم القديم .

كان للأقدمين أسلحتهم ووسائلهم الحربية المدمرة . ومنذ أقدم عصور التاريخ يتجه الذهن البشرى إلى ابتكار هذه الوسائل . وقد نبتسم إذا استعرضنا وسائل الحرب والتدمير القديمة إلى جانب وسائل عصرنا ، وما بلغت من التقدم والروعة سواء فى البر أو البحر أو الهواء أو فى عالم الذرة . بيد أن هذا البون الشاسع لا يمنع المؤرخ الذى يتأمل صحف الغابر فى اعتبار وروية ، أن يقف ما بين آن وآخر وقفة الإكبار والإعجاب لما استطاعت مدنيات الحرب القديمة أن تخرجه من آلات التدمير ووسائل الدفاع .

كانت النار اليونانية فى العصور الوسطى ، أروع وسائل الفتك والتدمير . وقد لبثت عصوراً أعجوبة الحرب ووسيلة فريدة لحماية الدولة الشرقية ، ورد حملات العرب البحرية عن ثغورها وشواطئها ؛ وألفى فيها خلفاء قسطنطين آخر وسيلة للاحتفاظ بما بقى فى أيديهم من تراث الدولة الرومانية .

ومنشأ هذه النار التى لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ القرون الوسطى غامض جداً . فقد استعملت لأول مرة وسيلة ناجعة للتدمير فى أواخر القرن السابع من الميلاد ، غير أن فى بعض النقوش والرموز الأشورية ما يدل على أن قذف النار على المدن المحصورة وعلى معسكرات العدو ، كان وسيلة من وسائل الحرب فى مدينة بابل . ويذكر توكوتيدوس أن الأسبارطيين فى حصار بلاتيا (سنة ٤٢٩ ق . م.) حاولوا إحراق المدينة بأن قذفوها بكرات ملتهبة من الخشب الممزوج بالقار والكبريت ؛ وفى حصار دليوم (سنة ٤٢٤ ق. م) وضع المحاصرون على الأسوار آنية ملأى بالقار والكبريت والفحم ، وأشعلوها بواسطة كور يدفع إليها الهواء داخل ساق شجرة

مجوف(١) . ويذكر تاسيتوس أنه فى هذا العصر كان يستعمل فى المعارك البحرية مُرَكب من الكبريت والقار والفحم ووبر الكتان، يوضع فى قوارب سريعة ويقذف ملتهباً على مؤخرات سفن العدو ، ثم أضيف إلى هذا المركب حوالى سنة ٣٥٠ق. م . النفط أو البترول . ويذكر المؤرخون اللاحقون فى قصص الحروب والمعارك إلى ما بعد ذلك بنحو تسعة قرون مُركباً يصنع من هذه المواد ؛ ثم تطور هذا المركب فأضيف إليه ملح البارود وزيت التربنتين والشحم ، واستعمل فى الحروب الصليبية وعرف عندئذ بالنار اليونانية .

غير أن هذه النار التى استعملت فى الحروب الصليبية ، لم تكن هى النار اليونانية الحقيقية . التى استعملت فى المعارك البحرية بين البيزنطيين والعرب . والتى ما زال سر تركيبها إلى اليوم موضع الخلاف والتكهن . وترجع الأساطير الدينية البيزنطية أصل هذه النار إلى الوحى الإلهى . فيزعم الإمبراطور قسطنطين السابع (بورفيروجنتوس) مؤرخ الدولة البيزنطية ، أن سر النار اليونانية قد أفضى به ملك من السماء إلى الإمبراطور قسطنطين الأول ، هبة من الله وبركة أسبغها على الرومانيين(٢) ، ولكن الصحيح المعول عليه أن هذه النار لم تظهر بين وسائل الحرب البيزنطية إلا بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون ، فى عهد قسطنطين الرابع (پوجوناتوس) (٦٤٨—٦٨٥ م) وأن الذى اخترعها مهندس يدعى كالنيكوس ، كان فى خدمة العرب هليوبوليس من أعمال الشام ثم فر منها إلى قسطنطينية ، ويقال إنه مصرى من هليوبوليس المصرية . وربما كان هذا هو الأصح لأن الكيمياء كانت علماً مزدهراً عند المصريين منذ العصور الأولى ، وكانت لهم فيها مباحث واختراعات جليلة . وظهرت روعة هذا السلاح الجديد لأول مرة فى حصار العرب الأول لقسطنطينية (سنة ٦٦٨م—٤٨هـ) إذ قذفت النار مراراً على السفن العربية فدمرت منها عدداً كبيراً ، وارتد المسلمون على أثر ذلك إلى الجنوب ورفعوا الحصار عن عاصمة الدولة الرومانية .

أما سر تركيب هذه النار العجيبة فما زال كما قدمنا محوطاً بالخفاء ، شأن مواد التحنيط عند قدماء المصريين التى ما زالت سراً على العلم الحديث . على أنه يستنتج

(١) Thucydides : Peloponnesian War, Ch. VIII & XIV.

(٢) Gibbon : ibid ; Ch. LII.

من أقوال المؤرخين البيزنطيين وإشاراتهم إلى النار اليونانية ، أنها كانت تركب من النافتا (زيت النفط) وهو زيت سريع الإلتهاب ، يلتهب حالما يصطدم بالهواء ، ومن الكبريت والقار بنسب ومقادير لم تعرف حتى الآن . وكان هذا المركب يحدث دخاناً كثيفاً وانفجاراً عظيماً ، وتنبثق منه نار شديدة حامية تندلع ألسنتها صعوداً وهبوطاً فى نفس الوقت ، وتضطرم اضطراماً سريعاً هائلا ، ولا تنطفىء عند ملامسة الماء بل تشتد وتحتدم ، ولا تخمد أوارها سوى الرمل والخل . والمظنون أن مخترعها كالنيكوس استعمل فى تركيبها ملح البارود أيضاً ليحدث هذا الإنفجار . ولكن يرد على ذلك بأن البارود لم يعرف قبل أواخر القرن الثالث عشر . ويستنتج المؤرخ الحربى الكولونل هايم فى كتابه عن تاريخ الأسلحة والذخائر الحربية ، أن النار اليونانية كانت تحتوى على مقدار من الجير . وهذا هو السبب فى احتدامها واشتدادها عند ملامسة الماء ، وعلى ذلك فقد كانت تركب من زيت النفط والكبريت والجير والقار فينتج من ذلك السائل الملتهب ، ومن ذلك سميت بالنار السائلة ، ونار البحر[1].

وكانت النار اليونانية تستعمل فى حروب البر والبحر معاً ، أثناء التحام الصفوف وأثناء الحصار ، فتقذف من فوق الأبراج أو الأسوار فى آنية كبيرة . أو تطلق فى كرات مشتعلة من الحديد والحجارة أو فى سهام ملتوية قد لفت بالقنب والوبر والشعر ، مشبعة بالسائل الملتهب . وأما فى المعارك البحرية فكانت تحمل فى سفن النار (الحراقات) وتطلق من أنابيب طويلة من النحاس ركبت على مضخات ضاغطة (سيفونات) توضع فى مقدمة السفينة ، وجعلت على هيئة وحوش فاغرة أفواهها تقذف وابلا من النيران السائلة المضطرمة .

وقد احتفظ البيزنطيون طويلا بسر هذا السلاح الهائل . واستأثروا باستعماله فى محاربة أعدائهم عصوراً طويلة . وكانوا يعيرونه أحياناً إلى حلفائهم ولكن دون أن يبوحوا لهم بسره . ويزعم قسطنطين السابع فى تاريخه أن هذا التكتم كان فرضاً من السماء ، وأن الملك الذى أرسله الله بسر هذه النار إلى قسطنطين الكبير (الأول) ، أبلغه وجوب احتفاظ الأمير والرعية بسر هذه النعمة ، وإلا اعتبر فضحه خروجاً على أوامر الله ومجلبة لسخطه وعقابه . وهكذا لبث سر هذه النار مقبوراً فى المصانع

---

(1) Ency. Brit Art. Greek Fire

البيزنطية زهاء أربعة قرون ، حتى ظفر به العرب فى أواخر القرن الحادى عشر ، وذلك إما بطريق التحليل والبحث ، وإما بالوقوف على سر المركب من بعض الخوارج البيزنطيين .

* * *

كان العرب أول من عانى فتك النار اليونانية فآنسوا روعتها وخطرها لأول مرة فى حصارهم الأول لقسطنطينية (٤٨هـ — ٦٦٨م) ، وسلطها اليونانيون على سفنهم ومعسكراتهم فأوقعوا فيها الخلل والاضطراب غير مرة . وهى التى ردت هجمات المسلمين عن الأسوار مراراً وتكراراً ، وانتهت بإحراق معظم سفنهم كما قدمنا . وفى الحصار الثانى (٩٩ هـ — ٧١٧ م) كان فتكها بالمسلمين أشد وأنكى . فقد ردت مسلمة بن عبد الملك بجيوشه وأساطيله الجرارة عن أسوار المدينة . واضطرته أن يرابط بقواته وسفنه فى مراكز بعيدة على الشاطئ الأوربى ؛ ثم أرغمته بعد ذلك على رفع الحصار والارتداد بفلوله إلى جزر الأرخبيل ، وحطمت فى ذلك الحصار قوة من أضخم وأمنع القوى التى جردها الإسلام على النصرانية .

وليس من المبالغة أن نقول إن النار اليونانية هى التى أحبطت تدابير الخلافة الأموية فى افتتاح أوربا عن طريق قسطنطينية ، وقضت نهائياً على مشاريعها نحو الدولة الرومانية الشرقية وشرق أوربا ، واضطرتها أن تحول تيار غزوها نحو قفار إفريقية ، وأن تقنع من أوربا النصرانية بانتزاع الأندلس . وإن النار اليونانية هى التى حولت مشاريع الخلافة العباسية من افتتاح آسيا الصغرى ومحاولة اقتحامها إلى قسطنطينية ، إلى حملات ناهبة ، وفتوحات صغيرة ، لبثت خلالها الدولتان العباسية والبيزنطية تتبادلان غزو معاقل الحدود . وإنها هى التى حمت عاصمة الدولة البيزنطية وثغورها عصوراً طويلة ، من خطر الغزوات البحرية المغامرة التى كانت تحشد فى الثغور الإسلامية أو فى جنوه وبيزا والبندقية ، وكانت تسود البحر فى تلك العصور .

بيد أنه إذا كانت النار اليونانية قد لبثت قروناً سلاحاً هائلا فى أيدى اليونانيين (البيزنطيين) ، فإنها بعد أن ظفر المسلمون بسرها غدت سلاحاً شديد الهول فى أيديهم ؛ وقد لعبت بالأخص دوراً كبيراً فى الحروب الصليبية واشتهرت الجيوش المصرية باستعمالها فى البر والبحر ؛ وكان لقاذفات النار (الحراقات) قسم خاص بالجيش والأسطول ؛ وهى التى ردت عدوان الفرنج عن الشواطئ المصرية ، وفتكت بهم

فى معارك دمياط والمنصورة[١]. ويصف المؤرخ الفرنسى دى جوانفيل فتكها بالفرنج فى تلك المعارك فى كتابه « تاريخ القديس لويس » ، فيقول إنها تشق عباب الهواء كأنها جارح طويل الذيل ينشر جناحيه ، شديدة الكثافة ، يصحبها دوى كالرعد ، وتنطلق بسرعة البرق ، فتبدد أضواءها ظلمات الليل ، ثم يصف ارتياعه وارتياع أصحابه من رؤيتها ، وفتكها بصفوف الفرنج[٢] .

والظاهر أن المسلمين استطاعوا أن يحتفظوا بسر هذه النار بعد اكتشافه إلى حين ، كما استطاع اليونانيون أن يحتفظوا به من قبل ، فى الحملات البحرية الإسلامية على الشواطئ الإيطالية وجزائر البحر الأبيض وثغوره النصرانية ، وفى المعارك الصليبية نرى المسلمين يستخدمون النار اليونانية دون أعدائهم ؛ كذلك يظهر أن سر استعمال النار اليونانية قد نقل إلى مسلمى الأندلس فاستعملوه فى محاربة أعدائهم من نصارى الشمال (شمال اسبانيا) . فى حصار لبلة (سنة ١٢٥٧ م — ٦٥٥ هـ) من أعمال غربى الأندلس استعمل الموحدون لدفع جيوش الفونسو العاشر ملك قشتاله ، آلات تقذف على معسكر النصارى حجارة ومواد ملتهبة يصحبها دوى كالرعد ؛ واستعمل ملوك غرناطة منذ أواخر القرن الثالث عشر ، آلات كهذه فى محاربة النصارى . وهنا نقف مترددين فى الحكم على حقيقة هذه الآلات فقد يخطر للإنسان من قراءة وصفها المتقدم الذى أورده مؤرخو العرب والإسبان أنها مدافع ، وأن المسلمين كانوا قد اكتشفوا سر البارود فى ذلك الحين ؛ إذا سلمنا بأنهم قد وفقوا إلى اكتشافه قبل أن يوفق إلى ذلك القس الألمانى برتولد شڤارتز فى منتصف القرن الرابع عشر . غير أن المرجح أن هذه الآلات إنما هى قاذفات النار اليونانية تطورت مع العصور ، ونقلها الموحدون والأندلسيون عن مسلمى مصر وتونس . والظاهر أن مسلمى الأندلس استعملوا المدافع أو آلات ساذجة مماثلة لأول مرة ، فى موقعة طريف (سنة ١٣٤٠ م — ٧٤٢ هـ) التى نشبت بين جيوش المغرب والأندلس بقيادة السلطان أبى الحسن المرينى ، والجيوش الإسبانية بقيادة ألفونسو الحادى عشر ملك قشتاله . كذلك استعمل المسلمون آلات مماثلة فى الدفاع عن

---

(١) راجع فى معارك دمياط ، وذكر النار والحراقات ، خطط المقريزى ج ١ ص ٢٢١ وما بعدها .

(٢) ترى فى الفصل الحادى عشر رواية دى جوانفيل مفصلة .

الجزيرة الخضراء ضد النصارى (سنة ١٣٤٢ م — ٧٤٢ هـ) ؛ ويقوى لدينا هذا الرأى أن النار اليونانية كان يصحبها على ما قدمنا عند إطلاقها دوى مخيف . بيد أن ذلك لا يمنعنا من أن نفترض أن مسلمى الأندلس بدأوا باستعمال النار اليونانية ثم أضافوا إليها البارود ، واستطاعوا أن يصنعوا المدافع وأن يستعملوها فى محاربة النصارى .

هذه هى قصة النار اليونانية وقصة الدور الذى لعبته فى حروب العصور الوسطى . وقد رأيت أنها كانت عاملا بعيد الأثر فى حماية الدولة الرومانية الشرقية مدى قرون من هجمات أعدائها ، ولاسيما العرب . بيد أنا لانستطيع أن نقول إن النار اليونانية قد أحدثت فى فنون الحرب ثورة كبيرة كتلك التى أحدثها اختراع الديناميت ، فالنار اليونانية على ما كانت تحدث من رائع التدمير وإحراق المؤن والسفن ، لم تكن عظيمة الفتك بالصفوف والأرواح ، ولم تقض على أساليب الدفاع والحماية التى كانت تستمدها الصفوف من الصلب والحديد ، ومن الدروع والمناطق والخوذات وغيرها ؛ هذا إلى أنها وجدت إلى جانب آلات أخرى للحرب لاتقل عنها فتكاً وروعة ؛ فقد لبث المنجنيق العربى عصوراً مديدة رعب المدن المحصورة ، ولبثت سهام العرب ونبالهم زمناً فزع البيزنطيين وغيرهم من أمم النصرانية . أما الديناميت فهو أروع أداة للتدمير وحصد الأرواح ، بل هو أروع وأشأم ما نكبت به الإنسانية بأسرها (١) .

---

(١) هذا ماكتبناه قبل الحرب العالمية الثانية . وقد أخرجت لنا الحرب العالمية الثانية ما هو أروع وأشد هولا للإنسانية ، ألا وهو القنابل الذرية التى تستطيع فى لحظات أن تمحو مدينة عظيمة بأسرها وأن تفنى مئات الألوف . وربما كان مثل هيروشيما ونجازاكى ، وقد كانتا أول مسرح لفتك هذا السلاح المروع ، أهون بكثير مما يخبؤه المستقبل للإنسانية من آثار هذا السلاح المدمر القاصم .

الفصل التاسع

موقعة حطين

واسترداد بيت المقدس

٥٨٣ هـ – ١١٨٧ م

كان افتتاح الفرنج الصليبيين لبيت المقدس فى الثالث عشر من شهر شعبان سنة ٤٩٢ هـ (١٥ يوليه سنة ١٠٩٩ م) ، حدثا من أخطر الأحداث التى هزت أركان العالم الإسلامى . وكان قيام المملكة اللاتينية فى هذا الركن من العالم العربى والإسلامى ، أسطع رمز لعدوان الغرب على الشرق . وأسطع دليل على ما كانت تبيته أمم الغرب من العدوان المنظم على أمم الشرق . وبالرغم من أن هذا العدوان كان يتشح بثوب الدين ، وحجة إنقاذ قبر المسيح ، فإن قيام المملكة اللاتينية الصليبية فى بيت المقدس ، وقيام الإمارات الصليبية الأخرى فى مختلف أنحاء الشام ، كان فى ذاته أسطع دليل على أن الغايات الدنيوية . وما تنطوى عليه من استلاب الأراضى والمغانم والثروات ، كانت هى المقصد الأول الذى يسعى لتحقيقه أولئك الغزاة المعتدون .

ولبثت المملكة الصليبية فى بيت المقدس زهاء تسعين عاماً . شوكة مؤلمة فى قلب العالم الإسلامى ، وقاعدة لحماية عدوان الغرب المنظم على بلاد المشرق ، وفى ظلها وأمل رعايتها ، قدمت الحملة الصليبية الثانية إلى الشام فى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) تحت إمرة لويس السابع ملك فرنسا ، وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا ، وحاول الصليبيون فى هذه المرة الاستيلاء على دمشق عاصمة الشام الأولى ، ولكنهم باءوا بالفشل المطبق ، وتحطمت هذه المحاولة العدوانية الثانية فى المهد . ومضت أربعون عاماً أخرى ، قبل أن تحين الفرصة المنشودة ، ليرد الإسلام ضربة المعتدين ، وليسحق المملكة الغاصبة ، وليسترد المدينة المقدسة إلى حظيرته .

وشاء القدر أن يكون تحقيق هذه الأمنية الكبيرة فى عصر الملك الناصر

صلاح الدين ، وأن يكون هذا البطل العظيم ، هو محطم الجبهة الصليبية ، وهو قاهر المملكة اللاتينية الصليبية ، وهو محرر بيت المقدس ، ومعيدها إلى حظيرة الإسلام .

— ١ —

قضى الملك الناصر صلاح الدين[1] مذ ولى الوزارة للخليفة العاضد بالله آخر الخلفاء الفاطميين ، فى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) . بضعة أعوام فى تصفية شئون الخلافة الفاطمية ، والقضاء على معالمها ورسومها ، وتوطيد سلطانه بمصر ، وتنظيم شئونها . ثم أخذ يدبر العدة لتحقيق مهمته الكبرى . وكان قد أدرك بتفكيره الثاقب ، ونظره البعيد ، أن الظروف التى كانت تجوزها مصر والشام يومئذ ، لم تكن ظروفاً طبيعية ، وأن هذه الإمارات التى انتثرت إليها الكتلة الإسلامية فى تلك المنطقة فى ظل الأمراء السلاجقة وغيرهم ، لم تكن سوى دويلات ضعيفة متخاذلة ، لا يمكن أن تصمد فى وجه العدو المغير ، المقتطع لبعض أطرافها ، المتغلغل فيما بين أرجائها ، ونعنى الفرنج الصليبيين . وأنه لكى يمكن القضاء على عدوان الصليبيين ، وعدوان الغرب ، يجب أن يتحقق أمران ، الأول ، أن تجمع كلمة هذه الإمارات الإسلامية المتنافسة المتنابذة ، من آسيا الصغرى والجزيرة حتى مصر ، فى جبهة قوية موحدة ، تقودها إلى الكفاح والجهاد بنجاح ؛ والثانى القضاء على المملكة الصليبية فى بيت المقدس ، وهى التى تعتبر رمز العدوان وقاعدته الدائمة ، ثم القضاء بعد ذلك على سائر معاقل الصليبيين .

ولم يكن صلاح الدين ، يصدر فى ذلك عن أية فكرة مستحدثة ، أو مشروع مبتكر ، وإنما كانت تحدده فى ذلك بالأخص ، فكرة عملية ، وسابقة تاريخية مؤثلة : ذلك أنه يعرف أن الدولة المصرية كانت منذ القرن التاسع الميلادى ، أى منذ عهد الدولة الطولونية ، تشتمل على رقعة إقليمية موحدة ، تشمل مصر والشام

---

[1] (١) يلاحظ أن تلقيب صلاح الدين بالملك الناصر ، كان منحة من الخليفة العاضد له حينما ولاه الوزارة ، وذلك جرياً على رسوم الخلافة الفاطمية ، إذ كان الوزراء يلقبون بالملوك ، فكان ابن السلار وزير الخليفة الظافر يلقب بالملك العادل ، وكان الصالح بن رزيك ، يلقب بالملك الصالح ، وتلقب ولده بالملك العادل ، وتلقب ضرغام بن عامر اللخمى بالملك المنصور ، وكذا لقب أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، ومتولى الوزارة قبله ، بالملك المنصور .

وفلسطين . وأن الدولة الفاطمية المنقضية كانت تسيطر على هذه الرقعة كلها ، وتمتد حدودها حتى آسيا الصغرى ، وأن قيام هذه الكتلة الموحدة ، واجتماع قواها ومواردها ، كان وحده كفيلا برد أطماع جارتها القوية من الشمال ، ونعنى الدولة البيزنطية . فلما ضعفت الخلافة الفاطمية ، واقتصت أطرافها الإقليمية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، استطاع الفرنج الصليبيون ، أن يغزوا أراضيها بنجاح ، وأن يفتتحوا بيت المقدس وثغور الشام ، واستطاع الغرب أن يدبر مشاريعه العدوانية الكبرى .

ومن ثم فإنه كان من الضرورى ، أن يُقضى على هذا التمزق الذى ساد رقعة الوطن الموحد ، بتغلب بعض الإمارات الجديدة على أطرافه ، وأن تعود هذه الكتلة القوية القديمة إلى سابق تماسكها ووحدتها ، لكى تستطيع أن تصمد فى وجه الفرنج الصليبيين ، وأن تقوم بتحرير ما انتزعوه من القواعد والأراضى . وهذا ما اعتزم صلاح الدين أن يعمل لتحقيقه بكل ما وسع .

وكانت وفاة الملك العادل نور الدين زنكى عاهل الشام فى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) أكبر عامل فى تيسير هذه المهمة العظيمة . ذلك أن هذا الملك العظيم ، سيد صلاح الدين القديم . كان أعظم قوة تخشى بأسها ، وقد فتح اختفاؤه من الميدان أمام صلاح الدين ، أفق العمل المثمر . فسار إلى الشام فى أوائل سنة ٥٧٠ هـ . واستولى على دمشق دون مقاومة ، وضبط النظام ، وفرق الأموال ، ثم سار إلى حمص واستولى عليها ، ثم استولى على حماة ، وعقد الصلح مع صاحب حلب ، ولم يمض سوى عامين حتى استتب له الأمر فى الشام كما استتب فى مصر .

وكانت هذه هى المرحلة الأولى فى قيام الجبهة الموحدة التى سعى صلاح الدين إلى إنشائها . ثم كانت المرحلة الثانية ، حينما خرج صلاح الدين من القاهرة كرة أخرى ، فى قواته وعدده فى سنة ٥٧٨ هـ ، واخترق الشام ، واتجه نحو الشمال الشرقى ، ولم يمض ثلاثة أعوام أخرى حتى استطاع صلاح الدين ، أن يحقق مشروعه فى ضم إمارات الجزيرة كلها إلى صفه ، وتم بذلك تعزيز الجبهة الشمالية ، وقيام الكتلة الإسلامية الموحدة الكبرى من ديار بكر وحدود آسيا الصغرى إلى القاهرة .

وفى خلال ذلك كان صلاح الدين يضطلع بحملات متوالية ضد الصليبيين ،

ويشتبك معهم فى معارك مستمرة . ففى أوائل سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) سار صلاح الدين إلى عَسْقَلان ، فعاث فى أحوازها . ثم سار إلى الرملة واشتبك على مقربة منها بالصليبيين بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس ، فوقع بين الفريقين قتال شديد ، هزم فيه السلطان ، وقتل وأسر كثير من المسلمين ، وارتد صلاح الدين إلى القاهرة . وقد حزت فى نفسه الهزيمة ، وأخذ يحشد الجند ، ويعد العدة لحملة جديدة . ثم غادر القاهرة فى قواته إلى دمشق . وأمضى فى الشام زهاء ثلاثة أعوام ، واشتبك مع الصليبيين فى عدة معارك ناجحة ، فى طبرية وصور وبيروت ، وهزمهم فى حمص هزيمة شديدة ، وأسر عدة من كبرائهم . واضطر بلدوين ملك بيت المقدس إلى طلب الهدنة ، فعقدت بين الفريقين لمدة عامين . وعاد صلاح الدين إلى مصر ، فى منتصف سنة ٥٧٦ هـ . وأمضى صلاح الدين فى مصر عاماً ونصف ، يرسم الخطط للمعركة القادمة ، ويعد معداته . وكتب إلى نوابه فى الشام بالتأهب. ثم خرج فى قواته وعدده من القاهرة فى الخامس من محرم سنة ٥٧٨ هـ (١١ مايو سنة ١١٨٢ م) . وقد شاء القدر أن تكون هذه آخر مرة يغادر فيها الديار المصرية ، فلم يعد إليها بعد ذلك قط .

وأنفق صلاح الدين فى الشام زهاء أربعة أعوام أخرى . وتم له فى تلك الفترة إخضاع الإمارات والقواعد الباقية بالجزيرة ، واستولى على الموصل وديار بكر ، كما استولى على حلب من صاحبها عز الدين مسعود . وبذلك تم له تحقيق مشروعه فى إخضاع الجزيرة كلها . وتعزيز الجبهة الدفاعية الشمالية ، وتأمينها بصورة مطلقة .

— ٢ —

وكانت نذر المعركة الكبرى تبدو فى الأفق شيئاً فشيئاً . وكان صلاح الدين قد أرسل إلى سائر الجهات فى مصر والشام والجزيرة ، يستنفر الناس إلى الجهاد ، ويحثهم على التجهز والاستعداد . وفى أواخر المحرم سنة ٥٨٣ هـ (أبريل سنة ١١٨٧ م) خرج فى قواته من دمشق ، وسار إلى بصرى ليحمى منها طريق عودة الحاج ، إذ بلغه أن رينودى شاتيون أمير الكَرَك (وتسميه الرواية العربية أرناط) ينوى الفتك بهم . وكان هذا الأمير الفرنجى ، من أشد الأمراء الصليبيين تعصباً وغدراً ، وكان قد فتك بالحاج فى فرصة سابقة خلال حملة برية وبحرية جهزها ،

وسارت حتى عيذاب . وكان لا يعقد هدنة إلا نقضها ، حتى ان السلطان ، أقسم بأنه إن ظفر بهذا الأمير الغادر ، فإنه سوف يقتله بيده . ولما انتهى عود الحاج ، سار صلاح الدين إلى الكرك والشوبك وعاث فى أنحائهما ، ووافته عساكر مصر بقيادة أخيه العادل قادمة من طريق إيلة ، وكانت قوات الشام والجزيرة ، تتلاحق فى تلك الأثناء ، وتجتمع فى دمشق تحت قيادة الملك الأفضل ولد السلطان . وسارت من هذا الجيش بأمر السلطان ، حملة قوية إلى ثغر عكا لاقتحامه وتخريبه ، واشتبكت مع الفرنج وفرسان الداوية (فرسان المعبد) والأسبتارية فى معركة طاحنة ، فهزم الفرنج ، وقتل مقدم الداوية ، وجماعة كبيرة من الفرسان . وعاث المسلمون فى أحواز عكا ، واستولوا على كثير من السبي والغنائم . ثم اجتمعت قوات السلطان بقوات ولده الملك الأفضل ، فاجتمع من ذلك جيش ضخم ، تقدره الرواية الإسلامية بأثنى عشر ألف فارس من النظامية وعدد كبير من المتطوعة . وسار السلطان فى قواته بعد أن أعدت للقتال جنوباً نحو طبرية ، واستولى عليها ، واعتصمت حاميتها بالقلعة . وكان قصد السلطان أن يستدرج الفرنج لمقاتلته ، فلم يتقدموا ، فترك طبرية ، وعاد إلى عسكره على مقربة منها ، وكان الفرنج قد اجتمعوا فى سهل قريب مقفر ، بعد أن خربوا عيون الماء التى فيه توقعا لمقدم المسلمين . وفى اليوم الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٨٣ هـ (٤ يوليه سنة ١١٨٧م) ، تحرك المسلمون نحو المعسكر الفرنجى . وكان جيش الفرنج يقرب من خمسين ألف مقاتل ، وعلى رأسهم جى دى لوسنيان ملك بيت المقدس ، والبرنس رينودى شاتيون صاحب الكرك ، والكونت ريمون صاحب طرابلس ، وزعماء الفرسان الداوية والأسبتارية . وكان مقصد الفرنج أن يمنعوا الجيش الإسلامى من السير إلى طبرية وامتلاك قلعتها . فتحركوا نحو طبرية يقصدون مكاناً به الماء ، فوقف الجيش الإسلامى فى سبيلهم ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك طاحنة ، وقاتل الصليبيون قتالا شديداً ، ولكن المسلمين رجحت كفتهم ، واستطاعوا محاصرة الفرنج ، فارتد الفرنج نحو تل بقرية حطين القريبة ، يعتصمون به ، فوقف المسلمون فى سبيلهم ، واشتد القتال بين الفريقين ، ودافع الفرسان الفرنج ، الذين اعتصموا بالتل دفاعاً شديداً ، وردوا المسلمين مرات ، ولكنهم

هزموا فى النهاية شر هزيمة ، واستولى المسلمون على خيمة ملكهم ، وعلى الصليب الكبير المسمى « صليب الصابوت » وهو الذى يزعمون أن فيه قطعة من الخشبة التى صلب عليها السيد المسيح ، وأسر سائر الأمراء والفرسان الفرنج ، وفى مقدمتهم ملك بيت المقدس ، ورينودى شاتيون ، ومقدم الأسبتارية ، وعدة كبيرة من الفرسان . وأخذ الأمراء والأسرى إلى خيمة السلطان ، فقتل السلطان بيده ، رينودى شاتيون (أو البرنس أرناط) وفاء لنذره وجزاء له على غدره المتكرر ، وجرأته المثيرة فى محاولة قطع طريق الحاج ، والسير إلى قبر الرسول بقصد الاعتداء عليه . وكان نصراً عظيما لم يسمع به منذ مقدم الصليبيين إلى المشرق.

وعلى أثر هزيمة الفرنج وسحق قواتهم ، سار السلطان إلى طبرية ، واستولى على قلعتها بالأمان ، ثم سار إلى عكا ، فغادرها أهلها بالأمان ، ودخلها المسلمون فى يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى ، وأقيمت بها أول جمعة منذ ملكها الفرنج ، وسلمها السلطان لولده الملك الأفضل . واستولى المسلمون على عدة من البلاد القريبة مثل الناصرة ، وقيسارية ، وحيفا ، وصفورية وغيرها . وزحف صلاح الدين بعد ذلك شمالا ، فاستولى على صيدا ، ثم بيروت . وتم هذا الزحف المظفر فى أقل من شهر ، وبدا كالسيل يحمل من يصادره ، وأخذ سلطان الفرنج فى سائر النواحى الباقية بأيديهم يضطرب ويتداعى .

— ٣ —

وكان صلاح الدين يرمى من حملته الكبرى قبل كل شىء إلى استرداد بيت المقدس ، وسحق المملكة الصليبية ، وإعادة الصلة المباشرة بين شطرى الإمبراطورية المصرية ، كما كانت قبل الغزو الصليبى . وكان يضطرم فوق هذه العوامل المادية ، بفكرة الجهاد المقدس ، والعمل على حماية الإسلام من أعدائه ، وكان يشعر أن كسرة الفرنج فى حطين ، قد ثلمت صفوفهم ، وضعضعت قواهم ، وأنه لابد أن يتبع نصره بالسير تواً إلى تحقيق غايته .

فسار فى قواته إلى عسقلان ، لكى يتم عزل بيت المقدس عن البحر ، وطوقها من البر ، وضربها بالمجانيق ضرباً شديداً ، حتى سلمت بالأمان فى آخر جمادى الثانية (٥ سبتمبر سنة ١١٨٧) . واستولى على معظم البلاد والحصون المجاورة ، ثم سار

إلى بيت المقدس ، وكان قد أرسل إلى الأسطول المصرى بالخروج إلى مياه فلسطين ، فخرج بقيادة حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وكان من أشجع وأمهر أمراء البحر فى ذلك العصر ، وسيطر على تلك المياه ، وقطع السبيل على سائر السفن الفرنجية التى تحاول الاقتراب من الساحل .

وأشرف صلاح الدين بجيشه على بيت المقدس فى منتصف شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ (٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ م) ، وكانت تموج بجموع زاخرة من الفرنج ، الذين قصدوها من سائر البلاد التى افتتحت ، وقد صمموا على الدفاع عنها بكل ما وسعوا . وكان منظم الدفاع عن المدينة الفارس باليان دى إيلين ، وذلك تحت زعامة البطريق الأكبر . ولم يكن بها أحد من الأمراء الفرنج ، وليس بها سوى الملكة سيبيل زوجة الملك الأسيرجى دى لوسنيان . وتقول الروايات النصرانية إن عدد المدافعين عن المدينة لم يكن كبيراً ، وإنها كانت تموج بجموع النساء والشيوخ والأطفال .

وضرب صلاح الدين الحصار حول المدينة المقدسة ، وقد شعر بحصانتها ، ووفرة المدافعين عنها ، وضربها بالمجانيق ضرباً شديداً . ورد الفرنج فضربوا المسلمين بالمجانيق من فوق الأسوار ، وقاتلوا أشد قتال . وكان الفرسان الفرنج يخرجون من المدينة من آن لآخر ، وتنشب بينهم وبين المسلمين معارك طاحنة . ولكن المسلمين شددوا الوطأة على المدينة المحصورة ، واستمروا فى ضربها بشدة ، وتمكنوا من نقب السور . فلما شعر الفرنج بخطورة الموقف ، بعثوا وفداً منهم يطلب الأمان إلى السلطان . فرفض السلطان فى البداية ، وذكر الفرنج بما فعله أسلافهم عند افتتاح المدينة من الفتك بأهلها المسلمين ، وقتل الألوف العزل منهم ، وأنذرهم بأنه سيفعل بهم مثل ما فعل أسلافهم . فعندئذ قصد الفارس باليان بنفسه إلى السلطان ، وأنذره بأنه إذا لم تحصل المدينة على الأمان ، فإنهم أى الفرنج ، سوف يقتلون أبناءهم ونساءهم ، ويحرقون متاعهم وأموالهم ، ويخربون الصخرة ، والمسجد الأقصى ، ويقتلون أسرى المسلمين ، وهم عدة آلاف ، ثم يرتدون بعد ذلك إلى مقاتلة المسلمين قتال اليأس والموت ، فعندئذ رأى السلطان نزولا على نصح مستشاريه ، أن يقبل منح الأمان ، واتفق على أن

يسلم الفرنج المدينة ، على أن يؤمنوا فى أملاكهم ، وأن يعتبر أهلها أسرى ، يسمح لهم بالفداء ، خلال أربعين يوماً ، على أن يدفع كل رجل عشرة دنانير ، وكل امرأة خمسة ، وكل صبي أوصبية ديناراً . ودخل المسلمون بيت المقدس فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ (٢ أكتوبر ١١٨٧ م) ، فى نظام وسلام . وكان يوماً مشهوداً . وفى الحال رفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار ، وأنزل الصليب من أعلى قبة الصخرة ، وطهر المسجد الأقصى وصخرته من الهياكل والصلبان . وأبدى صلاح الدين فى تحصيل الفداء منتهى التسامح ، ولم يدخل خزائنه منه سوى القليل . فأذن للملكة سيبيل وغيرها من الأميرات الفرنج ، بمغادرة المدينة فى حاشياتهن دون فدية . واستوهبه الكثير من الأمراء عدداً من الفرنج ، واقتسم الأمناء الأموال ، ولعب الاختلاس دوره الذميم ، وضاعت على السلطان مبالغ طائلة . ويقول لنا ابن الأثير إنه كان بالمدينة وقت تسليمها ستين ألف رجل ما بين فارس وراجل . غير من يتبعهم من النساء والأطفال . وكان دخول المسلمين بيت المقدس على هذا النحو السلمى ، المنزه عن ارتكاب الإثم وإراقة الدماء ، صفحة مشرقة ناصعة ، تناقض كل المناقضة ، ما ارتكبه الفرنج الصليبيون حين دخولها سنة ١٠٩٩ م من رائع السفك والإثم والتقتيل .

ويصف لنا العماد الإصفهانى كاتب صلاح الدين ، وهو شاهد عيان ، مجلس السلطان غداة يوم الفتح فى تلك العبارات البليغة :

« وجلس السلطان للهناء ، للقاء الأكابر والأمراء والمتصوفة والعلماء ، وهو جالس على هيأة التواضع ، وهيبة الوقار ، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار ، ووجهه بنور البشر سافر ، وأمله بعز النجح ظافر . وبابه مفتوح ورفده ممنوح ، وحجابه مرفوع ، وخطابه مسموع ، ونشاطه مقبل . وبساطه مقبل ، ومحياه يلوح ، ورياه يفوح ، ومحبته تروق ، ومهابته تروع . وآفاقه تضيء ، وأخلاقه تضوع ، وكأن دسته بين هالة القمر ، والقراء جلوس يقرأون ويرشدون . والشعراء وقوف ينشدون وينشلون ، والأعلام تبرز لتنتشر ، والأقلام تزر لتبشر . والعيون من فرط المسرة تدمع ، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع ، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع » (١).

---

(١) فى كتابه الفيح القسى فى الفتح القدسى ص ٤٤

— ٤ —

ونستطيع أن نعتبر موقعة حطين ، أهم المواقع الحاسمة ، فى الحروب الصليبية كلها دون استثناء لمعركة المنصورة ذاتها . ذلك أنها مهدت الطريق لاسترداد بيت المقدس ، وسقوط المملكة اللاتينية الصليبية ، بعد أن عاشت فى قلب الشرق الإسلامى ، زهاء تسعين عاماً ، تهدد كيانه ونظمه ومدنيته ، وكانت قاعدة حصينة لحملات الغرب ومشاريعه العدوانية المتوالية ، وكان سقوطها ضربة للجبهة الصليبية ، لم تنهض من آثارها قط . وكان مثار فورة جديدة من التعصب والعدوان فى الغرب ، هى التى أسفرت عن تنظيم الحملة الصليبية الثالثة . بيد أن مقدم هذه الحملة الجديدة لم يحول تيار الظفر الذى ملك المسلمون ناصيته ، ولم تغن جيوش انجلترا وفرنسا وألمانيا التى هرعت فى ركابها إلى الأراضى المقدسة شيئاً ، ولم تستطع أن تسترد بيت المقدس . ولا أن تعيد إلى الجبهة الصليبية تفوقها القديم .

أما فى العالم الإسلامى ، فقد كان لاسترداد بيت المقدس وقع عميق ، مقرون بأخلص آيات الغبطة والشكر والعرفان ، للبطل الذى تحقق هذا النصر العظيم على يديه .

وهب صلاح الدين حياته للجهاد فى سبيل الله . وإنقاذ الإسلام والشرق من عدوان الغرب النصرانى ، وكان سبيله إلى تحقيق هذه الأمنية العظيمة ، هو أن يجمع كلمة الشرق الإسلامى ، وأن يعيد إليه وحدته الإقليمية التى انصدعت بانحلال الدولة الفاطمية ، وعدوان الصليبيين على الشأم . وقد وفق صلاح الدين فى تحقيق هذه الغاية أعظم توفيق . ولم تقف جهوده عند رد الإمبراطورية المصرية إلى سابق تماسكها الإقليمى ، بل استطاع أن يجمع كلمة الكتلة الإسلامية من من جبال كردستان ، ومشارف آسيا الصغرى ، حتى صحراء لوبية ، وأن يعتمد على جهودها الموحدة فى رد الصليبيين ، ورد عدوان الغرب النصرانى ، فكانت جيوش صلاح الدين تجمع فى صعيد واحد بين المصريين والشاميين والعرب والأكراد والتركمان والترك وغيرهم ، يشعرون جميعاً بشعور واحد ، ويعملون جميعاً لغاية واحدة ، هى الذود عن الإسلام ، وأرضه ، وحضارته .

كان صلاح الدين بطل الإسلام بلا مراء ، بل هو من أعظم أبطال الإسلام قاطبة . وكانت الفكرة الإسلامية تملأ نفسه ومشاعره ، يضطرم بها ، ولا يؤمن بغيرها ، ولم تكن تحدوه فى جهاده ، أية فكرة قومية أو عنصرية أو إقليمية . وإذا

كان عدوان الحملات الصليبية يتسم فى ظاهره بالصبغة الدينية ، ويرمى إلى مهاجمة الإسلام ، والقضاء على سلطانه ، وإعلاء كلمة النصرانية ، فقد كان صلاح الدين يضطرم بفكرة الدفاع عن الإسلام ، والذود عن أرضه وتراثه ، ولم يكن يخفى عليه أنه بسحق الحملات الصليبية ، إنما يقضى فى نفس الوقت على مطامع الغرب الإستعمارية فى المشرق .

فإذا نحن أسبغنا على صلاح الدين ، أو على مشاريعه وأهدافه وجهاده فى سبيل الله ، أية صفة أخرى غير الصفة الإسلامية . وإذا نحن نسبناها إلى بواعث قومية أو عنصرية أو إقليمية ، فإنا بذلك نجنى على سيرة البطل الإسلامى العظيم ، إذ نجرده من أروع حلل بطولته وأشرفها .

ولم يخف هذا المغزى الإسلامى العظيم ، الذى جعله صلاح الدين شعار حياته ، وشعار جهاده ، على مفكرى عصره ، فنرى صاحب الروضتين يقول معلقاً على وفاته : « وكان يوماً لم يصب الإســـلام والمسلمون بمثله مذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ، مالا يعلمه إلا الله تعالى » . ويقول آخر : « وأغمد سيف الله الذى كان على أعدائه دائم التجريد ، وخفت الأرض من جبلها ، الذى كان يمنعها أن تميد ، وأصبح الإسلام ، وقد فقد ناصره ، ثاكلا لوحيد ، فهو أعظم فاقد ، لأعظم فقيد » .

وكانت وفاة الملك الناصر صلاح الدين فى السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ (٤ مارس سنة ١١٩٣ م) فى السادسة والخمسين من عمره . وكانت مشاق السير والحروب المستمرة ، التى استطالت منذ موقعة حطين زهاء خمسة أعوام ، قد أثرت فى بنيته السقيمة ، واستنفدت قواه ، وكان المرض ينتابه خلال هذه الأعوام كرة بعد أخرى ، ولكنه لم يقعد قط عن متابعة جهوده ، فكان وقت المعركة ، يتنقل دائماً بين الصفوف ، ويتقدم جنده إلى المعمعة ، ويحثهم على القتال ، ويذكى هممهم وشجاعتهم بجرأته وإقدامه ، ورقيق خلاله ، ورائع فروسته .

وكان صلاح الدين يتسم بطائفة من أجمل الصفات الملوكية والإنسانية ، فقد كان وافر الحلم ، جم التواضع والبساطة ، متقشفاً فى ملبسه وطعامه ، وافر الجود

والبذل ، ينفق كل ما تصل إليه يده فى أغراض الجهاد ومصالح المسلمين ، لا يهتم بشىء من أغراض هذه الدنيا من مال أوقصور أو غيرها ، حتى إنه لما توفى لم يخلف مالا ولا عقاراً ، ولم يوجد فى خزائنه شىء من الذهب أوالفضة سوى دينار واحد، وسبعة وأربعين درهماً ، فكان ذلك دليلا مؤثراً على زهده ، وعفة نفسه ، وطهارة يده ، وصونه لمال المسلمين .

وكانت الشهامة والفروسة من أبرز صفات هذا السلطان العظيم المظفر ، فقد كان صلاح الدين فارس الإسلام بحق ، بل كان مثلا أعلى للفروسة فى عصره . وكثيراً ماكانت تحمله الفروسة على العفو عن خصومه من الفرنج الصليبيين وإطلاق سراحهم ، والثقة فى شرفهم ، ووعودهم ، ثم كانوا يقابلون تسامحه وفروسته بالنكث ، ويعودون إلى قتاله . وقد رأينا كيف عفا عن الفرنج المدافعين عن بيت المقدس ، وحقن دماءهم ، وصرح لهم بافتداء أنفسهم . وكان هذا التصرف الذى أملته الشهامة والفروسة ، من أنبل تصرفات صلاح الدين ، وأحفلها بالمعانى الإنسانية[1] .

— ٥ —

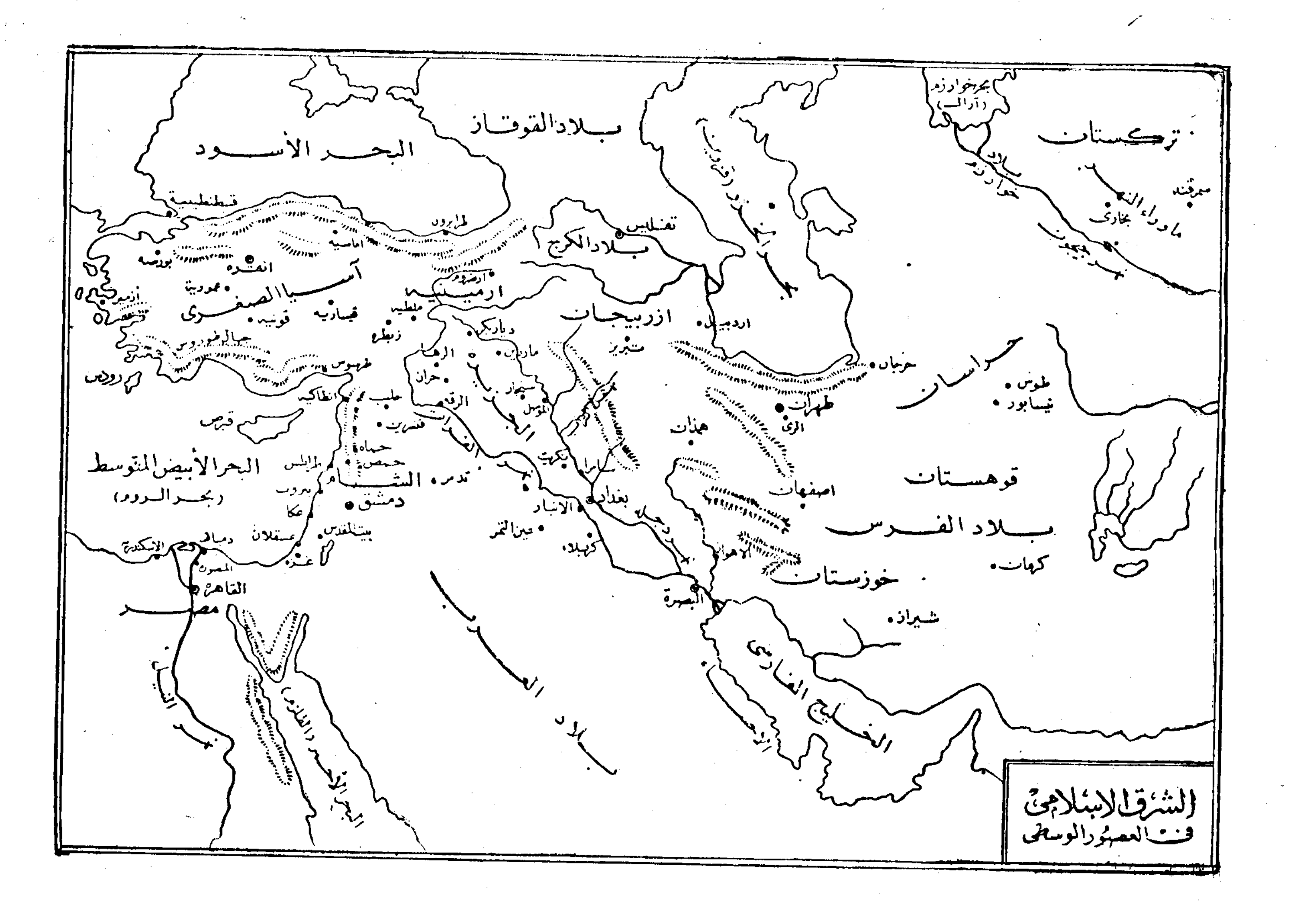
وهل نحن فى حاجة لأن نقول إن عبرة التاريخ المؤلمة ، قد تجددت فى عصرنا بقيام دولة إسرائيل الغاصبة ، فى الأراضى المقدسة ، فى قلب العالم العربى والإسلامى ؟ إن قيام المملكة اللاتينية الصليبية ، لم يكن حسبما رأينا إلا نتيجة لخلاف الدول الإسلامية وتنافسها وتنابذها . فلما تألبت قوى الإسلام المتحدة ، التى استطاع صلاح الدين أن يجمع كلمتها فى صعيد واحد ، على عدوها المشترك ولما اضطر الصليبيون إلى لقاء قوى الإسلام المتحدة ، بدا ضعفهم وانهارت مملكتهم ، التى قامت على أسس العنف والغصب ، تحدوها عوامل التعصب الدينى وتغمرها الأساطير المغرقة وتستتر فى نفس الوقت بصبغتها الدينية ، لتحقيق مآربها الدنيوية .

---

(١) رجعنا فى كتابة هذا الفصل إلى تاريخ ابن الأثير ، والروضتين فى تاريخ الدولتين لشهاب الدين القدسى ، والفيح القسى فى الفتح القدسى للعماد الاصفهانى ، والسلوك فى دول الملوك للمقريزى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان وكذلك إلى :
W. Besant & E. Palmer : Jerusalem the City of Herod and Saladin
و Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages.

وقلما نجد فى التاريخ مثل هذا التماثل المدهش ، فى العوامل والظروف التى أحاطت بوقوع ذينك الحدثين الخطيرين فى الأراضى المقدسة . وهل قيام دولة إسرائيل فى فلسطين ، إلا صورة مجددة مطابقة لقيام المملكة الفرنجية الصليبية ؟ دولة تقوم مثلها على مبادئ العنف والعدوان ، التى تغذيها الصهيونية الدولية الغازية ، وتحدوها أساطير دينية مغرقة ، كتلك التى اتسمت بها الغزوات الصليبية ، وتقوم فى مثل ظروفها تظاهرها معظم الأمم الغربية ، وتمدها بالعون والتأييد . كما كانت أوربا النصرانية تظاهر الصليبيين ، وتمدهم بعونها فى قلب العالم العربى بين إمارات متنابذة ، مفرقة الرأى والكلمة ، لم تعرف معنى الاتحاد حتى وقت الخطر الداهم ، وما زالت بتنابذها وتفرقها ، تفسح للعدو الغاصب سبيل الاستقرار والتوسع والتوطد .

وإذا كانت عبرة التاريخ ، قد تمثلت فى المحنة فى هذين الحدثين المؤلمين ، فى تاريخ العالم العربى والإسلامى ، فإن لنا أن نؤمل أن تتمثل عبرة التاريخ أيضاً ، فى تهيئة العوامل والظروف ، التى تعاون على تلافى هذه المحنة الجديدة ، واستئصال جذورها ، كما عاونت من قبل فى القضاء على المملكة اللاتينية الصليبية .


الشرق الإسلامي
في العصور الوسطى
البحر الأسود
بلاد القوقاز
تركستان
بحر خوارزم (آرال)
بلاد خوارزم
ما وراء النهر
سمرقند
بخارى
نهر جيحون
بحر الخزر (قزوين)
تفليس
بلاد الكرج
طرابزون
قسطنطينية
بروصة
انقرة
اماسية
آسيا الصغرى
عمورية
قيسارية
قونية
ملطية
زبطرة
ارضروم
ارمينية
ازربيجان
اردبيل
تبريز
ديار بكر
ماردين
الرها
حران
الرقة
سنجار
الموصل
الجزيرة
جبال طوروس
طرسوس
انطاكية
حلب
قنسرين
حماة
حمص
طرابلس
بيروت
عكا
دمشق
الشام
تدمر
عسقلان
بيت المقدس
غزة
دمياط
الإسكندرية
القاهرة
مصر
نهر النيل
البحر الأحمر (القلزم)
قبرص
رودس
البحر الأبيض المتوسط
(بحر الروم)
نهر الفرات
تكريت
سامرا
بغداد
نهر دجلة
الانبار
عين التمر
كربلاء
البصرة
بلاد العرب
الخليج الفارسي
الأحساء
الأهواز
خوزستان
شيراز
كرمان
بلاد الفرس
اصفهان
همذان
طهران
الري
جرجان
خراسان
طوس
نيسابور
قوهستان

الفصل العاشر

موقعـــة المنصورة

٦٤٨ هـ — ١٢٥٠ م

الحروب الصليبية فى معنى من المعانى صفحة من تاريخ مصر القومى ، وإن كانت صفحة من تاريخ الإسلام العام ، فقد كانت مصر مسرح كثير من المعارك الصليبية . وكانت جيوش مصر أسبق الجيوش الإسلامية إلى رد الصليبيين ، وكانت أشدها وطأة عليهم وإثخاناً فيهم . وأشد الحملات الصليبية بروزاً فى تاريخ مصر وارتباطاً به هى الحملة السابعة ، فقد قصدت إلى مصر مباشرة لتجعل منها ميداناً للحرب المقدسة وغنما للكنيسة ؛ وقد كانت المعارك التى اضطرمت خلال هذه الحملة بين المسلمين والنصارى والتى بلغت ذروتها فى موقعة المنصورة الحاسمة . مسرحاً لعصف القذائف الملتهبة بالجيوش الصليبية (النار اليونانية) فى مناظر مروعة عنيت بالإفاضة فى ذكرها سير العصر ، وانتهت إلينا عنها وثيقة إفرنجية هامة كتبها شاهد عيان اشترك فى كل المواقع والحوادث وكان يشغل منصباً رفيعاً فى الجيش الفرنجى ؛ ذلك هو الفارس چان دى چوانڤيل أحد أكابر بطانة لويس التاسع . وصاحب المذكرات المسماه تاريخ «القديس لويس» وهى مذكرات يتناول فيها سيرة مليكه كما يتناول أخبار الحرب الصليبية السابعة وحوادث مصر فى ذلك الحين . بكثير من الدقة والإفاضة .

جاءت الحملة الصليبية السابعة إلى مصر أيام الملك الصالح ابن الملك الكامل ، بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس . وكانت هذه الحملة من أعظم الحملات الصليبية . وكانت فى الواقع فاتحة لفصل جديد من فصول هذه الحروب البربرية ، لأن المملكة اللاتينية التى أنشأها جودفروا دى بويون وفرسانه فى بيت المقدس لم يطل أجلها أكثر من ثمانية وثمانين عاماً ، ثم انهارت سراعاً تحت ضربات صلاح الدين القوية ، وعادت الأراضى المقدسة إلى سيادة الإسلام . وارتد الصليبيون إلى قلاعهم فى الساحل . وكان الصليبيون قد رأوا منذ سقوط مملكتهم فى بيت المقدس ، أن يحولوا ميدان النضال إلى مصر ليُحطموا تلك القوة

التى أوقعت بحملاتهم وأفسدت تدابيرهم؛ فنزلوا مصر لأول مرة أيام الملك الكامل واستولوا على دمياط (٦١٥ هـ — ١٢١٧ م) ، ولكنهم هزموا بعد ذلك واضطروا إلى إخلائها . ولبثت مصر آمنة مطمئنة نحو ثلث قرن حتى حشد لويس التاسع حملته الكبرى ، فكان على هذه الحملة أن تعيد سيرة الحروب الصليبية من مبدئها ، وأن تفتتح الأراضى المقدسة من جديد . وكانت فى الواقع أحق الحملات الصليبية بهذا الوصف . ذلك أن لويس التاسع كانت تحدوه نزعة دينية عميقة ، ولم تكن تحفزه فى الذهاب إلى المشرق أطماع دنيوية فقط من رغبة السلطان ومغانم الظفر ، كما حفزت أسلافه من الأمراء والفرسان ، فهرعوا إلى الشرق وثغوره الغنية ليملأوا أيديهم من الأموال والسبى ، وليستقروا ملوكاً فى مروجه الغنية ؛ وإنما كانت تحفزه قبل كل شىء رغبة مضطرمة فى العمل فى سبيل الدين وإعلاء كلمته ، وإنقاذ الأراضى المقدسة من صولة الإسلام . ولم يكن فوق ذلك آلة تحركها الكنيسة كأسلافه من الأمراء الصليبيين ، ولكنه كان يسترشد وحى نفسه ، وتسيره عواطفه الدينية المضطرمة ، وإن لم يكن فى سياسته سوى معبر عن مقاصد الكنيسة ومنفذ لمشاريعها .

كان لويس التاسع يمثل فى سياسته وأعماله روح العصر ، الذى كانت فيه المعارك تضطرم من كل صوب بين النصرانية وأعدائها ، وكانت المعارك الصليبية تنشب بلا هوادة بين النصرانية والإسلام فى اسبانيا ، كما كانت تنشب بين النصرانية والخارجين عليها من النصارى أنفسهم ، مثل الألبيين والكاتاريين وغيرهم من فرق الخوارج والملاحدة .

— ١ —

وهكذا جاء لويس التاسع فى جحافله إلى مصر مجدداً عهد الجهاد الصلبى ، يصحبه بعض الأمراء النصارى فى جنودهم وأتباعهم. وكان الغزاة قد أمضوا الشتاء فى قبرص ، ثم ساروا إلى مصر فى أسطول ضخم ووصلوا إلى المياه المصرية فى ٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ (يونيه سنة ١٢٤٩ م) . وفى الحال أوفد لويس التاسع رسله إلى ملك مصر بكتاب ينذره فيه باسم الأمم النصرانية بوجوب الخضوع والتسليم ، ويؤكد له أن المقاومة عبث . وكان ملك مصر حينما بلغه مقدم الصليبيين قد هرع عائداً مع

قواته من حملة إلى الشام وهو مريض فى محفة ، فنزل بقواته فى أشموم طناح على مقربة من دمياط ، وهى يومئذ مجاز الصليبيين المفضل إلى الأراضى المصرية منذ استيلائهم عليها لأول مرة . ولما تلقى الصالح إنذار ملك الفرنج أجاب عنه بكتاب من إنشاء كاتبه الشاعر الأشهر بهاء الدين زهير ، وفيه يرد عليه وعيده وتحديه وينذره بسوء المصير .

ولكن الصليبيين نزلوا إلى البر فى اليوم التالى لمقدمهم ؛ واستولوا على دمياط وعلى ما فيها من العدد والأقوات دون مقاومة ، وفرت حاميتها الإسلامية فى جنح الليل . فوجم السلطان لهذه المفاجأة السيئة ، وارتد فى قواته محمولا فى محفته إلى المنصورة وهى المحلة التى أنشأها أبوه الملك الكامل على النيل حينما هاجم الصليبيون دمياط لأول مرة فى سنة ٦١٥ هـ . وكان إلى جانب الملك الصالح زوجته وحظيته شجرة الدر . وكانت هذه المرأة الموهوبة التى ارتفعت فى البلاط بخلالها وسحرها من جارية عادية إلى زوجة شرعية للسلطان ، ساعد السلطان الأيمن وناصحته عند الخطوب . وكانت تبث بقوة نفسها إلى الملك المريض وإلى قادته روح الشجاعة والثقة . وأمر الملك الصالح بتحصين المنصورة . وتلاحقت القوات المصرية ، التى حشدت على عجل من سائر أنحاء المملكة إلى تلك القاعدة الجديدة . وقدم أسطول نهرى من الشوانى الحربية ، رابط فى النيل تجاه المدينة . وأخذ الفرنج من جانبهم يضعون خططهم ويتأهبون للزحف إلى الجنوب . ونشبت بين طلائع الفريقين معارك صغيرة كانت سجالا بينهما ، واستمرت الحال على ذلك بضعة أشهر.

وفى أثناء ذلك كان الملك يعانى أوصاب المرض وتسوء حالته يوماً عن يوم . ثم اشتدت به العلة وتوفى فى ١٥ شعبان ٦٤٧ (نوفمبر سنة ١٢٤٩) وأوصى قبل موته بالعرش لولده الملك المعظم تورانشاه نائبه فى الديار الشرقية .وكانت وفاة السلطان فى تلك الآونة الدقيقة ضربة شديدة للمسلمين ،وكانت كفيلة بأن تقضى على كل تدبير وأهبة للقاء العدو المغير ؛ ولكن شجرة الدر زوج السلطان بادرت بالقبض على زمام الموقف .وأمرت بكتمان وفاة السلطان ، واتفقت مع الأمير فخر الدين كبير الخاص وباقى رجال الحاشية المقربين على تسيير الأمور كأن لم يحدث حادث ، حتى أن السماط السلطانى كان يمد فى الجناح السلطانى فى مواعيده ، وتخرج الأوامر

والمناشير ممهورة بخط السلطان[١] . وحمل جثمان السلطان المتوفى سراً إلى القاهرة . واستمرت شجرة الدر فى تنفيذ خطتها الجريئة بمهارة فائقة ، وأرسلت إلى السلطان الملك المعظم رسولا إلى المشرق يستدعيه على عجل ، وكانت تعتذر لمن يرغب فى رؤية السلطان من الكبراء والقادة بأنه مريض لا يستطيع استقبال أحد .

وفى ذلك الحين كان الفرنج[٢] قد اعتزموا أمرهم وقرروا السير من دمياط جنوباً لمقاتلة المسلمين ؛ والظاهر أنهم وقفوا فى الوقت نفسه على وفاة السلطان من بعض جواسيسهم ، وشعروا بأن الفرصة قد سنحت لإنزال ضربتهم ، فزحفوا جنوباً نحو بلدة فارسكور وسفنهم تسير بحذائهم فى النيل ، واقتربت طلائعهم من المسلمين فى أواخر شعبان . وفى أوائل رمضان سنة ٦٤٧ هـ (ديسمبر سنة ١٢٤٩) وصل الفرنج إلى شرقى المنصورة وكان يفصل بينهم وبين المسلمين بحر أشموم ، واقتربت قواتهم فى النيل من المنصورة . وكانت شوانى المسلمين ترابط إزاءها . وكان معظم الجيش الإسلامى يرابط شرقى المنصورة ، وبعضه يرابط فى البر الغربى . وبدأت المعارك المحلية تنشب بين الفريقين تباعاً فى البر وفى النهر ، واستمرت بينهما أسابيع سجالا ، وكل يفقد فيها قتلى وأسرى . وكان المسلمون يرسلون أسرى الفرنج إلى القاهرة لتقوية الروح المعنوية بين الشعب . وبذل الفرنج مجهوداً عنيفاً لإقامة جسر على بحر أشموم يعبرون عليه إلى المسلمين بسائر قواتهم ولكنهم أخفقوا فى البداية ؛ وسلط المسلمون عليهم القذائف الملتهبة (النارالبونانية) تطلق من حراقاتهم فى النيل فتحدث فى معسكرهم ذعراً واضطراباً .وكان المسلمون يستأثرون يومئذ بسر هذا السلاح الخطير الذى لعب دوراً عظيما فى الحروب الصليبية .وكانت الجيوش المصرية تبدى مهارة خاصة فى استعمال هذا السلاح ، وتقذف النار من البر ومن البحر من سفن خاصة (الحراقات) ، واستمرت هذه القذائف الملتهبة تزعج الفرنج وتحبط محاولاتهم عدة أسابيع . ثم وقف الفرنج من بعض الجواسيس أو الخونة على وجود مخائض فى بحر أشموم فعبروا منها إلى بره الغربى وتقدمت فرسانهم بقيادة الكونت دارتوا أخى ملك فرنسا وفاجأوا المسلمين بالهجوم ، فوقع الاضطراب

---

(١) قيل فى تعليل ذلك أن السلطان كان قد وقع قبل وفاته عدداً من الأوامر والمناشير احتياطاً . وقيل إن هذه التوقيعات كان يقلدها غلام من غلمان السلطان يدعى سهيل .

(٢) تطلق الرواية الإسلامية كلمة « الفرنج » على طوائف الصليبيين من مختلف الأمم الأوربية .

بين المسلمين ، وقتل قائدهم الأمير فخر الدين فى بداية الموقعة ، وكادت تدور عليهم الدائرة . ولكن حدث عندئذ أن بادر الحرس السلطانى المكون من المماليك البحرية أو رجال الحلقة ، وهم من أبرع المقاتلة ، وأشدهم بأساً ، بالهجوم على الفرنج بقيادة رئيسهم بيبرس البندقدارى ، وحملوا عليهم بشدة متناهية ، فترنح الفرنج ووقع الاضطراب فى صفوفهم ، وقتل قائدهم الكونت دارتوا وهلك معظم فرسان « الداوية » ، وتساقطت زهرة الفرسان الفرنج سراعاً ، وارتدت فلولهم الممزقة عند مغيب الشمس إلى قواعدهم على بحر أشموم ، وحال الظلام بين الفريقين. وكان ذلك فى الخامس من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ (٩ فبراير سنة ١٢٥٠ م) .

تلك هى المرحلة الأولى من موقعة المنصورة التى خلدت فى صحف مصروتاريخ الحروب الصليبية ، بيد أنها لم تكن الخاتمة . وكان مقدراً أن يشهد الفرنج ذروة المحنة ، وكانت شجرة الدر هنالك فى قلب المعسكر السلطانى ترقب مصاير المعركة بثبات وتعاون فى توجيهها برأيها وتشجيعها . وكان من غرائب القدر أن تتولى الإشراف والتوجيه فى المعسكر الإسلامى فى تلك الآونة العصيبة امرأة . ولكن القدر كان باراً بمصر ، وكان النصر حليفها فى ذلك اليوم المشهود . ولما زال الخطر الداهم استمرت شجرة الدر تشرف بعد ذلك حيناً على توجيه الشئون حتى قدم السلطان الجديد الملك المعظم تورانشاه ولد الملك الصالح. وكان وصوله إلى مصر بعد موقعة المنصورة بعشرة أيام، وعندئذ أعلنت وفاة الملك الصالح لأول مرة وتقلد الملك الجديد فى الحال زمام الحكم . ولكنه لم يشعر بشكر الصنيعة نحو المرأة التى استطاعت بإخلاصها وبراعتها أن تسهر على سلامة الدولة ووحدة الأمة ، والتى كان لها الفضل الأول فى تبوئه عرش أبيه . ذلك أنه كان يخشى سلطانها ونفوذها. وسرعان ما ساءت العلائق بين شجرة الدر وبين الملك المعظم . وكان المعظم فتى نزقاً عنيف الأهواء ، فأساء السيرة وبطش بكثير من رجال الدولة واضطهد مماليك أبيه (المماليك البحرية) ، فنقم عليه الكبراء والزعماء وأخذوا يتربصون الفرص للبطش به .

وكان الفرنج فى ذلك الحين يرابطون فى مراكزهم على بحر أشموم وقد سادتهم الحيرة والاضطراب ، وكان المسلمون يهاجمون السفن الفرنجية الآتية من دمياط فى النيل .

لإمدادهم بالأقوات والمؤن ويستولون على معظمها ، حتى دب إليهم الجوع والمرض ، ووهنت قواهم . وكانت النيران التى تطلقها حراقات المسلمين من النيل على معسكرهم تلتهم خيامهم وعتادهم ومؤنهم وتزيد فى كربهم وبؤسهم . وكان لويس التاسع بالرغم من هذا الموقف الخطر يأبى الارتداد حتى غلب عليه نصح امرأته وقادته ، واعتزم مفاوضة المسلمين فى طلب الصلح على أن ينسحب الفرنج من دمياط ويستردوا بيت المقدس ، فرفض المسلمون المفاوضة على هذا الأساس لما يعلمونه من تفاقم حالة الفرنج ، وعندئذ عول الفرنج على الارتداد شمالا نحو دمياط. وفى مساء اليوم الثانى من محرم سنة ٦٤٨ (١٥ أبريل ١٢٥٠ م) بدأوا ينسحبون تحت جنح الظلام ، وسارت سفنهم قبالتهم فى النيل . ولكن المسلمين كانوا ساهرين يرقبون حركاتهم ، وعندئذ جازت قواتهم على الجسر الذى أنشأه الفرنج من قبل على بحر أشموم ، وانقضوا على الفرنج ، وطاردوهم بشدة . فما أسفر الصبح حتى احتاطوا بهم من كل صوب ، وكانت الموقعة الشهيرة فى تاريخ مصر وتاريخ الحروب الصليبية ، وفيها هزم الفرنج هزيمة شديدة ومزقوا شر ممزق ، وأسر منهم عدة آلاف ، وغنم المسلمون معظم خيولهم وعتادهم ومتاعهم .

ولجأ لويس التاسع أو رى إفرنس كما تسميه الرواية الإسلامية ، فى نفر من خاصته وقادته ، إلى قرية منية أبى عبد الله الواقعة على النيل على مقربة من فارسكور ، وطلب الأمان من المسلمين ، فمنح ما طلب ، واقتاده الطواشى جمال الدين محسن مع صحبه من الكبراء وعدتهم نحو خمسين إلى المنصورة ، وهناك اعتقل ملك فرنسا فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان . وقيل إن القيد وضع فى يديه ، وقيل بل أخذ إلى معتقله معززاً مكرماً . ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى . وكان نصراً باهراً لم يسمع به منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين .

* * *

وسار الملك المعظم على أثر ذلك إلى فارسكور ونصب هنالك مخيمه الملكى ، وأقام إلى جانبه برجاً من الخشب وانكب على لهوه وملاذه . وكان زوال الخطر الصليبى إيذاناً باضطرام الخلاف الداخلى . وكان الملك المعظم قد عزل معظم الزعماء القدماء عن مراكزهم واستبدلهم برجال من خاصته وأصدقائه ، وأخذ يهدد زوج أبيه

شجرة الدر ، ويطالبها بأموال أبيه . وكان المماليك البحرية ينقمون عليه هذه السياسة الطائشة ، ويتوجسون منه على أنفسهم . وسرعان ما اعتزموا أمرهم واتفقوا على قتله قبل أن يبطش بهم . وكان على رأس المؤامرة اثنان من زعمائهم هما بيبرس البندقدارى وفارس الدين أقطاى . وفى مساء يوم ٢٧ محرم (٦٤٨) أعنى بعد هزيمة الفرنج بنحو ثلاثة أسابيع كان السلطان يجلس إلى السماط فى خيمته ، وكان زعماء الحلقة قد دعوا لتناول الطعام معه ، فما كاد ينتهى حتى اقترب الفارس بيبرس من السلطان ، وضربه بسيفه ضربة تلقاها السلطان براحته فشقت إلى الذراع ، فوقع الهرج فى الخيم السلطانى ، وهرع السلطان مع بضعة من خاصته إلى البرج الخشبى الذى أقيم بجوار المعسكر ، فأسرع زعماء الحلقة فى أثره وأخذوا يرمونه بالنبال ، ثم ألقوا النار على البرج فاحترق ، ونزل السلطان وهو يصيح طالباً الغوث دون أن يتحرك إنسان لنجدته ، وتلقاه البحرية بالسيوف من كل صوب وأثخنوه جراحاً . ولكنه استمر فى ركضه حتى ألقى نفسه فى النيل وهم فى أثره . وهنالك أجهز عليه الفارس أقطاى بطعنة قاضية ، ثم حملت جثته إلى الجسر وتركت ثلاثة أيام فى العراء ، ثم دفنت فى مكانها بلا احتفال ولا تكريم .

وهكذا هلك الملك المعظم فى غمر دامية فتى فى عنفوانه بعد حكم لم يطل أكثر من خمسة أسابيع . دون أن يترك وارثاً للعرش . وتمخض مصرعه عن حادث فريد فى تاريخ مصر الإسلامية . ذلك أن المماليك البحرية اتفقوا على تولية شجرة الدر لعرش مصر ، فكانت أول ملكة كما كانت آخر ملكة لمصر الإسلامية . وكان لتبوئها العرش وقع عميق فى مصر وسائر جنبات العالم الإسلامى .

وكان أول ماعنيت به الملكة شجرة الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج وإجلاؤهم عن الأراضى المصرية ، وانتهت المفاوضات بين الفريقين بالاتفاق على الإفراج عن لويس التاسع وأصحابه لقاء فدية قدرها أربعمائة ألف دينار ، وأن يسلم الفرنج دمياط فوراً للمسلمين ، وأن يطلق سراح الأسرى من الفريقين . وبذلت مرجريت دى بروفانس ملكة فرنسا ، وكانت يومئذ فى دمياط ، جهوداً فادحة لجمع الفدية المطلوبة ، ودخل المسلمون دمياط فى الثالث من صفر سنة ٦٤٨ هـ ، وعلى أثر ذلك أفرج عن لويس التاسع وأصحابه ، وكان من رفاقه فى الأسر مستشاره ومترجمه

المؤرخ دى چوانفيل صاحب المذكرات التى سبقت الإشارة إليها والتى نتناولها فى فصل خاص . وغادر لويس التاسع الأراضى المصرية مع فلول جيشه إلى ثغر عكا ، وكان ذلك فى شهر مايو سنة ١٢٥٠ م .

وهكذا سحقت تلك الحملة العتيدة فى الأراضى المصرية ، وقامت مصر بدورها التاريخى فى رد الخطر الصليبى عن مصر والمشرق ، وفى حماية الإسلام والمدنية الإسلامية من عدوان هذه الحملات البربرية . وقد ترك لنا الشاعر الكبير جمال الدين ابن مطروح نائب دمشق فى الموقعة أنشودة خالدة يقول فيها :

قل للفرنسيس (١) إذا جئته	مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عُبّاد يسوع المسيح
أتيتَ مصر تبغى ملكها	تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفاً (٢) لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير أو جريح
وفقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضياً	فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح

وقد كانت هزيمة الفرنج وأسر ملكهم وأمرائهم وهلاك زهرة فروستهم على هذا النحو الساحق ، من أبرز الحوادث فى تاريخ الحروب الصليبية ، بل كانت حادثاً فريداً لم تشهد مثله أدوار هذه المعركة الكبرى ، التى استعر لظاها قروناً بين الإسلام والنصرانية من الشرق إلى اسبانيا . وقد يقدم إلينا تاريخ الأندلس فى أكثر من فرصة ، قصة أمير نصرانى وقع فى أسر المسلمين ، أو قصة أمير مسلم وقع فى أسر النصارى ، ولكن هؤلاء جميعاً كانوا من الأمراء المحليين . كذلك لعل معركة

---

(١) يقصد القديس لويس ذاته .
(٢) وفى رواية سبعون ألفاً .

الإسلام والنصرانية لم تشهد منذ بلاط الشهداء وموقعة الزلاّقة بالأندلس ، موقعة أعظم فى حوادثها وآثارها من معركة المنصورة الحاسمة .

وتبالغ الرواية المسلمة فى تقدير خسائر الفرنج فى تلك الموقعة . وتقدرها الرواية المعتدلة بثلاثين ألفاً ، ويقدرها الشاعر كما ترى بخمسين ألفاً ، ويقدرها بعضهم بسبعين ألفاً . ومن المحقق أن خسائر الفرنج كانت فادحة سواء أثناء الموقعة أو قبلها مما أصابهم من ويلات الجوع والمرض . ولكن يلاحظ أيضاً أن الرواية المسلمة حين يتعلق الأمر بهزيمة النصارى ، وكذا الرواية النصرانية حين يتعلق الأمر بهزيمة المسلمين ، تحاول كل منهما على الأغلب ، فى أمثال هذه الوقائع الحاسمة بين الإسلام والنصرانية ، أن تسبغ على الوقائع والنتائج لوناً عميقاً من الخطورة والظفر الخارق[1] .

(١) راجع فى تفاصيل موقعة المنصورة : المقريزى فى الخطط (بولاق) ج ١ ص ٢٢١ وما بعدها، وفى السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٣٣ – ٣٦١ ، والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لأبى المحاسن ج ٦ و ٧ فى حوادث سنة ٦٤٧ ، وابن إياس ج ١ ص ٨٤ – ٨٥ . الخ . وقد صدر أخيراً عن معركة المنصورة مؤلف قيم بعنوان « حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة » بقلم زميلى الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ونشر برعاية المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

الفصل الحادى عشر

مذكرات دى چوانڤيل

عن الحملة الصليبية السابعة

أشرنا فيما تقدم إلى أن چان دى چوانڤيل مستشار الملك لويس التاسع ومترجمه، قد ترك لنا مذكرات لم يقتصر فيها على تناول سيرة مليكه المترجم ، ولكنه دون فيها أخبار المعارك التى وقعت فى مصر خلال الحرب الصليبية السابعة (١٢٤٩م) ؛ وتناول فوق ذلك شئون مصر الداخلية فى هذا العهد فوصفها وصفاً دقيقاً ؛ وقد أبدع بالأخص فيما كتبه عن استعمال الجيوش المصرية للقذائف الملتهبة (النار اليونانية) وفى وصف ما أصاب مواطنيه لروعتها وفتكها من ذعر وهزيمة .ولما كانت مذكرات دى چوانڤيل هذه من أنفس وثائق الحروب الصليبية ، وكانت ذات قيمة خاصة بالنسبة لتاريخ مصر فى أواخر عهد الملك الصالح ، فقد رأينا أن نفرد هذا الفصل للكلام عن المؤرخ نفسه وعن المذكرات التى خلفها .

ولد چوانڤيل أو السيد چوانڤيل حوالى سنة ١٢٢٤ م ، وصحب مليكه القديس لويس على رأس أتباعه من الفرسان والجند فى الحملة الصليبية السابعة ، التى غادرت المياه الفرنسية فى ٢٨ أغسطس سنة ١٢٤٨ ، ووصلت إلى المياه المصرية حسبما أسلفنا فى يونيه سنة ١٢٤٩ م . وحارب دى چوانڤيل إلى جانب مليكه فى موقعة المنصورة وشهد هزيمته ومحنته وشاطره آلام الأسر ؛ ثم عاد فى ركبه بعد الإفراج عنه ووصل إلى فرنسا فى شهر يوليه سنة ١٢٥٤ م ، أعنى لستة أعوام من رحيله .

ويقول دى چوانڤيل إنه انتهى من كتابة مذكراته فى شهر أكتوبر سنة ١٣٠٩ ، أعنى وهو شيخ جاوز الخامسة والثمانين ، وبعد أن مضى أكثر من نصف قرن على الحوادث التى تناولها ، وكان تدوينه لها حسبما يقرر فى فاتحة كتابه ، إجابة لطلب چان دى ناڤار ملكة فرنسا ووالدة لويس العاشر .

ويحتوى الكتاب على قسمين ، خصص أولهما لسيرة القديس لويس الشخصية وعاداته وأحواله ومناقبه . وفى هذا القسم يصور دى چوانڤيل مليكه وقائده لويس التاسع ملكاً ورعاً يفيض قلبه إيماناً وحناناً ورقة . ويرى فيه مثلا أعلى لرجولة النصرانية ، ويعرب عن محبته وإجلاله لهذا الصديق الذى خاض إلى جانبه جسام الحوادث وشاء القدر أن يموت قبله بأعوام طويلة . ثم يرتد ببصره إلى الماضى البعيد فيذكر أيام الصبا الخافلة ويستعيد شبح القديس لويس وهو ملتحف بدرعه ، غارق فى عدته وأسلحته ، يركض بين الصفوف هنا وهنالك ليشحذ من عزائم فرسانه ، ويكبر شجاعته وإقدامه وصبره على المحن والنوائب ، وجلده أوقات الشدة ، ويعدد خلاله من محبة لجنده ، ورفق بهم ، إلى رعاية للعهود وصلابة فى الحق . على أن المؤرخ لم يحمل بإجلاله ومحبته إلى الإغضاء المطلق عن كل تجريح ونقد ، فهو ينقد حيث يرى موضعاً لذلك ويعرض رأيه وحكمه الخاص . فنراه مثلا يأخذ على الملك القديس قبوله لفرسين نادرين أهداهما إليه قسيس تمهيداً لحديث بينهما عن مسائل معينة ، ولا يتردد فى سؤال الملك عما إذا كانت هذه الهدية قد حملته على التساهل مع القسيس . ونراه يذهب فى تقريع الملك إلى أبعد من هذا الحديث ، فيعرب عن دهشته وكدره لجمود الملك أزاء زوجه وأولاده فى بعض المواطن . ويشيد بنوع خاص بخلال مرجريت دى بروڤانس زوج لويس التاسع ؛ وقد كانت مثالا بديعاً للمرأة وللملكة ، بل كانت تتميز بلون من ألوان البطولة إذا صدقنا ما يرويه المؤرخ عنها ، فهى قد صحبت زوجها فى حملته إلى ميدان الوغى وإلى بلاد الغربة ، وتحملت متاعب السفر التى كانت هائلة فى ذلك العصر ، وصبرت على ضروب الحرمان والتقشف التى فرضتها الحوادث . فلما نكب زوجها وسقط مع معظم سادته أسيراً فى يد العدو ، وكانت يومئذ محصورة فى دمياط تقاسى آلام الوضع الأخيرة ، استدعت إلى حجرتها فارساً شيخاً وطلبت إليه أن يعاهدها أن يقطع رأسها فى الحال إذا سقطت المدينة المحصورة فى قبضة المسلمين ، فأقسم لها أن يفعل ، ثم لم يمض على وضعها يوم واحد حتى استدعت الفرسان حول فراشها — وكانت إشاعة التسليم قد سرت إلى الحامية — فالتمست إلى تشجيعهم شفاعة من ضعف ولدها الطفل . ومن أنوثتها . وأمثال هذه

المناظر قليلة فى التاريخ . بيد أننا نفسر موقف لويس التاسع إزاء هذه الملكة الباسلة ، بأنه حذر من أن يتأثر فى أعماله السياسية والحربية بنفوذ زوجه ، وذلك لأن مرجريت ده بروڤانس كانت قوية الإرادة ذات أطماع ونفوذ .

ولا يقف دى چوانڤيل عند هذا الحد من الملاحظة والنقد ، فهو يأبى أن يقر تصرفات مليكه فى بعض المواطن — وقد كان له مشيراً وناصحاً — فنراه مثلا يقف موقف المعارض حينما اعتزم لويس التاسع أن يجرد حملته الصليبية الثانية فى سنة ١٢٧٠ م أعنى لخمسة عشر عاماً من عودته إلى فرنسا ، وقد كان يومئذ كهلا هدمه الإعياء والمرض ، ونراه فوق ذلك يحاول أن يرد الملك عن عزمه ويبين له أخطاء هذه السياسة وما تجر عليه وعلى فرنسا من الويل والمصائب ، ويقول لقد اعتقدت أن أولئك الذين نصحوا إليه بهذه الحملة قد ارتكبوا خطيئة كبرى ، ثم يحمد الله على أنه لم يصحبه إليها . وقد أيدت الحوادث نبوءة دى چوانڤيل ، إذ انحرف لويس التاسع عن خطته الأصلية ونزل على ساحل تونس وكان هنالك مصرعه ومصرع سواد جيشه .

ولسنا نعنى بهذا القسم الذى يفرده دى چوانڤيل لشخص مليكه القديس ومناقبه قدر مانعنى بالقسم الثانى ، وهو الذى يأتى فيه المؤرخ على الحوادث والمعارك التى اقترنت بحملة لويس التاسع على مصر والأراضى المقدسة ، ففى هذا القسم يعرض دى چوانڤيل لصفحة تكاد تكون قطعة من تاريخ مصر ، ويسرد بتفصيل وإسهاب كل ما شهد من الحوادث منذ هبط الصليبيون أرض مصر واستولوا على دمياط ، حتى جلوا عنها وعن أرض مصر بعد هزيمتهم . ولرواية دى چوانڤيل فى هذا القسم قيمة خاصة فهو لم يكن فقط شاهد عيان لكل ما رأى ودون من الحوادث ، ولكنه قام بدور فعلى فى هذه الحوادث كلها ، فخاض غمار المعارك التى نشبت حول دمياط وفى المنصورة من أولها إلى آخرها ، وكان رغم حداثته يشغل منصباً رفيعاً فى الجيش إذ كان من سادته وفرسانه ، ثم إن اتصاله فى كل لحظة بمليكه الذى كان يسأله الرأى فى كثير من الأمور الهامة يجعل لروايته صبغة شبه رسمية ، على الأقل فيما يتعلق بالجانب الفرنسى من الحوادث التى تناولها .

ويتناول دى چوانڤيل هذه الحوادث بوضوح ودقة وقوة ملاحظة تدعو إلى

الإعجاب ، ويفيض فى ذكر المعارك التى استعر لظاها بين المصريين والفرنج فى الأراضى المصرية ، ويورد كثيراً من التفاصيل الدقيقة . ويحدثنا عن أهبة الجيوش المصرية ونظامها وأساليبها فى الحرب ، ثم يحدثنا عن تلك القذائف الملتهبة التى عصفت بصفوف الفرنج وكانت فى النهاية من أعظم أسباب هزيمتهم وارتدادهم ، ويصفها وصفاً قوياً شائقاً ، ويصف ذعر مواطنيه لرؤيتها واضطرابهم واستغاثتهم ويسميها « بالنار اليونانية » . ولهذه التسمية أصل أومغزى تاريخى إذ يلوح لنا أن هذه القذائف الملتهبة التى استعملها المصريون يومئذ فى محاربة أعدائهم هى نفس « النار اليونانية » القديمة أو النار البيزنطية التى لبثت كما قدمنا مدى عصور ، أمضى سلاح فى يد الدولة الرومانية الشرقية ، يحميها من غزوات الإسلام ، ثم ظفر المسلمون بسرها فغدت سلاحاً هائلا فى أيديهم وغدت أداة لحماية الإسلام من عدوان النصرانية ، وكانت عاملا كبيراً فى تمزيق الجيوش الصليبية ورد عدوانها.

وكانت القذائف الملتهبة أو النار اليونانية ، أول مفاجأة هائلة رمى بها المصريون جيوش لويس التاسع ،وكانت يومئذ فى يد المسلمين أروع سلاح للفتك والتدمير . وإليك كيف يصفها دى چوانڤيل ويصف وقعها المروع لدى مواطنيه :

يقول المؤرخ : « فى ذات ليلة بينما كنا نحرس الأبراج حدث أن المسلمين أحضروا آلة لم يستعملوها من قبل ووضعوا النار اليونانية فى قاذفة الآلة . فلما رأى ذلك سيدى والتر دوكيرى الفارس النبيل وكان إلى جانبى قال ما يأتى :

« أيها السادة نحن فى خطر أعظم مما لقيناه إلى اليوم ، لأنهم إن أضرموا النار فى أبراجنا وبقينا فيها فإنا نهلك ونحرق ، وإذا غادرنا الحصون التى أنشأناها للدفاع خسرنا الشرف . وإذن فلا منقذ لنا إلا الله . ورأيى أنه كلما ألقيت علينا النار رمينا بأنفسنا على الأرض ودعونا الله منقذنا أن يحمينا من ذلك الخطر . وهكذا حدث فإنه لما ألقيت علينا أول دفعة من النار سجدنا ودعونا . فوقعت النار فى البرج أمامنا ، وكان رجال المطافىء على أهبة لإخمادها »

وصفة النار اليونانية أنها تثب مستقيمة كأنها أسطوانة كبيرة ، ولها ذيل من اللهب قدر الحربة الطويلة ودويها يشبه الرعد وكأنها جارح يشق الهواء ، ولها نور ساطع جداً من جراء عظم انتشار اللهب الذى يحدث الضوء ، حتى أنك ترى

كل ما فى المعسكر كما ترى فى ضوء النهار . وقد رمى المسلمون علينا هذه النار فى تلك الليلة ثلاث مرات من الآلات الكبيرة وأربع مرات من القسى العريضة .

وكان ملكنا القديس كلما سمعهم يقذفون النار اليونانية ، ينهض من فراشه ويبسط يديه إلى منقذنا ويقول باكياً : « أيها السيد الإله العظيم احفظ لى رجالى » والحق أنى أعتقد أن هذه الدعوات قد نفعتنا وقت الشدة . وكلما سقطت علينا النار بالليل أرسل أحد أمنائه ليرى ماذا فعلنا وماذا فعلت بنا النار.

وحدث ذات مرة عند إلقاء النار أنها سقطت عند البرج الذى يحرسه رجال السيد دى كورتنى . فعندئذ جاء فارس يدعى لويجواز وقال لى : « أيها السيد إذا لم تبادر إلى إسعافنا حرقنا ، فإن المسلمين قد أرسلوا علينا كثيراً من المقذوف ، حتى كانت النار تواجه برجنا كأنها سياج عريض . فعندئذ هرولنا إلى هنالك فوجدناه قال حقاً . فأطفأنا النار ، وما كدنا ننتهى من ذلك حتى قدفنا المسلمون جميعاً بوابل من النار فى اتجاه النهر .

وكان إخوة الملك يحرسون الأبراج بالنهار ، فصعدوا إلى رؤوس الأبراج ليقذفوا المسلمين بالنبال . ذلك لأن الملك قرر أن يتولى ملك صقلية حراسة الأبراج بالنهار ونحرسها نحن بالليل . ففى ذات يوم حينما كان ملك صقلية يتولى الحراسة بالنهار ، كنا فى أشد الاضطراب لأن المسلمين كانوا قد حطموا أبراجنا تقريباً ، وقد صف المسلمون القاذفات فى رابعة النهار فى حين أنهم لم يستعملوها حتى اليوم إلا ليلا ، ثم قدفوا النار اليونانية على أبراجنا وقد نصبوا القاذفات قريباً من القنطرة التى كان يبنيها العمال حتى أن أحداً لم يجرؤ أن يذهب إلى الأبراج بسبب الأحجار الكبيرة التى كانت تقذفها الآلات ، والتى كانت تنهمر على القنطرة . فكان أن حرق البرجان وأن غضب ملك صقلية وتولاه اليأس . حتى كاد يلقى بنفسه فى النار ليحاول إطفاءها . ولو كنا نحرس الأبراج بالليل لكنا والله قد حرقنا جميعاً .

فلما رأى الملك ذلك أرسل إلى جميع البارونات ورجا كلا منهم أن يحضر شيئاً من الخشب من مراكبه للمعاونة فى بناء برج يساعد على قطع النهر . فأحضر كل قدر ما استطاع وأنشىء البرج ، كذلك قرر الملك ألا يدفع البرج إلى الإمام ليوضع على القنطرة إلا حينما يأتى دور ملك صقلية فى الحراسة ، حتى يستطيع

بذلك أن يعوض عن خسارة الأبراج التى حرقت وقت حراسته . وهكذا وقع فلما جاء دور ملك صقلية فى الحراسة أمر بالبرج أن يسير على القنطرة إلى المكان الذى حرقت فيه الأبراج الأخرى .

فلما رأى المسلمون ذلك نصبوا قاذفاتهم (الحراقات) الست عشرة بحيث تلقى مقذوفاتها جميعاً على القنطرة حيث وضع البرج . ولما رأوا أن رجالنا يخشون الذهاب إلى البرج ارتياعاً من الحجارة التى تتساقط على القنطرة ، أحضروا قاذفات اللهب وقذفوا النار اليونانية على البرج وأحرقوه تماماً » .

— ٢ —

ويستعرض دى چوانڤيل تفاصيل المعارك المتوالية التى دارت بين المسلمين والفرنج بإسهاب ودقة كما يستعرض تفاصيل المفاوضات التى جرت بين الفريقين لعقد الهدنة . ولما نشبت المعركة الفاصلة بين المسلمين والفرنج فى ظاهر المنصورة (أبريل سنة ١٢٥٠م) كان دى چوانڤيل إلى جانب مليكه فى قلب المعمعة . ولما أسر لويس التاسع وقادته شاطره دى چوانڤيل محنة الأسر . وهو يقص علينا قصة أسر لويس التاسع حسبما سمعها منه . وروايته تكملة للرواية الإسلامية من بعض نواحيها .

يقول المؤرخ : « لقد قص الملك على كيف غادر فرقته الخاصة وانتظم إلى جانب سيدى چوفرى دى سارچين ، فى الفرقة التى يقودها سيدى جوشيه ده شاتيون قائد المؤخرة .

ثم قص الملك على أنه كان يمتطى مهراً صغيراً يكسوه الديباج ، ونبأنى بأنه لم يكن يسير إلى جانبه فى الوراء من بين جميع فرسانه سوى سيدى چوفرى دى سارچين فسار به إلى قرية صغيرة هى التى أسر فيها . ونبأنى الملك أن السيد چوفرى دافع عنه أمام المسلمين دفاعاً باسلا ، وكلما اقتربوا منه رفع سيفه وكر عليهم وردهم عن الملك .

وهكذا وصل الملك إلى القرية الصغيرة . فحمل إلى منزل وهو فى شدة من المرض كأنه رجل ميت ، وهنالك وافاه السيد فيليب ده مونفور ، وقال له إنه رأى الأمير المسلم الذى فاوضه فى شروط الهدنة . فإذا شاء عاد إليه ليستأنف المفاوضات فى عقدها طبقاً للشروط التى يريدها المسلمون ، فرجاه الملك أن يفعل فأجابه أنه على تمام الأهبة وذهب السيد ده مونفور إلى الأمير ، فرفع الأمير عمامته وخلع خاتمه من أصبعه إشارة بأنه سوف ينفذ شروط الهدنة بإخلاص .

وفى أثناء ذلك وقع خطب عظيم لرجالنا . فإن ضابطاً خائناً يدعى مارسل أخذ يصيح برجالنا : « سلموا أيها السادة الفرسان فإن الملك يأمركم بذلك ولا تمتنعوا فيقتل الملك » فظن الجميع أن الملك يأمر بذلك حقاً ، فسلموا سيوفهم إلى المسلمين. ولما رأى الأمير أن المسلمين يأتون برجالنا أسرى ، قال للسيد ده مونفور إنه لا يرى محلا لعقد الهدنة لأن جميع فرساننا قد غدوا أسرى .

وهكذا حدث فإن السيد فيليب ده مونفور بقى حراً طليقاً بينما أسر كل زملائه لأنه كان سفير الملك ، وكان الملك إذا أرسل رسلا إلى السلطان أو السلطان رسلا إلى الملك ، ومات الملك أو السلطان قبل أن يعود الرسل إلى مقرهم ، فإنهم يغدون عبيداً أو أسرى سواء أكانوا مسلمين أو نصارى » .

* * *

ويتناول دى چوانفيل حوادث مصر الداخلية فى تلك الفترة وهى التى شهدها أو سمع أخبارها وهو فى المعسكر الفرنجى عن كثب . ولنا أن نعجب بصفة خاصة بما كتبه عن هذه الحوادث ، فهو يسردها بدقة رغم كونها وقعت فى بلد محارب يحرص على كتمان أموره ، فيشير أولا إلى وفاة الملك الصالح عقب مقدم الفرنج ، ثم يستعرض حوادث البلاط المصرى منذ تولية الملك المعظم حتى مقتله فيقول :

« وكان للسلطان ، ويسميه «السادان» ، ولد فى الخامسة والعشرين من عمره عاقل حازم ، ذو دهاء ، وكان السلطان المتوفى يخشى أن ينزعه ابنه الملك فأقطعه مملكة له فى الشرق (سوريا) . فلما توفى السلطان ، أرسل الأمراء إلى الإبن فجاء سريعاً إلى مصر وعزل حاجب أبيه وكبير حرسه وقائده ، وعين مكانهم رجالا ممن أتوا معه من المشرق ، فلما رأى هؤلاء ذلك نقموا منه غاية النقمة كما نقم منه وزراء أبيه وشعروا أن خزياً كبيراً لحق بهم ، ففاوضوا رجال « الحلقة » أو حرس السلطان واتفق هؤلاء أن يقتلوا السلطان إجابة لطلبهم » . ويسوق دى چوانفيل تتمة هذا الحديث فى مكان آخر فيقول : « اجتمع الأمراء الذين عزلهم السلطان من مجلسه ليعين غيرهم من أمرائه الذين جاءوا من الخارج وتباحثوا ، وطلبوا إلى زعماء الحلقة أن يقتلوا السلطان عقب تناولهم الطعام معه وكان قد دعاهم إلى ذلك ، فحدث أنه لما فرغ الأمراء من تناول الطعام واستأذن السلطان فى الانصراف ،

أن فارساً من رجال الحلقة ضرب السلطان بالسيف فأصابه فى راحته بين أصابعه وشق يده حتى الذراع » ثم يورد لنا بعد ذلك تفاصيل هذه المطاردة الدموية التى انتهت بهلاك الملك المعظم قتيلا فى النهر ، ويصف ذلك المنظر المؤسى الذى شهده بنفسه إذ كان يتابعه وهو إلى جانب مليكه فى سفينة تقف على مقربة من مسرح الواقعة . ثم يقول لنا إن الفارس أقطاى بعد أن مزق الملك بسيفه استخرج قلبه من جثته ، وجاء إلى الملك (لويس التاسع) والدماء تقطر من يده ، وقال له « ماذا تعطينى ؟ فقد قتلت عدوك الذى لو عاش لذبحك؛ فلم يجبه الملك ببنت شفة » .

ويسوق إلينا دى چوانفيل فى هذا الموطن قصة تبدو حديث خرافة ، وهى أن زعماء المسلمين أوفدوا إلى لويس التاسع عقب أسره رسولا يعرض عليه عرش مصر ، وأن الملك الأسير أفضى إلى المؤرخ أنه ماكان يأبى هذا العرض لولا محنته ؛ وليس فى الرواية الإسلامية أى ذكر أو إشارة لمثل هذه الأسطورة .

ويبدى دى چوانفيل فيما يسرده من حوادث الحرب والسياسة سواء فى المعسكر الفرنجى أو المعسكر الإسلامى كثيراً من الدقة . وربما كان ذلك راجعاً إلى مركزه فى الجيش وصلته بمليكه ، وماكان يهيئه له ذلك من الاطلاع على التقارير التى يضعها الجواسيس الفرنج عن أحوال المسلمين وأخبارهم . هذا فضلا عن كونه كان شاهد عيان لكثير من الحوادث الهامة ، ولابد أن كان بين مواطنيه من يفهم العربية .

هذا وللمؤرخ مواقف أخرى تستوقف النظر ، فهو يصف لنا نظام الحكم والإمارة فى مصر ، ونظام الحلقة أو الحرس السلطانى وأحوال البدو وغير ذلك ، ثم يذكر لنا سفارة مقدم الاسماعيلية فى بانياس إلى لويس التاسع وهو فى مصر وسفارة لويس إليه ؛ وهو فى كل ما يسرده عميق البحث والاستقصاء ، دقيق الملاحظة والمنطق . هادئ الرواية والأسلوب ، ومن ثم كانت مذكراته فى مجموعها أقرب إلى التاريخ الصحيح منها إلى « الرواية » ، وكانت وثيقة قيمة فى تاريخ الحملة الصليبية التى قادها القديس لويس إلى مصر ، وتاريخ مصر ذاته فى هذا العهد ، وهى تكمل الرواية الإسلامية فى كثير من النواحى التى تتعلق بالصليبيين وأخبارهم فى ذلك الحين(١) .

---

(١) راجع مذكرات دى چوانفيل **Histoire de Saint-Louis** التى سبق ذكرها والترجمة الإنجليزية لهذه المذكرات **Memoirs of the Crusades** ؛ ومقدمة هذه الترجمة بقلم **Sir F. Marzials**

الفصل الثانى عشر

موقعـــة عين جالوت

٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م

هذه موقعة حاسمة فى تاريخ الإسلام والمدنية الإسلامية ، ولكنها لم تقع بين الإسلام والنصرانية على غرار المواقع التى أتينا على ذكرها ؛ بل وقعت فى قلب العالم الإسلامى بين معسكرين إسلاميين .

لم تمض أعوام قلائل على موقعة المنصورة وسحق الحملة الصليبية السابعة فى الأراضى المصرية ، حتى ظهر فى الأفق شبح خطر جديد ، يهدد الشرق الإسلامى كله . ولم يكن الخطر فى هذه المرة نصرانياً ولم يكن آتياً من الغرب ، بل كان آتياً من المشرق على يد جماعة من الغزاة الذين اعتنقوا الإسلام .

وكانت مصر على أثر وفاة سلطانها الملك الصالح ومقتل ولده الملك المعظم ، قد رفعت إلى عرشها امرأة هى شجرة الدر أرملة الملك الصالح ، اعترافاً بما أبدته أثناء غزو الفرنج من الشجاعة والبراعة فى تسيير الأمور ؛ ولما أدته من خدمات عظيمة انتهت بهزيمة الفرنج وإجلائهم عن مصر ، فكانت أول ملكة ، كما كانت آخر ملكة اعتلت عرش مصر الإسلامية .

وكان لهذه الخطوة الجريئة وقع عظيم فى العالم لإسلامى ؛ وتلقبت الملكة الجديدة بألقاب مبتكرة ، مثل « والدة خليل »[1] و« المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين » وغيرها . وأقيم للسلطنة نائب قوى هو الأمير عز الدين أيبك كبير المماليك البحرية ، ليعاونها فى تدبير الأمور . وبالرغم مما أبدته شجرة الدر من حزم وبراعة فى تسيير الشؤون وتصفية الموقف مع الصليبيين وإجلائهم عن مصر ، فقد كان جلوس امرأة على عرش مصر نذيراً بوقوع الفتنة ، واضطرام

---

(١) هو ولدها من الملك الصالح وقد توفى طفلا .

الخلاف فى أنحاء المملكة ، ولاسيما فى الشأم ، حيث أبى معظم الأمراء أن يحلفوا يمين الطاعة للملكة الجديدة . فعندئذ رأت شجرة الدر أن تتزوج من الأمير عز الدين أيبك ، ولما لم تفلح هذه الخطوة فى تهدئة الأمور ، رأت أن تتخذ الخطوة الحاسمة ، وأن تفتدى سلام المملكة بذلك العرش الذى رفعها القدر إليه ، فنزلت لزوجها عن العرش لثمانين يوماً فقط من جلوسها عليه ، وتولى الأمير عز الدين أيبك عرش مصر باسم الملك المعز ، وذلك فى آخر ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ.

وتولى الملك المعز حكم مصر زهاء سبع سنين استطاع خلالها أن يقمع الفتنة ، وأن يوطد سلام المملكة وأمنها . وكانت زوجته شجرة الدر من ورائه تأخذ فى توجيه الأمور بأعظم قسط . ثم دب الخلاف بين الزوجين ، وسئم الملك المعز هذا النير المرهق . فقرر أن يتخذ له زوجة أخرى ؛ ووقفت شجرة الدر على نيته فاعتزمت أمرها ؛ ودعته ذات مساء إلى جناحها بالقصر ، وكان يقيم بعيداً عنها منذ حين : واستقبلته بلطف وحفاوة ، ولكنه ماكاد يدخل الحمام حتى انقض عليه بعض غلمانها وقتلوه أشنع قتلة (٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ) . فلما رأى الأمراء المعزية ما حل بسيدهم ، نادوا بولاية ولده الملك المنصور ، فجلس على العرش مكان أبيه ، وكان يومئذ صبياً فى نحو الخامسة عشرة .

وثارت الخواطر على أثر ذلك ودب الخلاف بين الأمراء الصالحية (مماليك الملك الصالح) والأمراء المعزية (مماليك الملك المعز) . وأراد الأمراء المعزية أن ينتقموا لسيدهم من الزوج الغادرة ، فحال الأمراء الصالحية دون بغيتهم ، واعتقلت شجرة الدر باتفاق الفريقين فى أحد أبراج القلعة . واستطاع الأمراء المعزية أن يتغلبوا فى النهاية على معارضة الأمراء الصالحية ، ونفذوا ذات يوم إلى البرج الذى اعتقلت فيه شجرة الدر ، وقبضوا عليها ، وحملوها إلى أم الملك المنصور ، فضربها الجوارى بالقباقيب على رأسها حتى زهقت ، وكفرت بذلك عن جريمتها أشنع تكفير (١٠ ربيع الثانى سنة ٦٥٥ هـ) .

— ٢ —

بينما كانت هذه الحوادث الدامية تتعاقب حول عرش مصر ، وبينما كانت المملكة تضطرم بعوامل الخلاف والتنافس ، كان الشرق الإسلامى من ناحية أخرى

يجوز فترة من أدق فترات تاريخه، ويشهد مأساة من أروع ما شهد. ذلك أن جموع التتار التى خرجت من سهول آسيا الوسطى بقيادة چنكيزخان قبل ذلك بنحو ثلاثين عاماً ، واجتاحت أواسط الصين وشمال غربى الهند وخراسان، ونفذت إلى سهول روسيا حتى نهر الدون ، انسابت نحو الجنوب الغربى ، واجتاحت فارس بسرعة ، وأخذت صروح العالم الإسلامى القديم تنهار تحت ضرباتهم تباعاً . ثم اتجهت هذه الجموع البربرية نحو الشرق بقيادة عاهلها هولاكو ؛ وكانت الخلافة العباسية يومئذ تسير إلى قدرها المحتوم بخطى سريعة ، وكان الخليفة المستعصم بالله قد خلف أباه المستنصر بالله قبل ذلك بخمسة عشر عاماً (٦٤٠ هـ) ولكنه كان ضعيف العزم والخلال ، يعكف على لهوه وملاذه ، والعاصمة من حوله تموج بالفتن الداخلية ، والدولة كلها قد انحدرت إلى غمر الفوضى ، وتفككت عراها ، وأشرفت على هاوية الدمار . ولما جاءت رسل العاهل التترى إلى الخليفة تطلب إليه الخضوع ، ردهم المستعصم بكبرياء وصلف ، فزحف التتار على بغداد وحطموا كل مقاومة ، واضطر الخليفة إلى التسليم ؛ ودخل التتار بغداد دخول الضوارى المفترسة ؛ وقتلوا مئات الألوف من أهلها ، ودمروا صروحها . ونهبوا خزائنها وذخائرها ، وقضوا على الخلافة العباسية وعلى معالم الحضارة الإسلامية فى مناظر هائلة من السفك والتدمير ، ثم قتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته وأكابر دولته (صفر سنة ٦٥٦ هـ — فبراير سنة ١٢٥٨ م) ، وانتهت بذلك حياة الدولة العباسية بعد أن عاشت خمسة قرون .

وأخذ العالم الإسلامى يهتز فرقاً لتلك المأساة المروعة ، ويرقب شبح الخطر الداهم جزعاً . وكانت مصر أشد شعوراً من غيرها بهذا الخطر ، لأنها كانت دائماً كعبة الغزاة من المشرق . ولم تمض بضعة أشهر حتى تحركت جموع التتار إلى الغرب ، وجازت الفرات واجتاحت بلاد الجزيرة . واستولى هولاكو على ديار بكر ، ثم على حرّان ونصيبين والرُّها ، وخربها وقتل معظم أهلها . ثم سار بعد ذلك إلى حلب مفتاح مصر من الشمال ، وكان صاحب الشام يومئذ الملك الناصر يوسف من أمراء آل أيوب . وكانت المملكة المصرية منذ أيام شجرة الدر قد انقسمت إلى شطرين : مصر ويحكمها المماليك البحرية ، والشام ويسيطر عليها أمراء بنى أيوب . ولما ظهرت طلائع التتار فى الشام اضطرب الملك الناصر وأرسل يطلب الغوث من باقى الأمراء .

وفى المحرم سنة ٦٥٨ ، وصل التتار إلى حلب وحاصروها أياماً قلائل ، ثم استولوا عليها فى مناظر مروعة من السفك ، وقتلوا وأسروا من أهلها عشرات الألوف. وفى ذلك الحين كان الملك الناصر صاحب دمشق يحشد كل ما استطاع من قواته للقاء الغزاة . ولكنه رأى الموقف باعثاً على اليأس ، وفر معظم السكان إلى الجنوب ناجين بأرواحهم ؛ فقرر مغادرة دمشق ، وسار إلى غزة فى جماعة من أتباعه ، وأرسل معظم الأمراء حريمهم وأولادهم إلى مصر ، وقرر أعيان دمشق تسليمها للغزاة ، وأبلغوا قرارهم إلى العاهل التترى ، فأرسل رسله لتسلمها وعلى رأسهم قائده كتبغانوين ، وأصدر الأمان لأهلها (٢٦ ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ) ،وبسط هولاكو بذلك حكمه على شمال الشام كله ، ثم أخذ يتطلع إلى الجنوب ؛ إلى تلك الدرة الخضراء التى اجتذبت من قبله أكابر الفاتحين .

— ٣ —

كان على عرش مصر فى تلك الآونة العصيبة التى اجتاح فيها سيل التتار المخرب بلاد الشرق الإسلامى ملك صبى ، هو الملك المنصور ولد الملك المعز ، ولكنه لم يكن سوى شبح فقط . وكان صاحب السلطان الحقيقى هو نائب السلطنة الأمير سيف الدين قطز زعيم المماليك البحرية . وكان هذا الأمير القوى يرقب سير الحوادث فى المشرق بجزع ، ويرى وجود هذا الفتى اليافع على عرش مصر فى ذلك الظرف الدقيق خطراً يهدد كيانها ؛ وإذا كان لمصر أن تصمد فى وجه الخطر الداهم فلابد أن تقودها إلى معترك النضال يد قوية ، ومن ثم فقد انتهز الأمير قطز أول فرصة ، وقبض على الملك المنصور وأمه وأخيه ، وزجهم إلى برج القلعة ،ونادى بنفسه ملكاً باسم الملك المظفر قطز وذلك فى ٢٤ ذى القعدة سنة ٦٥٧ هـ ؛ وقبض على عدة من الأمراء الموالين للملك المنصور والذين يخشى منهم ، وأعلن إلى زملائه الأمراء البحرية فى صراحة ، أنه لايبغى الملك لذاته ولكنه يريد التأهب لرد التتار ، وإنقاذ البلاد من شرهم ، فإذا تم القضاء على هذا الخطر الداهم ، فلهم أن يختاروا غيره للملك من شاءوا .

وكانت مصر تواجه يومئذ من الناحية الداخلية ظروفاً دقيقة ، فالمملكة منقسمة على نفسها، والملك الناصر يسيطر على الشام ،وقد يحالف التتار ليحقق مشروعه القديم

فى انتزاع عرش مصر من المماليك البحرية ؛ والأمراء البحرية أنفسهم مختلفون فيما بينهم ، وقد ضعفت موارد البلاد من جراء الحروب الصليبية المتوالية والمعارك الأهلية المستمرة . ولكن الملك الجديد كان رجل الموقف ، فبادر بمفاوضة الملك الناصر ومهادنته ، وبذل جهده فى التأهب وحشد الجند . وكان هولاكو قد وصل أثناء ذلك إلى حلب ، واجتاح الشام وسلمت دمشق ، ولاح شبح الخطر قوياً على مصر .

ولم يخطئ ملك مصر فى تقدير الموقف وتفهم نية الغزاة . ذلك أنه ما كاد هولاكو يفرغ من غزو الشام حتى وضع خطته لغزو مصر ، وعهد بتنفيذها إلى نائبيه فى الشام كتبغانوين وبيدر ، ثم ارتد بقسم من قواته نحو المشرق . وسار كتبغانوين وزميله بيدر بمن بقى من قوى التتار إلى الجنوب لغزو مصر ، ورأى هولاكو جرياً على عادته أن يرسل سفراءه إلى ملك مصر يطلب إليه التسليم والخضوع . فأرسل إليه أربعة سفراء يحملون كتاباً يفيض بالتهديد والوعيد يقول فيه : « من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم — باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكا ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب ، فأى أرض تأويكم وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم . فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ؛ فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال . . فإنكم أكلتم الحرام وخنتم العهود والإيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان . فأبشروا بالمذلة والهوان « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم . . . فلا تطلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها وترمى نحوكم شرارها وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم وأيقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقى

لنا مقصد سواكم والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى »(١) .

فماذا كان جواب ملك مصر على هذا الوعيد المغرق ؟ استقبل سيف الدين قطز رسل هولاكو بكبرياء وغلظة ، وأمر بالقبض عليهم وإعدامهم فأعدموا توسيطاً (٢) كل أمام باب من أبواب القاهرة ، وعلقت رؤوسهم الأربعة على باب زويلة . ثم حشد قواته على عجل ، ونودى فى القاهرة وسائر الأقاليم بالجهاد ، وبذل قطز جهده لإقناع مقدمى المماليك المترددين فى السير معه بقواتهم. ولما تكامل الحشد ، خرج ملك مصر من قلعة الجبل فى يوم الاثنين الخامس من شهر شعبان سنة ٦٥٨ ﻫ (أغسطس سنة ١٢٦٠ م) على رأس قواته ، متجهاً نحو الصالحية ، وأرسل طلائعه بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، ليمهد الطريق ويكشف عن أخبار التتار .

كان الملك المظفر قطز يسير إلى لقاء التتار فياض العزم فياض الثقة . ألم يحطم جند مصر قوى الفرنج الصليبيين قبل ذلك بأعوام قلائل وذلك بعد أن غزوا أرض مصر ذاتها ؟ ولقد كان هذا النصر الباهر يرجع قبل كل شيء إلى براعة المماليك البحرية وبسالتهم ؛ وكان هؤلاء القادة البواسل أنفسهم هم الذين يقودون جند مصر إلى لقاء البرابرة التتار ، فلم لا يحالفهم نفس الطالع الحسن ، فيظفروا مرة أخرى برد هذا الخطر الداهم عن أرض الكنانة ، وحماية الإسلام والمدنية الإسلامية من هذا السيل المخرب ؟

وكان زعيما التتار فى الشام كتبغا وبيدر قد وصلا فى قواتهما إلى غربى فلسطين ووصلت طلائع التتار إلى غزة على الحدود المصرية ، ولكنها ما كادت ترى الطلائع المصرية التى يقودها الأمير ركن الدين بيبرس حتى انسحبت أمامها دون قتال ، واحتل المصريون غزة . ثم وصل سلطان مصر فى قواته وسار على طريق الساحل ليحاول لقاء التتار ، وكانت عكا ماتزال يومئذ فى يد الفرنج فتعاقدوا مع السلطان

---

(١) أورد المقريزى فى السلوك نص رسالة هولاكو بأكله . وقد أغفلنا بعض عباراته (المجلد الأول (ص ٤٢٧ و٤٢٨) .

(٢) التوسيط هو أن يضرب الشخص بالسيف فى وسطه فيقصمه نصفين . وكان هذا النوع من الإعدام شائعاً بمصر فى العصور الوسطى .

على الحياد ، ثم تحول السلطان بجيشه نحو الجنوب الشرقى حينما علم بأن التتار يسيرون فى ذلك الاتجاه نحو الأراضى المصرية .

وكان السلطان يشعر شعوراً عميقاً بخطورة المهمة التى يواجهها ، ولم يكن يرى فى تدفق الغزو التترى نحو مصر إلا نوعاً جديداً من الخطر الصليبى يجب أن يسحق كما سحقت الحملات الصليبية السابقة . ومن ثم فقد جمع السلطان قادته قبيل السير وشرح لهم خطورة الموقف ، وذكرهم بما وقع من التتار فى البلاد التى غزوها من شنيع السفك والتخريب ، وما ينتظر مصر وأهلها من مصير مروع إذا نجح التتار فى اجتياحها ، وحثهم وهو يبكى على بذل أرواحهم فى سبيل إنقاذ الإسلام والمسلمين من هذا الخطر الداهم ، فضج الأمراء جميعاً بالبكاء ، وأقسموا بألا يدخروا وسعاً ولا تضحية فى سبيل مقاتلة التتار وإنقاذ مصر والإسلام من شرهم .

— ٤ —

وبعث السلطان بعض قواته بقيادة الأمير **ركن الدين بيبرس** لمناوشة التتار واختبار قواتهم ، فالتقت بطلائع التتار فى مكان يقع بين بيسان ونابلس ، عند قرية عين جالوت ، وقام بيبرس بمهمته ببراعة حتى وافاه السلطان على رأس جيشه . وكانت قوات التتار قد أخذت تتلاحق إلى الوادى بقيادة كتبغا وبيدر ، وسرعان ما اشتبكت الطلائع المصرية بطلائع التتار وردتها ، وأخذ الفريقان يتأهبان للمعركة العامة . وفى صباح يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان (٦ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) نشبت بين الجيشين معركة عامة ، وكان التتار يحتلون فى مرتفع السهل أمكنة حسنة ، فانقضوا على المصريين بقوة ونجحوا فى رد الحرس السلطانى إلى الوراء ، وكاد نظام الجيش المصرى يضطرب مدى لحظة ، ولكن السلطان بادر إلى استئناف الهجوم بقوات القلب بشدة وهو يصيح « وا إسلاماه » . وأيدته قوات الجانبين بعنف ، وسرعان ما اختل توازن التتار وانفصلت صفوفهم ، وارتدوا قليلا نحو التلال الواقعة على مقربة من بيسان ، وقتل قائدهم كتبغا خلال المعركة وأسر ابنه ، ولكنهم عادوا فانتظموا ثانية واشتبكوا مع المصريين فى معركة جديدة ، وكان الملك المظفر يقود جنده بنفسه خلال اضطرام المعركة ، ويقال إن فرسه سقط من تحته وكاد يعرض للقتل لولا أن أسعفه فارس نزل له عن فرسه . ويروى أيضاً أن السلطان حينما شعر بشدة وطأة القتال عاد يصيح « وا إسلاماه !

يا الله انصر عبدك قطز على التتار» ؛ وضاعف المصريون قواهم ، وحقت الهزيمة على التتار مرة أخرى ، ودب إليهم الذعر والخلل ، وتفرقوا فى كل ناحية ، واستولى المصريون على غنائم لاتحصى ، ونزل السلطان من على فرسه ، ومرغ وجهه فى الأرض وقبلها ، وسجد لله شكراً على ما أولاه من نصر باهر ، وحمل رأس كتبغا قائد التتار إلى القاهرة ، وطيف به ، وعم البشر والسرور كل مكان ؛ وسارت بعض القوات المصرية بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس لمطاردة التتار المنهزمين ، فأفنت منهم خلقاً كثيراً وفرت شراذم الناجين منهم نحو المشرق ، وكانت هزيمة ساحقة لم يصب التتار بمثلها منذ سيرهم المظفر خلال الشرق الإسلامى.

ووصلت أنباء النصر سراعاً إلى دمشق ، ففر من كان بها من نواب التتار وأنصارهم الذين مالؤوهم أثناء الاحتلال ، ثم قدم الملك المظفر قطز إليها فى آخر شهر رمضان ودخلها فى موكب فخم ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى طهرت البلاد الشامية كلها من بقايا التتار . ولما انتهى السلطان من ترتيب شؤون الحكم واختيار النواب والولاة اعتزم العودة إلى مصر ، فسار إليها فى ركبه فى أوائل ذى القعدة .

ولكن القدر الباغى كان يتربص بالملك المظفر . ذلك أن نفراً من الأمراء الناقمين وعلى رأسهم بيبرس كانوا يأتمرون به لأنه لم يحقق أطماعهم ومطالبهم ، ويرقبون الفرصة للتخلص منه . وكان الملك المظفر من جانبه يخشى منافسة بيبرس وبأسه . ويضمر له السوء ، فلما وصل الركب السلطانى إلى مقربة من الصالحية أقيمت للسلطان حفلة صيد ، فلما عاد منها وقصد إلى الدهليز السلطانى ، انقض عليه الأمير بيبرس وعدة من زملائه وقتلوه على مقربة من خيمته ، وذلك فى ١٥ ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ (أكتوبر سنة ١٢٦٠ م) ولم يمض يومان على ذلك حتى حل مكانه فى الملك قاتله باسم الملك الظاهر .

وهكذا قضى الملك المظفر فى الملك أقل من عام فقط ، ولكنه حقق فى عهده القصير عملا من أعظم الأعمال ، وأحرز فيه نصراً من أعظم الانتصارات الحاسمة التى خلدها تاريخ مصر الإسلامية .

ولقد كانت كسرة التتار فى عين جالوت أجل وأخطر من هزيمة محلية .ولم تكن نصراً لمصر فقط . ولكنها كانت نصراً للعالم الإسلامى كله على هذا السيل المخرب الذى اجتاح المشرق الإسلامى فى أقل من ثلاثين عاماً . وقد لبث خطر الحملات

الصليبية يهدد قلب العالم الإسلامى منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (القرن الحادى عشر الميلادى) وقضت مصر أكثر من سبعين عاماً فى مغالبته والقضاء عليه، فكانت فى مجهودها تمثل الشرق والإسلام كله ؛ ولم يكن خطر التتار أقل من خطر الصليبيين فى نتائجه المخربة ، ولم يكن ظفر مصر برده والقضاء عليه إلا تأدية لنفس الدور وتحقيقاً لنفس الرسالة التاريخية التى خصها القدر بأدائها[١] .

وكان يوم عين جالوت يوماً عظيما ؛ لافى تاريخ مصر وتاريخ الإسلام فقط ، ولكن فى تاريخ المدنية كلها . ذلك أن هذا السيل التترى المخرب كان ينذر باقتحام المشرق إلى المغرب ؛ ولو اجتاح التتار مصر لاجتاحوا المغرب والأندلس وربما أوربا ، وانهارت صروح المدنية كلها من شرقية وغربية ، إسلامية ومسيحية . ولكن مصر استطاعت فى عين جالوت أن تنقذ الإسلام والمدنية كلها . ولم تكن موقعة عين جالوت أقل خطراً من موقعة شالون التى هزم فيها « الهون » قبل ذلك بثمانية قرون على يد القوط والرومان (سنة ٤٥١ م) بعد أن اجتاحوا أوربا كلها ؛ والتى تنوه التواريخ الغربية بفضلها فى إنقاذ المدنية الرومانية .

ولما تجدد خطر الغزو التترى بعد عين جالوت بقرن ونصف ، ووصلت جحافل التتار ثانية إلى الشام بقيادة عاهلها الكبير تيمورلنك (٨٠٣ هـ) هبت مصر لدفع الغزاة مرة أخرى ؛ ومع أنه لم تقع بين الغزاة وبين مصر يومئذ معارك حاسمة . فإن الغزاة حين ارتدوا من تلقاء أنفسهم ، كانوا بلاريب يحسبون لقوة مصر حسابها ويذكرون ما كان لهذه القوة من أثر فى رد أسلافهم والقضاء على مشاريعهم .

ولقد كان من نتائج الغزو التترى للشرق الإسلامى ، واختفاء الدولة العباسية من الميدان ، وما ترتب على تخريب بغداد من سحق العلوم والآداب ، أن تحولت رياسة التفكير الإسلامى نهائياً إلى القاهرة ، ولبثت القاهرة تحتفظ بهذه الرياسة الفكرية بعد ذهاب قرطبة وبغداد زهاء ثلاثة قرون ؛ حتى سقطت مصر صريعة الغزو العثمانى .

---

(١) لم يفت الرواية الإسلامية المعاصرة أن تنوه بهذا المغزى الإسلامى العام لانتصار مصر على جيوش التتار ، فمثلا يقول لنا أبو الفداء الذى عاش قريباً من ذلك العصر فى تاريخه تعليقاً على هذا النصر : « وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولاعسكراً إلا هزموه » (أبو الفداء ج ٢ ص ٢٠٥) .

الفصل الثالث عشر

فتح الترك العثمانيين لقسطنطينية

٨٥٧ هـ – ١٤٥٣ م

كان الترك العثمانيون من شُعَب هذا السيل من الغزاة الذى أخذ ينساب منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) من أواسط آسيا إلى جنبات العالم الإسلامى ، جنوباً وغرباً . وكان الترك السلاجقة فى طليعة هذا السيل المتدفق : ظهروا منذ أوائل القرن الحادى عشر ، ولم يمض قرن حتى غزوا فارس ،وعبروا الفرات ، واستولوا على أرمينية ومعظم نواحى آسيا الصغرى .واشتبكوا مع الدولة البيزنطية ، ثم مع الصليبيين فى معارك طاحنة . ولم تكد فورتهم تخبو : ويستقروا فى البلاد التى افتتحوها ، حتى خرجت جموع التتار الخربة من أواسط آسيا فى أوائل القرن الثالث عشر ، تحت قيادة چنكيزخان ثم هلاكو .واجتاحت العالم الإسلامى غرباً ، وقضت على الخلافة العباسية ،ثم انسابت إلى الشام . ولولا أن ردتها الجيوش المصرية فى موقعة عين جالوت (١٢٦٠ م) لحملت فى سيرها كل شىء .وفى ذلك الحين بالذات . ظهرت طلائع الترك العثمانيين لأول مرة فى شرقى آسيا الصغرى . وكانت شراذم متواضعة لاتعدو بضعة آلاف ،جاءت من سهول التركستان تبحث عن قوتها وطالعها ؛ ورغب زعيمها سليمان إلى سلطان قونية السلچوقى ، أن يعيش مع قومه فى كنفه ، وتحت حمايته ، فأبى عليهم هذه الرغبة . فارتدوا أدراجهم. ولكن حدث عند عبورهم النهر ، أن غرق زعيمهم سليمان ، فأبى باقى الجماعة العبور تشاؤماً ، والتفوا حول راية ولد زعيمهم أرطغرول .وكان عددهم بضع مئات ، وارتدوا صوب إرضروم .وقبل سلطان قونية عندئذ أن يسكنهم قرب أنقرة. ثم توفى أرطغرول ، وخلفه ولده عثمان ،وهو الذى ينسب إليه الترك العثمانيون . وحارب عثمان إلى جانب السلاجقة ، وانتصر على الروم (البيزنطيين) فى عدة مواقع ،وانتزع

منهم مدينة قره حصار ، وأقطعه السلطان سائر الأراضي التي افتتحها ، فقوى أمره .
ولما توفى السلطان علاء الدين كاكيوباد ، كانت دولة السلاجقة قد أخذت في التفكك والانحلال ، وضعف أمرهم في آسيا الصغرى ، فأعلن عثمان استقلاله ، وحكم في أراضيه أميراً مستقلا حتى توفى سنة ١٣٢٦ م .

وكان الترك العثمانيون ، قد استولوا يومئذ على مناطق شاسعة في أواسط آسيا الصغرى وغربها من اليونانيين ، وامتدت فتوحهم غرباً حتى كوتاهية . وفى ١٣٢٦ افتتح أورخان ولد عثمان مدينة بورصة بعد حصار طويل ، وجعلها عاصمة ملكه ، ثم تابع فتوحه حتى انتزع معظم الأراضي الواقعة على شاطئ المرمره ، وأخذ طالع آل عثمان يتألق من ذلك الحين .

وكانت الدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية ، قد شاخت يومئذ وأدركها الانحلال والوهن . وكان على عرش القياصرة يومئذ الإمبراطور أندرونيكوس الثالث ولما توفى في سنة ١٣٤٠م ، خلفه الإمبراطور يوحنا پاليولوجوس ، وكان فتياً قاصراً فانتهز محافظ القصر كانتاكوزين هذه الفرصة ، ودعا أورخان لمعاونته على انتزاع العرش ، وقدم إليه ابنته الحسناء تيودورا زوجة له ، فاستجاب أورخان لدعوته وأرسل ولده سليمان مع الجند إلى الشاطئ الأوربي ، وسحق خصوم كانتاكوزين ، وعاد مثقلا بالغنائم . وانتهز أورخان هذه الفرصة . فاستولى على مواقع في غاليبولي على الشاطئ الأوربي ، وأبقى بها ثلاثة آلاف من الجند ، وحصنها استعداداً لمشاريع ضخمة أخذت تجول بذهنه . وكان هذا أول عهد الترك العثمانيين باحتلال الأرض الأوربية ؛ ومن المعروف أن أورخان هو الذي أنشأ طائفة الجند الأنكشارية (يني شاري أو الجند الجدد) وهي التي غدت فيما بعد ، عماد الجيش العثماني ، ودعامة فتوحه في أوربا .

ولما توفى أورخان سنة ١٣٥٩ م خلفه ولده مراد الأول . وتابع مراد فتوح أبيه غربي قسطنطينية واستولى على مدينة أدرنة وحصنها ، واتخذها عاصمته بدلا من بورصة وبذا انتقل دار ملك بني عثمان من آسيا إلى أوربا . وتوغل الترك في هضاب البلقان حتى بلاد الصرب والبوسنه وهزموا جيوش المجر والصرب واستولوا على مدينة نيش .

وخلف كانتاكوزين ، على عرش الدولة الشرقية ، يوحنا پاليولوجوس خصمه

القديم . وكانت الدولة الشرقية قد فقدت يومئذ معظم أراضيها خارج قسطنطينية ، ولم يبق تحت حكم القياصرة سوى شواطئ بحر مرمره والجزائر ، ومقدونية . وكانت سالونيك وتساليا وأتينه والموره كلها تحت حكم بعض الأمراء اليونانيين المستقلين . ومن الغريب أنه بالرغم من استيلاء الترك على معظم أملاك الدولة الشرقية ، استمرت العلائق السلمية بين مراد ويوحنا پاليولوجوس ، وتزوج السلطان إحدى بنات الإمبراطور ، وزوج ابنتيه الأخريين لولديه . وهكذا نرى عرى المصاهرة تتوثق باستمرار بين العرشين الخصيمين ، بين القياصرة وآل عثمان .

وفى سنة ١٣٨٩ م توفى مراد قتيلا فى معركة حربية ضد الصرب : فخلفه ولده بايزيد الأول ، وقتل إخوته الصغار قطعاً لمنافستهم . وغدت هذه العادة الدموية تقليداً لملوك آل عثمان ؛ كلما تولى منهم ملك سحق إخوته اتقاء لمنازعتهم . وكانت فتوح آل عثمان قد غمرت آسيا الصغرى وبلاد البلقان . واتسع ملكهم . واشتد بأسهم ، واستولى بايزيد على أتينه ، وفرض على قيصر أن يبنى جامعاً جديداً فى عاصمته ، وأخذ يفكر فى افتتاح قسطنطينية عاصمة الدولة الشرقية . وحاصرها بايزيد بالفعل فى سنة ١٣٩٥ م ولكن دون نجاح .

— ٢ —

وكانت هذه أول محاولة تركية لافتتاح عاصمة الدولة الشرقية . وقد رأينا فيما تقدم كيف حاولت الخلافة الإسلامية منذ البداية ، أن تجوز إلى الغرب من طريق قسطنطينية . وكيف قامت جيوش الخلافة وأساطيلها بمحاصرة قسطنطينية غير مرة ، فيما بين سنتى ٦٦٩ و٧١٧م ، وكيف أخفقت جهودها ونبذت فى النهاية مشروعها الضخم ، واتجهت فتوحها بعد اقتحام الأندلس إلى الغرب . وقد استمر الصراع بين الخلافة والدولة البيزنطية بعد ذلك قروناً ، ولكنه كان يتمركز بالأخص فى هضاب آسيا الصغرى وشمال الشام . واقتربت الجيوش الإسلامية خلال ذلك من شواطئ البسفور غير مرة ، ولكنها لم تحاول حصار قسطنطينية مرة أخرى .

فلما توغل الترك العثمانيون فى آسيا الصغرى وسيطروا على شواطئ المرمره الأسيوية والأوربية ، ورأوا ضعف الدولة البيزنطية وتضاؤلها ، كانت قسطنطينية تلوح لهم غنيمة هينة ، وتبدو لهم العاصمة الطبيعية لدولتهم الفتية القوية . ولكن حدث

فى الوقت الذى بذل فيه السلطان بايزيد محاولته الأولى لحصارها ، أن تطورت الحوادث فى شرقى آسيا الصغرى تطوراً مزعجاً ، ووصل تيمورلنك بجيوشه المدمرة إلى شرقى مملكة آل عثمان ، واستولى على بعض قواعدها ، ثم سار جنوباً إلى الشام واستولى على دمشق . وبلغته عندئذ أهبة بايزيد لمحاربته ، فارتد إلى الأناضول ، والتقى بالجيوش التركية فى أنقرة (١٤٠٢ م) فهزم الترك هزيمة ساحقة ، وأسر بايزيد ومات فى أسره كمداً ، واستولى الغزاة على بورصة ، وفر أبناء السلطان إلى الشاطئ الأوربى ، وكادت تنهار مملكة آل عثمان .

ولما ارتد تيمور بجيوشه إلى المشرق بعد ذلك بقليل ، وقعت بين أولاد بايزيد حرب أهلية انتهت باستيلاء محمد أصغر أبنائه على الملك . ولكنه لجأ فى ذلك إلى معاونة القيصر مانويل ومحالفته . وحاصر أخوه موسى قسطنطينية انتقاماً من القيصر . ولكن جنود محمد اشتركت مع مانويل فى الدفاع عنها ، واستطاع محمد قبل وفاته فى سنة ١٤٢١ أن يعيد إلى المملكة تماسكها وقوتها . ثم خلفه ولده مراد الثانى . وكان محمد قد عهد إلى الإمبراطور مانويل باعتقال فتى يدعى مصطفى زعم أنه ابن لبايزيد نظير إتاوة سنوية يؤديها إليه . ولما توفى محمد رفض مراد أن يؤدى هذه الإتاوة إلى مانويل ، فأطلق مانويل سراح الأمير المعتقل . فأعلن العصيان ونازع مراداً فى الملك ، ووقعت بينهما حرب انتهت بأسر مصطفى وإعدامه . وعلى أثر ذلك سار مراد لحصار قسطنطينية انتقاماً من الإمبراطور ، ولكنه اضطر إلى ترك الحصار ، حينما علم أن منازعاً آخر فى الملك يدعى مصطفى ، أعلن العصيان فى الأناضول ، فسار لقتاله وانتهى الأمر بأسره وإعدامه . وفى سنة ١٤٢٨ م استولى مراد على سلانيك ، وتوغلت الجيوش التركية شمالا حتى بلغراد وجنوبى المجر . والتقت بعد ذلك بالجيوش المجرية فى وارنة وأوقعت بها هزيمة ساحقة (١٤٤٤ م) ، وتوج مراد فتوحه بالاستيلاء على ثغر بتراس وعلى جنوبى المورة ثم توفى فى سنة ١٤٥١ م .

— ٣ —

فخلفه ولده محمد الثانى ، وكان فتى فى الثانية والعشرين من عمره ، مضطرم العزم والأهواء ، وكانت أمه أميرة نصرانية . وتلقى محمد فضلا عن تربيته العسكرية ثقافة حسنة ، ويقال إنه كان يعرف اليونانية واللاتينية والعربية ، ويشغف بسير

الفاتحين الأقدمين أمثال الإسكندر وأوغسطس وقسطنطين . وبدأ محمد أعماله بأن قتل إخوته الصغار ، خوفاً من منازعتهم فى الملك إذا كبروا ، وكان منهم طفل رضيع هو ابن زوجة أبيه الشرعية ابنة أمير سينوب فأمر محمد بقتله فى الحمام ، وأرغم أمه أن تتزوج مملوكاً من البطانة يدعى اسحق باشا . ولكن واحداً من أولئك الإخوة الصغار يدعى كلابين ، أنقذ وحمل إلى رومة حيث نصر وسمى « كالستوس أتومانوس » ، وأقطعه الإمبراطور فريدريك الثالث ضيعة فى النمسا فعاش هنالك حتى توفى .

وما كاد محمد يعتلى العرش ، حتى وفدت عليه بعوث الدول المجاورة لتهنئته ، وفى مقدمتهم رسل الإمبراطور ورسل ملك المجر وفرسان رودس وغيرهم . ورحب السلطان برسول الإمبراطور قسطنطين دراجوزيس . ووعده بالعمل على توطيد السلم ، وتجديد عهد أبيه بذلك ، ودفع الإتاوة المطلوبة لنفقة الأمير أورخان حفيد سليمان ، وقد كان معتقلا فى بلاط قسطنطينية على النحو الذى كان متبعاً بالنسبة لأمراء آل عثمان الذين يخشى الجالس على العرش مناوأتهم .

وسار محمد فى بداية ولايته لمقاتلة إبراهيم بك أمير قرمونية ، وقد نهض عقب وفاة السلطان مراد لاسترداد أراضيه ، فهزمه ، واضطر ابراهيم إلى الصلح والإذعان.

وكان السلطان بايزيد قد أنشأ على ضفة البسفور الأسيوية ، حصناً تجاه أسوار قسطنطينية . فاعتزم محمد أن ينشىء حصناً مماثلا تجاه الأسوار على الضفة الأوربية ، وشرع فى تنفيذ مشروعه بالرغم من احتجاج الإمبراطور ، وتوسله إليه بالعدول ، وأقيم الحصن الجديد على قيد نحو خمسة أميال من أسوار قسطنطينية فى أضيق مكان بالبسفور ، فى موضع يسمى « أسوماتون » وكان قلعة منيعة ضخمة ذات أبراج مخيفة ، تطل على المضيق ، ووضع بها محمد حامية قوية من الأنكشارية ، مهمتها أن تقطع السبيل على أية سفينة أجنبية تجوز إلى البسفور .

وحدث على أثر ذلك فى صيف سنة ١٤٥٢ م أن أغار الجند الترك على ضياع اليونانيين المجاورة للقلعة ، وعاثوا فى زرعهم ، وقتلوا عدداً منهم ، وهكذا تطورت العلائق بين الترك واليونانيين بسرعة إلى حالة خطيرة من الخصومة والتوتر .

وكان الجالس على عرش قسطنطينية يومئذ الإمبراطور قسطنطين پاليولوجوس ، تولى العرش فى سنة ١٤٤٩ م عقب وفاة أخيه الإمبراطور يوحنا السابع ، وورث

تركة مثقلة بأفدح الصعاب والمشاكل ، وكان تصرف السلطان منذ البداية يدلى بأسوأ النذر ، فلما وقعت المصادمات الدموية بين الترك واليونانيين ، أمر الإمبراطور بغلق أبواب المدينة ، واعتقال جميع الترك المقيمين بها ، وبعث إلى السلطان وفداً ورسالة يقول فيها إنه إذا كان ثمة خطر يهدد المدينة ، فإنه أى الإمبراطور يلوذ بعصمة الله القوى القادر ويخضع لمشيئته ، وأنه أغلق الأبواب لأن الهدنة قد خرقت ، وأنه سيدافع عن المدينة لآخر قطرة من دمه . فأجاب محمد بأن أعلن الحرب على الإمبراطور فوراً ، وأخذ الفريقان يتأهب كلاهما للصراع المرتقب.

وكانت عاصمة القياصرة فى حالة يرثى لها من الانحلال والتفكك والفوضى ، وكانت قد أضحت أنقاض مملكة قصت أطرافها من كل صوب ، وغدت ولا اعتماد لها فى الدفاع إلا على نفسها ، ومواردها المحطمة ، ولم يبق من سكانها الذين كانوا يبلغون أيام ازدهارها بضع مئات الألوف ، سوى مائة أو مائة وخمسين ألف. وكانت الروح المعنوية لهذا الشعب المنكمش المعزول ، قد خبت منذ بعيد ، وغلب عليه شعور الاستكانة والاستسلام لمصيره ؛ وكانت تهجس به مختلف النبوءات المزعجة ، عن سقوط المدينة فى يد الغزاة ، فتزيده بأساً على يأس .وكان القياصرة الأواخر يتجهون إلى الغرب ، وإلى الأمم النصرانية ، بطلب الغوث والنجدة ، منوهين بما يهدد عاصمة الدولة الشرقية ، ومثوى الحضارة البيزنطية ، من خطر داهم . ولكن البابوية كانت تنظر إلى هذه الصيحة بفتور ، لانشقاق الكنيسة الشرقية عليها ؛ ورأى الإمبراطور حسما لهذا الخلاف ، أن يوافق على قرار بوحدة الكنيستين (سنة ١٤٣٩) وكان يؤيده فى ذلك أكابر الأحبار ،ولكن الشعب والرهبان كانوا يعارضون . وهكذا نشب فى اللحظة الأخيرة ذلك الخلاف الدينى ، الذى تفاقم فيما بعد ، والغزاة على الأبواب .

وفى خلال ذلك كان محمد الثانى فى عاصمته أدرنة يضاعف أهبته ، وقد أصبح الاستيلاء على قسطنطينية شغله الشاغل . وتقدم إليه مهندس مجرى يدعى أوربان يعرض صنع مدفع ضخم يقذف قذائف هائلة تكفى لثلم أسوار قسطنطينية ، فرحب به وأمر بأن يقام له مصنع فى أدرنة ، وأن يزود بسائر المعدات اللازمة لتنفيذ مشروعه . ولم تمض ثلاثة أشهر حتى استطاع أوربان أن يصنع مدفعاً هائلا يرمى

قذائف زنة الواحدة منها سمائة رطل ، ويصحبها دوى صاعق ، وترمى إلى نحو ميل ، وأسفرت التجربة عن النجاح التام .

وفى أوائل شهر فبراير سنة ١٤٥٣ ، سارت طلائع الجيش العثمانى صوب قسطنطينية ، وسير المدفع الجبار فوق عربة هائلة يجرها خمسون زوجاً من الثيران ، ومن حوله مائة رجل ، واستغرق وصوله إلى الموقع المعد له شهرين . واستولى الترك أثناء سيرهم على عدة مواقع وبلدان صغيرة ، فى طريق قسطنطينية ، مثل مسمبريا وانكيالوس وبزية وغيرها . كما استولوا على قلعة سنت إتين (سان استفانو) الواقعة على قيد ثلاث مراحل فقط من المدينة .

وتحتل قسطنطينية موقعاً منيعاً ، حبته الطبيعة بأبدع ما تحبو به المدن العظيمة ، تحوطها من الشرق مياه البسفور ، وتحدها من الغرب والجنوب مياه المرمره ، ويقسمها القرن الذهبى إلى قسمين عظيمين ، هما بيرا . وهو القسم الشمالى الشرقى ، وإستانبول وهو المدينة الرومانية الحقيقية . وتحتل إستانبول مثلثاً عظيما من المرتفعات الصخرية تشرف قاعدته على مياه المرمره ، وضلعه الأيمن على مياه القرن الذهبى والميناء . وكان كل من هذين الجانبين يحرسهما سور واحد . وأما الضلع الثالث ، وطوله ستة أميال ، فهو الجانب المتصل بأرض القارة الأوربية ، ويحميه خط مزدوج من الأبراج والحصون المنيعة ، وخندق عميق مزدوج ؛ وفيه اثنتا عشرة باباً ، وفى كل زاوية من زوايا المثلث الثلاث قلعة منيعة . وكانت مياه القرن الذهبى الذى يحمى ضلع المدينة الشمالى الشرقى ، تغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد طرفاها عند مدخله بين سور غلطه وسور إستانبول .

وفى يوم الجمعة السادس من أبريل ، وصل محمد الثانى فى جيشه الضخم أمام أسوار قسطنطينية الغربية ، المتصلة بالقارة ، وبدأ بذلك الحصار الشهير لعاصمة الدولة الشرقية ؛ وأقيم مخيم السلطان وراء التل المواجه لقسم الأسوار الممتد من باب خرسيوس (باب أدرنة) إلى باب القديس رومانوس . ورابطت القوات العثمانية على طول الأسوار الغربية ، من الشمال حتى نهايتها ، عند الباب الذهبى . ونصب المدفع الجبار أمام باب القديس رومانوس ، ووضعت مدافع عديدة أخرى فى نقط متقاربة واصطف من ورائها حملة السهام ، وبنيت فى الحال أربع طوابى خشبية على قلاع

متحركة . ويبالغ بعض المؤرخين المعاصرين مثل دوكا وغيره فى تقدير القوات المحاصرة ويقولون إنها بلغت ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف . ويقول المؤرخ خير الله التركى أنها لم تزد على ثمانين ألف من الجند النظامية والباقى من غير النظامية (الباش بوزرق) والدراويش والحمالين[١] ؛ ويقدرها باربارو سفير البندقية وصاحب يوميات الحصار بمائة وستين ألفاً . ولكن « فرانزا » وهو مؤرخ معاصر أيضاً يقدرها بمائتين ثمانية وخمسين ألفاً ، وهو أرجح التقديرات .وكان من ذلك العدد مائة ألف فارس تحتشد فى المؤخرة ، ومائة ألفاً راجل فى الجناح الأيمن من ناحية الباب الذهبى ، وخمسون ألف فى الجناح الأيسر حتى قصر بلاشرنى (بلاشيار) . وكان السلطان يحتل القلب ، ومعه خمسة عشر ألفاً من الجند الأنكشارية . ورابط القائد سخانوس (زغانوس) باشا فى بعض القوات على مرتفعات ضاحية غلطه لكى يرقب حركات الجنويين . واحتشد الأسطول التركى فى مياه البسفور . وكان يضم زهاء أربعمائة سفينة منها نحو عشرين سفينة حربية كبيرة . وكان يرابط بقيادة أمير البحر بلطه أوغلى فى الخليج الذى يحمل اسمه حتى اليوم ؛ وكانت هذه أول مرة يظهر فيها الأسطول التركى فى ميدان الحرب[٢]. وهكذا طوقت قسطنطينية من البر والبحر بقوات كثيفة حسنة الأهبة . لم يسبق أن طوقت بمثلها . ومع أن الخلافة استطاعت من قبل أن تحشد فى حصارها الثانى (٧١٧ م) تحت أسوار قسطنطينية ؛ ما يقارب هذا العدد من القوى البرية والبحرية ، فإن الذى لاريب فيه هو أن الجيش العثمانى كان من حيث عدده ودربته وأهبته وأسلحته . أعظم قوة حشدت للاستيلاء على عاصمة الدولة الرومانية الشرقية .

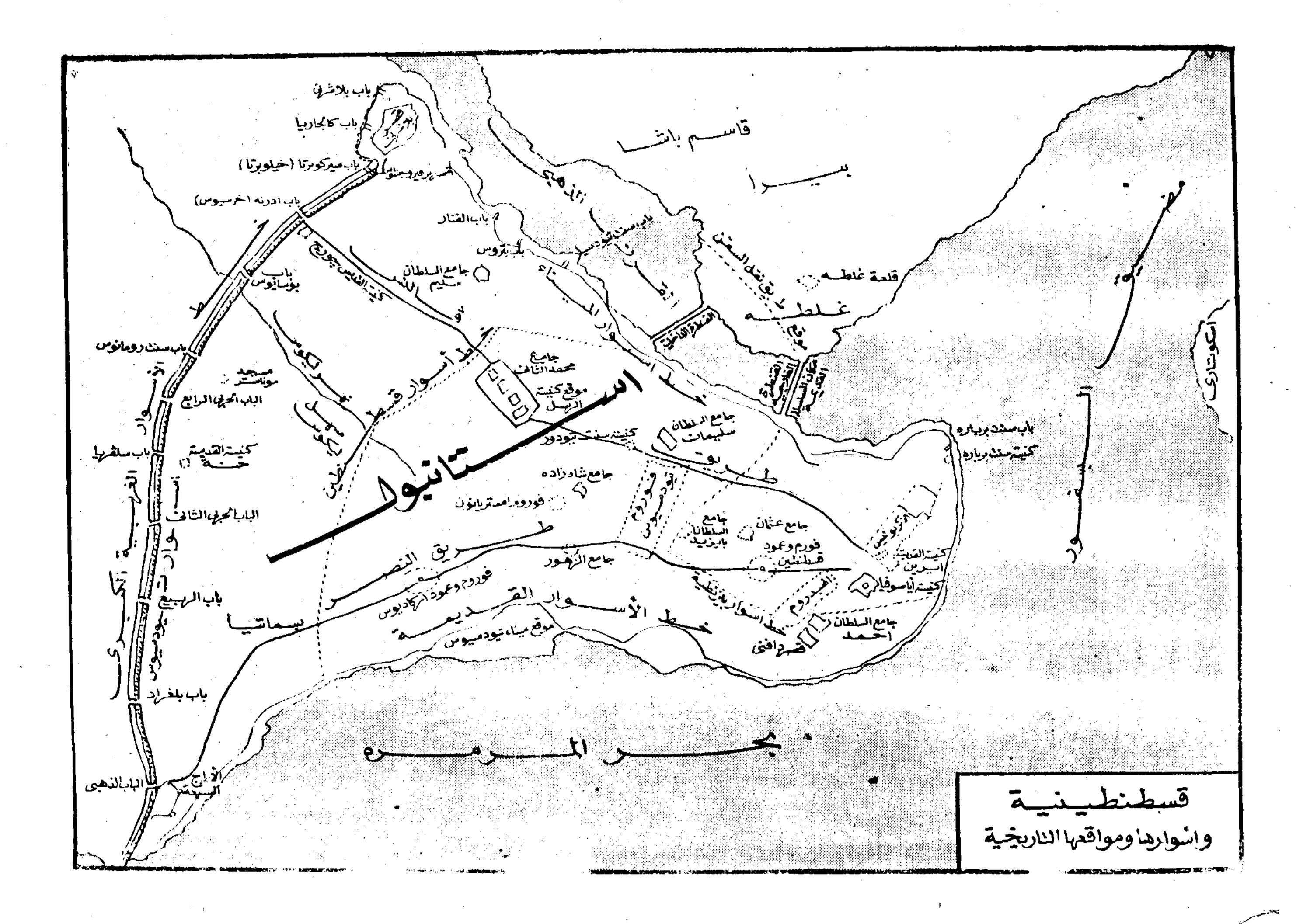
وأما قوى المدافعين عن قسطنطينية ، فقد كانت ضئيلة من حيث العدد والأهبة والروح المعنوية . أجل كانت عاصمة القياصرة ، ما تزال تتمتع بمنعتها المأثورة التى حبتها بها الطبيعة ؛ وكانت أسوارها العالية الضخمة فى حالة جيدة . ولاسيما من الناحية الغربية التى وجه إليها العثمانيون هجومهم الرئيسى . وكانت المناعة أشد من ناحية البحر ، حيث كانت مياه القرن الذهبى ، تحمى المدينة من الناحية الشرقية ،

---

(١) Mordtmann : Belagerung und Eroberung Constantinopels, (Stuttgart 1858) s. 41 & 42.

(٢) Von Hammer : Geschichte des Osmanischen Reiches (Fr) V. II p. 390—401

Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire ; Ch. LXVIII



قسطنطينية
واسوارها ومواقعها التاريخية
بحر المرمره
البسفور
اسكوتاري
قاسم باشا
بيرا
غلطه
قلعة غلطه
القرن الذهبي
الاسوار الغربية الكبرى
أسوار تيودسيوس
اسطانبول
طريق النصر
خط أسوار قسطنطين
خط الأسوار القديمة
خط اسوار بيزنطة
باب بلاشرنى
باب كاليجاريا
باب ميركوريتا (خيلوبرتا)
باب ادرنه (خرسيوس)
باب بوسايوس
باب سنت رومانوس
مسجد موناستر
الباب الحربي الرابع
باب سلفريا
كنيسة القديسة حنة
الباب الحربي الثالث
باب الربيع
باب بلغراد
الباب الذهبي
الأبراج السبعة
باب الفنار
باب بتروس
جامع السلطان سليم الأول
كنيسة القديس جورج
جامع محمد الثاني
موقع كنيسة الرسل
جامع السلطان سليمان
كنيسة سنت تيودور
جامع شاه زاده
فوروم امستريانون
فورم تيودوسيوس
جامع الزهور
فوروم وعمود اركاديوس
موقع ميناء تيودسيوس
جامع عثمان
جامع السلطان بايزيد
فورم وعمود قسطنطين
الهيدروم
قصر دافني
جامع السلطان احمد
كنيسة أيا صوفيا
كنيسة القديسة ايرين
الأكروبوليس
باب سنت بربارة
كنيسة سنت بربارة
القنطرة الخارجية
مكان السلسلة القديمة
القنطرة الداخلية

ويغلق مدخله بسلسلة هائلة من الحديد ، تمتد ما بين الضفتين ، وتحول دون دخول أية سفينة أجنبية . وكانت النار اليونانية ما تزال لدى اليونانيين سلاحاً ناجعاً يرد عادية السفن والقوى المغيرة . ولكن موارد الدفاع عن المدينة المحصورة كانت ضئيلة. وكان سكان قسطنطينية يومئذ لايعدون مائة وخمسين ألفاً معظمهم من التجار والكهنة والنساء . وكان عنصر الرجال المدافعين قليلا . وظهر من السجلات التي أعدت بإشراف الوزير فرانزا صديق القيصر الحميم وموضع ثقته ، أنهم لايجاوزون خمسة آلاف مقاتل ، بينهم عدد كبير من القسس . وحرص الإمبراطور ووزيره على كتمان هذا السر المؤلم ، ووزع المدافعون على الأسوار بعد أن زودوا بالسلاح . وانضم إليهم زهاء ألفين من المرتزقة الأجانب معظمهم من الجنويين والبنادقة ، بقيادة يوحنا يوستنياني الجنوى. وكان هؤلاء يعسكرون في غلطه التي كانت مستعمرة للبنادقة والجنويين ، وكانت حكومة جنوه قد بعثت بوستنياني قبل ذلك بقليل في بضع سفن مشحونة بالرجال والذخائر استجابة لصريخ القيصر . وكذلك بعثت حكومة البندقية ببعض السفن والأمداد . ولم يزد عدد المدافعين عن قسطنطينية على أي حال عن تسعة آلاف مقاتل[1] . وكان الأسطول اليوناني ، يتألف من أربع عشرة سفينة ، جاء معظمها من البندقية وجنود ، وكانت تعسكر في نهاية المضيق في مياه البحر الأسود ، ولم يكن لدى المدافعين سوى عدة قطع ضئيلة من المدفعية وقليل من الذخائر . أضف إلى ذلك كله ، ما كان يسيطر على الإمبراطور ورجاله المدافعين من ضروب التوجس واليأس . وكان الشعور الغالب لدى أهل المدينة أن النهاية قد دنت وأنها آتية لاريب فيها . وكان قد غادرها كثير من النبلاء والعامة تأثراً بهذا الشعور ، وأبى كثير من الأغنياء أن يمدوا المدافعين بالمال ، وبقيت أموالهم مطمورة حتى عثر بها الغزاة الظافرون .

وكان الإمبراطور قسطنطين پاليولوجوس مذ شعر بالخطر الداهم على حاضرته وملكه ، يبعث برسائل الاستغاثة إلى سائر القصور النصرانية . وإلى البابوية بنوع خاص . ولكن صيحاته لم تلق كبير صدى . وكان الاعتقاد سائداً في معظم القصور بأن مصير قسطنطينية قد أضحى محتوماً ولاسبيل إلى مغالبته . وكان البابا وهو

Von Hammer : ibid ; V. II. p. 401 ; Gibbon : ibid ; Ch. LXVIII (١)

يومئذ نقولا الخامس غير مكترث لنداء الإمبراطور، ولم يتأثر بضراعته إلا بعد أن فات الوقت . وقد سقطت قسطنطينية قبل أن تبحر الوحدات التى أشار بحشدها فى چنوه والبندقية . وأما أمراء المورة والجزائر اليونانية ومنهم أخوا الإمبراطور توماس وديمتريوس فقدتظاهروا بالحيدة خشية بطش السلطان، ولم يحرك أحد منهم ساكناً.

بيد أنه كان ثمة ما هو أشد وأنكى . ذلك أن هذا الشعب المحصور الذى يهتز مصيره فى يد القدر ، لم يحجم خلال هذه الفترة العصيبة عن الإنهماك فى جدل دينى مضطرم . وكان قسطنطين قد فكر فى تجديد الاتحاد مع الكنيسة الرومانية اكتساباً لعطف البابوية والكثلكة ، وطلب إلى البابا أن يبعث إليه بمندوب من قبله . فأجيب إلى طلبه . وأوفد إليه البابا الكردينال إيزيدور ومعه بعض المال والجند . وفى يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٤٥٢ أقيم فى كنيسة أياصوفيا قداس مشترك من الطائفتين كرست فيه الوحدة المنشودة . ولكن هذا الاتحاد كان أمراً ظاهرياً فقط، وكان معظم الشعب ساخطاً على الإمبراطور لاعتناقه الطقوس اللاتينية . وكان الجدل يضطرم وراء الأسوار المغلقة حول هذا الاتحاد ، الذى لم يقصد به فى الواقع سوى استثارة عطف البابوية والأمم الغربية . وفى كل يوم يتجدد الجدل والخصام بين الطائفتين . وكما انقسم الشعب بين مؤيد وساخط . فكذلك انقسم الأحبار وانقسم البلاط . واشتدت الفتنة . وكان الغلاة من أولياء الكنيسة الشرقية يقولون إن الترك أفضل من اللاتين ، ويقول المعتدلون إن اللاتين أفضل من الترك . وهكذا تفاقم الخلاف بين الطائفتين وتفرقت كلمة الشعب ، وهجر الناس الكنائس ، وغلب التعصب على الحكمة ، وسيطرت هذه المحنة الكلامية على عقول المدافعين ، فزادت قواهم المعنوية ضعفاً على ضعف ؛ وما زالت هذه « المناقشات البيزنطية » الشهيرة مضرب الأمثال للجدل العقيم الذى يضطرم وقت الجد والخطر الداهم[1] .

اعتصم المدافعون بالأسوار واكتفوا بالقاء القذائف على المحاصرين من آن لآخر ضناً بمواردهم المحدودة من الذخيرة. وكانت النار اليونانية القديمة مازالت فى يدهم سلاحاً ناجعاً يعاون فى سد نقص مدفعيتهم الضئيلة . وكانت قذائفهم القليلة ونيرانهم تفتك بصفوف الترك من آن لآخر . وقد استطاعت نيرانهم أن تسكت المدفع

---

(١) Mordtmann: ibid ; s. 27, Von Hammer : ibid ; V. II. p. 396

التركى الضخم . بيد أن المدفعية التركية كانت قوية . وكانت عديدة تواجه الأسوار والأبواب فى نقط متقاربة . ومع ذلك فقد كانت مناعة الأسوار تحد من أثرها . ومضت الأيام الأولى من الحصار فى محاولات ومعارك جزئية يتخللها قصف المدافع التركية بشدة . وفى مساء يوم ١٩ أبريل حاول الترك مهاجمة الأسوار بعنف . ووقعت تحت ضوء القمر معركة قتل فيها مائتا تركى . وملأ الترك الخندق العميق بجذوع الأشجار وجثث القتلى . واستطاعوا بعد جهود جمة أن يحدثوا ثلمة فى قلعة سنت رومانوس ، ثم حال الظلام دون تقدمهم . ولكن ما كاد الصبح يسفر حتى كان اليونانيون قد أصلحوا الثلمة ونظفوا الخندق وحطموا سلالم الترك[١]

وكانت المدينة المحصورة تتلقى بعض الأمداد القليلة من الجزائر ومن المورة وصقلية . وكان الأسطول التركى قد رابط منذ الخامس عشر من أبريل فى مياه البسفور الجنوبية تجاه الميناء فى قطاع هلالى ليحول دون أى مدد . وحدث يوم ٢٠ أبريل أن ظهرت قافلة نصرانية مكونة من خمس سفن جنوية استطاعت أن تخترق المرمرة فى اتجاه المدينة . فحاول أن يردها قسم من الأسطول التركى . ولكن السفن النصرانية كانت مجهزة بمدفعية حسنة وبحارة مدربين . فتصدت لمقاتلة السفن التركية وأمطرتها وابلا من السهام والقذائف النارية . فاصطدمت بعضها ببعض واحترق البعض الآخر ، واستطاعت السفن النصرانية أن تشق طريقها سالمة إلى الميناء وأن تجوز السلسلة الحديدية بسرعة إلى الداخل[٢] .

فانتعشت آمال المدافعين لهذا الفوز الجزئى ، وثار السلطان غضباً لفشل سفنه ، ونكل بأمير البحر بلطه أوغلى ، وجلده بنفسه . ثم عقد ديواناً للشورى ، فنصح الصدر الأعظم خليل باشا بعقد للصلح مع الإمبراطور ، خشية من توالى الأمداد البحرية وتوالى الفشل فى ردها . وكان هذا الوزير ضالعاً مع اليونانيين لما غمروه به من جليل الأموال والتحف . وكان ينتهز كل فرصة لتثبيط همة السلطان وثنيه عن مشروعه[٣] ، ولكن السلطان كان يشعر بدخيلته وعدم ولائه . ومن جهة أخرى

---

(١) Gibbon: ibid ; Ch. LXVIII

(٢) Mordtmann: ibid ; s. 55 & 56, Von Hammer: ibid ; V. II. p. 405

(٣) Von Hammer: ibid ; VII p. 385 & 406 ; Mordtmann: ibid ; s. 37

فقد عارضه القائد سجانوس باشا صهر السلطان وصفيه(١) ، ومحمد كورانى مؤدب السلطان ، والشيخ آق شمس الدين القطب الصوفى . وأبدى السلطان فى النهاية تمسكه بمتابعة الحصار حتى النهاية وإصراره على الظفر ببغيته . مهما كانت الظروف والأحوال .

— ٤ —

وهنا رأى السلطان أنه لابد من تحطيم السلسلة الحديدية التى تغلق الميناء فى وجه سفنه — وكان القيصر قد أمر باغلاقها منذ ١٢ أبريل — أو أن تجوز سفنه إلى الميناء بأية وسيلة . وجال بذهنه مشروع جرىء ضخم . هو أن ينقل جزءاً من أسطوله إلى داخل الميناء بطريق البر أعنى من نهاية غلطه إلى داخل القرن الذهبى . وكانت غلطه منطقة الجنويين والبنادقة يؤلفون فيها جالية كبيرة . وكان موقف أولئك الجنويين والبنادقة من الحصار غامضاً . وقد كان معظمهم من طوائف التجار والبحارة المرتزقة . والظاهر أنهم كانوا يلعبون فى الحصار دوراً مزدوجاً ؛ ولم يك ثمة شك فى أنهم كانوا يعاونون البيزنطيين معاونة قيمة ؛ ولكنهم من جهة أخرى كانوا يتصلون بالترك من آن لآخر . ويقول لنا المؤرخ « دوكا » إنهم كانوا يعملون مع المدافعين بالليل . وفى النهار يبيعون الزيت للترك لتشحيم مدفعهم الضخم . وأحياناً ينقلون إليهم بعض الأنباء والمعلومات الهامة(٢) . وكان السلطان يغدق صلاته على من يتقدم لمعاونته . والظاهر أن السلطان كان يعتمد فى تنفيذ مشروعه . على الأقل على إغضاء بعض الجنويين فى غلطه . وكانت المسافة التى يجب اجتيازها لنقل السفن لا تتجاوز مرحلتين . ولكن الأرض كانت وعرة تتخللها الأدغال والمرتفعات . ولم تكن هذه الفكرة جديدة فى الواقع فقد جربت غير مرة فى حروب الرومان واليونان . وكانت معروفة بالأخص لدى النورمانيين أيام غزواتهم البحرية . وكثيراً ما كانوا ينقلون سفنهم فوق البر من البحر إلى النهر أو خليج مجاور . إحكاماً لخططهم . وكان ثمة أمام السلطان مثل قريب قام به البنادقة قبل ذلك بنحو أربعة عشر عاماً ؛ إذ نقلوا بعض سفنهم من نهر الأديج فوق البر إلى بحيرة «جاردا» . ولعل هذه الواقعة القريبة هى التى أوحت إلى السلطان بمشروعه الجرىء(٣) . وكان

(١) كان سجانوس باشا متزوجاً من أخت السلطان ابنة مراد الثانى .

(٢) Von Hammer: ibid, V. II. p. 406; Mordtmann: ibid; s. 40

(٣) Von Hammer: ibid; V. II. p. 408

لدى السلطان هيئة بارعة من المهندسين الممتازين ، من ترك وأجانب . فوضعت الخطة فى الحال ، وبدئ العمل تحت جنح الظلام ، وحشدت جماعات غفيرة من العمال ، ومهد الطريق المرغوب فى نتوء غلطه ، وغطى بألواح من الخشب طليت بالدهن والشحم . وفى ليلة واحدة فقط نقل الترك نحو ثمانين سفينة خفيفة طويت أشرعتها ، خلال الطريق المنعرجة ، فوق جرارات كبيرة ذات بكر تجرها الرجال والبغال ، من شاطئ البسفور إلى خليج القرن الذهبى ، فيما وراء السلسلة الكبرى ، وأنزلت إلى الماء فى سكون الليل . وماكاد الصبح يسفر حتى نشرت السفن قلوعها ، ودقت الطبول ، وكانت مفاجأة مروعة لأهل المدينة المحصورة أن يروا سفن الترك على هذا النحو ، تشق مياه الميناء وترابط تحت أسوارهم الداخلية . وزاد فى ارتياعهم وارتباكهم أن هذا الوضع الجديد سوف يرغمهم على توزيع جديد لخطوط دفاعهم ، وبذلك يضعفها ويجعلها أقرب منالا للهاجمين .

وإنه لما يثير الدهشة والإعجاب معاً أن تم هذه العملية الهائلة فى ظرف ليلة واحدة فقط . ولكن البقعة التى أجريت فيها كانت تحتلها قوات السلطان بقيادة زغانوس باشا ، ولم يكن من المستطاع أن تقترب منها السفن البيزنطية ،وقد حشد السلطان لإجرائها قوات عظيمة . أضف إلى ذلك ما قدمه الجنويون من معاونة قيمة . بل يذهب البعض إلى أن الجنويين هم الذين أوحوا إلى السلطان بتلك الفكرة الجريئة الحاسمة (١) .

وهكذا فتحت أول ثغرة خطيرة فى خطوط الدفاع البيزنطية ، وتم إحكام الحصار فى البر والبحر . وأمر السلطان بإنشاء جسر ضخم داخل الميناء عرضه خمسون قدماً وطوله مائة ، وصفت عليه المدافع ، وزودت السفن المنقولة بالمقاتلين والسلالم ، وتقدمت إلى أقرب مكان مستطاع من الأسوار . وبدأ المدافعون من جانبهم يفكرون فى العمل لإحباط هذه المحاولة الخطيرة . وفكر البيزنطيون ويوحنا يوستنيانى فى محاولة إحراق السفن التركية والجسر التركى . ولكن الترك علموا بالمشروع من بعض الجنويين فى غلطه فاستعدوا لإحباطه . وفى عصر يوم ٢٨ أبريل حاولت ثلاث سفن بندقية أن تبدأ المحاولة ، ولكن الترك بادروا بإطلاق

---

(١) Mordtmann: ibid ; s. 59

النار فغرقت فى الحال وغرق معها نحو مائة من البحارة والضباط ، وعادت السفن الأخرى إلى مرافئها حينما رأت خيبة المشروع . وحاولت بعد ذلك جماعة من البحارة البنادقة إحراق السفن التركية ، وتسللوا إليها بالليل فى قواربهم ، وأضرموا النار بالفعل فى بعضها ، ولكن المحاولة فشلت وقبض الترك على نحو أربعين منهم وذبحوهم أمام أعين المدافعين . وبادر البيزنطيون من جانبهم بالانتقام فقتلوا مائتى أسير مسلم ، وألقوا رؤوسهم من فوق الأسوار(١) .

ووضع الترك بعض المدافع على مرتفع سنت تيودور فيما وراء غلطه ، وأخذوا يطلقونها على السفن الداخلة إلى الميناء مهما كانت جنسيتها ، ومضوا بعد ذلك فى إطلاقها على المدينة ، ولكنها لم تحدث أثراً يذكر .

وفى اليوم الرابع من مايو بذل يوستنيانى محاولة جديدة لإحراق الأسطول التركى فى مياه القرن الذهبى . فسار فى سفينة كبيرة تسلل بها فى منتصف الليل . ولكن مواطنيه فى غلطه كانوا قد أخطروا الترك سراً كعادتهم فضاعف الترك أهبتهم . وما كادت تبدو سفينة يوستنيانى حتى أطلقوا عليها وابلا من النار فغرقت وغرق معها زهاء مائة وخمسين من البحارة الإيطاليين هم نخبة معاونيه . ونجا يوستنيانى بصعوبة(٢) .

واستمر الحصار بطيئاً مرهقاً ، والترك مستمرون على ضرب الأسوار بمدافعهم وأخذت المؤن فى المدينة تتضاءل وتختفى ولاسيما الخبز والنبيذ . ولما اشتدت الضائقة أمر القيصر بأن تؤخذ آنية الكنائس من الذهب والفضة وأن تصهر وتسك نقوداً حتى يأذن الله بالإنقاذ .

وفى اليوم السابع من مايو ، عند منتصف الليل هاجم الترك المدينة بثلاثين ألف مقاتل ، ولكنهم ردوا بخسارة فادحة ؛ ثم كرروا هذه المحاولة فى الثانى عشر منه ولكنهم ردوا أيضاً دون جدوى .

وعمد الترك سراً إلى الحفر تحت الأسوار واستطاعوا أن يحفروا تباعاً سراديب عديدة تحت أصول الأسوار الداخلية ، ولكن البيزنطيين كانوا فى كل مرة يكتشفون المحاولة ، ثم يحبطونها بحفر السراديب المضادة وإضرام النار فيها(٢) .

---

(١) Moratmann: ibid; s. 62; Von Hammer; ibid; V. II. p. 405-410; Gibbon; ibid; Ch. LXVIII.

(٢) Mordtmann: ibid; s. 79

وكان قد مضى على الحصار عندئذ سبعة أسابيع اشتد فيها الضيق بالمدينة المحصورة ، وأنهكت قوى المدافعين ، ونضبت مواردهم ، واضطر الإمبراطور أن يجرد الكنائس من ذخائرها الأخيرة لكي يدفع أجور الجند . وكان الخلاف يضطرم باستمرار بين البيزنطيين وبين الجنويين والبنادقة ، ويرمى كلاهما الآخر بالجبن والخيانة . وفوق ذلك فقد بدأت آثار التخريب تبدو ظاهرة فى المدينة المحصورة ، إذ هدمت الأسوار ، وثلمت فى غير موضع وسقطت أربعة من أبراجها المنيعة ، وفتحت ثغرة كبيرة عند باب القديس رومانوس ، وبات من الواضح إزاء إصرار العدو القوى المحاصر ، وتخاذل قوى المدافعين يوماً بعد يوم ، أنه لم يبق ثمة ريب فى المصير المروع الذى ينتظر عاصمة الدولة الرومانية الشرقية .

ورأى السلطان من جهة أخرى أن يبذل مجهوداً أخيراً لحمل الإمبراطور على التسليم . فبعث إليه صهره إسماعيل بك « اصفنديار وغلى » واستقبله الإمبراطور ومن حوله سائر حاشيته ، فأخذ يحثه على الخضوع والتسليم ، ووجوب حقن الدماء ، وأن يقى شعبه الرق والذلة ، وأن يقى المدينة من الدمار ، وأن الدفاع عبث لا يجدى ، وعرض السلطان على القيصر مقابل التسليم أن يجعله ملكاً على المورة ، وأن تمنح الحرية لمن شاء الرحيل من أهل المدينة ، وأن يكفل الأمن والسلامة لمن أراد البقاء فيها . فجمع الإمبراطور مجلسه ، وعرض عليه الأمر ، فأصر الجميع على وجوب الدفاع وأبلغ الإمبراطور ذلك لرسول السلطان ، وقال له إنه يجدر بالسلطان أن يفكر فى عقد السلم ، وأن يقبل الجزية ، وأنه لن يسلم المدينة بل سوف يدافع عنها حتى آخر نسمة ، وأنه سوف يسقط مدافعاً عن عرشه ودينه تحت أسوار عاصمته .

وكان ذلك فى يوم ١٤ مايو سنة ١٤٥٣ . وعلى أثر ذلك جمع محمد رؤساء الجند وأعلن إليهم أن هجوماً عاماً سيقع على المدينة فى يوم ٢٩ مايو من ناحية البر ومن ناحية الميناء ، ووعدهم بأن الغنائم كلها ستكون من نصيبهم ، وأنه يهبهم سائر الأسرى وكنوز المال والجمال ، ولا يحتفظ لنفسه إلا بالمدينة أرضها ومبانيها ، وأنه يمنحهم ثلاثة أيام كاملة لجمع الغنائم والأسلاب . فضج الجند حماسة ، وتعهد رؤساء الأنكشارية بتحقيق النصر ، ووعد السلطان الشجعان الذين يصعدون إلى الأسوار فى المقدمة بأعظم الصلات ، وأنه سيعينهم رؤساء وسناجق ، ولكنه أنذر الجبناء

بشر الجزاء . وطاف المشايخ بالعسكر ، حاثين على الجهاد فى سبيل الله ، ورفع أعلام الإسلام فوق المدينة النصرانية . وفى المساء أضيئت سائر الخيام والسفن العثمانية ، وأقيمت الأذكار وضج الجند بالتهليل والتكبير . وساد الجند فيض من العزم والحماسة ، والاستبشار بالنصر القريب(١) .

وأدرك البيزنطيون فيما وراء الأسوار أن هذا الضجيج المرح ، إنما هو نذير النهاية المحتومة ، وساد اليأس والوجوم ربوع المدينة المحصورة ،واحتشد الناس فى شوارعها المظلمة ، يرفعون صورة العذراء ويرتمون أمام تماثيلها .ويطلبون من الله النجاة والمغفرة ، وكان منهم من يرى التسليم ، ويلوم الإمبراطور على إصراره وعناده ، وينوه بما ينتظر المدينة من صنوف الدمار والوبال .

ولكن قسطنطين باليولوجوس كان أميراً شجاعاً . وكان اليأس يذكى الديه روح التضحية . وكان يؤثر الموت فى سبيل وطنه ودينه على أية حياة ذليلة ؛ وكان البطريق والأكابر قد نصحوا القيصر بالفرار غير مرة . وكان فى كل مرة يرفض بإباء . ويكرر أنه مصمم أن يموت معهم من أجل دينه وعرشه . وكان كل ما فعله أن أرسل نساء الأسرة القيصرية فى سفينة بندقية تحوطاً وتوقعاً لنكبة(٢) . ولم يكن آخر القياصرة وهو فى غمرة محنته ويأسه أقل بسالة وإباء من أسلافه العظام . ولذا ما كاد الإمبراطور يوقن بأن الهجوم الأخير على عاصمته أضحى على وشك الوقوع ، حتى هرع إلى الأسوار يتفقدها . وحث المدافعين على الثبات والصبر . وفى مساء اليوم الثامن والعشرين من مايو جمع الإمبراطور فى قصره سائر الأشراف والأكابر ورؤساء البعثات الأجنبية ، وعرض عليهم ما آل إليه أمر الدفاع ، وناشدهم صادق المعونة والتضحية ، وأن يقتدوا به فى افتداء دينهم ومدينتهم . يقول جيبون : «وكان آخر خطاب لباليولوج هو رثاء الدولة الرومانية . فقد وعد وتوسل وحاول أن يبث فى النفوس أملا غاض فى أعماق نفسه » . ويصف لنا الوزير المؤرخ فرانزا وكان حاضراً هذا الاجتماع ، ما تخلله من مناظر محزنة فيقول : «كان الحضور يبكون ، وكانوا يتعانقون وقد نذروا أنفسهم للفداء بغض النظر عن أسرهم وعن ثرواتهم ، وعاد كل قائد إلى مركزه يسهر الليل فى مراقبة الأسوار» .

---

(١) Von Hammer: ibid; V. II. p. 414 & 415; Gibbon: ibid; Ch. LXVIII.

(٢) W. H. Hutton: The Story of Constantinople p. 148.

وفى نفس المساء ذهب الإمبراطور إلى كنيسة أياصوفيا ومعه أكابر حاشيته ، وأعلن التوبة بين جمع تمزقه الزفرات وتلقى البركة المقدسة ، ودموعه تنهمر على خديه ثم عاد إلى قصره واستراح قليلا ، وكان القصر يضج بالبكاء والعويل . وبعد أن سأل الصفح من الحضور عما قد يكون أساء به إليهم ، امتطى صهوة جواده ، وأخذ يطوف بالحرس ويتلقى الأنباء عن حركات العدو . يقول جيبون : « إن يأس قسطنطين الأخير وسقوطه ، لأمجد من النعماء الطويلة التى تمتع بها قياصرة بيزنطية » .

وفى الليلة السابقة لهجوم الترك أى فى ليلة ٢٩ مايو تفقد يوحنا يوستنيانى الأسوار ، وأمر بعدة إصلاحات عاجلة ، وحفر خندق عميق فى الداخل ، ووراء باب القديس رومانوس الذى هدمته المدافع ، وأقيم من ورائه سور كبير جديد . وكان يوستنيانى يعتمد بالأخص على معاونة مواطنيه الجنويين والبنادقة . واستعد الجميع للدفاع . وحددت مراكز كل فريق ، فرابط الإمبراطور مع جماعة من الأشراف الوافدين ويوستنيانى وخاصة رجاله وهم نحو ثلاثمائة ، وراء باب القديس رومانوس ، باعتباره نقطة الخطر الأولى ، واحتشد وراء باب أدرنه بعض الضباط الجنويين ، وعهد إلى الكردينال إيزيدور المندوب البابوى بالإشراف على الدفاع عن القسم الممتد من باب المدرج إلى باب القديس ديمتريوس ، وهو الممتد وراء القصر الإمبراطورى على القرن الذهبى . ورابطت جماعات من أشراف البنادقة والجنويين فى القصر الإمبراطورى وفى عدة نقط حيوية أخرى ، وتولى الدفاع عن الميناء الأميرال الأكبر نوتاراس ، واشترك فى أعمال الدفاع عدة من أكابر العلماء والأحبار مثل تيوفيل باليولوج وغيره ، وتولى ديمتريوس باليولوج أخو الإمبراطور قيادة القوات الاحتياطية . وبلغت مراكز الدفاع كلها اثنى عشر تولى اليونانيون منها اثنين فقط ، وعهد بالعشرة الأخرى إلى الضباط الأجانب من الجنويين والبنادقة والألمان والروس والإسبان وغيرهم . ولم يكن عدد المدافعين جميعاً يجاوز تسعة آلاف ، منهم ستة آلاف من اليونانيين والباقى من الأجانب. وكان بين المدافعين عدد كبير من رجال الدين [1].

وكان السلطان أثناء ذلك يضاعف أهبته . وفى اليوم الثامن والعشرين من مايو

---

(١) Von Hammer: ibid; V. II. p. 418-420

اتخذت الأهبات الأخيرة ، وأعدت ألف سلم للهجوم ، ووزعت القوات فى مراكزها النهائية ، فحشد أمام الباب الذهبي زهاء مائة ألف مقاتل ، وحشد فى الميسرة خمسون ألفاً ، وخص الاحتياطى بمائة ألف ، ورابط السلطان فى القلب مع الجند الأنكشارية ، واحتشدت فى داخل الميناء ثمانون سفينة ، ودفعت مع السلالم العائمة إلى مقربة من الأسوار ، واصطفت باقى السفن التركية فى دائرة كبيرة حول شواطئ المدينة الخارجية ، وقدمت المدافع إلى حافة الخندق الكبير وراء الأسوار.

وفى مساء نفس اليوم استعرض السلطان جنده وحثهم على الثبات ومضاعفة الهمم . وكانت الإستعدادات تجرى بمنتهى التكتم والسكون . ولكن لغط الهمس والحركة كان يسمع مع ذلك فوق الأسوار وداخل المدينة .ويقول لنا المؤرخ فرانزا فوق ذلك إن خليل باشا الصدر الأعظم كان يتصل سراً باليونانيين ويحذرهم ويحثهم على الثبات(١) .

— ٥ —

فى فجر يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ هاجم الترك العثمانيون قسطنطينية من البر والبحر ، وأخذت المدافع تطلق نيرانها على المدينة بمنتهى الشدة من البر ومن السفن ، ووجه الهجوم الرئيسى إلى قطاع القديس رومانوس الذى يرابط وراءه القيصر ، واختلط دوى المدافع بدق الطبول وصراخ الجند وأنين الجرحى . وفى الوقت نفسه أخذت قذائف المدافعين وسهامهم تتساقط من على الأسوار ، والنار اليونانية تلقى على السفن التركية . ولبثت هذه المعركة الرهيبة المضطرمة زهاء ساعتين ، حتى امتلأ الخندق الكبير ، بجثث الهاجمين ، وحطمت السلالم . وعلقت النار بكثير من السفن ؛ ولكن الترك ضاعفوا الجهد ، وقذفوا إلى المعمعة بقوات جديدة عبرت الخندق فوق الجثث ، وهجمت الأنكشارية ومن ورائهم السلطان ممتطياً جواده شاهراً حربته ، ومن حوله عشرة آلاف من من صفوة جنده . وشدد الباشوات والقادة هجومهم . واشتد قصف المدافع من كل ناحية ، وانعقد الغبار الأسود ، فوق الجيش المهاجم والمدينة المحصورة . وكانت ساعة هائلة مروعة .

---

(١) Von Hammer : ibid; V. II. p. 420

وكان المدافعون قد استطاعوا الثبات فى بداية هذه المعركة الرهيبة . ولكن عنف المجهود أودى بقوتهم وأشرفت ذخيرتهم على النفاد . وكان الإمبراطور ثابتاً فى مركزه يصيح فى رجاله ويشجعهم.ولكن حدث بعد الفترة الأولى بقليل أن جرح يوستنيانى فى ذراعه وفخذه ، وسالت دماؤه بغزاره ، فاعتزم الانسحاب للعناية بنفسه ولجأ إلى مكان فى غلَطه ، بالرغم من توسل الإمبراطور وضراعته، وتبعه كثير من الضباط والجند اللاتين . وكان يوستنيانى فى الواقع من أهم أركان الدفاع ، وقد عاونت براعته وإرشاداته فى تنظيمه أقيم معاونة ، وكان انسحابه خسارة فادحة فى الوقت الذى اشتد فيه هجوم الترك . فأخذت فورة المدافعين تخبو من ذلك الحين وتتضاءل شيئاً فشيئاً .

وشعر الترك بذلك فضاعفوا جهودهم ودفعوا السلالم نحو الأسوار ، واستمروا فى تشديد هجومهم الرئيسى على المنطقة الواقعة بين باب بولياندرى(أوباب أدرنه) وباب سنت رومانوس ، ووثب جماعة من الإنكشارية إلى أعلى السور . وكان أول من صعد منهم جندى عملاق يدعى حسن ، وتبعه ثلاثون قتل منهم ثمانية عشرة . وألقى حسن من أعلى السور وقد أثخنته السهام البيزنطية ، ولكن مثله كان مشجعاً . لتقاطر الترك على السلالم . وشددت المدفعية فى نفس الوقت ضربها للأسوار حتى ثلمت فى غير موضع . وأخيراً استطاع الترك أن ينفذوا إلى المدينة من باب سيركوبرتا أوباب السيرك[1] وأخذوا يتدفقون نحو المدينة فى اتجاه بسيط ليكوس الواقع فى وسط المنطقة الغربية من المدينة تجاه باب رومانوس . وذاع الخبر فروع البيزنطيون . وهرع الإمبراطور ومن معه إلى تلك المنطقة . وألقى قسطنطين نفسه فى مقدمة الصفوف . ونشبت بين الفريقين معركة طاحنة . وفى خلال المعمعة سقط الإمبراطور فجأة وقد أصابته طعنتا سيف من يد مجهولة . واختفى فى الحال بين أكداس القتلى ، وكان قد سمع قبل اختفائه بقليل وهو يصيح « ألا من نصرانى ينتزع رأسى » . وهكذا سقط قسطنطين دراجوزيس باليولوجوس آخر القياصرة مدافعاً عن وطنه ودينه . وكان فى التاسعة والأربعين من عمره . وقد ولى العرش خمسة أعوام . وكان أشد ما يروعه أن يسقط حياً فى يد الغزاة . فجاء الموت محققاً

---

(١) سيركوبرتا أوباب السيرك **Cercoporta** فيما يبدو هو باب « خيلوبورتا » **Xyloporta** الحديث وهو الذى يسمى أيضاً باب الخشب .

لأعظم أمانيه ، وقد كان ينشده فى كل خطوة ويلقى بنفسه أينما وجد الخطر . وكان الموت فى الواقع أهون وأكرم ما يلقى .

وعلى أثر مقتل الإمبراطور ساد الذعر وغاض كل نظام . واستطاع الترك فى نفس الوقت أن ينفذوا إلى المدينة من باب كالحاريا القريب من القصر الإمبراطورى (بلاشرنى) ، ومن باب الفنار من ناحية الميناء ، وكثر تدفقهم من ثغرات السور إلى الداخل ، ففر المدافعون فى كل ناحية وكثر القتل فيهم . وزهق كثيرون فى مداخل الأبواب . ويقدر من هلك من النصارى فى حمية المطاردة الأولى بأكثر من ألفين . ولما شعر الغزاة الظافرون بقلة عدد المدفعين ، تركوا القتل وعمدوا إلى المطاردة والأسر . وساد الفزع والروع فى كل ناحية . وهرع فريق كبير من السكان إلى ناحية الميناء ، ولكن قليلا منهم استطاع الفرار . ولجأ منهم آلاف إلى كنيسة أياصوفيا أكداساً ، رجالا ونساء وشيوخاً وأطفالا ، ورهباناً وراهبات ، وأغلقوا الأبواب . وكلهم يلتمس البركة والمعجزة المنقذة التي تقولها الأساطير ، وخلاصتها أن الترك يدخلون المدينة ويطاردون الروم حتى عمود قسطنطين ، القائم فى ميدان أيا صوفيا . وعندئذ ينزل ملاك من السماء وفى يده السيف المنقذ ، يعطيه لرجل يجلس فى أسفل العمود قائلا : « خذ هذا السيف و نتقم لأهل الرب » فعندئذ يفر الترك ، ويخرجهم الروم الظافرون ، ثم يقضى بعد ذلك على دولتهم كلها .

ولكن المعجزة لم تقع ، وحطم الترك عدة أخرى من أبواب المدينة ، وتدفقوا إلى شوارعها كالسيل المنهمر ، شاهرين سيوفهم . وكان ذلك فى نحو الساعة الثامنة من الصباح ، أعنى بعد بدء الهجوم بنحو ثلاث ساعات . وفى الحال بدأت المطاردة والنهب ، واقتناص النساء والبنات والأطفال . وطارد الغزاة فرائسهم بمنتهى القسوة ، ولم يرحموا صراخاً ولا عويلا ، وكان أكثر الأسر وقعاً على الشباب والمرد والأغنياء . وحطم الغزاة أبواب كنيسة أيا صوفيا ، وانقضوا على أكداس البشر اللاجئة إليها وانتزعوا الشباب والراهبات والعذارى ، فى مناظر مروعة من العويل والفزع ، وأوثق الرجال بالحبال ، والنساء بالمحارم والخمر . يقول جيبون « وكان حق الملك بينهم يقوم على الأولوية فى الاستيلاء والقوة الشخصية وسلطة الرياسة » . ثم يقول : « وربط الشيوخ مع عبيدهم ، وربط الأحبار مع الخدم ، وربط الشباب من الدهماء

مع أشراف العذارى اللائى لم تكن ترى الشمس وجوههن .وفى هذا الأسر المشترك امتزجت طبقات المجتمع ، ومزقت روابط الطبيعة ، ولم يأبه الجندى الفظ لأنين الآباء ودموع الأمهات ، وعويل الأبناء »[1] .

ووثب الجند الظافرون إلى الكنائس والأديار ، وكانت قسطنطينية تغص بعدد كبير منها ومعظمها زاخر بالتحف والنفائس ، فانتزعوا التحف والصلبان الذهبية والفضية والآنية المقدسة ، وحطموا التماثيل والصور . ويروى المؤرخ فرانزا فوق ذلك وقد كان شاهد عيان لحوادث الفتح كلها ، أن كثيراً من الجند أقدموا على تدنيس الكنائس والأديار ، واتخذوا منها مسارح لاغتصاب البنات والفتيات . ثم يقول : « وانقلبت كنيسة أياصوفيا ملاذ حكمة الله وعرش مجده ، وأعجوبة الأرض التى أنشئت تشريفاً للسيد ، إلى مسرح للتدنيس والفظائع »[2] .

وهرع الترك فى الوقت نفسه إلى القصر الإمبراطورى فى حى بلاشرنى وجردوه من سائر تحفه ونفائسه ، واقتحموا دور الأمراء والكبراء والسادة فى سائر الأحياء ، وانتزعوا منها كل ما استطاعوا ، وعمت المطاردة والنهب فى كل ركن ودرب ، وضجت سائر جنبات المدينة المفتوحة بالصياح والأنين وصرخات الاستغاثة . وبلغ الأسرى عشرات الألوف ، نقلوا إلى المعسكرات التركية تباعاً ؛ ويقدرهم باربارو فى يومياته بستين ألفاً ، والبعض الآخر بخمسين ألفاً .ويقدر من افتدى منهم نفسه بعشرة آلاف وكان منهم بعض الشخصيات البارزة مثل المؤرخ فرانزا كبير الأمناء وأسرته ، وقد استطاع أن يفر وزوجته بعد ذلك بأشهر ، ولكن ولديه وقد كانا فى زهرة الشباب والجمال . استبقيا رهن تصرف السلطان ، وماتت ابنته فى حريم القصر ، ومثل الأمير ال الأكبر نوتاراس وغيرهما من الأشراف ورجال الحاشية . وكذلك قنصل اسبانيا وقنصل البنادقة . وقد افتدى الكثير منهم نفسه فيما بعد . بمبالغ طائلة . واستطاع الكردينال إيزيدور أن يلوذ بالفرار متنكراً فى زى العامة ، وأن يلجأ إلى إحدى السفن الجنوية فى الميناء .

وكان حى الميناء قد استطاع المقاومة حيناً لانشغال الجند والبحارة الترك بالنهب

---

(١) Gibbon: ibid; Ch. LXVIII; Mordtmann; ihid; s. 97

(٢) Von Hammer: ibid; V. II. p. 427; Mordtmann; ibid; s. 96

ولكن الترك هاجموه بعد ذلك ، وقضوا على كل مقاومة . وفى أثناء ذلك استطاعت السفن الجنوية والبندقية أن تجوز إلى خارج الميناء ، وأن تلتقط كثيراً من الفارين من البنادقة والجنويين وغيرهم ، وقد حملوا معهم أثمن متاعهم وأخفه ، وهكذا غادر ضاحية غلطه معظم سكانها الأجانب ، بالرغم من وعود السلطان لهم بالحماية والأمان.

وكان من أفظع ما وقع خلال هذه الموجة الغامرة من العيث والنهب ، إتلاف المكتبات البيزنطية ، وقد بعثرت محتوياتها وبددت فى كل ناحية ، وكانت غاصة بثمار التفكير الرومانى واليونانى ، وكان منها مؤلفات هوميروس وأرسطو وأطيب ما فى الآداب الرومانية واليونانية . ويقال إنه هلك فى هذه المحنة زهاء مائة وعشرين ألف مخطوط(١) . بيد أنه من المحققة أن طائفة كبيرة من هذه الذخائر النفيسة نقلت إلى إيطاليا قبل سقوط قسطنطينية ، وبعده بقليل ، ومازالت مكتبة الفاتيكان الرسولية تحتفظ بكثير من المخطوطات اليونانية واللاتينية القديمة ، التى كانت فى الأصل من محتويات مكتبات بيزنطية . والمعروف أيضاً أن الترك استولوا على أكداس من هذه الكتب ، وزعت بين الكبراء والقادة ، وحملت إلى مختلف الأقاليم التركية . ومنها مؤلفات أفلاطون وأرسطو وأناجيل كثيرة نزعت منها صلبانها الذهبية . ثم بدد معظمها بعد ذلك ، وتسرب الكثير منها بالبيع إلى مختلف الأمم الأوربية(٢) .

واستمرت هذه المناظر المروعة من القتل والنهب والمطاردة الذريعة بضع ساعات وقد خضبت شوارع المدينة المفتوحة بالدماء والأشلاء ، واقتحمت سائر قصورها ومعابدها ودورها الفخمة ، وسادتها الرهبة والوحشة(٣) . ولما علم

---

(١) Gibbon : ibid; Ch. LXVIII

(٢) Von Hammer; c. Ducas; ibid; V. II. p. 436. ويقول المستشرق موردتمان إنه كان عزاء ضئيلا أن يفد على أوربا بعض العلماء اليونانيين وأن تهرب إليها المخطوطات اليونانية . ذلك أنه سقط عند الفتح كل شىء فى يد الفاتح وجنده البرابرة أسلاباً وغنائم . وأما ماوصل إلى أوربا فكان قد وصل إليها قبل ذلك . Mordtmann; ibid; s. 109

(٣) لا يستطيع مؤرخ أن يبرر ما قام به الترك العثمانيون من ضروب السفك والعيث والتخريب فى قسطنطينية عند افتتاحها . ولكن من الإنصاف فى هذا الموطن أن نذكر أن الصليبيين حينما دخلوا قسطنطينية سنة ١٢٠٤ م ، ارتكبوا فيها من ضروب السفك والتخريب مالا يوصف ، وعاثوا فى أديارها وكنائسها ، ونهبوا كل ذخائرها وتحفها ، وقوضوا كثيراً من صروحها ، وقد كانت قسطنطينية مدينة نصرانية والصليبيون نصارى . على أن الأمر يتعلق هنا بروح العصر وأساليب الفتح فى تلك العصور .

السلطان نحو الظهر بأن جنده قد سيطروا على سائر أنحاء المدينة امتطى فى الحال صهوة جواده ، وحثا التراب على رأسه خضوعاً لله وشكراً ، وسار إلى باب القديس رومانوس ومن حوله الوزراء والبشوات والقادة . ودخل محمد الفاتح مدينة قسطنطين وعاصمة القياصرة ، واخترقها وهو يتأمل فى دهشة وإعجاب ، طرقاتها الفسيحة ، وقصورها الشامخة ، وكنائسها الفخمة ، ودورها الأنيقة . ولما وصل إلى كنيسة أياصوفيا وهى الكنيسة العظمى ، ترجل عن جواده ، وجاز إليها ثم توقف لحظة وقد بهرته روعتها وأعمدتها الرخامية البديعة التى جلبت إليها من سائر أنحاء العالم القديم . وفى الحال أمر بأن يتلى القرآن من المنبر وبأن تحول الكنيسة إلى مسجد ، وأذن للصلاة من فوق قبتها العليا ، وصلى السلطان شكراً فوق هيكلها وصلى من معه ، وأنزلت الصلبان ورفعت التماثيل والصور . وغسلت الجدران وطهرت . وهكذا افتتحت الشعائر الإسلامية فى مدينة قسطنطين بصفة رسمية ، عقب افتتاحها بساعات قلائل . وخفق علم الإسلام فوق أسوارها من ذلك الحين .

وقد أسست هذه الكنيسة الشهيرة فى عهد قسطنطين الأكبر فى القرن الرابع الميلادى . وعاصرت حياة الدولة الرومانية كلها . وكانت نموذجاً من أروع نماذج الفن النصرانى . وكانت خلال العصور كنيسة الدولة الرسمية يتوج فيها القياصرة . وتعقد فيها حفلات زواجهم . وتجتمع فيها المؤتمرات الدينية الكبرى . وكانت موضع التقديس العميق ، وتمتزج سيرتها بطائفة من الأساطير والمعجزات الخارقة .

واستمر عيث الجند الفاتحين بالمدينة المفتوحة ثلاثة أيام ، أمر بعدها بالكف عنه ، وخربت أثناء ذلك عدة كنائس وأديار تاريخية ، وهلكت طائفة كبيرة من التماثيل والتحف الفنية والآثار النصرانية .

وعلى أثر سقوط المدينة . وجد بعض الجند جثة الإمبراطور بين أكداس القتلى وعرفت من ثوبه الأرجوانى المحلى بشارات النسر الذهبى ، وعرفها الدوق نوتاراس كبير الوزراء . وحملت رأسه إلى السلطان . وكذا حملت إليه رأس الأمير أورخان حفيد السلطان سليمان ، الذى كان معتقلا فى بلاط القيصر ، وكان حينما دخل الترك المدينة قد ألقى نفسه من قمة أحد الأبراج مفضلا الهلاك على الأسر ، وأمر السلطان فوضعت رأس الإمبراطور فوق عمود أثرى فى إحدى ساحات المدينة ، ثم طيف بها

بعد ذلك فى أنحاء المدن التركية . وسمح لليونانيين أن يدفنوا جثته . وكان السلطان قد أمر باعتقال الدوق نوتاراس كبير الوزراء ، وكان بعد الإمبراطور ثانى رجل فى الدولة ، ثم استدعاه إلى حضرته ، وأنبه على عدم تسليم المدينة . فأوضح له الدوق أن هذا التسليم كان أمراً مستحيلا ،واعتذر عما حدث وعرض عليه أمواله وخزائنه ، فعفا عنه وأولاه عطفه .

وفى اليوم التالى لسقوط المدينة الأربعاء ٣٠ مايو ، طاف السلطان بالمدينة ممتطياً جواده ، ودخل قصر القياصرة (قصر بلاشرنى) فبهرته ضخامته وروعته ورواؤه ، وهو القصر الذى أقيم قصر السلاطين فوق أنقاضه فيما بعد . وكان قد قبض فى تلك الأثناء على عدد كبير من الأشراف اليونانيين ورجال الدولة السابقين ، وقتل بعضهم بأمر السلطان . ونجح يوحنا يوستنيانى فى الفرار بطريق البحر ،ولكنه توفى بعد ذلك بقليل متأثراً بجراحه . وافتدى أشراف البنادقة أنفسهم بدفع مبلغ كبير من المال . وبيع الوزير المؤرخ فرانزا مع أفراد أسرته إلى كبير من رجال الحاشية السلطانية ، ثم استطاع أن يفر مع زوجته إلى المورة ، ولكن ولده وبناته احتجزوا فى حريم السلطان (١) . وأعدم الدوق نوتاراس مع ولديه بأمر السلطان فى ظروف غامضة . فنى بعض التواريخ البزنطية أن السلطان أقام فى نفس المساء الذى زار فيه المدينة للمرة الثانية وليمة صاخبة وأفرط فى الشراب ، ثم أمر أن يستدعى إليه ولدى نوتاراس الفتيين الجميلين وكان قد رآهما من قبل ، فرفض الدوق بإباء ، وأمر السلطان فى ثورة غضبه بالقبض على الدوق وولديه ،واحتجز لنفسه أصغرهما وهو صبى رائع الحسن فى الرابعة عشرة من عمره ، وأمر بإعدام الأب وابنه البكر ، وصهره كانتاكوزين . ولكن هذه الرواية تقابلها رواية بزنطية أخرى خلاصتها أن السلطان علم بأن الدوق يأتمر به وأنه يدبر مؤامرة إنقاذ تشترك فيها إيطاليا وبعض الدول النصرانية الأخرى ، وتعمل معاً على استرداد قسطنطينية ، فأمر بإعدامه ، وهى رواية ربما كانت أكثر قبولا ورجحانا(٢) .

وفى يوم الجمعة الموافق أول يونيه سنة ١٤٥٣ ، أذن المؤذنون بصلاة الجمعة ،

---

(١) Von Hammer; cit. Phranzas: V. II. p. 436; Mordtmann; ibid; s. 93

(٢) Mordtmann; ibid; s. 104 & 105. Gibbon; Ch. LXVIII. Von Hammer; ibid; V. II. p.435

من قباب كنيسة أياصوفيا وأدى السلطان فيها الصلاة . ومما يذكر بهذه المناسبة أنه حدث فى اليوم السابق أعنى ثالث أيام الفتح، أن عثر الترك فيما يروى بقبر الصحابى أبى أيوب الأنصارى ، الذى قتل خلال حصار العرب الثانى لقسطنطينية فى سنة ٥١ هـ (٦٧١ م) ولبث قبره مطموراً تحت أنقاض السور الكبير ، ونسب هذا الاكتشاف إلى العلامة الشيخ آق شمس الدين ، فاعتبر وقوعه معجزة وحادثاً دينياً كبيراً . بيد أنه يلوح لنا أن الأمر لايعدو هنا أن يكون أسطورة دينية للتأثير فى الكافة ، وهو ما يقترن عادة بحوادث الفتوح ذات المغزى الدينى .

وسير السلطات أسطوله مثقلا بآلاف الأسرى ، ومختلف الغنائم والتحف ، وآنية الذهب والفضة ، ونفيس الثياب . وكان سائر الجند يحملون معهم غنائمهم المنهوبة من ذهب وفضة وثياب وغيرها .

وقضى السلطان فى قسطنطينية عشرين يوماً ينظم فيها شئون المدينة المفتوحة ، وكان أول ما عنى به أن أعلن منح الأمان لسكان المدينة ، وأنه يحق لمن غادرها منهم أن يعودوا إلى منازلهم أحراراً آمنين ؛ وأن يعود الناس إلى مزاولة أعمالهم وشئونهم العادية . وأراد السلطان فوق ذلك أن يكسب عطف النصارى وثقتهم ، فعين لهم بطريقاً جديداً روعيت فى تعيينه الرسوم والتقاليد القديمة ، ومنح نفس السلطات التى كانت لأسلافه ، وترك كثيراً من الكنائس التى لم تخرب على حالها يؤمها النصارى لتأدية شعائرهم . بيد أنه فتك بمعظم الأشراف اليونانيين السابقين الذين عادوا إلى المدينة خوفاً من دسائسهم ومؤامراتهم[1] .

وأمر السلطان بإصلاح أسوار المدينة وبذل جهده لتعميرها بالسكان المسلمين فى أقرب وقت ، فاستقدم إليها آلاف الأسر التركية من الأناضول والروملى ، وبنى أول مسجد فيها[2] على أنقاض كنيسة الرسل وقبور القياصرة البزنطيين ، وهو المسجد الذى مازال قائماً إلى اليوم يحمل إسم الفاتح . وأمر بتحويل عدة أخرى من

---

(١) Von Hammer : ibid; V. III. p. 6.; W. H. Hutton : ibid; p. 152

(٢) المقصود هنا بذلك أول مسجد بناه الترك العثمانيون . ولكن قسطنطينية كان بها قبل ذلك بمدة طويلة مسجد ارتضى القياصرة إنشاءه تحقيقاً لأغراض السياسة ، وتقرباً من الدول الإسلامية المجاورة ، وكان هذا المسجد يقع بين كنيسة القديسة إيرين والبحر .



السلطان محمد الثانى فاتح قسطنطينية

عن الصورة التى رسمت بريشة المصور
الإيطالى المعاصر چنتيلى بللينى

الكنائس التاريخية إلى مساجد . وغدت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية منذ افتتاحها عاصمة الدولة العثمانية الفتية ، التى قدر لها أن تحتوى على تراث القياصرة ، وأن تبسط سلطانها فيما بعد على كثير من الأمم الأوربية ، وكانت عاصمتها الأولى بورصة والثانية أدرنه كلتاهما مدينة متواضعة ، بالنسبة لعاصمة الدولة الشرقية ، التى كانت ما تزال بالرغم من محنتها وما أصابها فى أواخر عهدها من ضروب العفاء والخراب ، أعظم مدن النصرانية .

وعاد محمد الثانى إلى أدرنه فى الثامن عشر من يونيه لعشرين يوم من فتح قسطنطينية ، وفى ركبه رتل كبير من الأسرى المتازين ومن نساء الأشراف وبناتهم ، وكان من بين المعتقلين فى ركبه الصدر الأعظم السابق خليل باشا ، وقد أمر السلطان بعد ذلك بإعدامه ، لما ثبت لديه من خيانته واتصاله بالعدو أثناء الحصار وقبله ، وكان يشك فى ولائه منذ بعيد ويتحين الفرصة للقضاء عليه .

وكان حصار محمد الثانى لقسطنطينية هو الحصار التركى الخامس لعاصمة الدولة الشرقية ، فقد حاصرها بايزيد الأول سنة ١٣٩٦ ، ثم استأنف حصارها للمرة الثانية بعد انتصاره فى موقعة نيكوبوليس واستمر الحصار حتى سنة ١٤٠٠. ثم حاصرها ولده موسى لثالث مرة . وفى ١٤٢٢ كان الحصار الرابع على يد مراد الثانى ، ثم كان الحصار الخامس والأخير على يد محمد الفاتح .

وحوصرت قسطنينية منذ تأسيسها تسعاً وعشرين مرة . وسقطت فى أيدى الغزاة سبع مرات ، كانت فى كل مرة تعود بعدها إلى ملك القياصرة . وسقطت للمرة الثامنة فى يد محمد الثانى ، وكانت خاتمة القياصرة وخاتمة الدولة الرومانية الشرقية ، وكان خروجها لأول مرة من حظيرة النصرانية إلى حظيرة الإسلام .

وهكذا سقطت قسطنطينية فى يد الترك العثمانيين ، بعد حصار صارم دام ثلاثة وخمسين يوماً ، وبعد قتال رائع أبدى فيه الترك أعظم ضروب الإقدام والجرأة والشجاعة ، وأبدى فيه البيزنطيون أعظم ضروب التفانى والبسالة والتضحية . وكانت سقطة آخر القياصرة فى معمعة الدفاع عنوان هذه البسالة المؤثرة ، التى لم يعلق بها أمل الإنقاذ ، ولكنها اتسمت بطابع الشرف والبطولة . ذلك أنه لم يك ثمة شك فى مصير المدينة المحصورة ، وكانت القوى الجرارة التى حشدها الترك من حولها

فى البر والبحر والاستعدادات العظيمة التى اتخذها الفاتح، كفيلة بتحطيم أية مقاومة .

— ٦ —

سقطت قسطنطينية عاصمة الدولة الشرقية بعد حياة طويلة حافلة ، دامت منذ أنشأها قسطنطين ألفاً ومائة وخمسة وعشرين عاماً ، وتغلغلت خلال عصور عديدة متعاقبة من تاريخ العالم القديم ، وشهدت سقوط سائر منافسيها من الدول الإسلامية الكبرى فى المشرق، وازدهرت فى ربوعها حضارة من أعظم الحضارات القديمة ، ولبثت قروناً حصن النصرانية فى المشرق ، تقاسم رومة نفوذها الروحى وتنافسها فى نفوذها السياسى والزمنى ، وتعيد بقوتها وعظمتها ، وفخامة صروحها ومعاهدها وروعة بلاطها ، بهاء القياصرة القديم ، وتعرض معالم الحضارة الرومانية العظيمة فى أثوابها الجدد . وتستأثر بإعجاب العالم القديم وتقديره وإجلاله .

وكان سقوط قسطنطينية فى يد الترك العثمانيين حادثاً جللا ، اهتزت له أوربا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها ، ورأت فيه نذيراً مزعجاً بتجدد قوى المشرق وقوى الإسلام . وشعرت البابوية بالرغم مما كان بينها وبين قسطنطينية من أسباب النفور والتوتر . أنها فقدت بفقدها أعظم عضد وأمنع معقل يحمى النصرانية فى المشرق ، وشعرت الأمم النصرانية كلها بأنها تواجه موجة جديدة من الخطر الداهم فياضة بالويل والمحن . وكانت الفتوح العثمانية قد انسابت فى الواقع بسرعة مدهشة إلى شمالى البلقان وجازت إلى ماوراء الدانوب ، وبدأت القوى البحرية التركية تتوغل فى مياه البحر الأبيض المتوسط وتهدد سيادة البندقية وجنوه البحرية القديمة ؛ وكان استيلاء الفاتح على ثغر أوترانتو فى جنوبى إيطاليا (١٤٨٠م) عاملا جديداً فى إذكاء الفزع والروع فى إيطاليا وباقى الأمم النصرانية . ولكن النزعة الصليبية القديمة كانت قد غاضت يومئذ أوكادت ، ولم يك ثمة من يجمع كلمة أوربا المفرقة ، أو يستطيع حشدها موحدة لمواجهة الخطر المشترك .

والحقيقة أن سقوط قسطنطينية كان فاتحة لسلسلة طويلة من الفتوح والانتصارات العثمانية الباهرة فى البر والبحر ، ولم تأت أواسط القرن السادس عشر حتى استطاع الترك أن يبسطوا سلطانهم على مناطق شاسعة فى أوربا الوسطى مثل المجر ورومانيا وجنوبى بولونيا وأجزاء من شرقى النمسا ؛ وزحف الترك على مدينة فينا وحاصروها

لأول مرة فى سنة ١٥٢٩ م ، ثم حاصروها للمرة الثانية فى سنة ١٦٨٣ . وبالرغم من فشل الترك فى هذين الحصارين الشهيرين ، فإن مجرد وصول الفتوح العثمانية إلى قلب أوربا النصرانية على هذا النحو ، كان مثار الروع فى سائر الأمم الأوربية ، وكان فى أحيان كثيرة عاملا فى جمع كلمة العروش النصرانية ، واتحادها على مقاومة الخطر المشترك ورد الغزاة إلى الجنوب والمشرق . وكان ملوك أوربا النصرانية وأمراؤها يشعرون بأن الغزو التركى يهدد أوطانهم ودينهم بالمحو والفناء ، وينسون خصوماتهم كلما تجدد هذا الخطر ، وكانت تحدوهم فى الاجتماع على مقاومته نزعة صليبية لاشك فيها ، ولو أنها لم تكن يومئذ من وحى البابوية أوصنعها .

وبسقوط عاصمة الدولة الشرقية فى يد الترك العثمانيين تحقق حلم قديم للخلافة الإسلامية ، جال بخاطرها وشغلت به حيناً أيام فتوتها وعنفوان قوتها ، وكانت تعلق عليه أعظم الآمال والخطط ، فى دفع الغزوات الإسلامية وتعاليم الإسلام إلى قلب أوربا النصرانية . ولم يكن فتح قسطنطينية لدى الخلافة غاية فى ذاته وإنما كان بالأخص وسيلة لتحقيق رسالة الإسلام الكبرى . وكان حصار العرب لقسطنطينية فى أعوام ٦٥٣ و٦٦٨ و٧١٧ م ، وما بذل بالأخص فى الحصارين الأخيرين من جهود فادحة لانتزاع عاصمة الدولة الشرقية ، فى سبيل هذه الغاية الكبرى ، ولم يك ذلك بعيداً فى نفس الوقت عن القصد إلى التفوق الحربى والسياسى وتحقيق المغانم الدنيوية . ولما ضعف العنصر الروحى والمثالى للخلافة فيما بعد ، كانت هذه الناحية الأخيرة هى الغالبة فى الغزوات الإسلامية لأراضى الدولة البيزنطية ، وقد ظهرت الجيوش الخلافية بعد ذلك غير مرة على مقربة من أسوار قسطنطينية ، ولكنها لم تبذل أية محاولة خطيرة لحصارها .

على أن هذا الفتح الإسلامى العظيم الذى حققه الترك العثمانيون بالاستيلاء على قسطنطينية ، لم يكن بالرغم من خطورته وآثاره الحاسمة ، يحمل نفس المعانى الروحية والمثالية العظيمة ، التى كان يحملها مشروع الخلافة الإسلامية . ولم يكن الغزاة الترك أصحاب رسالة دينية وإنسانية على نحو ما كان الغزاة المسلمون الأوائل ، وإنما كان فتح قسطنطينية للترك العثمانيين ، غنما إقليمياً وسياسياً يتوج جهودهم المتوالية فى القضاء على الدولة البيزنطية ، ويفسح الطريق لزحفهم المظفر إلى باقى بلاد

البلقان وأوربا . وقد استطاع الترك العثمانيون بعد ذلك أن يتوغلوا بعيداً فى قلب أوربا حتى مدينة ڤينا ، وأن يفتحوا معظم الأقاليم الواقعة فى حوض الدانوب ، وأن يشيدوا بذلك أعظم امبراطورية إسلامية منذ الدولة الأموية الكبرى . ولكن هذه الإمبراطورية العظيمة لم تكن أكثر من ملك باذخ يقوم على القوى المادية والمجد الحربى ، ولم تكن ذات مثل تمدنية ، ولم يكن طابعها الإسلامى سوى صفة عارضة ، ولم يكن تحويل قسطنطينية معقل الكنيسة الشرقية ومنافسة رومة المذهبية ، إلى مدينة إسلامية وقاعدة للخلافة فيما بعد ، ليترجم بالنسبة للنصرانية عن نفس المعانى الروحية التى كانت تترجم عنها خلافات دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة . ذلك أن الترك العثمانيين بعد أن قضوا على تراث الحضارة البيزنطية ، لم يحاولوا أو بالحرى لم يستطيعوا إنشاء حضارة إسلامية جديدة ، على نحو ما فعل المسلمون فى اسبانيا ، ولم يتركوا فى سير التاريخ الأوربى سوى ذكريات فتوحهم الذاهبة ، ولم يتركوا بالأخص فى سير الحضارة الأوربية أثراً يذكر ، مع أنهم لبثوا زهاء ثلاثة قرون سادة البلقان وجنوب شرقى أوربا .

وقد كانت هذه الصفة السلبية من الناحية الحضارية ، ظاهرة الفتوحات والدول التى قامت بها العناصر المغولية والتركية منذ چنكيزخان وهولاكو ، فقد أنشأ التتار والسلاچقة ثم تيمورلنك دولا عظيمة فى آسيا الوسطى ، ولكنهم لم ينشئوا حضارة مستقلة ولم يتركوا فى الحضارة الإسلامية العامة آثاراً منشئة يعتد بها ، بل كانت آثارهم المخربة فى العالم الإسلامى وفى الحضارة الإسلامية أبرز ما فى تاريخهم . وأنشأ الترك العثمانيون إمبراطوريتهم العظيمة على نفس المنوال ، ولو أنها كانت من الناحية السياسية والاجتماعية أعرق أصولا وأكثر انتظاماً . وكان لتطور العوامل الزمنية والحضارية أثر كبير فى توطدها واستمرارها ، فقد وافقت بدايتها المتواضعة خاتمة العصور الوسطى ، وما كاد يكتمل نموها وتتوطد قوتها ، حتى خرجت إلى عوالم العصر الحديث بما يحمل إلى الدول القوية الناهضة ، من تطور خطير فى التسليح وتقدم فى استعمال الديناميت والمدفعية . وقد توجت قوتها وعظمتها بافتتاح قسطنطينية ، والقضاء على الدولة الرومانية الشرقية التى لبثت تغالب قوى الإسلام زهاء ثمانية قرون . وقد كانت هذه الدول المغولية والتركية كلها تتسم بالصفة

الإسلامية . ولكن انضواءها تحت لواء الإسلام لم يكن من الناحية المعنوية قوياً ولا عريقاً ، وإنما كان بالأخص حدثاً عارضاً يقوم على المظاهر الشكلية ، دون أن ينفذ إلى الأعماق الجوهرية ،ويرجع بالأخص إلى احتواء هذه الدول المحدثة فى الإسلام على تراث الدول الإسلامية ، التى قامت على أنقاضها وانتزعت منها تراثها الروحى والحضارى . وقد تركت الفتوح العثمانية ، كما تركت الفتوح التتارية والسلجوقية ، أثرها المخرب فى العالم الإسلامى وفى الحضارة الإسلامية ، ولاسيما فى مصر التى كانت قد غدت قبل الفتح التركى بقرون ، مثوى الحضارة الإسلامية وقلب العالم الإسلامى .

بحـــوث مفـــردة

-١-

الفصل الأول

الدبلوماسية فى الإسلام

الدبلوماسية فى لغة السياسة الحديثة هى مجموعة العلائق التى تربط دولة من الدول بالدول الأخرى ، ومجموعة النظم والأساليب التى تجرى عليها فى تنظيم هذه العلاقات ، أوهى بعبارة أخرى السياسة الخارجية لدولة من الدول ، وما تنطوى عليه من بواعث وأهداف . وبهذا المعنى نريد أن تفهم الدبلوماسية فى هذا الفصل حيث نعنى بالكلام على نشأة الدبلوماسية الإسلامية وطرف من نظمها وأساليبها ، وبعض نواحيها وأطوارها ، وطائفة من حوادثها الشهيرة ، من سفارات وصلات متبادلة بين الشرق والغرب والإسلام والنصرانية :

١ ــ السفارات النبوية

ولاريب أن الدبلوماسية لم تنمو وتزدهر فى عصر الإسلام الأول ؛ فقد كان عصر الفتح والإنشاء ، ولم تسنح فرص كثيرة لكى تنشأ بين الإسلام والنصرانية علائق سياسية منظمة ، إلا ما كان يعقب فتح قطر من التعاقد وعقد الصلح ، كما حدث فى الشأم ومصر أيام عمر . بيد أن هذه العلائق الأولى بين الإسلام والنصرانية كانت محدودة المدى ، موجزة فى إجراءاتها وتفاصيلها . وكان أعظم الحوادث الدبلوماسية فى هذا العصر ، كتب النبى العربى إلى ملوك العصر وأمرائه ، يدعوهم فيها إلى الإسلام والإيمان برسالته . وكانت هذه السفارات الفريدة فى صحف التاريخ دليلا جديداً على ما تجيش به نفس الرسول ، من سمو فى الشجاعة وقوة الإيمان برسالته ؛ ولم يكن الإسلام يومئذ قوة يخشى بأسها ، فيدعو قيصر وكسرى إلى اعتناق دعوته ، ولكن محمداً أرسل للبشر كافة بشيراً ونذيراً . وكما كانت الغزوات النبوية المتواضعة سبيلا للذود عن الإسلام ، ووسيلة لتأييد كلمته ، فكذلك كانت

السفارات النبوية سبيلا لأداء رسالته وإبلاغ صوته ، إلى الملوك والأمراء الذين يحكمون العالم القديم يومئذ . فى شهر ذى الحجة سنة ست من الهجرة (أبريل سنة ٦٢٨ م)[1] ، بعث النبى كتبه وسفراءه إلى ثمانية من أولئك الملوك والأمراء ؛ هم قيصر قسطنطينية ، وكيروس حاكم مصر الرومانى ، والحارث بن أبى شمر الغسانى عامل قيصر على الشام ، وكسرى (خسرو) ملك فارس ، ونجاشى الحبشة ؛ وثلاثة آخرين من أمراء الجزيرة المحليين هم صاحب اليمامة ، وصاحب البحرين ؛ وصاحبا عُمان . وقد كان هؤلاء ملوك العرب والعجم الذين يسودون الجزيرة العربية يومئذ أويتصلون بها بأوثق الصلات . وكان أهمهم وأعظمهم بلاريب قيصر الروم وملك الفرس ، وقد كانا يقتسمان سواد العالم القديم يومئذ ، ويبسط أولهما حكمه على الشام ، وما إليها جنوباً حتى شمالى الحجاز . ويبسط الثانى حكمه على شمال شرق الجزيرة ، ويدين له كثير من أمراء العرب بالولاية والطاعة . وكان الأول زعيم الأمم النصرانية ، والثانى زعيم الأمم الوثنية .

نظمت هذه السفارات . وأرسلت إلى مختلف الأنحاء ، لكل ملك وفد أو رسول ، ولكل كتاب نبوى . وكانت مهمتها جميعاً واحدة . وتقدم الرواية الإسلامية إلينا نصوصاً للكتب المرسلة ، وهى جميعاً فى صيغ واحدة أو متماثلة . وفيها جميعاً يدعو النبى ملوك عصره إلى الإيمان برسالته . وكان سفير النبى إلى هرقل قيصر الدولة الرومانية الشرقية ، دحية بن خليفة الكلبى . وإليك نص الكتاب النبوى إلى قيصر حسبما ورد فى السيرة وفى الصحيحين : « من رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ؛ سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به

---

(١) هذه رواية ابن إسحاق أقدم رواة السيرة ، وكذا ابن عبد الحكم والطبرى (راجع فتوح مصر وأخبارها ص ٤٤ ، والطبرى ج ٣ ص ٢٨٤) وهى أوثق رواية وخصوصاً لاتفاقها مع ترتيب الحوادث والتواريخ التى تقدمها الرواية البيزيطية : (راجع بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٢٠ والهامش) وكذلك
Milne : Egypt under Roman Rule p. 115. و Muir : Life of Mohamed, IV, p. 50;
ويقول الواقدى إنها كانت فى المحرم سنة سبع (مايو – يونيه سنة ٦٢٨ م) . ويأخذ المستشرق الألمانى شبرنجر بهذه الرواية Sprenger: Das Leben und Lehre Mohameds.

شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهد بأنا مسلمون »[1] . وكان هرقل (الأول) قد اعتلى عرش قسطنطينية قبل ذلك بثمانية عشر عاماً بعد حوادث وخطوب جمة ، وقضى معظم عهده فى حروب طاحنة مع الفرس ، واستطاع بعد جهود جمة أن يردهم عن أراضى الدولة ، وأن يسحق جيوشهم فى موقعة نينقة الحاسمة (٦٢٧ م) . وفى خريف العام التالى سار قيصر حاجاً إلى بيت القدس ، وهنالك وفد عليه حاكم بصرى (بوسترا) ومعه دحية الكلبي فقدم إليه كتاب النبي وأخبره بمضمون سفارته . وتقول الرواية الإسلامية إن هرقل استقبل سفير النبي بأدب وحفاوة ، وسأله عن أحوال النبي ورسالته . ونستطيع أن نتصور ما أثارته سفارة النبي فى نفس قيصر من بواعث الإنكار والدهشة ، بيد أنه رد السفير النبوى ببعض المجاملات والأقوال الودية . ولما عاد هرقل إلى عاصمته وصلته رسالة أخرى ، تلقاها عامله على الشام المنذر بن الحارث الغسانى من النبي على يد رسوله ، يدعوه فيها إلى الإسلام ويحذره عواقب المخالفة[2] فبعث بها المنذر تواً إلى هرقل ، وسأله أن يسير إلى محاربة النبي ، فلم يوافقه هرقل على ذلك ، ورد الرسول كما رد دحية ببعض المجاملات والتحيات.

ووصلت سفارة النبي إلى مصر فى الوقت نفسه يحملها حاطب بن بلتعة اللخمى . وتجمع الرواية الإسلامية على أن هذه السفارة كانت موجهة إلى « المقوقس عظيم القبط » ، وتقدم إلينا صورة الكتاب النبوى الذى أرسل إليه مستهلا بهذه العبارة « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط »[3] . وهو فى نص الكتاب الذى وجه إلى هرقل وفى نفس عباراته ، مع تغيير يسير فى بعض الروايات ، وفيه يُدعى المقوقس كما دعى هرقل إلى اعتناق الإسلام . وهنا يجب أن نقف قليلا عند شخصية المقوقس هذا الذى تعرفه الرواية الإسلامية دائماً بأنه عظيم القبط . فقد كانت مصر يومئذ ولاية رومانية تخضع لقيصر قسطنطينية ،

---

(١) أورد أبو عبيدة فى كتاب الأموال نصاً آخر لكتاب النبى إلى قيصر يدعوه فيه إلى الأسلام أودفع الجزية (راجع صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٧٦ حيث يورد نصوص الكتب النبوية) . وكلمة الأريسيين (وفى بعض النصوص الأكارين) ليست عربية ومعناها فيما يبدو الرعايا العاديين .

(٢) يورد الواقدى نص هذه الرسالة (الطبرى ج ٣ ص ٨٨) .

(٣) راجع نص هذا الكتاب فى أخبار مصر لابن عبد الحكم ص ٤٦ . وراجع صبح الأعشى (ج ٦ ص ٣٧٧) حيث يورد نصاً آخر للكتاب .

ولم يكن لأهلها القبط أى نوع من الاستقلال . ولم تكن هذه الحقيقة مجهولة فى المدينة ، حيث تدل كتب النبي ورسائله على أن الأحداث والأوضاع السياسية التى كانت تسود الجزيرة العربية وما يجاورها من الممالك ، كانت معروفة من النبى وصحبه . وقد كان حاكم مصر الرومانى فى الوقت الذى نتحدث عنه هو الحبر « كيروس » ، وهو فى نفس الوقت حاكم مصر وبطريقها الأكبر . وقد استطاع البحث الحديث أن يلقى كثيراً من الضياء على شخصية « المقوقس » ، وأن يتعرف فيها شخصية « كيروس » نفسه . وإذا فالمرجح أن المقوقس الذى تردد الرواية العربية اسمه إنما هو « كيروس » حاكم مصر الرومانى[1]. ومما يؤيد هذه الحقيقة أن السفير النبوى قصد إلى الإسكندرية ليؤدى مهمته ، وقد كانت الإسكندرية يومئذ مقر الحاكم العام الرومانى .

اخترق حاطب بن بلتعة اللخمى مصر من شرقها إلى غربها . وقصد إلى الإسكندرية ليؤدى سفارة النبي ورسالته ؛ وأخذ إلى كيروس فى محله المشرف على البحر ؛ فاستقبله بترحاب وحفاوة ، وتلقى منه الكتاب النبوى وناقشه فى مضمونه وسأله عن النبي ودعوته ؛ ثم صرف حاطباً بكتاب منه إلى النبي وهدية يذكرها الكتاب ، وإليك نصه كما يورده ابن عبد الحكم أقدم مؤرخ لمصر الإسلامية : « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط : سلام ، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه . وقد علمت أن نبياً قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام »[2]. والجاريتان هما مارية القبطية وأختها شيرين وقد أسلمتا على يد النبي . وتزوج النبي بمارية ورزق منها بولده إبراهيم الذى توفى طفلا ، ووهب أختها شيرين لأحد أصحابه المقربين إليه .

هكذا كانت النتائج التى انتهت إليها الكتب والسفارات النبوية إلى قيصر وعامليه على مصر والشأم ، وقد كانت نتائج سلبية ولم تكن حاسمة فى شىء ، بيد أنها كانت بلاريب ذات أثر معنوى عميق فى البلاط الرومانى وفى الكنيسة .

---

(١) راجع فتح مصر لبتلر ص ١٢٦ وص ٤٤٤ وما بعدها ، وراجع **Lane- Poole: Egypt in the Middle Ages p. 5-7** وكذلك **Milne : ibid; p. 115**

(٢) فتوح مصر ص ٤٧ .

وأما الكتب والسفارات النبوية إلى الناحية الشرقية من الجزيرة فقد لقيت مصاير أخرى . وكانت أهمها سفارة فارس . وكان سفير النبي إلى ملك الفرس ، عبد الله ابن حذافة السهمى ، فقصد إلى المدائن ومعه الكتاب النبوى ؛ وتقدم الرواية الإسلامية أيضاً نص هذا الكتاب فيما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس — سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وادعو بدعاء الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين فاسلم تسلم ، فإن أبيت فان إثم المجوس عليك »[1] . وكان ملك الفرس يومئذ كسرى الثانى (أوكسرى أبرويز) . فلما قرئ عليه كتاب النبي مزقه ، وأهان السفير وطرده . وبعث إلى عامله باليمن أن يبعث إلى محمد من يتحقق خبره أو يأتيه به ، فصدع بالأمر . وفى بعض الروايات أن الذى استقبل السفير النبوى هو شيرويه (سيروس) ولد كسرى . وكان قد ثار عليه قبيل ذلك بقليل وقتله وجلس مكانه[2].

وفى السنة الثامنة من الهجرة (٦٣٠ م) قصد إلى البحرين سفير آخر هو العلاء الحضرمى . ومعه كتاب نبوى إلى أميرها المنذر بن ساوى ، وقصد إلى عُمان عمرو ابن العاص . ومعه أيضاً كتاب إلى أميريها جيفر وعباد زعيمى بنى الأزد . وفى الكتابين يطلب النبي إلى هؤلاء الأمراء اعتناق الإسلام أو أداء الجزية . وهو خيار لم يرد فى الكتب السابقة ، وهو بذلك ذو صبغة عملية[3] . وكان لهاتين السفارتين نتائج طيبة ، فإن أمير البحرين وأميرى عمان آمنوا برسالة النبي واعتنقوا الإسلام . وأدوا الجزية عن رعاياهم غير المسلمين . وأرسلت سفارة أخرى إلى صاحب اليمامة . وكان نصرانياً . فرد على النبي بكتاب خشن يطلب فيه مشاركته فى أمره وسلطانه شرطاً لدخوله فى دعوته .

بقى أن نتحدث عن سفارة النبي إلى الحبشة . وهى السفارة الوحيدة التى أرسلت إلى ماوراء البحر . وكان إرسالها فى ختام السنة السادسة أو فاتحة السنة السابعة

---

(١) يورد الطبرى صورة أخرى لهذا الكتاب (ج ٢ ص ٩٠) .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٩١ ، وكذلك Muller: Der Islam, s.149. Muir: Ibid, IV,p. 56

(٣) راجع نص هذين الكتابين فى الطبرى ج ٣ ص ١٠٢ ، وصبح الأعشى ج ٤ ص ٣٨٠

فى نفس الوقت الذى أرسلت فيه سفارتا قيصر وكسرى . وكان بين الحبشة وبين النبي وأنصاره قبل ذلك علائق وثيقة منظمة ؛ وإلى الحبشة لجأ كثير من أنصار النبي أيام الهجرة فراراً من اضطهاد قريش ، وأقاموا بها تحت حماية النجاشي ورعايته . فلما نظمت السفارات النبوية إلى « ملوك العرب والعجم » أرسلت السفارة إلى ملك الحبشة (النجاشي) على يد عمرو بن أمية الضمرى . ووجه النبي إلى النجاشي كتابين ، يدعوه فى أولها إلى الإسلام ، ويطلب فى ثانيهما أن يرسل إلى المدينة من عنده من المسلمين اللاجئين ؛ وقد صيغت دعوة النبي إلى النجاشي فى أسلوب خاص يخالف فى روحه وألفاظه ما تقدم من الدعوات . ذلك أنه فضلا عن دعوة النجاشي إلى اعتناق الإسلام ، يشرح موقف الإسلام من النصرانية ويوضح نظرية خلق المسيح ويقرر « أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى » وقد كان النجاشي نصرانياً ، وكانت النصرانية تسود الحبشة منذ القرن الرابع الميلادى . وبعث النبي إلى النجاشي أيضاً يكلفه بأن يعقد زواجه من أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت من المسلمين اللاجئين . وتقول الرواية الإسلامية إن النجاشي لبى دعوة النبي وأسلم ، وبعث إليه بكتاب يؤكد فيه إسلامه وأنه حقق رغبته فى تزويجه من أم حبيبة نيابة عنه ، وبعثها مع من كان عنده من المسلمين فى سفينتين كبيرتين . بيد أنه يلوح لنا أن القول بإسلام النجاشي مبالغة يمكن أن تحمل على ما أبداه النجاشي من أدب ومجاملة فى استقبال السفارة النبوية . ولو أسلم النجاشي يومئذ لكان الإسلام قد غمر الحبشة كلها ، ولكانت النصرانية قد غاضت منها . بيد أن الإسلام لم ينتشر فى الحبشة إلا بعد ذلك بعصر ، وكان انتشاره فى الجهات الشرقية والجنوبية فقط (١) .

ولم تقتصر البعوث والسفارات النبوية على من تقدم من الملوك والأمراء ؛ فقد أوفد النبي بعوثاً وكتباً أخرى إلى عدة من زعماء الجزيرة المحليين لتحقيق نفس الغاية فى ظروف وتواريخ مختلفة ، أسفر بعضها عن نتائج عملية مرضية ، ودخل بعض هؤلاء الزعماء فى الإسلام (٢) .

• • •

---

(١) راجع رواية الطبرى عن ابن إسحاق والواقدى (ج ٣ ص ٨٩ و ٩٠) . وراجع أيضاً بتلر : فتح مصر ص ١٢٥ ، وكذلك Muir; ibid, IV. p. 58 والهوامش .

(٢) راجع فى ذلك صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٦٨ و ٣٧٠ و ٣٨١ و ٣٨٢ .

كانت هذه السفارات والكتب النبوية عملا بديعاً من أعمال الدبلوماسية . بل كانت أول عمل قام به الإسلام فى هذا الميدان . وليس أسطع من هذه السفارات دليلا على ماكانت تجيش به نفس النبي العربى من فيض فى الإيمان والشجاعة ؛ ذلك النبي الذى لم يكن قد نجا بعد من اضطهاد قومه ، ولم يكن له سلطان يعتد به أوقوى يخشى بأسها ، يقدم فى ثقة وشجاعة على دعوة قيصر الدولة الرومانية ، وعاهل الدولة الفارسية ، وباقى الملوك والأمراء المعاصرين ، إلى اعتناق دعوة لم تكتمل بعد فى مهدها . على أن هذه الدبلوماسية الفطنة التى لجأ إليها النبي فى مخاطبة ملوك عصره لم تذهب كلها عبثاً كما رأينا .ولاريب أن النبي لم يكن يتوقع أن يلبى أولئك الملوك الأقوياء دعوته ، وهو ما يزال يكافح فى بثها بين قومه وعشيرته . بيد أن إيفاد هذه البعوث كان عملا متمماً للرسالة النبوية ، وكان العالم القديم الذى يتجه إليه النبي العربى بدعوته يقوم يومئذ على أسس واهية تنذر بالانهيار من وقت إلى آخر . وكانت الأديان القديمة قد أدركها الانحلال والوهن ؛ فكانت الدعوة الإسلامية تبدو فى جدتها وبساطتها وقوتها ، ظاهرة تستحق البحث والدرس .ولم يكن عسيراً أن يستشف أولو النظر البعيد ما وراء هذه الدعوة الجديدة من قوى تنذر بالانفجار ؛ وقدكان الانفجار فى الواقع سريعاً جداً ، فلم تمض أعوام قلائل على إيفاد هذه البعوث حتى كان الإسلام قد غمر قلب الجزيرة العربية ، وانساب تيار الفتح الأسلامى إلى قلب الدولتين الرومانية والفارسية ،وأخذ العرب أبناء الدين الجديد وحملة الرسالة المحمدية ، يعملون بسرعة خارقة فى إنشاء الدولة الإسلامية الكبرى .

وقد تناول البحث الغربى حوادث السفارات النبوية فيما تناول من حياة النبي العربى . وكان جل اعتماده فى شأنها على الرواية الإسلامية . وهنالك من كتاب السيرة الغربيين من يبدى ريباً فى صحة الكتب والرسائل النبوية ، ومن هؤلاء الكتاب المستشرقان الألمانيان ڤايل وميلر ، فإن ڤايل يلاحظ مثلا أنه ورد فى بعض الكتب النبوية (كتاب النبي إلى كيروس) آيات قرآنية لم تكن قد نزلت وقت إرسالها ،مما يدل على أنها قد وضعت فيما بعد [1] . ويرتاب ميلر فى أن رسالة قد وجهت من

(١) G. Weil : Mohamed der Prophet, s. 198

النبي إلى هرقل ، ولكنه مع ذلك يقدم ملخصاً لحوادث السفارات النبوية كما وردت فى السيرة[1] .

أما نحن فلسنا نرى من الوجهة التاريخية مايبعث على الشك فى صحة هذه السفارات النبوية ، بل نلمس بالعكس كثيراً من الأدلة والقرائن على صحة معظم الوقائع التى اقترنت بها . وقد تبالغ الرواية الإسلامية فى بعض الوقائع حسبما أشرنا إليه فيما تقدم ، ولكن فى تعيين الرواية الإسلامية للتواريخ والأشخاص والأماكن ، وفى اتفاقها على كثير من الوقائع ، وفى موافقة الرواية الكنسية والبيزنطية لكثير منها خصوصاً فيما يتعلق برسالة النبي إلى قيصر وكيروس — فى ذلك كله ما يؤيد صحة كثير من هذه الأحداث الدبلوماسية الإسلامية الأولى . وإنما يتطرق الشك فى نظرنا إلى النصوص والصيغ التى تقدمها الرواية الإسلامية للكتب النبوية . وأكبر الظن أن هذه النصوص قد وضعت ورويت فيما بعد باعتبار أنها تمثل أقرب الصور التى صيغت فيها الكتب النبوية ، وقدمها كتاب السيرة على أنها أرجح النصوص المحتملة . بيد أن هذا الشك فى صيغ الكتب النبوية لايتعدى الحقائق التاريخية التى تنهض الأدلة والقرائن على صحة الكثير منها . لقد كانت السفارات النبوية حادثاً سياسياً عظيما فى حياة النبي العربي.

٢ — السفارات الخلافية والسلطانية

والعلائق الدبلوماسية بين الشرق والغرب

لم يكن للدولة الأموية نصيب كبير فى تنظيم العلائق الدبلوماسية لأنها أنفقت أعوامها التسعين فى غزوات وحروب مستمرة . وكان أشهر الحوادث الدبلوماسية بين الإسلام والنصرانية يومئذ ، عقد الصلح بين الخليفة معاوية والإمبراطور قسطنطين الرابع على أثر فشل العرب فى حصار قسطنطينية الأول (سنة ٥٨ هـ — ٦٨٧ م) وفيه يتعهد الخليفة الأموى بأن يؤدى إلى الدولة الرومانية الشرقية جزية سنوية كانت ضآلتها عنوان المهادنة والمسالمة من جانب الخلافة . ثم وفد رسل الدولة الشرقية (البيزنطية) بعد ذلك إلى دمشق غير مرة ليحاولوا الوقوف على نيات الخلافة وأهباتها ، وكانت علائق الدولتين موضع البحث بينهما من آن لآخر ، وكان ثمة سفارات قليلة بينهما . وكانت العلائق بين الدولتين العباسية والبيزنطية

---

(١) Mueller: Der Islam - I - s. 148

تنتظم حيناً وتضطرب أحياناً ، وكان بينهما حروب ومعاهدات واتفاقات سياسية لا تحصى ، وسفارات ومفاوضات دپلوماسية فى كثير من المناسبات والظروف ، وكان من الطبيعى أن تنتظم مثل هذه المعاهدات والعلائق السياسية المستمرة بين دولة الإسلام الكبرى وزعيمته ، وجارتها المباشرة زعيمة النصرانية فى المشرق .

وكان عقد العلائق الدپلوماسية وتبادل المفاوضات والسفارات ، يجرى وفقاً لرسوم وقواعد معينة تلائم روح العصر ، وتتفق مع مركز الفريقين المتعاملين من حيث القوة والضعف ، وكان لعقد هذه الصلات أثر كبير فى توجيه سياسة الإسلام نحو النصرانية أو سياسية النصرانية نحو الإسلام . وقد كان ريح هذه الصلات يتجه بالأخص من الغرب إلى الشرق فى عصور القوة والمجد . ذلك لأنها كانت فى الغالب ترمى إلى التماس السلام والمهادنة أو تحقيق بعض المنح والمغانم من الإسلام القوى الظافر . ولكنها كانت فى عصور الضعف والاضمحلال تتجه بالأخص من أمم الشرق إلى أمم الغرب التى تتبوأ مقام الزعامة والنفوذ ، وتعمل لتوطيد سيادتها بالضرب والتفريق بين الدول الإسلامية المتنازعة ، كما كانت تفعل الدولة البيزنطية منذ انحلال الخلافة العباسية وتمزق سيادتها بين مختلف الدول والإمارات التى قامت على أنقاضها . وكما كانت تفعل إسبانيا النصرانية ، منذ انهارت الخلافة الأموية القوية وانتثرت الأندلس إلى دويلات الطوائف الصغيرة .

ولما قامت الدولة العباسية وتوطدت أركانها ، وقامت فى الوقت نفسه دولة أموية جديدة فى الأندلس ، كانت بغداد فى المشرق ، وقرطبة فى المغرب ، كلتاهما محوراً للتجاذب السياسى بين الإسلام والنصرانية .وكانت مملكة الفرنج القوية قد قامت يومئذ فى الطرف الآخر من أوربا لتتزعم أمم الغرب إلى جانب الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) . فكان ذلك عاملا جديداً فى إذكاء التجاذب السياسى بين الشرق والغرب . ومنذ خلافة المنصور ثانى خلفاء الدولة العباسية ، نرى مملكة الفرنج تحاول أن تأخذ بنصيبها فى عقد الصلات السياسية مع زعيمة الإسلام فى المشرق ، وفى إقامة التوازن السياسى فى العالم الجديد ، ونرى ملك الفرنج پپين يبعث برسله إلى بغداد فى سفارة إلى المنصور . ويضع مؤرخو الفرنج تاريخ هذه السفارة فى سنة ٧٦٥ م (١٤٨ هـ) ، وتقول لنا الرواية إن السفراء الفرنج لبثوا مدى

حين فى بغداد ، وعادوا بعد ثلاثة أعوام إلى فرنسا يصحبهم رسل أو سفراء من قبل الخليفة إلى ملك الفرنج ، ونزلوا قصر مرسيليا. واستقبل ملك الفرنج سفراء الخليفة أحسن استقبال ودعاهم إلى تمضية الشتاء فى مدينة متز التى كانت يومئذ منزل البلاط الفرنجى ، ثم دعاهم إلى التنزه والإقامة مدى حين فى قصر « سلس » على ضفاف اللوار . وعاد سفراء الخليفة بعد ذلك إلى بغداد بطريق مرسيليا ومعهم طائفة من التحف والهدايا . واستمرت هذه الصلات السياسية بين الخلافة العباسية ومملكة الفرنج عصراً . وازدادت أواصرها فى عصر الرشيد قوة وثوثقاً بما تبادله زعيما الإسلام والنصرانية يومئذ من السفارات والمكاتبات ، التى تنفرد الرواية الفرنجية أيضاً بذكرها . وكانت الخلافة العباسية إذا صحت الرواية الفرنجية تحاول التقرب والاتصال الوثيق بمملكة الفرنج زعيمة النصرانية فى أقصى الغرب : لأسباب وبواعث قد تفسرها لنا حوادث الأندلس يومئذ . ذلك أن عبد الرحمن الداخل الأموى كان قد غلب على الأندلس وأقام بها دولة قوية وطيدة الدعائم ؛ وكان بنو العباس يشهدون قيام هذه الدولة الأموية الجديدة بعين الخوف والجزع ؛ وكانت تحدو عاهل الفرنج فى هذا التفاهم مع خليفة المشرق بواعث مماثلة . ذلك أنه كان يخشى عاقبة انتشار الدعوة الإسلامية واشتداد ساعدها فى جنوبى البرنيه . وكان عليه أن يخمد دعوة الإسلام تأييداً لهيبة الكنيسة ، وأن يسحق الأندلس الناهضة قبل أن يستفحل خطرها على حدود فرنسا الجنوبية ؛ وسوف نبسط فى القسم الخاص الذى أفردناه لعلائق الرشيد وشارلمان تفاصيل الرواية الإفرنجية ، وما يتصل بها من الحوادث والظروف التى يجب أن تفهم على ضوئها حكمة هذه العلاقات الدبلوماسية بين العاهلين الكبيرين .

وتستطرد الرواية الفرنجية فتذكر أن هذه العلاقات الودية بين بغداد ومملكة الفرنج استمرت بعد وفاة الرشيد وشارلمان ، وأن المأمون ولد الرشيد بعث إلى لويس ولد شارلمان وملك الفرنج من بعده ، سفارة أخرى لتأكيد المودة والصداقة بينهما ؛ وتشير الرواية الفرنجية فى ذلك إلى ما كان لنفوذ الرشيد قبل وفاته من التأثير فى أعمال خوارج البحر المسلمين وإحجامهم عن مهاجمة الشواطئ الفرنجية والإيطالية ، وإلى ما كتبه البابا ليون الثالث إلى شارلمان بعد وفاة الرشيد من أنه إذا

كان خوارج البحر المسلمين لايحترمون بعد حرمة الشواطئ الفرنجية ، فذلك لأن نفوذ الخليفة فى نفوسهم قد غاض بعد وفاته(١) .

وكانت ثمة فكرة مماثلة تحمل الدولة الأموية فى الأندلس والدولة البيزنطية خصيمة الدولة العباسية ومنافستها فى المشرق على عقد التفاهم والصلات الودية ، فكانت بين أمراء بنى أمية وقياصرة قسطنطينية مراسلات وسفارات سياسيةهامة؛ ففى سنة ٨٣٦ م (٢٢٥ ﻫ) بعث الإمبراطور ثيوفيلوس إلى عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس سفراءه بهدية فخمة ورسالة يدعوه فيها إلى التحالف ، ويرغبه فى ملك أجداده بالمشرق ، ويحمل فيها على المأمون وأخيه المعتصم لعيثهما فى أراضيه ، ويشير إليهما فى كتابه بابن مراجل وابن ماردة ، تحقيراً وازدراءاً ، ويطلب إليه عقد أواصر المودة والصداقة بينهما ؛ فرد عبد الرحمن بن الحكم على قيصر بهدية فخمةوبعث إليه سفيره يحي الغزال ، وهو من أكابر رجال الدولة وفحول الشعراء، فأحكم بينهما الصلة والتحالف(٢) . على أن علائق قيصر بصاحب الأندلس لم تتعد المراسلة والمجاملة لأن خلفاء عبد الرحمن الداخل حافظوا على سياسته التى رسمها من الامتناع بالجزيرة ، والاقتصار على توطيد ملك بنى أمية فيها ، حتى عمد الناصر إلى تغيير هذهالسياسة والتدخل فى شئون المغرب لظروف وحوادث وقعت فى عصره .

ونعود إلى علائق الدولتين العباسية والبيزنطية وهى تاج العلائق بين الإسلام والنصرانية فى تلك العصور ؛ ففى أواخر القرن الثامن كان على عرش قسطنطينية امرأة وافرة الذكاء والعزم هى الإمبراطورة (إيرينى) زوج الإمبراطور ليون الرابع . وكانت وصية على ولدها قسطنطين أثناء طفولته . فلما كبر وحاول أن يقبض على زمام السلطة ، ناوأته وقاومته حتى ظفرت به وزجته إلى ظلام السجن ؛ فانتهز المسلمون فرصة هذه الاضطرابات ، وغزوا آسيا الصغرى مراراً حتى اقتربوا من شواطئ البوسفور ، وقاد هارون الرشيد ، وهو يومئذ ولى عهد أبيه المهدى ، بنفسه معظم هذه الغزوات ، فاضطرت إيرينى إلى التماس الصلح . وبعثت رسلها إلى هارون وهو يعسكر بجيشه على مقربة من البوسفور تطلب الصلح والمهادنة

---

(١) Reinaud : Invasions des Sarrazins en France, p. 92 &115-117

(٢) راجع تفاصيل هذه السفارة فى كتابى « دولة الإسلام فى الأندلس » (الطبعة الثالثة) ص ٢٧٨ — ٢٨٠

فأجابها الرشيد إلى ما طلبت ، وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت فيها إيريني أن تدفع إلى الخلافة جزية سنوية قدرها سبعون ألف دينار ، وتبادل الرشيد والإمبراطورة بهذه المناسبة بعض الهدايا والتحف الملوكية (١٦٦هـ — ٧٨٣م) .

ولما تولى الرشيد الخلافة بعد أبيه ، كانت إيريني قد خُلعت وجلس على عرش قسطنطينية نيكفروس (ويسميه العرب نيقفور) كبير الخزائن ؛ فما كاد يجلس على العرش ، حتى بادر بإعلان الخصومة على الخلافة وبطلان معاهدة الصلح المعقودة ورفض أداء الجزية ، وأرسل سفراءه إلى الرشيد يطالبه بما سبق دفعه منها فى خطاب شديد اللهجة ، وينذر بالحرب إذا لم يجب مطلبه . فغضب الرشيد وبادر بغزو آسيا الصغرى على رأس جيش ضخم ، فاجتاحها حتى هرقلية (٨٠٦م) ؛ فاضطر نيقفور إلى طلب الصلح ، وأرسل إلى الرشيد سفارة أخرى لعقده ؛ وعقدت بين الفريقين معاهدة جديدة يتعهد فيها القيصر بإصلاح الحصون الخربة ، وبأن يدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دينار ، وأن يدفع عن نفسه ثلاث قطع ذهبية من نوع خاص ، وثلاثاً أخرى عن ولده ، عنواناً لخضوعهما لأمير المؤمنين (١) .

ولما تولى المعتصم الخلافة عقب وفاة أخيه المأمون ، حاول قيصر قسطنطينية الإمبراطور ثيوفيلوس (توفيل) أن يعقد الهدنة والصلح مع المسلمين . فأوفد إلى المعتصم سفارة على رأسها يوحنا النحوى . وكان يوحنا من أعظم علماء عصره ، ويجيد العربية ، فقصد إلى بغداد يحمل أنفس الهدايا والتحف . وأنزل بأحد القصور الخليفية وأدهش البلاط بروائع بذخه ، وما نثر حوله من مظاهر الفخامة والترف . وتعرض لنا الرواية البيزنطية قصصاً عجيبة عن بذخ يوحنا وفخامته . وكان لهذه السفارة غاية مزدوجة : الأولى أن تعقد بين الخليفة والقيصر معاهدة سلام دائم ؛ والثانية أن يعمل السفير على إقناع منويل ، وهو قائد بيزنطى يلوذ ببلاط الخليفة بالعودة إلى قسطنطينية . وقد أفلح السفير فى تحقيق الغاية الثانية ولم يفلح فى الأولى . ولكن المعتصم رأى أن يجامل القيصر بالإفراج عن مائة من الأسرى النصارى . وعلى أثر هذا الفشل فى عقد الصلح غزا الإمبراطور مدينة زبطرة من معاقل الحدود

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٦١ ، وصبح الأعشى ج ٦ ص ٤٥٧ ، وتنقل الرواية البيزنطية هذه الرواية . راجع : Finlay : Byzantine Empire Ch. II-I.

الإسلامية ، واستولى عليها وخربها وقتل كثيراً من سكانها ، ولم يستمع إلى ما رجاه منه المعتصم على يد رسله من أن يفر المدينة المفتوحة العيث والسفك . وعندئذ قرر المعتصم الحرب ، وأقسم بالانتقام ، وسار إلى أراضي الروم فى جيش ضخم ، وقصد إلى عمّورية (أموريوم) أعظم مدن الروم فى آسيا الصغرى فهاجمها مراراً ، ولكن الروم دافعوا عنها دفاعاً شديداً ، فضرب حولها الحصار ، واعتزم ألا يغادرها حتى تسقط فى يده ، ورفض ما طلبه الإمبراطور على يد سفرائه من عقد الصلح ، واعتقل السفراء ، فاستمر الحصار خمسة وخمسين يوماً ثم سقطت المدينة فى يد المسلمين ، وأبدى المعتصم كما أبدى ثيوفيلوس من قبل منتهى الشدة والقسوة ، ففتك بالنصارى فتكاً ذريعاً ، وأحرقت عمورية . وهدمت حصونها وأسوارها حتى غدت أطلالا . ثم أطلق المعتصم سفراء الإمبراطور بعد أن احتجزهم ليشهدوا ظفره وردهم إليه بهذا الجواب : « نبئوا سيدكم بأنى أديت دين زبطرة » . وكان ذلك فى سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م)[١] .

واستمر الصراع بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية مدى قرن آخر ؛ وفى عهد الإمبراطور قسطنطين السابع الذى حكم طفلا تحت وصاية أمه الإمبراطورة «زوى» كاربوبسينا ، أرسل بلاط قسطنطينية إلى الخليفة المقتدر بالله سفارة فى طلب المهادنة وتنظيم الفداء . وتصف لنا الرواية الإسلامية حوادث هذه السفارة فتقول إن سفيرى ملك الروم وصلا إلى بغداد فى المحرم سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) فاستقبلا بترحاب وإكرام . ودخلا على الوزير فى أفخم حفل ونظام ، وقد اصطف حوله الجند فى أتم سلاح وزينة ، وأديا رسالة قيصر ، ثم أخذا إلى الخليفة المقتدر . فاستقبلهما ومن حوله الوزراء والقادة والجند فى أروع زينة وأبهة ، وأديا رسالتهما ؛ فأجابهما الخليفة إلى ما طلب قيصر من تنظيم الفداء ، وسير خادمه مؤنساً ليحضر الفداء ، وعينه أميراً على كل بلد يدخله ، فيتصرف فيه على ما يريد حتى يغادره ، وسير معه قوة من الجند ، وزوده بمائة وعشرين ألف دينار لافتداء الأسرى المسلمين ، فقام مؤنس بالمهمة ، وافتدى آلافاً من الأسرى[٢] ؛ وكانت مسألة الفداء مبعث طائفة من السفارات التى تبودلت بين الدولتين خلال القرن الثالث الهجرى ، وطائفة من المعاهدات السلمية التى عقدت بينهما .

---

(١) Finlay : ibid; Ch. III-II

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٤

وفى عهد الإمبراطورة « زوى » أيضاً بعث حاكم كلابريا (قلوريه) البيزنطى رسله إلى خليفة إفريقية الفاطمى (عبد الله الشيعى) ، وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت بها الحكومة البيزنطية أن تؤدى إلى الخليفة الفاطمى جزية سنوية كبيرة ، نظير تعهده بحمل أمراء صقلية المسلمين على وقف الحرب والغزوات المستمرة فى قلورية ، واستمرت هذه المعاهدة نافذة مدى حين .

• • •

وقد كان للدبلوماسية الإسلامية فى إسبانيا المسلمة شأن كبير ، وذلك لموقعها سواء من البر أو البحر على أبواب أوربا النصرانية ، ولانتظام علائقها التجارية والسياسية مع معظم الدول النصرانية . وفى عهد عبد الرحمن الناصر بلغت العلائق الدبلوماسية ذروة ازدهارها بين الإسلام والدول النصرانية الكبرى ، وتوالت وفودها وسفاراتها على الأندلس . فى صفر سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع قيصر قسطنطينية المعروف ببورفيروجنتوس (الأرجوانى) بهدية ثمينة ، واحتفل الناصر بقدومهم فى يوم مشهود ، وقدموا إليه كتاب الإمبراطور مكتوباً باللغة اليونانية ، وعلى الكتاب طابع ذهبى على أحد وجهيه صورة للمسيح ، وعلى الآخر صورة الإمبراطور مصنوعة من الزجاج الملون البديع ، وفى ترجمة عنوانه ما يأتى : « من قسطنطين ورومانين (رومانوس الثانى ابن قسطنطين) المؤمنين بالمسيح ، الملكين العظيمين ، ملكى الروم ، إلى العظيم الاستحقاق الفخر ، الشريف النسب ، عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه » . وقد هال رسل الإمبراطور يومئذ ما رأوا من بهجة الملك وفخامة السلطان ، وخطب أعلام الإسلام فى هذا الاجتماع المشهود ومنهم القاضى الأديب منذر بن سعيد البلوطى ، فارتجل خطاباً نفيساً أتى فيه على أعمال الناصر ، ثم ارتجل من بعده شعراً يقول فيه :

تـرى الناس أفواجاً يؤمون بابه ... وكلهم ما بين راج وآمـل
وفـود ملوك الروم وسـط فنائه ... مخـافة بأس أو رجاء لنائل
فعش سالمـاً أقصى حياة مؤملا ... فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغـرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

ولما انصرف رسل الإمبراطور بعث الناصر معهم سفيره هشام بن هذيل بهدية

حافلة ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف ، فرجع بعد سنتين وقد أحكم الصلة بين الأميرين . ثم توالت سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على عبد الرحمن الناصر ، فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بطرس بن سميون (ملك بلغاريا) ورسل إمبراطور الألمـــان أوتو الأول (الكبير) ورسل ملك فرنسـا ، فاحتفل لقدومهم كذلك ، وبعث مع وفد الصقالبة ربيعاً (ريفا) الأسقف إلى ملكهم . ثم وفدت عليه رسل البابا يوحنا الثانى عشر فى طلب المودة والتحالف فأجابه إليهما[١]

• • •

على أن الدبلوماسية الإسلامية لم تغفل العنصر السرى الذى هو من أخص ظواهر الدبلوماسية الحديثة ؛ فقد كانت للخليفة الإسلامى ،فضلا عن أعوانه ورسله السريين الذين ينفذهم إلى الولايات والمدن الواقعة تحت حكمه . يمدوه بأخبار الولاة والقضاة والشعب ،طائفة كبيرة من الرسل السريين ينفذهم إلى القصور والحكومات الأجنبية ليحيطوه علما بما يقع فيها ، وما تدبره نحو بلاده من خير أوشر ؛ والظاهر أن بنى العباس كانوا أول من نظم هذه الطائفة الدبلوماسية السرية ؛ فقد كان للمهدى والرشيد والمأمون والمعتصم أعوان سريون فى قسطنطينية وفى غيرها من العواصم الكبرى ليقفوا الخليفة على كل حركة يأتيها الإمبراطور البيزنطى وولاته ؛ وكان هؤلاء الرسل والجواسيس يختارون من جميع الطبقات وخصوصاً من بين التجار ، وأحياناً من النساء البارعات فى الجمال والدهاء ،وكانوا يؤدون مهمتهم بمهارة فائقة . وقد بلغت هذه الوسيلة الدبلوماسية ذروة الانتظام والأهمية فى عهد الأوائل من خلفاء بنى العباس حينما كانت الخلافة قوية حرة مستأثرة بكل مهام السلطان والملك ، ثم اضمحلت باضمحلال شأن الخلفاء أيام غلبة الحرس التركى وآل بويه ، حينما كان الخليفة سجيناً فى قصره أومجرداً من كل سلطة حقيقية .ولما اضمحل شأن الخلافة العباسية واستقل حكام النواحى بحكم الولايات تحت سلطان الخليفة الإسمى ، استبدل الخليفة برسله السريين، رسلا رسميين وأعواناً ظاهرين يمثلونه فى قصور

---

(١) راجع تفاصيل هذه السفارات فى نفح الطيب (مصر) ج ١ ص ١٧١ وما بعدها . وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ وما بعدها . وراجع كتابى دولة الإسلام فى الأندلس (الطبعة الثالثة) ص ٤١٠ – ٤١٧

القاهرة ، ودمشق ، والموصل ، ونيسابور ، ومرو وغيرها . وكان هؤلاء السفراء يصحبون الأمير الذى يمثلون فى حكومته ، فى حروبه وغزواته كما كان رسل البابا يصحبون ملوك النصرانية فى حروبهم وغزواتهم فى أواخر العصور الوسطى ، فنراهم فى بطانة ألب أرسلان وملكشاه ، ونراهم أحياناً يتدخلون فى شؤون هؤلاء الملوك ، وأحياناً يصلحون بينهم ، ويفصلون فى خصوماتهم .

• • •

وقد كانت سياسة الإسلام الدينية تختلف باختلاف العصور والدول ؛ بيد أن التسامح كان منذ عصور الإسلام الأولى على الإجمال ، سياسة مقررة للحكومات الإسلامية المختلفة نحو رعاياها . وقد اطلعنا على صورة وثيقة رسمية تاريخية تلقى ضياء على هذه السياسة ، أصدرها الخليفة المكتفى العباسى سنة ١١٣٨ م إلى البطريق أبديشو النسطورى . وفى هذه الوثيقة يمنح الخليفة رعاياه النصارى كل ضروب الحرية الدينية . ويقول الدكتور منجانا أمين مكتبة « رينالدز » مكتشف هذه الوثيقة فى تعليقه على هذا الاكتشاف : « كنا نشعر دائماً بالحاجة إلى وثيقة تلقى الضياء على العلائق التى كانت سائدة بين الإسلام الرسمى والنصرانية الرسمية ، فى عصر كان كان للإسلام فيه حق الحياة والموت على ملايين من الرعايا النصارى . وقد يكون أفراد من النصارى عانوا من عسف أفراد من المسلمين ، أو قد يكون مجتمع نصرانى عانى الإرهاق من تعصب حاكم محلى أو فقيه ؛ كذلك اتخذ بعض الخلفاء مثل الخليفة المتوكل إجراءات شنيعة لإرهاق النصارى . ولكن مثل هذه الحوادث يجب أن تعتبر خرقاً للقانون ، وأن يعتبر مرتكبوها خوارج على القانون . أما تصرف الإسلام الرسمى فى هذا الشأن فواضح فى الوثيقة الحاضرة التى تؤكد دون لمحة من الريب أن الإرهاق المنظم لم يكن من سياسة الإسلام الرسمية » . ثم يقول الدكتور منجانا : « إن هذه الوثيقة صادرة من ديوان خليفة عباسى ، ولكن هل يمكن أن يكون ملك انجلترا أو ملكة هولاندة أو رئيس الجمهورية الفرنسية أكثر تسامحاً فى حق رعاياهم المسلمين ؟ إن القرآن لم يكن سبباً فيما ارتكب من حوادث إرهاق النصارى ، كما أن الإنجيل لم يكن هو العامل الموحى لما ارتكبته مجالس التحقيق من ضروب الوحشية »[١] .

---

(١) نشرت جريدة « منشستر جارديان » ترجمة هذه الوثيقة ، وتعليق الدكتور منجانا عليها (سنة ١٩٢٧) .

وظاهر مما تقدم أن الدبلوماسية فى الدول الإسلامية لم تكن تختلف كثيراً عما كانت عليه فى الدول النصرانية فى العصور الوسطى من حيث أوضاعها وتقاليدها، ويرجع ذلك إلى أن نظم الدولة وما تسند إليه من التقاليد السياسية فى هاتيك العصور كانت تتشابه من عدة وجوه فى الشرق والغرب .

٣ — شارلمان والرشيد

فى أواسط القرن الثامن الميلادى كان الشرق والغرب يجوزان معاً حركة استقرار سياسى ، فنرى فى الشرق اضطراب الدولة الأموية وفورات الشيعة تسفر عن قيام دولة عباسية تسير مسرعة فى سبيل التوطد والثبات ، وفى الغرب نرى الحروب الأهلية فى الأندلس تسفر عن قيام دولة إسلامية جديدة قدر لها أن تحيى مجد بنى أمية الذاهب قروناً أخرى ؛ ونرى فى الوقت نفسه معارك القبائل والدول البربرية التى اضطرمت منذ القرن السادس فى أواسط أوربا وغربها تسفر عن قيام مملكة الفرنج القوية ، ثم نرى هذه الدولة الجديدة توطد دعائم ملكها فى فترات قصيرة وتفوز باستقرار سياسى واجتماعى ، يعين بلاريب طوراً سياسياً واجتماعياً جديداً فى سير العصور الوسطى :

فى ذلك الحين الذى نهضت فيه بغداد وقرطبة تمثلان صولة الإسلام فى المشرق والمغرب ، وتتنازعان مع ذلك شرعية السلطان والنفوذ فى تراث الدولة الإسلامية الأولى ، كانت مملكة الفرنج تبرز سراعاً من غمار البدارة والوثنية والفوضى . حتى وصلت ذروة هذا التطور على يد شارلمان أوشارل الأكبر . وكان شارلمان كالأوائل من خلفاء بنى العباس ، وعبد الرحمن الداخل الأموى ، قد أنفق أعوام حكمه الأولى فى محاربة المنافسين والخارجين عليه . فلما توطدت دعائم ملكه أخذ يعنى بالفتح وعقد العلائق السياسية . وكانت سياسة شارلمان نحو الإسلام من أهم عناصر الدبلوماسية الفرنجية . وكانت هذه السياسة متناقضة فى الظاهر ، فبينما يعمل شارلمان على سحق الدولة الإسلامية فى الأندلس ، إذا به طبقاً للرواية الفرنجية يكاتب الخليفة العباسى ويوفد إليه رسله لعقد أواصر الصداقة والتحالف بينهما . ولكن الحقيقة أن عاهل الفرنج كان بطل النصرانية فى نفس الوقت . وكانت حروبه لرد القبائل السكسونية الوثنية عن ضفاف نهر الرين ، ورد الإسلام إلى

ماوراء البرنيه تنم عن الروح الديني قبل كل شيء . ولم يكن اتصاله بالخليفة العباسي في نظره إلا وسيلة قد تسهل مهمته في مغالبة الإسلام في اسبانيا ، وحماية النصرانية في المشرق .

ولهذا الاتصال بين شارلمان والخليفة العباسي قصة دونتها الروايات الفرنجية والكنسية ، ولم تشر إليها الروايات العربية قط . فتقول الرواية الفرنجية : إن شارلمان والرشيد كانت بينهما مكاتبات وسفارات ، وإن شارلمان سعياً إلى توثيق الصداقة بينهما ، أوفد إلى الرشيد سفارة على رأسها يهودي يدعى إسحاق ومعه سيدان نصرانيان توفيا أثناء الطريق ؛ فوصل إسحاق وحده إلى بلاط بغداد . وقدم إلى الرشيد كتب ملك الفرنج وهديته . فأكرم الرشيد وفادته ورحب بصداقة ملك الفرنج ؛ وأوفد إليه سفراءه بهدية فخمة ؛ منها خيمة عربية ، وساعة مائية ، وأثواب حريرية ، وعطور شرقية ، وتحف من الذهب ، وقردة ، وفيل ، ومفاتيح قبر المسيح . وتذهب بعض الروايات الفرنجية إلى أن الرشيد أرسل يهب ملك الفرنج سيادة فلسطين بأسرها ، أو أنه وهبه ملك بيت المقدس فقط . ولكن معظمها يجمع على أن الرشيد اكتفى بأن أرسل إلى شارلمان مفاتيح القبر المقدس ؛ وبعث إليه يبلغه أنه لما كانت فلسطين بعيدة عن أرض ملك الفرنج وكان يخشى إذا أرسل شطراً من جنوده إليها ، أن تقوم ثورات محلية في مملكة الفرنج يصعب إخمادها . فإن الخليفة يتولى بنفسه حماية البقاع المقدسة بالنيابة عن ملك الفرنج ويرسل إليه خراجها . وتؤكد الرواية الكنسية وقوع هذه الهبة وتشير إليها بعض القصائد السكسونية ؛ ولكن لاريب أن هذه مبالغة أملتها كبرياء الكنيسة على الرواة من أحبارها فلم تدون إلا في عصر لاحق ، ولم ترد في الروايات المعاصرة ؛ بل لم يشر إليها أينهارت مؤرخ شارلمان ومعاصره مع أنه يعنى بذكر الفيل الذي أهداه الخليفة إلى مليكه . ويذكر أن اسمه بولاباس (أبو العباس) وأنه مات سنة ٨١٠م[1]. وصمت الرواية العربية دليل آخر على أن العلاقات بين بلاط بغداد وبلاط الفرنج لم تكن من هذه الوجهة خطيرة إلى الحد الذي تذهب إليه الرواية الكنسية ، ولم تخرج عن المجاملات الملوكية بين سيدي الشرق والغرب ، وأنها إذا صحت خطورتها السياسية كانت سراً من أسرار

---

(١) يفصل أينهارت وقائع هذه السفارات والعلائق بين الرشيد وشارلمان في كتابه **Vita Karoli Magni** (حياة كارل الأكبر) ، وراجع أيضاً : **Hodgkin: Charles the Great**

الدولة . كذلك يظهر أن غايات شارلمان الحقيقية من مصادقة الخليفة العباسي كانت محاطة بالكتمان ولم تخرج عن مجالسه السرية ، بدليل أن الرواية تقتصر على سرد حوادث هذه العلاقات دون التعرض لغاياتها السياسية .

ثم تقول الرواية الفرنجية إن شارلمان سر بنتيجة سفارته الأولى إلى الرشيد ، فأوفد إليه سفارة أخرى على رأسها مبعوثه إسحاق أيضاً . ولسنا نعرف تفاصيل هذه السفارة الثانية كما أنا لانعرف تاريخ هذه المراسلات السياسية بالضبط ؛ ولكن المرجح أنها وقعت فى أوائل عهد الرشيد ، بين سنتى ٧٨٦ و ٧٩٠ م (١٧١ – ١٧٦ هـ) . ولنا فى حوادث الأندلس فى هذا العهد ما يلقى ضياء على طبيعة هذا التفاهم ومداه ؛ فإن الدولة العباسية الفتية ماكادت تستقر على أنقاض الدولة الأموية الذاهبة ، حتى ظهر عبد الرحمن الأموى فى اسبانيا وخاض غمار الحرب الأهلية التى كانت تمزق الجزيرة يومئذ ، واستطاع بعزمه ودهائه أن يؤسس فى قرطبة دولة أموية جديدة . وكان بنو العباس ينظرون إلى قيام هذه الدولة الأموية الناهضة بعين الريب والجزع ، ويخشون بحق أن تكون خطراً فى المستقبل على سيادتهم فى الأقطار الغربية ؛ ولم تكن فكرة سحقها فى المهد بعيدة عن الأوائل من خلفائهم ؛ فقد بذل المنصور على الأقل جهداً لسحقها ، فبعث ابن مغيث اليحصبى عامل إفريقية لغزو الأندلس ، ولكن عبد الرحمن مزق جيش الخليفة العباسى وقتل عامله ، وبعث على ما يروى برأسه ورأس جماعة من أصحابه إلى مكة ومعها كتاب المنصور لابن مغيث ، فارتاع المنصور لذلك وقال : « ماهذا إلا شيطان والحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر » .

والظاهر أن السياسة العباسية لبثت من بعد المنصور حيناً تشغل بأمر هذه الدولة الإسلامية الخصيمة . على أن قيام هذه الحكومة إذا كان يزعج بنى العباس لاحتمالات بعيدة تتعلق بالهيبة والسيادة المعنوية ، فإنه كان خطراً دائماً على مملكة الفرنج . وكانت ذكريات الغزوات الإسلامية لفرنسا ، وذكريات المعارك الكبرى التى نشبت بين الإسلام والنصرانية على ضفاف اللوار ، وماكانت تنذر به من اكتساح الأمم الشمالية ، ما تزال عميقة الأثر فى نفوس القبائل الفرنجية ؛ ولم يكن بعيداً أن يتجدد الخطر إذا ما ركدت الحرب الأهلية فى الأندلس ، وغدت الدولة الإسلامية كما كانت كتلة متماسكة قوية .

أليس طبيعياً أن تغذى هذه العوامل سياسة النضال والخصومة بين مملكة الفرنج الناهضة ودولة قرطبة الفتية ؟ وبين النصرانية التى رفع شارلمان لواء ظفرها إلى ما وراء الرين وحماها من عدوان الوثنية السكسونية ، وبين الإسلام الذى تدفق سيله إلى فرنسا قبل ذلك بنصف قرن فقط ولم يقفه سوى الحرب الأهلية فى اسبانيا؟

كانت مناهضة الدولة الإسلامية فى اسبانيا شطراً من سياسة شارلمان العامة ، وكان شارلمان يرقب كل فرصة لتحقيق هذه السياسة التى بدأها جده كارل مارتل . وقد سنحت هذه الفرصة حين اضطرام الحرب الأهلية فى اسبانيا . وكان عبدالرحمن الداخل قد حطم خصومه فى الجنوب ، ولكن الشمال كان ما يزال يضطرم بفورات الخارجين عليه من فل المتغلبين وحكام المدن . وكان أقوى أولئك الخوارج وأشدهم مراساً ، سليمان بن يقظان الكلبى حاكم برشلونة ، قد فكر مع نفر من زملائه الخوارج ، مثل الحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة ، وبنى يوسف الفهرى آخر المتغلبين على الأندلس قبل عبد الرحمن ، فى الاستنصار بشارلمان . فقابلوه فى پادربورن بشمال ألمانيا ، وأغروه بفتح الولايات الشمالية ، وتعهدوا أن يسلموه سرقسطة ومدناً أخرى . وكانت الدعوة فى وقت ملائم ، لأن شارلمان كان قد انتهى من إخضاع القبائل السكسونية ؛ فحشد جيشاً ضخماً ، وعبر جبال البرنيه (الممرات) ، بعد أن استولى على المعاقل الإسلامية الشمالية .ولكن الزعماء الثائرين اشتغلوا عن معاونة الفرنج بقتال بعضهم بعضاً . فزحف شارلمان على سرقسطة . ولكن حاكمها الحسين بن يحيى الأنصارى امتنع بها ، ودافع عنها بشدة ، وعجز شارلمان عن أخذها ، فارتد عنها ؛ وارتاب فى أمر الثائر سليمان فقبض عليه . وارتد بجيشه شمالا . ولكن هذه لم تكن خاتمة المأساة ، فإن الجيش الفرنجى حينما اخترق البرنيه ، انقض على مؤخرته مطروح وعيشون ولدا سليمان بن يقظان فى جموع كبيرة من المسلمين والبشكنس ، وذلك فى مفاوز رونشفال (باب الشزرى) ، وكانت المفاجأة رائعة ، وكان الخلل قد دب إلى صفوف الجيش المرتد ، وغلب عليه الإعياء والوهن ، فمزقت زهرة الجيش الفرنجى ، وهلكت صفوة من النبلاء الفرنج ، وألفت هذه النكبة الشهيرة ، صداها الخالد بعد ذلك بقرنين فى « أنشودة رولان » Chanson de Roland أحد قادة شارلمان الذى

هلك فى الموقعة ، فكانت مدى قرون مثلا أعلى لقريض الفروسة النصرانية[1].

وكان ذلك فى أغسطس سنة ٧٧٨ م (١٦٤ هـ) أعنى لنحو نصف قرن من بلاط الشهداء (موقعة تور أوبواتييه)، فهل كانت ثمة فى ذلك الحين علائق سياسية بين بلاط بغداد وبين ملك الفرنج ؟ هذا ماتقوله بعض الروايات الفرنجية . ولكن المرجح أن هذه العلائق لم تبدأ إلا فى عصر الرشيد ؛ فلم يك ثمة علاقة بين هذه الغزوة الأولى لاسبانيا المسلمة الأموية ، وبين مصادقة شارلمان للخليفة العباسى . ولكنا قد نجد أثر هذا التحالف ماثلا بعد فى ما تلا من غزوات الفرنج لمملكة قرطبة . فإن شارلمان لم ينبذ سياسة الكيد لإسبانيا المسلمة والتربص بها ؛ ولم ينبذ بنو أمية من جانبهم سياسة التوطيد ومطاردة الخوارج ؛ بل سياسة التوسع واسترداد كل مافقده الإسلام من الأراضى الشمالية . فنى سنة ٧٩٢ م (١٨٧ هـ) زحف هشام بن عبد الرحمن الذى خلف أباه على عرش قرطبة نحو الشمال بجيش ضخم وغزا سبتمانيا ؛ وهزم جموع الكونت دى تولوز الذى أوفده شارلمان لرد العرب على نهر أوربينا بمكان يعرف بڤيلدن . ولكن سرعان ماسنحت فرصة الانتقام لشارلمان ، فإن الحكم المنتصر ماكاد يجلس على عرش أبيه هشام ؛ حتى خرج عليه عماه عبد الله وسليمان ولدا عبد الرحمن ؛ وسار عبد الله لمقابلة شارلمان فى إيكس لاشابيل قاعدة ملكه ؛ فأكرم مثواه . وأوفد معه جيشاً زحف به على طليطلة واستولى عليها . وبعث شارلمان فى نفس الوقت بقياة ولديه شارل ولويس جيشاً عاث فى الولايات الإسلامية الشمالية ؛ ولكن الثوار والمغيرين أخطأوا تقدير عزم الحكم . فإنه أسرع لملاقاة أعدائه فى كل ساحة ؛ ورد الفرنج إلى الشمال وأخمد الثورة بسرعة. وعاد شارلمان إلى غزو اسبانيا مرة أخرى . فاستولى على برشلونة بدعوة من حاكمها المسلم ثم استردها الحكم . وكانت هذه المرحلة خاتمة النضال الذى شهره شارلمان على مملكة قرطبة الفتية زهاء عشرين سنة ، ولكن خلفاءه استمروا بعد ذلك فى اتباع سياسته مدى عصور .

كان التربص باسبانيا المسلمة كما قلنا عنصراً جوهرياً فى سياسة شارلمان ؛ وكان قاعدة من قواعد السياسة الفرنجية العامة . ولكن مصادقة شارلمان للرشيد لم تكن بعيدة

---

(١) تناولنا حوادث هذه الموقعة مفصلة فى الفصل الثالث من القسم الأول : من « مواقف حاسمة » ص ٧١ وما بعدها .

عن توجيهها . كذلك تلمس أثر الكنيسة واضحاً فى هذه السياسة ، فإن سيل الإسلام الذى جرف اسبانيا فى أعوام قلائل ، ثم انساب إلى فرنسا بعنف حتى كاد يحمل ولاياتها الجنوبية ، كان فى نظر الكنيسة خطراً داهماً على النصرانية . ونحن نعرف تحالفَ شارلمان مع الكنيسة ، واستغلاله لنفوذها فى تمهيد فتوحاته ، وظفره بتاج الدولة الرومانية المقدسة ، واستغلالها هى إياه فى محاربة أعدائها . وقد كانت الخلافة فى المشرق تسيطر على أرواح ملايين كثيرة من النصارى . أفلم يكن ظفراً للكنيسة أن تحمل شارلمان على مصادقة الخليفة العباسى ، فتؤكد بذلك تسامحه نحو الملايين من أبنائها ، ورعايته للقبر المقدس ، والحاج إليه ؟ هذا ما يلوح لنا أنه الثمن الذى بذلته الخلافة العباسية من جانبها فى محالفة عقدتها مع ملك الفرنج وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

* * *

كانت الرواية الفرنجية عن علائق شارلمان والرشيد موضع اهتمام البحث الحديث وقد اختلف البحث فى شأنها بين التأييد والنفى . وممن يصدقها ويؤيدها المستشرق رينو ؛ وممن ينكرها وينفيها المستشرقان الروسيان بارتولد وفاسلييف . وقد تناولها بارتولد فى فصل خاص فى كتابه «الشرق النصرانى» Christlichen Ostens وتساءل عن البواعث التى يمكن أن تؤدى إلى عقد مثل هذه العلائق بين الخليفة المسلم والإمبراطور النصرانى ، وعن مبلغ قيمة الوقائع التى توردها الرواية الفرنجية ، وعن الأدلة التى تؤيدها . ويجيب بارتولد بأن من الممكن المحقق أن تكون ثمة علائق بين شارلمان وبطريق بيت المقدس . وأن تكون ثمة سفارات بينهما ، فقد كانت ثمة مصالح دينية وتجارية تستدعى ذلك . ولكن ذلك لا يؤيد أن سفارات تبودلت بين الرشيد وشارلمان . أما قصة الفيل الذى حمل من المشرق إلى بلاط شارلمان مع التسليم بصحتها ، فإنه ليس ثمة ما يدل على أنه أرسل من قبل الخليفة أو أن إرساله كان لبواعث سياسة . وقد كان تبادل السفارات أمراً محققاً بين الرشيد وإيرينى إمبراطورة قسطنطينية ؛ ولكن ليس هنالك على وجه العموم ما يدل على أن الرشيد كان يعرف شيئاً عن شارلمان ومملكته(١) .

---

(١) راجع خلاصة بحث بارتولد Barthold فى مجلة «الإسلام» الألمانية Der Islam-B.III.-409

ويتفق ڤاسلييف فى بحثه مع بارتولد فى إنكار صحة العلائق والسفارات المتبادلة، ويرى أقطع دليل على ذلك فى كون المصادر الشرقية لم تشر إليها على الإطلاق[1].

ونحن لانوافق بارتولد وڤاسلييف، ونرجح صحة الرواية الفرنجية، لأنها دونت من مؤرخ كبير معاصر هو أينهارت مورخ شارلمان، ولأنها بتفاصيلها الدقيقة من حيث تعيين الوقائع والأشخاص تحمل طابع الصدق، ولأنه كانت ثمة مصالح سياسية عظيمة، تقرب بين سياسة الدولة العباسية وسياسة شارلمان، وبالأخص نحو الأندلس حسبما بينا. أما صمت المصادر العربية عن ذكر هذه العلائق، فمن الممكن أن يحمل على أن هذه العلائق والسفارات كانت سرية، وكانت سراً من أسرار الدولة؛ لأن تفاهم الخليفة العباسى مع عاهل النصرانية على شهر العدوان على دولة مسلمة (اسبانيا) ليس مما يستحب التصريح به. والرواية الإسلامية تغفل كثيراً من الوقائع الهامة فى علائق الإسلام والنصرانية؛ إما لجهلها أو لعدم الاهتمام بأمرها، ولكن ذلك لايصح أن ينهض دليلا على عدم صحتها.

٤ — مصر محور الدبلوماسية الإسلامية فى العصور الوسطى

لعبت الدبلوماسية المصرية فى العصور الوسطى دوراً من أعظم الأدوار، وكانت فى أحيان كثيرة محور العلاقة بين الشرق والغرب وبين الإسلام والنصرانية. وكان لسياسة مصر الخارجية أعظم الأثر فى سير السياسة العالمية يومئذ. وقد كان مسرحها الأول هو البحر الأبيض المتوسط، وكانت مصر من أعظم دول هذا البحر فى تلك العصور.

وإذا كان موقع مصر الجغرافى وتوسطها بين الشرق والغرب، يجعل منها اليوم عنصراً هاماً من عناصر السياسة الدولية، فإن مصر كانت خلال العصور الوسطى تجمع إلى هذه الحقيقة الجغرافية الخالدة، ميزة التفوق فى القوى العسكرية والبحرية، وفى الموارد الاقتصادية والتجارية، على كثير من الدول الغربية الكبرى.

ولم تشغل مصر هذا المركز الدولى الخطير بين أمم العصور الوسطى إلا منذ

---

(١) راجع خلاصة بحث ڤاسلييف Wasiliew فى : Der Islam B. IV.-333

القرن الرابع الهجرى أعنى القرن العاشر الميلادى ، حينما غدت مصر على أثر الفتح الفاطمى ، دولة عظمى بين دول البحر الأبيض المتوسط ، وغدت دار خلافة إسلامية جديدة ، مستقلة فى سياستها الدينية والزمنية . أما قبل ذلك فقد كانت مصر ولاية من ولايات الخلافة الأموية أو العباسية ، ليس لها نصيب من التوجيه فى سياسة الخلافة العامة . بيد أنه يلاحظ أن مصر استطاعت منذ منتصف القرن الثالث الهجرى أو القرن التاسع الميلادى أعنى منذ قيام الدولة الطولونية ، أن تحرز نوعاً من الاستقلال المحلى ، وأن تغدو بضم الشام إليها قوة يحسب حسابها ، ومن ذلك الحين بالذات يبدأ نفوذها كعامل مستقل من عوامل التوازن السياسى بين الشرق والغرب وبين الإسلام والنصرانية . ذلك أن الدولة البزنطية التى كانت حتى أواخر القرن التاسع تخصص كل نشاطها العسكرى والسياسى لمكافحة الدولة العباسية ، أخذت تنظر بعين الاهتمام إلى ظهور هذه القوة الجديدة فى مصر فى صورة دول مستقلة ، تستظل بلواء الخلافة الإسمى ، وبدأت بين الدولة البزنطية وبين مصر جارتها الجديدة من الجنوب ، علائق دبلوماسية خاصة منذ الدولة الطولونية ، ونمت هذه العلائق فى ظل الدولة الإخشيدية ، وانتظمت ، وبعث الإمبراطور رومانوس الأول (أرمانوس) قيصر قسطنطينية إلى الإخشيد أمير مصر (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) سفارة تسعى لديه إلى تنظيم افتداء الأسرى ، وتسهيل المعاملات التجارية ، وعقد الصداقة المتبادلة بين الدولتين . ومما هو جدير بالذكر فى تلك السفارة الشهيرة ، أن الإمبراطور يمن فى كتابه على أمير مصر بأن تنازل لمكاتبته مباشرة ، ومقامه كقيصر للدولة الرومانية الشرقية ، يحتم عليه ألا يكاتب من هو دون الخليفة ، ولكنه مع ذلك قد خص الأخشيد بالمكاتبة لما نمى إليه من رفيع مكانته وحميد سيرته وخلاله . وقد رد الإخشيد على رسالة الإمبراطور بكتاب شهير انتهت إلينا صورته بأكملها ، وفيه يرد على رومانوس بالشكر على مدحه ، ويقول إنه مهما تكن منزلة ملك الروم ، فإنه لايرى بأساً أن يكتب إليه ، وقد كتب من قبل إلى أقرانه ممن لايرتفع إلى منزلته ، فقد كتب القياصرة من قبل إلى خمارويه بن أحمد بن طولون ، وإلى تكين مولى الخليفة وحاكم مصر وحدها . وينوه الإخشيد بأهمية مكانته ، وضخامة ملكه ، وما لمصر من غابر الزمن من ملك باذخ ، وأنه يحكم الشام وفلسطين إلى

جانب مصر ، وأنه لم يكن يحب أن يثير فى ذلك جدلا لولا ما تقدم به الإمبراطور فى كتابه ، ثم يرحب بما طلبه الإمبراطور من تنظيم الفداء ومبادلة الأسرى ، وعقد الصداقة المتبادلة بين الدولتين ، وتسهيل المعاملات التجارية بينهما[1] . وقد صيغت رسالة الإخشيد هذه فى أسلوب سياسى بديع يجمع بين الحزم والكرامة ورقة المجاملة ، وفى صيغتها ومحتوياتها ما يلقى ضياء كبيراً على طبيعة العلائق بين مصر الإسلامية والدولة البيزنطية . فى أوائل القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) .

• • •

وفى عهد الدولة الفاطمية دخلت مصر فى عصر جديد من النهوض والسلطان ، وغدت من أعظم دول البحر الأبيض المتوسط ضخامة وقوة ونفوذاً . وأخذت الخلافة الفاطمية تنازع الخلافة العباسية ، نفوذها وزعامتها الدينية فى المشرق . وحاولت الدولة البيزنطية فى البداية ، أن تعمل لسحق هذه القوة الإسلامية الجديدة فيما وراء حدودها ، وأخذت تعمل على تأييد الزعماء الخارجين فى شمال الشام على الدولة الفاطمية ، ولاسيما بنى حمدان فى حلب . وقد كانت دولتهم تنضوى تحت لواء قسطنطينية ، وتؤدى لها الجزية . وتعتمد على موازرتها فى كثير من المواطن . ولكن الدولة البيزنطية لم توفق فى هذه السياسة تمام التوفيق . واستطاعت الدولة الفاطمية أن تقمع جميع الخوارج عليها وأن تسحق الدولة الحمدانية فى حلب ، وأن توطد سلطانها فى الشام . وكانت سياسة الدولة البيزنطية تقوم يومئذ على الضرب والتفريق بين الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين المتنافستين فى المشرق ، فتارة تميل إلى جانب الدولة العباسية وتارة تميل إلى جانب منافستها الدولة الفاطمية وفقاً للظروف والأحوال . وكانت الخلافة الفاطمية من جانبها تثير بسياستها الدينية المتطرفة فى بعض الأحيان سخط الأمم الغربية وفزعها ، خصوصاً وأنها كانت تسيطر على أرواح الملايين من الرعايا غير المسلمين . وبلغت هذه السياسة ذروة العنف بالأخص فى عصر الحاكم بأمر الله ، وفسدت علائق مصر بالدولة البيزنطية وجميع الأمم النصرانية الأخرى . ولما توفى الحاكم هدأت سياسة المطاردة الدينية ، وعمل البلاط الفاطمى على تحسين علائقه مع الدولة البيزنطية . وأرسلت ست الملك أخت الحاكم بأمر الله ،

---

(١) راجع نص هذه الرسالة بأكمله فى صبح الأعشى ، ج ٧ ص ١٧ — ١٨

فى عهد ابن أخيها الفتى الظاهر لإعزاز دين الله ، سفيراً إلى باسيل الثانى قيصر قسطنطينية ؛ وهو نيقفور أسقف بيت المقدس ليعمل على عقد أواصر الصداقة والتفاهم بين الدولتين ؛ وليطلعه على ما اتخذه بلاط القاهرة من الإجراءات لتحرير النصارى ، ورفع الظلم عنهم وحمايتهم فى أنفسهم وأموالهم ؛ وتجديد الكنائس ، ولاسيما كنيسة القبر المقدس . ولكن هذه السفارة لم تثمر ثمرتها ؛ لأن ست الملك توفيت قبل أن يوفق الأسقف إلى أدائها . بيد أن الهدنة المنشودة عقدت بين الدولتين بعد ذلك بأربعة أعوام فى سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) وأعيد المسجد بقسطيطينية كما أعيدت كنيسة القبر المقدس . وفى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٤ م) فى عصر الخليفة المستنصر بالله ، أيام الشدة العظمى ؛ أرسل بلاط القاهرة إلى قسطنطينية سفيراً هو القاضى أبو عبد الله القضاعى ، ليعمل على عقد الصداقة بين الدولتين . ولكن بلاط قسطنطينية كان ينظر يومئذ بعين التوجس والجزع ؛ إلى ظهور قوة إسلامية جديدة هى دولة السلاجقة ، ويميل إلى مصانعتها ومهادنتها . وخصوصاً بعد أن ظهرت أعراض الضعف والوهن على الدولة الفاطمية . وهكذا آثرت الدولة البيزنطية جانب السلاجقة والخلافة العباسية ؛ وأخفق السفير المصرى فى مهمته ؛ وعادت علائق مصر وبيزنطية إلى الاضطراب .

أما سياسة الدولة الفاطمية نحو الغرب الإسلامى أعنى المغرب والأندلس فكانت سياسة جفاء وخصومة . ذلك لأن الخلافة الفاطمية كانت لصبغتها المذهبية الخاصة تفقد عطف خلافة قرطبة ؛ رغم خصومتها للخلافة العباسية ؛ لما بينهما من خلاف أساسى فى المذهب والعقيدة ؛ ولأن خلافة قرطبة استطاعت من جهة أخرى أن تبسط نفوذها على الدول المغربية ، التى كانت من قبل خاضعة لنفوذ الدولة الفاطمية أيام قيامها بالمغرب .

وكانت علائق الشرق والغرب تجوز فى هذه الفترة أعظم تطور حاسم فى تاريخها . ذلك أن بركان الحروب الصليبية انفجر منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وتقاطر سيل الفرنج الصليبيين إلى المشرق . وكانت مصر والشام وهى يومئذ ولاية مصرية ، مهبط هذه الحملات . وكانت الدول الفرنجية الصليبية ترمى إلى سحق الدولة المصرية باعتبارها حصن الإسلام وحارسة المشرق . فإذا انهارت

فتحت أمامها أبواب الأراضي المقدسة ، وأراضي المشرق كله . وظفرت فى البداية بتحقيق شطر من غايتها فسقطت فلسطين قبل بعيد فى أيدى الغزاة ، وقامت المملكة اللاتينية فى بيت المقدس ، واضطربت علائق الشرق والغرب أيما اضطراب . ولكن مصر بعد أن تولاها الوهن والضعف فى أواخر الدولة الفاطمية ، عادت فاستردت قوتها ومنعتها فى ظل ملكها البطل صلاح الدين . وسرعان ما انهارت المملكة اللاتينية أمام ضربات مصر القوية ، وتحطمت الحملات الصليبية الأخرى فى المياه والأراضى المصرية . وانتهت هذه المأساة المروعة التى استطالت زهاء قرنين بهزيمة الأولى أثاروها ، ولكن علائق الشرق والغرب اضطربت من جرائها عصوراً .

ومنذ الحروب الصليبية تغدو مصر محور الدبلوماسية الإسلامية ومجمع العلائق بين الشرق والغرب ، وتتبوأ فى ميدان السياسة الدولية أرفع مكانة ؛ وكانت سيطرتها على مياه البحر المتوسط الشرقية وطرق التجارة البرية إلى بلاد المشرق والهند ، تحمل الأمم الأوربية على التسابق إلى عقد العلائق الودية معها . فكانت إلى جانب صلاتها القديمة ببلاط قسطنطينية ، تتصل بمعظم الدول والقصور النصرانية بصلات وثيقة ؛ وكانت الجمهوريات الإيطالية ، ولاسيما البندقية وچنوه وبيزا ، وهى التى كانت أساطيلها التجارية الكبيرة تتردد على ثغور المشرق فى مقدمة هذه الدول ، وقد عقدت بين مصر وهذه الجمهوريات معاهدات عديدة بالصداقة وتنظيم المصالح المتبادلة . وكان لمصر أيضاً علائق دپلوماسية منظمة مع ممالك نابولى وفرنسا واسبانيا النصرانية . وتاريخ مصر فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر والخامس عشر) حافل بأخبار هذه العلائق الدبلوماسية . وقد أورد لنا القلقشندى فى كتاب صبح الأعشى ، طائفة كبيرة من السفارات والمراسلات السياسية والتجارية التى تبادلها سلاطين مصر مع مختلف الدول الأوربية فى تلك العصور ، وهى جميعاً تلقى أعظم ضوء على طبيعة هذه العلائق الدپلوماسية ومداها ، وتدل على ما كان لمصر يومئذ فى الشئون الدولية من عظيم الهيبة والنفوذ .

وكانت مصر الإسلامية ترمى فى سياستها الخارجية دائماً إلى تحقيق غايات أساسية قومية عامة . وفى هذا السبيل خاضت مصر سلسلة طويلة من المعارك البرية والبحرية مع الدولة البيزنطية . واشتبكت مع القرامطة حين زحفوا نحو الغرب مراراً ، وردت

خطرهم عن الشام ومصر . وقامت مصر بأعظم قسط فى الحروب الصليبية . ولم تكن فى هذه الحروب ترمى فقط إلى الذود عن استقلالها ، ولكنها كانت ترمى إلى الذود عن الإسلام والمشرق كله . ولما ظهر خطر التتار فى المشرق واجتاح الدولة العباسية ووصل فى زحفه المخرب إلى الشام ، بادرت مصر إلى رده وسحقه فى موقعة عين جالوت الشهيرة فى سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) . ولما عاد خطر التتار إلى الظهور فى أواخر القرن الرابع عشر ، واجتاح تيمورلنك الممالك الإسلامية من سمرقند إلى الشام ، عادت الجيوش المصرية فوقفت فى وجهه ، وصمدت له فى الشام فى سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) وردت بذلك سيل التتار المخرب مرة أخرى ، وأدت بذلك رسالتها فى الذود عن الإسلام والمدنية الإسلامية .

وقد لبثت مصر زهاء ثلاثة قرون مشرفة على توجيه الدبلوماسية الإسلامية إزاء دول الغرب ، وقد كانت بما لها من قوى يحسب حسابها فى البر والبحر ، وموارد اقتصادية زاخرة ومدنية زاهرة ، أحق الدول الإسلامية فى تلك العصور بزعامة الإسلام والسهر على مصايره . ولم تنس مصر هذه المهمة التاريخية ، حتى بعد أن اضطربت شئونها ووهنت قواها فى أواخر القرن الخامس عشر ، فنراها تسعى بوسائلها الدبلوماسية إلى إنقاذ الأندلس ، حينما استغاثت بها وقت أن أحدق بها الخطر الداهم ، وتدفقت عليها الجيوش الإسبانية تعتزم غزوها وسحقها ، وكان ذلك فى عهد الملك الأشرف قايتباى فأرسل البلاط المصرى إلى فرديناند الخامس ملك اسبانيا وزوجه الملكة إيسابيلا فى سنة ١٤٨٨ م سفارة ينصح الملكين فيها بترك الأندلس وشأنها ، وعدم التعرض للمسلمين بالأذى ، وإلا فإن السلطان يتخذ أشد الإجراءات فى حق رعاياه النصارى . وأخطر بمثل هذا الإنذار من قبل البلاط المصرى فرديناند ملك نابولى ليتدخل لدى ملكى اسبانيا . ومع أن هذه السفارة لم تكلل بالنجاح ، وسقطت دولة الإسلام فى الأندلس بسقوط غرناطة ، فى أيدى الإسبان فى سنة ١٤٩٢ م ، فإنها تدل على أن مصر كانت تجرى دائماً إلى جانب سياستها القومية الخاصة ، على سياسة إسلامية عامة ، وتدل من جهة أخرى على ما كان يتمتع به البلاط المصرى يومئذ ، من فهم مستنير لسير الدبلوماسية الأوربية وظروفها .

وكانت مصر مذ ظهر خطر الترك العثمانيين على استقلالها فى أوائل القرن الخامس عشر تتبع سياسة دفاعية محضة ، ولم يخف على مصر يومئذ أن حدودها الحقيقية تقع فى شمالى الشام ، ولذا اتجه همها فى هذه الفترة إلى رد الغزاة الجدد عن حدودها الشمالية . ومع أنها استطاعت مدى حين أن تذود عن استقلالها بمثل عزمها القديم ، فإن عوامل الانحلال الداخلى كانت تعصف بمنعتها وقواها . وضعفت مواردها وثرواتها القومية ، ولاسيما منذ اكتشاف البرتغاليين لطريق الهند البحرى ، والقضاء بذلك على طرق الشرق القديمة التى كانت مصر مجازها . والتى كانت الدولة والتجارة المصرية تحصلان منها على مغانم عظيمة . ولم يلبث أن أشرف ذلك الصرح الشامخ الذى أقامته دول السلاطين المصرية مدى قرون على الانهيار ، وكان انهياره فى سنة ١٥١٧ م . وسقطت مصر صريعة أمام الغزاة فى شمالى الشام ، حيث لبثت قبل ذلك قروناً ترد الدولة البيزنطية عن حدودها . وفقدت مصر من ذلك الحين زعامة الإسلام السياسية ، وفقدت مكانها فى السياسة الدولية ، حتى أتيح لها أن تخرج من ظلمات العصر التركى فى أوائل القرن التاسع عشر ، وأن تدخل فى عصر جديد من الأحياء والنهوض .

الفصل الثانى

الرق فى العصـــور الوسطى

اشتقت شرعة الرق من عرف الحرب القديم أكثر مما اشتقت من أى مصدر آخر[1] ، وهو عرف يقضى بأن الغالب يصبح سيداً شرعياً للعدو الذى قهره وأبقى على حياته . وقد أعارت حروب الدول البربرية التى ورثت تراث الدولة الرومانية منذ القرن الخامس هذا العرف قوة وشدة ، فكان الظافر يتبع ركب أسلابه بصف طويل من الأسرى الذين غدوا بأحكام الحرب رقيقاً وملكاً خالصاً له يتصرف فيه كما يتصرف فى أية سلعة ؛ وكان الفتية والفتيات ذوو الحسن والرشاقة يلحقون بالأعمال المنزلية ، حيث يشغلون مراكز مريبة تعرضهم تباعاً للحظوة أو النقمة أو نزعات الأهواء المتباينة ؛ أما أصحاب الفنون والحرف المختلفة فيزاولون فنهم أو حرفتهم لمصلحة سيدهم . بيد أن الأمراء البربر ، كانوا يشذون فى معاملة الرقيق من الرومان فيقضون عليهم ، دون مراعاة لمقامهم ، بزرع الحقول وتعهد الماشية . وكان للسيد حق الموت والحياة على رقيقة .وكان الرقيق فى هذه الدول البربرية يزداد عدده تباعاً مما يغذيه من حروب وموارد جديدة ، وتسوء حاله شيئاً فشيئاً فى ظل ما تميزت به المجتمعات البربرية من طغيان وعسف . فلما اضمحلت هذه الدول وخبا ظمأ الفتح والحرب نوعاً ، نقص الرقيق فى العدد ، وخفت عنه وطأة العسف فى ظل الدول الفرنجية التى خلفت الدول البربرية فى غاليس (جنوبى فرنسا) وبلاد اللنبرد (أنكبردية) واستمرت الحال حيناً على ذلك حتى غدا الرق منذ القرن التاسع ، أضيق حدوداً والرقيق أحسن أحوالا ، وتطور الرق إلى نوع من النظام الاجتماعى ، وأضحى عنصراً بارزاً فى المجتمع الإقطاعى مدى العصور الوسطى .

---

(١) يلاحظ أن للرق فى العصور القديمة مصادر أخرى غير الحرب ، منها بيع الآباء لأطفالهم ، وخطف الأشخاص وقد كان ذائعاً فى المعارك البحرية ، ثم بعض الأحكام الجنائية فى الشرائع القديمة ، وكانت تعاقب بالرق على جرائم معينة .

استمر الأسر فى الحرب أظهر صور للرق خصوصاً إذا كان الأسير ينتمى إلى جنس آخر ، ثم أخذت الفكرة الإنسانية تبرز بطيئة من غمر العصور الوسطى ، وأخذ معيار الحياة البشرية والحقوق الإنسانية يرتفع شيئاً فشيئاً ؛ فأخذت وطأة الرق فى الاعتدال ، وتدرج الرقيق فى كسب الحقوق الجديدة . ويرجع ذلك من بعض الوجوه إلى ذيوع التعاليم النصرانية وقوة أثرها وهيبتها فى نفوس القادة والأمراء والسادة . وملخص أحكام الرق فى هاتيك العصور هو أن العبد متاع للسيد ؛ وعنصر الرق هو أن العبد لا يجوز بيعه مستقلا عن الضيعة التى ألحق بها ، ولا يستطيع أن يفارق هذه الضيعة ؛ فهو ملحق بالأرض ينتقل معها إلى المالك الجديد . على أنه لم يكن وقتئذ يعتبر وحدة فى قطيع العبيد يعمل تحت إشراف عريف من عرفاء الملك كما كان يعتبر أيام الفرنج ؛ بل يقطع قطعة معينة من الأرض يعيش فيها ، ويدفع إلى السيد مقابل ذلك ريعاً سنوياً فى شكل نسبة كبيرة من محصول أرضه ، ويحتفظ هو بملكية ما تبقى . فإذا فر العبد من الضيعة كان للسيد أن يسترجعه بالقوة ؛ وإذا اختفى عادت أرضه إلى المالك . ثم حصل الرقيق شيئاً فشيئاً على حقوق جديدة منها الميراث من طريق الأب ، والزواج . وكان زواج الرقيق بادئ بدء عملا غامضاً ليست له أحكام معينة ، ولذا كان نسلهم غير معترف به ، فلا يقر نسب الأولاد إلى آبائهم ؛ ولكن الفضل يرجع إلى تدخل الكنيسة أيضاً فى إزالة هذا الحيف . ومنذ أواسط القرن الثانى عشر اعترف للرقيق بحق الزواج الصحيح ، واعترف بنسب الأولاد للآباء ، ومن ثم استقر حقهم فى ميراث الأرض المقطوعة . بيد أن أحوالا استثنائية كانت تترتب على زواج الرقيق ، فإذا تزوج عبد مثلا من جارية سيد آخر تبعته بحكم الزواج إلى ضيعته لتعيش معه ، وبذلك يخسر سيدها خدماتها . وتكون الخسارة أبلغ إذا لحق بها أطفالها أيضاً وهو الأغلب . وكانت هذه المشكلة وأمثالها تحل بحلول كثيرة ؛ إذ يعوض سيد الجارية مثلا بثمن نقدى ، أو ينتظر حتى يتزوج أحد عبيده من إحدى جوارى سيد الضيعة التى التحقت بها جاريته ، وبذلك يعوض بمثلها . أما الأولاد فيقسمون بين السيدين طبقاً لشروط معينة . وكان أظهر فارق بين الحر والعبد فى الحقوق المدنية فى تلك العصور : هو قصور العبد عن تولى الخدمة القضائية بمعنى أنه لا يمكن أن يعين قاضياً أو يقبل أمام

القضاء كشاهد . وهذا القصور نتيجة لقصوره عن القتال ؛ ومن عرف العصور الوسطى أنه لايصلح لتفسير إرادة الله كما هى ظاهرة فى الأحكام القضائية ، إلا من كان أهلا لحمل السلاح .

* * *

هذا ولعل أحكام الرق فى الإسلام هى أدق وأفضل تشريع وضع لمعالجة هذا النظام الاجتماعى الشاذ ، الذى قد لاتبرره حتى ظروف العصور الذى شرع فيها ؛ ولكن الرق كما هو معروف من ظواهر أعرق المدنيات وأقدمها ، وكان من المتعذر بل من المستحيل أن يتجرد الإسلام فى هاتيك العصور لهدم نظام يتغلغل فى هيكل المجتمع حتى أعماقه ، وتحتم حالة الحروب ، وتنازع البقاء الروحى أو المادى ، أن يكون له نصيب فى نظم الدولة والحياة الخاصة . على أن الرق الذى شرعته المجتمعات الغربية فى العصور الوسطى والذى قدمنا لمحة من أحكامه ، لم يكن معروفاً فى الإسلام بمعناه الذى تقدم : فالإسلام لم يعرف من الرقيق سوى نوع واحد هو رقيق الحرب . وملخص أحكام الشريعة الإسلامية فى ذلك هو أن من أسر من غير المسلمين نوعان ، نوع يكون رقيقاً بمجرد السبى أو الأسر ويكون كسائر مفردات الغنائم فى القسمة والتصرف ، وأولئك هم النساء والصبية والعبيد ؛ ونوع لايعتبر رقيقاً بمجرد السبى وإنما يرق بالاختيار وهم الرجال الأحرار . وهؤلاء يخير فى مصيرهم الإمام أو أمير الجيش . فإما القتل أو الاسترقاق أو المن عليهم بتخلية سبيلهم ، أو افتداؤهم بالمال أو بالرجال أعنى استبدالهم بأسرى من المسلمين تحت يد العدو ؛ ويراعى فى هذا الاستبدال ظروف الحال ومركز الأشخاص . وإن أسلم أسير مكلف لم يقرر الإمام أو القائد مصيره قبل إسلامه ، عصم الإسلام دمه وبقى للإمام أن يقرر مصيره فيما بقى من الأحكام ؛ ومن أسلم قبل أسره عصمه الإسلام من كل شىء ، وحقن دمه ، وصان ماله وحريته وصغاره .

هذه هى أحكام الرق فى الإسلام ، وهى كما ترى تحصره فى أضيق الحدود التى تسمح بها ظروف هاتيك العصور . على أنك تشعر من مراجعة بعض الأحكام الإسلامية الأخرى ، أن الرق فى ذاته كان شرعة مكروهة ، ففى القرآن الكريم ، وفى الأحاديث النبوية ، كثير من الحض على عتق الرقيق (تحريره) وتقريره فدية شرعية

لكثير من الذنوب والمخالفات الدينية ، كالإفطار العمد مثلا . وكان العتق يعتبر فى المجتمع الإسلامى من أعظم الفضائل . هذا إلى أن الرقيق فى كثير من الدول والمجتمعات الإسلامية ، لم يذق من عسف السادة مثل ما كان يعانى فى المجتمعات الغربية ، بل كانت الحسنى قاعدة عامة فى معاملتهم ؛ وفى كثير من أحكام الشريعة التفصيلية تكليف بالرفق بهم وحض على الإشفاق عليهم ؛ وكثيراً ما اعتبروا من أفراد الأسرة التى يلحقون بها . هذا ويجب ألا ننسى الإشارة هنا إلى نوع معين من الرقيق كان له فى دول الخلفاء وقصورهم شأن يذكر ، ونعنى بذلك الصقالبة الذين كانت تغص بهم قصور الخلفاء والأمراء منذ القرن الثامن ؛ وقد كانت كلمة الصقالبة تطلق فى الأصل على الأسرى الذين يأسرهم الألمان والبيزنطيون والفرنج من الأمم السلافية ويبيعونهم للعرب ؛ بيد أنها غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يخدمون فى القصر وفى الجيش مهما كانت جنسيتهم . وقد نشطت أسواق الرقيق من الصقالبة فى المشرق منذ أيام الرشيد أى منذ أن كثرت غزوات الدولة العباسية لأراضى الدولة البيزنطية . وبلغ هذا النشاط ذروته أيام المأمون حيث انقلبت حواضر الدولة العباسية وثغورها بالأخص إلى أسواق شاسعة تموج بهذه التجارة الممقوتة . بل كانت الأرباح الطائلة التى تجنى من ورائها فى بعض الأحيان عاملا فى إثارة الحرب وتوالى الغزوات من جانب حكام النواحى والثغور لأراضى الدولة البيزنطية . كذلك كان لاسترقاق الصقالبة فى الأندلس شأن عظيم . فكانت قصور الأمراء تموج بهم ولاسيما منذ عهد عبد الرحمن بن الحكم ، وكانوا يومئذ يشملون كل الجنسيات الأوروبية ؛ فقد ذكر ابن حوقل الذى زار الأندلس فى القرن العاشر الميلادى . أنه كان بين الصقالبة الذين يخدمون فى بلاط الخليفة ألمان وفرنسيون واسبان ولومبارد وروس . وكان معظم هؤلاء الصقالبة يؤتى بهم أطفالا بواسطة اليهود الذين كانوا أقطاب تجارة الرقيق فى هذه العصور ؛ أو على يد خوارج البحر المسلمين الذين يخطفونهم ، ومن ثم كانوا يعتنقون الإسلام ويتعلمون العربية بسهولة. وكان بعضهم يربى تربية راقية ، حتى لقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم . وقد فاق عددهم أيام الناصر لدين الله (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) أى عهد آخر فبلغ نحو أربعة عشر ألفاً ، وكان لهم نفوذ وأملاك شاسعة . وكان الناصر يعهد إليهم بأهم الوظائف فى

الجيش والحكومة ، ويرغم أشراف العرب ورؤساء القبائل على الخضوع لهم . وكان مثل هذه السياسة يتردد من الناحية الأخرى فى قصور بغداد . ولا يسمح لنا المقام أن نسهب فى تفاصيل هذه السياسة التى كانت خطراً على الإسلام ودوله ، سواء فى بغداد أو فى القاهرة أوقرطبة ، بيد أنا نستطيع أن نقول إنها كانت من أهم أسباب انحلال العصبية العربية ، وتدهور سلطة الخلافة ، وتمزيق شاسع أقطارها إلى دويلات وحكومات محلية .

* * *

لا ندهش بعد ذلك إذا رأينا ثغور البحر الأبيض المتوسط وجزائره تنقلب إلى مراكز عظيمة لتجارة الرقيق ، ولاسيما فى القرنين التاسع والعاشر من الميلاد ؛ ففى ذلك الحين استعر لظى الحروب بين الدولتين العباسية والبيزنطية من جهة ؛ وبين هذه الدولة وجاراتها من المشرق والشمال ، واستولى المسلمون على معظم جزائر البحر المتوسط ، وسما شأن البحارة المسلمين . واتخذوا جزيرة إقريطش محطاً لإقلاعهم ورسوهم . وغصت ثغور الجزر وثغور مصر والشام بسفن البحارة والخوارج المغامرين الذين يجوبون عباب هذا البحر خناً وراء الغنيمة . فيغيرون على شواطئ الدول النصرانية وخصوصاً ثغور الجمهوريات الإيطالية وثغور الدولة البيزنطية حسبما فصلنا من قبل ، ويعودون إلى أوطانهم مثقلين بالغنائم والسبي ، ويبيعون الرقيق آلافاً مؤلفة إلى تجارمصر والشام ، وينفذ هؤلاء بسلعتهم إلى أقاصى إفريقية وآسيا . وكانت أعظم غزوة من هذا النوع غزوة البحارة المسلمين بقيادة غلام زرافة (ليون الطرابلسى) أعظم بحارة عصره لثغر سلانيك فى سنة ٩٠٤ م ، حيث يروى أن عدد الأسرى بلغ فى تلك الغزوة نيفا وخمسين ألف نسمة .وكان اضطرام لظى الحروب والمغامرة البحرية على ذلك النحو ، فى ذاته عاملا فى تخفيف ويلات الرق . إذ كانت المغانم والأرباح المادية تحمل الظافرين فى فرص كثيرة على حقن دماء الأسرى ، ابتغاء بيعهم أو افتدائهم على يد القادرين من ذويهم ؛ هذا إلى أن فكرة استبدال الأسرى قويت باشتداد المعارك وتفاقم المصائب المترتبة عليها من السبي والتشريد . وانتهى الأمر بالدولتين البيزنطية والعباسية إلى الاتفاق فيما بينهما على تنظيم استبدال الأسرى بشروط مقررة ؛ وكان هذا الاتفاق يطبق وينفذ فى

فرص ومواقف كثيرة ، ويعرف بنظام الفدى أو استبدال الأسرى[1] . ومنذ سنة ٧٨٩ م ، أعنى منذ أيام الرشيد أدمج فى الاتفاق شرط يقضى بأن يسمح للفريقين بافتداء الكافة من أسراه نظير مبلغ معين عن كل فرد ؛ وغدا ثغر طرسوس من ذلك الحين مركزاً من أهم مراكز المبادلة والافتداء بين المسلمين والبيزنطيين . وكان مسلمو إقريطش من أعظم مروجى هذه السياسة ، إذ كانت جزيرتهم أعظم مركز فى البحر الأبيض المتوسط لتجارة الرقيق من جهة ، ولإجراء المبادلة والافتداء من جهة أخرى . وكان يقوم بإجراء هذه الرسوم أفراد وجماعات من الخاصة يخابرون أسر الأسرى أو أصدقاءهم من الأغنياء لدفع الفدية أو تقديم البدل ؛ وكان الأسرى من النصارى الذين يفدون بهذه الواسطة يرغمون على دفع المبالغ الطائلة ، إذ كان الافتداء صفقة خاصة لا يجرى طبقاً لمعاهدات رسمية كالافتداء أو الاستبدال الرسمى الذى يتم تنفيذاً لاتفاق بين الحكومتين المتعاقدتين .

هذه لمحة موجزة عن أحكام الرق وأطواره فى العصور الوسطى ، ومنها نرى أن مصائب الحروب المضطرمة المستمرة ، كانت تعصف بحريات البشر أشد مما كانت تعصف بأرواحهم وأموالهم .

---

(١) أشرنا إلى هذا النظام من قبل : وتراجع أحكامه ووقائعه مفصلة فى خطط المقريزى ، ج ٢ ص ١٩١ و ١٩٢ .

الفصل الثالث

الفروســـــة

تاريخهـا ، ومبادؤها ، ورسومهـا

إذا كان الإقطاع[1] أساساً جوهرياً لصرح النظم الاجتماعية والسياسية فى العصور الوسطى ، فإن الفروسة أهم حجر فى صرح الإقطاع . بل لقد كانت دعامة الإقطاع تحكم بناءه وتربط أطرافه المتباينة ، وتصل بين طبقاته الرفيعة والوضيعة . وكانت أهم ظاهرة للتفريق بين البشر فى بدء العصور الوسطى قبل أن تنتظم الفروسة وتزدهر ، الحرية والرق ؛ فكان من الناس أحرار وأرقاء . فلما اضمحل نظام الرق ، وسما شأن الفروسة ، كانت أهم ظاهرة للتفريق بين البشر : النبل والمنبت العام ؛ فكان من الناس فرسان أونبلاء أو سادة ، وكافة أو عامة . هذه الفروسة التى لبثت قروناً زهرة المجتمعات النصرانية والتى لعبت دوراً عظيما فى الحروب الصليبية ، ترجع مبادؤها رسومها وتقاليدها الأولى إلى أواخر القرن الثامن . أو القرن التاسع ، ثم إلى نظم الإقطاع فى عهد النورمانيين ؛ فنراها فى عصر شارلمان تتخذ صورة احتفال يزود فيه الفارس الفتى بالسلاح . والظاهر أنها كنظام حربى ترجع إلى أقدم من ذلك إذ يذكرها المؤرخ تاسيتوس فى حديثه عن أحوال القبائل الجرمانية ويصف رسومها[2] ولكن الفروسة كشرف عسكرى رفيع يمنح فى نوع من الرسوم الدينية ترجع إلى القرن الحادى عشر فقط . بيد أن الفروسة الإسلامية أقدم

---

(١) الإقطاع هو نظام سياسى اجتماعى حربى كان سائداً فى أوربا فى العصور الوسطى . وظهر فى القرن التاسع حينما ضعفت الحكومات المركزية عن أن تسيطر على جميع الأقاليم التابعة لها . وأصل هذا النظام مجهول ، ولكنه خليط من نظام التملك الرومانى وأصول التعامل والعلاقة الشخصية . وملخص هذا النظام هو أن الأرض تعتبر ملكاً للعرش ، وللعرش أن يقطع منها للأمراء والسادة ، وهؤلاء بدورهم أن يقطعوها للكافة ، ولكل من هؤلاء حقوق وعليهم واجبات بين سياسية وحربية ومالية . وقد ساد هذا النظام فى غرب أوربا حتى القرن الثالث عشر ، وكان الفرنج أول من طبقه ووضع له أصولا ثابتة .

(٢) Tacitus : Annals.

وأعرق ، فهي ترجع إلى عصر الإسلام الأول فى القرن الأول للهجرة (القرن السابع الميلادى) ولكنها لم تكن نظاماً دينياً أو سياسياً ؛ بل كانت خلة وموهبة وكفاية ؛ وكان لها أيضاً نوع من الرسوم والتقاليد . ويفرد ابن قتيبة فى كتابه «عيون الأخبار» باباً للتحدث عن الفروسة وآدابها ، ويورد عن أصولها ورسومها بعض الأقوال المأثورة[1] . أما الفروسة النصرانية فلم تزدهر وتستكمل عناصر الاستقرار ، وتغدو فوق صفتها الحربية ، نظاماً سياسياً اجتماعياً يرجع إلى أصول ورسوم مقررة أدمجت فيها الحقوق والواجبات معاً ، قبل القرن الحادى عشر .

وقد كان النبل كما رأينا قاعدة الفروسة وخاصتها الأولى . وكان التفريق بين النبلاء والكافة فى مراحل الإقطاع الأولى غامضاً فى الغالب ، ولكنه تقدم مذ أصبحت وراثة الضياع المقطوعة حقاً مقرراً ، ثم غدا فى النهاية قاعدة لانتظام الناس فى طوائف قوية ، كانت أبرز عنصر فى مجتمع العصور الوسطى. والنبل يتكون من عنصرين مختلفين : الأول وراثة الضيعة بما تحمل من تعهدات فى أداء الواجبات الكبرى . والثانى أهلية القتال على ظهر الجواد أو بعبارة أخرى الفروسة (Chevalerie) والصفة الثانية تحمل فى ثنيتها فكرة الملك أيضاً ، فهى تتضمن القدرة على اقتناء العدد الغالية اللازمة لأداء واجبات الفارس . وقد كان امتزاج هذه الفكرة بفكرة الملكية العقارية وفكرة المنبت الحسن ، يمد الأمير الإقطاعى بخدمات صفوة من المقاتلة . وكانت هذه الصفوة وأسرها أرقى عناصر الأشراف (الأرستقراطية) ، وأقوى الطوائف فى مجتمع بربرى كمجتمع العصور الوسطى .

وقد أفضى شرف المنبت إلى تحول هذه الأرستقراطية إلى طبقة بكل معانى الكلمة ، يتعذر على الكافة اقتحامها والاندماج فى سلكها دون مصاعب ورسوم جمة . وكان من وسائل هذا الالتحاق أن يشترى الفرد العادى ضيعة تلحق بها صفة النبل (Terra Nobilis) ، أو يسبغ الملك أو أحد كبار النبلاء عليه صفة النبل هبة منه لخدمات أداها أو كفايات معينة عرف بها ، فتلحق عندئذ صفة النبل هذه بالأرض التى يملكها وتنتقل إلى عقبه بالإرث . وواضح أن خلق النبلاء على هذا النحو كان وسيلة حسنة لإحاطة العرش بأشخاص يؤيدونه ويرعون مصالحه . وهذا

---

(١) راجع هذا الباب فى «عيون الأخبار» ج ١ ص ١٢٢ وما بعدها .

العصر هو فى الواقع فاتحة لنهوض الملوكية وبروزها من أغلال الإقطاع ، وتبوء نظمها مركز الغلبة والسيادة على ما عداها من نظم السلطان والحكم . وكانت وراثة النبل تنحصر بادئ بدء فى صف الذكور ، ولكن ميل العروش إلى اتباع السياسة المتقدمة ، أفضى قبل بعيد إلى منحها للإناث أيضاً ، وغدا ممكناً أن تهب الأنثى صفة النبل لعقبها فيصبحوا فرساناً وسادة ونبلاء .

ولما استقر النظام الإقطاعى وتحسنت موارد الأرستقراطية بتحسن الزراعة ، غدا الواجب الذى يقضى على الفارس باتباع الأمير على نفقته الخاصة ، بالنسبة للسادة الإقطاعيين أرفع ضروب الشرف والكرامة . وكان الفارس إذا ارتدى عدده المنيعة الشاملة ، وتقلد سلاحه الذى يدججه من الرأس إلى القدم ، وامتطى صهوة جواده الذى يغطيه الحديد والصلب مثله ، أضحى أهلاً للقاء عشرات من العامة غير المسلحين فإذا اجتمع من هؤلاء الفرسان عدة ، استطاعوا أن يرهبوا المئات والألوف من أتباعهم ويلجئوهم إلى الخضوع والطاعة . وواضح أن استفحال مثل هذه الخصومة بل وجودها ، كان يؤدى فى كثير من الأحيان ، إلى معارك دموية لا يعدم العامة فيها وسيلة للانتصاف لأنفسهم من عسف الفرسان وجورهم . على أن ارتباط الحقوق بالواجبات بالنسبة للفريقين ، كان فى ظروف الحياة العادية يدعم نظاماً اجتماعياً كنظام الفروسة تنقصه جميع عناصر الاستقرار السياسى .

وقد ندهش حينما نتأمل رسوم الفروسة وتقاليدها . ويخيل لنا أنها رسوم إحدى الهيئات الدينية أو الجمعيات السرية الكبرى . والواقع أن هذه الرسوم التى يجب جوزها لنيل شرف الفروسة قديمة جداً ، وقد أشار إليها تاسيتوس كما قدمنا فى حديثه عن أحوال القبائل الجرمانية . وقد اتخذت منذ نشأة الفروسة صبغة من الروعة والجلال تكاد تدنو من القدسية . وخلاصة هذه الرسوم هى أن المرشح للفروسة قبل أن يزود بالسيف والمهماز ، يجوز بعض التجارب والاختبارات ، ويقضى أياماً فى الصوم ، ثم يمضى ليلة فى كنيسة عتيقة مظلمة يستسلم فيها إلى التفكير والتأمل ؛ وبعد ذلك يعطى السيف والمهماز ، ويلطم على خده أو كتفه لطمة خفيفة إشارة إلى آخر إساءة يسوغ له أن يغضى عنها . هذا ومع أن الفروسة نظام إجتماعى سياسى فإنها لم تخل من الصبغة الدينية ، بل كانت هذه الصبغة قوية فيها إلى حد

إن نظام الفروسة ذاته كان يشبه فيما يختص بالحقوق والواجبات بالهيئات الكهنوتية المقدسة ؛ فالفارس المبتدئ يلزم بالاستحمام وارتداء السترة القصيرة ، على نحو ما يقع فى إحياء التنصير ؛ ويتسلم الفارس سيفه على هيكل الكنيسة من يد أحد رجال الدين ، ويسبق الاحتفال بقبوله كما قلنا صوم وابتهال ؛ ثم ينادى فارساً باسم الله والقديس چورج والقديس ميخائيل . ويقسم الفارس بعد ذلك أن يؤدى واجبات مهنته — فقد كانت الفروسة مهنة كما رأيت — وليس من ضمان بوفائه سوى التربية ، والقدوة الحسنة ، وحكم الرأى العام . وخلاصة قسمه أن يقول الصدق ، وأن يؤيد الحق ، وأن يحمى المنكوب ، وأن يستعمل الرقة والمجاملة فى معاملاته ، وأن يطارد أعداء الدين ، وأن يحتقر مغريات الرفاهة والأمن ، وأن ينتصف لشرفه فى أية مغامرة خطرة . وقد بلغت هذه الرسوم فى القرن الحادى عشر مكانة علية من الجلال والتقديس ، حتى كان واجباً على الملك ذاته لكى ينتظم فى سلك الفروسة ، أن يخدم فى البلاط وصيفاً ثم سيداً مرشحاً للفروسة ، ثم يمنح بعد ذلك المهماز الذهبى أو رمز الفروسة .

وكما كان للفروسة رسوم وعهود خاصة بها ، فكذلك كان للفروسة رياضات وألعاب خاصة بها . وللفروسة فضل فى تطور هذه الرياضيات والألعاب الأرستقراطية ، فقد عدلت عن الألعاب الأولمپية القديمة حيث كانت تعرض المناظر العارية ، فتبعد العذارى والنسوة عن ارتيادها ، وتبعث الفساد والتهتك إلى أخلاق الشبيبة ؛ وآثرت عليها الألعاب الرزينة المحتشمة . وكانت المبارزة أحب هذه الألعاب إلى الفرسان والسادة ، فكانت تعقد لها حفلات شائقة يهرع إليها الفرسان من كل صوب ، ويشهدها أشرف الكواعب والعقائل وأجملهن ؛ وقد تستغرق الحفلة يومين أو أكثر وتجرى فيها المبارزات الفردية بين فارسين يتقاتلان بالرمح ، وللظافر أن يغنم سلاح خصمه وجواده ، وله فوق ذلك أن يسمى سيدة من الحاضرات تشرف على بقية المبارزات والألعاب وتسمى ملكة الحب والجمال ؛ ومن ثم كانت فكرة الحب تقترن بكلمة الفروسة فى العصور الوسطى ؛ وكان حب امرأة يعنى فى نظر الفارس المتيم إجلال الجنس اللطيف كله . وأحياناً كان الفارس يؤثر بتأمله غادة معينة وتكون علائقهما نقية أفلاطونية فقط . وقد كان دور الفروسة فى هذا الشأن مستقى خصباً

لآداب مستفيضة من قصص جميلة رائعة ، ونظم رقيق حماسى ، وأناشيد وروايات شائقة لاحصر لها . هذا ولم تكن الفروسة تقف فى رياضاتها عند النزهة واللهو ، بل كانت أيضاً تنظم معارك صغيرة وتقيم تمارين جدية من مهاجمة حصن والدفاع عنه إلى غير ذلك ، فكانت هذه المعارك والتمارين ميداناً يتلقى فيه الفارس دروسه وخبرته .

* * *

ماذا كانت آثار هذا النظام الغريب فى نفسية المجتمع والفرد ؟ إن الفروسة بلاريب من أجمل وأروع مناظر العصور الوسطى إن لم تكن أجملها جميعاً . ولكنها لم تقف عند إنشاء مجتمع فريد فى رسومه ونظمه يضم طائفة متماثلة متضامنة من الأفراد ، بل كانت لها فى أنفس الأفراد والجماعة آثار عميقة ترتفع أحياناً إلى ذروة الخلال السامية ، وتهبط أحياناً إلى أوضع الأهواء والشهوات النفسية ؛ فقد ذللت الفروسة كثيراً من حدة المجتمعات الخشنة ، ولطفت من أخلاقها وخلالها . وبثت إليها روحاً قوياً من مبادئ الوفاء والعدالة والإنسانية ، بل كانت الفروسة أول ماصدع من صرح الأثرة القومية . ألم تكن تجمع فى صعيد واحد بين الفرسان من مختلف الأمم ، يمتزجون فى الألعاب والرياضات العامة ، تجمعهم مبادئ وروابط مشتركة ؟ ولكن الفروسة من الناحية الأخرى بثت فى أنفس أبنائها وخصوصاً غير المتعلمين منهم ، إحتقاراً عميقاً للفنون والمهن السلمية ، وعاطفة قوية من الغرور والأنانية ، والتمرد على النظم والقوانين ، فكان الفارس يعتبر نفسه هو المنتقم المقتص لنفسه ، ويطأ بقدمه كل شرع وعرف . هذا ولعل أسوأ ما بثته الفروسة فى مجتمع العصور الوسطى ، هو عاطفة وحشية من التعصب الدينى العميق . وقد رأينا أن التعهد بمطاردة أعداء الدين هو من فقرات القسم الذى يؤديه الفارس عند الانتظام فى سلك الفروسة . وأن الصبغة الدينية الواضحة تقترن برسوم هذا النظام . والواقع أن الكنيسة فكرت منذ الساعة الأولى أن تبسط نفوذها وسيادتها على الفروسة النصرانية . واستطاعت أن تصل فى تحقيق هذه الغاية إلى أبعد مدى . فقد فتح العرب اسبانيا واستقروا بها منذ القرن الثامن ، ثم فتحوا صقلية وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط . وهددوا رومة عاصمة النصرانية أكثر من مرة ؛ وكان شبح الخطر الإسلامى يلوح للكنيسة والنصرانية أبداً قوياً منذراً . ومن ثم فقد نشأت عاطفة الدفاع عن الدين والوطن ، واستغلت

الكنيسة هذه العاطفة . وكانت الدولة البيزنطية ترد وثبات الإسلام من المشرق ، فلما اضمحلت الدولة البيزنطية التى كانت تعتبرها الكنيسة سداً منيعاً أوحد لحماية النصرانية من جهة المشرق ، ونهض السلاجقة يجتاحون أراضيها وينفذون إلى أعماق الأناضول ، وطارت صرخة الكنيسة فى الأمم النصرانية بشهر الحرب الصليبية على الأمم الإسلامية إنقاذاً للقبر المقدس فى الظاهر ، ومحافظة على سيادة الكنيسة وحماية النصرانية فى الواقع ، كانت الفروسة على قدم الاستعداد والأهبة لخوض غمار الحرب المقدسة ، باسم الله وباسم الدين ؛ وهبّ الأمراء والسادة الإقطاعيون ، وهب الفرسان من ورائهم فى جماعات متعاقبة إلى ثغور الشام وفلسطين . وكان الفارس يذهب إلى ميدان الحرب مصطحباً وصيفه الخاص وعدداً من الجند ؛ ويحشد كل أمير من فرسانه ما استطاع ؛ وتتميز كل جماعة بشعار أميرها وصيحته فى الحرب. وتاريخ الحروب الصليبية فياض بأخبار الحملات والبعثات الخاصة التى كان يجهزها أفراد من الفرسان ، يحاربون أحياناً فى سبيل الدين ، وغالباً طلباً للمغانم وبحثاً وراء طالعهم ؛ بل نقرأ أن هذه الجماعات المغامرة كثيراً ما كانت تنقطع لأعمال السلب والنهب فى جميع الأراضى التى تمر بها . ولكن لاريب فى أن الفروسة بالرغم مما كان يسود صفوفها من التنافس وأسباب الانحلال ، قد أدت إلى النصرانية فى الحروب الصليبية خدمات جليلة ، خصوصاً إذا ذكرنا أن الفروسة الإفرنجية ، بما كانت تحمل من أسباب الأهبة والعدد المنيعة والدروع الدقيقة ، كانت تتفوق فى كثير من الأحيان على الفروسة الإسلامية الخفيفة لنقص فى عددها وأهبتها.

والخلاصة أن الفروسة النصرانية كانت من الوجهة المعنوية تحمل مزيجاً متناقضاً من الخلال الحسنة والسيئة . ويقول سان بلاى مؤرخ الفروسة ، إنه إذا كانت قوانين الفروسة ورسومها تمت بأوثق صلة إلى الدين والفضيلة والشرف والإنسانية ، فإن العصور التى ازدهرت فيها كانت عصور انحلال وعنف ووحشية ، وأن هذه الخلال السيئة كانت تلحق بالأخص أولئك الذين ينتظمون فى سلك الفروسة . بيد أن مبادئ الفروسة فى ذاتها كانت تعمل لتقوية النظام والفضيلة . وكانت الفروسة منذ البداية تحمل عناصر الانحلال ، فلم يمض قرن على ازدهارها حتى فترت همم الفرسان ، وحلت أدوات الزينة والترف فوق ظهور الجياد مكان السلاح المدجج ،

وانحدرت الفروسة إلى فوضى العسكرية الجامحة وشهواتها ومساوئها[1] . ثم جاء اختراع المدفعية فى القرن الرابع عشر ، ضربة قاضية على الفروسة وسلاحها الثقيل ؛ ففقدت الفروسة من ذلك الحين أهميتها ومنعتها ، ولم يمض بعيد حتى غدت نوعاً من الذكريات والتقاليد .

• • •

بقيت كلمة عن الفروسة فى الإسلام . إن الفروسة كامنة فى الخلال العربية ، وكان لها فى الجزيرة العربية قبل الإسلام أيما شأن ؛ فكانت قوام كثير من وقائع العرب وأيامها المشهورة ، وكانت من أكبر مصادر الوحى والإلهام ، لشعراء الجاهلية وكان لها منذ صدر الإسلام مقامها من الأهمية والجلال . بيد أنها لم تكن نظاماً سياسياً واجتماعياً راسخاً ذا قوانين ورسوم خاصة كما كانت فى أوربا ، ولم تكن بادئ بدء سوى خلة أو كفاية حربية لها مقامها من الشرف والكرامة ، وتقترن بنوع من التقاليد ، أما الفروسة الإسلامية المنظمة ذات المبادئ والرسوم الإجتماعية ، فقد نشأت فى الأندلس ، فى ظل خلافة قرطبة ، واستقت رسومها من مبادئ الشرف ، ورقة المجاملات ، ورفعة الخلال ؛ وغدت منذ عهد الناصر وولده الحكم المستنصر نظاماً اجتماعياً يستظل بلوائه أهل النبل والرفعة والشجاعة ؛ وازدهرت بالأخص أيام الحاجب المنصور . يقول سديّو : إن خلال الفروسية الأندلسية وشمائلها الرقيقة كانت مستقى أخذت منه الفروسة النصرانية الكثير من خلالها ورسومها . ويقول رينو : إن أفكار الفروسة بدأت تزدهر فى هذا العهد ، أى عهد الناصر ، مقرونة بعاطفة شرف قوية واحترام للجنس الضعيف . ويقول ڤياردو : إن الفروسة وكل نظمها التى عرفت فى الأمم الغربية النصرانية ، كانت مزدهرة عند الأندلسيين أيام الناصر والحكم والمنصور . وكانت الأندلس فى ذلك العصر كعبة يقصدها فرسان النصرانية من كل صوب بعهد سلام وحماية من الخلفاء ، ليعقدوا المباريات مع فرسان الإسلام ، وكانت التقاليد القديمة كنداء الفارس اسم أخته أو حبيبته حين الوثوب إلى ميدان القتال ، قد عفت فى ذلك العصر ، فكان الفارس يكتفى بأن ينزل إلى الميدان واضعاً فوق ذراعه أو فوق خوذته شارة من حبيبة قلبه . وكان سيدات

---

(١) O. Miller : History philosophically illustrated, Ch. XIX.

الأندلس يشهدن المباريات والمبارزات التى تعقد فى ساحات المدن الكبرى ، فكان وجودهن يسبغ على تلك الحفلات الشائقة مسحة من السحر والظرف . أما شروط الفروسة التى يقضى بها العرف فكانت عشرة هى : التقوى ، والشجاعة ، ورقة الخلال ، والقوة ، وهبة الشعر ، والفصاحة ، والمهارة فى ركوب الخيل ، والسيف ، والرمح ، والقوس . وكان اجتماع الجنسين على ذلك النحو عاملا فى تهذيب المشاعر والشمائل ، وتقوية عواطف الوفاء والحياء والصدق . وقد بلغت هذه الفروسة الإسلامية ذروة قوتها وازدهارها فى مملكة غرناطة التى يفيض تاريخها بأخبار السادة والأنجاد ، وأحاديث شهامتهم ووفائهم مما لايسمح المقام بالإفاضة فيه ؛ وسنرى فى فصل آخر ، عند الحديث عن مصرع غرناطة ، أمثلة من ذلك السمو فى الشجاعة والوطنية والخلال ، الذى امتازت به فروسة الأندلس . ونذكر هنا على سبيل التمثيل واقعة تاريخية . هى أن الفرسان المسلمين حاصروا ملكة قشتالة زوج ألفونسو السابع ، فى قلعة أزيكا فى سنة ١١٣٩ م (٥٣٤ ﻫ) ، فأنبت الملكة الفرسان المسلمين على مسلكهم ، ورمتهم بنقص فى الشجاعة والخلال لأنهم هاجموا قلعة تدافع عنها سيدة ، فأقر الفرسان المسلمون عدالة التأنيب والتمسوا منها فقط أن تطل عليهم من شرفة القلعة ، فلما فعلت قدم الفرسان المسلمون إليها أسمى ضروب الاحترام ، ورفعوا الحصار وارتحلوا على الأثر .

هذه هى خلاصة موجزة لتاريخ الفروسة ومبادئها ونظمها ، نستطيع أن نستشف منها الكثير من خلال مجتمع العصور الوسطى : ومن عواطفه ونفسيته .

مواقف حاسمـــــة

فى تاريخ الإســـــلام

— ٢ —

الفصل الأول

السيد الكمبيادور

وقصة مملكة بلنسية

كانت فروسة العصور الوسطى ، بما تحمل من مبادئ العنف والطغيان والأثرة ومن خلال النبل والرقة والمجاملة ؛ ومن عوامل الحقد والجرأة والمخاطرة ؛ والعطف والإيمان والخشوع معاً ، من أغرب الصور الإجتماعية التى خلقتها نظم الإقطاع . وكانت هذه الفروسة متغلغلة فى صرح المجتمع الإقطاعى . تسوده فى معنى من المعانى ، وتسيره طبقاً لميولها وأهوائها ، وتكاد تغلب فيه على كل سلطة أخرى .

وقد كانت اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية خلال هذه العصور مهاداً للفروسة . وكان للفروسة فى كل منهما حظ وافر من التقدم والازدهار . بيد أن النضال المستمر بين الإسلام والنصرانية فى اسبانيا . كان يصطبغ إلى جانب العوامل القومية ، بلون عميق من التعصب الدينى ؛ فكانت الفروسة فى تلك المهاد تضطرم بهذه النزعة الدينية . وكانت ظروف الحرب والسياسة كثيراً ما تخضع البواعث القومية أو الدينية ، لسلطان الأهواء والأغراض الشخصية ؛ وتبدو الفروسة عندئذ فى ثوب المغامرة والبحث وراء الغنم والطالع .

هذه الظواهر والخواص نجدها ماثلة بارزة فى سيرة فارس من فرسان اسبانيا النصرانية ، ترتبط سيرته بكثير من حوادث التاريخ الأندلسى . وتعتبره الرواية والأساطير القشتالية مثلا أعلى للفروسة القومية والنصرانية — نقول الرواية والأساطير لا التاريخ ، لأن التاريخ كما سنرى ، يدحض الكثير من هذه الأساطير ، ويخرج البطل الإسبانى فى ثوب غير الذى تسبغه عليه الأناشيد والأساطير القومية .

هذا الفارس الأشهر هو رودريجو دياث دى بيبار المعروف فى التواريخ النصرانية بالسيد الكمبيادور Cid el Campeador

• • •

لبثت السيد الكمبيادور عصوراً رمزاً للبطولة القشتالية ، ولبثت سيرته مستقى خصباً لخيال الشعراء والكتاب ؛ ولكن هذا القصص المغرق ، لم يكتب إلا ليثير نزعة الدين والقومية ، فى شعب كان فى تلك العصور يجاهد لاسترداد أرضه التى انتزعها الإسلام منه واستقر بها منذ قرون . على أننا إذا جردنا سيرة الفارس القشتالى مما يغمرها من ألوان التعصب والمبالغة والخيال المغرق ، ألفيناه صورة عادية لفروسة العصور الوسطى ، له من نقائصها أكثر مما له من خلالها . أما ما تمتاز به سيرته من وفرة الوقائع والمعارك التى خاض غمارها . وتفوق فى الجرأة والمخاطرة ، وسعة فى الجاه والسلطان . فيرجع إلى ظروف عصره ، وإلى عوامل الشقاق التى كانت تمزق خصومة . أكثر مما يرجع إلى كفايته وبراعته وخلاله .

إن قصة السيد الكمبيادور . تملأ فراغاً كبيراً فى الروايات والتواريخ القشتالية . وتجد كذلك صداها فى التواريخ العربية . وقد اقترنت سيرة السيد بالأخص ، بمغامراته فى منطقة بلنسية . وافتتاحه إياها . وسيطرته عليها بضعة أعوام . ثم وفاته مدافعاً عنها ضد المرابطين . فهذه الأحداث هى ألمع صفحة فى تاريخ السيد . وهى التى اتخذت منها التواريخ القشتالية ، عناصر بطولته . وهى التى رفعته فى نظرها إلى مرتبة بطل اسبانيا القومى .

والسيد ، هو فارس قشتالى ، واسمه الأصلى حسبما تقدم هو رودريجو أو روى دياث دى بيبار . أما تلقيبه بالسيد El Cid فهو تحريف لكلمة « السيد » العربية . وقد أطلقها عليه المسلمون الذى كان يخدم بينهم ويحارب معهم . وأما تلقيبه بالكمبيادور El Campeador فمعناها المحارب الباسل ، وقد أطلقت عليه لشجاعته وجرأته[1] . وقد ولد « السيد » فى مدينة برغش على ما يرجح فى سنة ١٠٤٣ م . وكان أبوه لايان كالڤوقاضى قشتالة فى عهد الملك فرويلا الثانى . ولايعرف التاريخ شيئاً عن حياته الأولى . بل كل ما فيها يرجع إلى الأسطورة والقصة . وكان بدء ظهوره فى ميدان الحوادث . عقب وفاة فرناندو الأول ملك

---

(١) ويعرف السيد الكمبيادور فى الرواية العربية « بالقنبيطور » (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٧) ويسميه ابن بسام رذريق الكنبيطور (الذخيرة — القسم الثالث) . وكذلك يسميه ابن الأبار بالكنبيطور (الحلة السيراء ص ١٨٩) . وكذلك ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٠٣ . ويقول لنا ابن عذارى أن كلمة القنبيطور معناها « صاحب الفحص » (البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥) .

قشتالة وليون فى أواخر سنة ١٠٦٥ م ، ونشوب الخلاف بين أولاده . فقد انضم السيد يومئذ إلى ولده سانشو (شانجه) ، وسار مع قوات حليفه أحمد بن سليمان ابن هود ملك سرقسطة ، لمحاربة راميرو ملك أراجون ، وقد هزم وقتل فى جرادوس سنة ١٠٦٨ م . ثم كان إلى جانب سانشو أيضاً ، حينما نشبت الحرب بينه وبين أخيه ألفونسو ، فى سنة ١٠٧١ م ، وقد هزم سانشو فى البداية ، ولكنه عاد وجمع فلوله تحت جنح الظلام ، ودهم أخاه بإرشاد السيد ومعاونته ، وهزمه وأسره .

ولبث السيد يحارب إلى جانب سانشو ملك قشتالة ، حتى قتل هذا الملك أمام أسوار سمورة فى العام التالى (١٠٧٢ م) فانتقل إلى خدمة أخيه ألفونسو ، الذى تولى عرش قشتالة ، بعد مصرع أخيه . ولما توطد سلطان ألفونسو ، واشتد بأسه على ملوك الطوائف ، وأخذ يرهقهم بمطالبه فى الجزية ، كان رسوله إلى المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية فى سنة ١٠٧٩ م (٤٧٢ هـ) هو « السيد » نفسه . وقد اشترك السيد يومئذ مع قوات ابن عباد فى معركة وقعت بينه وبين الأمير عبد الله ابن بلقين الصنهاجى صاحب غرناطة . وقد كان يغير على أراضى إشبيلية مع سرية من الفرسان النصارى ، فهزم عبد الله ، وسر المعتمد لذلك . وأدى الجزية المطلوبة مع طائفة من التحف والهدايا برسم ملك قشتاله .

وقضى السيد فى بلاط ملك قشتالة عامين آخرين . ولكن الظاهر أن الدسائس كانت تعمل ضده ، ووشى به بأنه احتجز التحف والهدايا التى تلقاها من المعتمد برسم مليكه ، هذا إلى أن الملك ألفونسو لم ينس له قط مخالفته من قبل لأخيه سانشو ضده . وانتصار أخيه عليه بمعاونته . ومن ثم فقد انتهى إلى أبعاد السيد عن بلاطه ونفيه عن أراضيه . وكان ذلك فى سنة ١٠٨١ م .

وهنا يبدأ الفصل الروائى حقاً فى حياة السيد الكمبيادور ، فيبدو مغامراً يبحث وراء طالعه ، ويخرج على كل اعتبار دينى وقومى ، فيؤجر نفسه وصحبه ، تارة للأمراء المسلمين وتارة للأمراء النصارى ، ويندس إلى كل ثورة تنشب ، أو حرب تضطرم هنا وهنالك ، ويطلب الغنم والسلطان ، حيثما استطاع ، وبأى الوسائل . وكانت ظروف اسبانيا المسلمة يومئذ ، مما يفسح المجال لأطماع جندى مغامر كالسيد . ذلك أن الأندلس ، كانت قد انتثرت ، عقب انهيار الخلافة

الأندلسية ، منذ أوائل القرن الخامس الهجرى ، إلى إمارات وممالك عدة ، وقامت فى كل قاعدة أندلسية ، إمارة أو مملكة مستقلة ، على رأسها قاض أو قائد أو حاكم سابق من ذوى الجاه والعصبية ، فقام بنوجهور فى قرطبة . وبنو عباد فى إشبيلية ، وبنو ذو النون فى طليطلة ، وبنو الأفطس فى بطليوس . وأنشأ الفتيان الصقالبة إمارات مستقلة فى ألمرية ومرسية وبلنسية ودانية . ثم خلفتهم فى رياستها زعامات أخرى ، فكان فى ألمرية ، بنو صمادح ، وفى مرسية بنوطاهر . وفى بلنسية بنو عامر ، وكان فى سرقسطة بنوهود . وأنشأ الزعماء البربر إمارات مستقلة فى غرناطة ومالقة ، وفى قواعد أخرى من الأندلس الوسطى ، وقامت بغربى الأندلس عدة امارات صغيرة مستقلة . وهكذا قامت فى ربوع الأندلس . التى كانت قبل ذلك تؤلف دولة كبيرة قوية متماسكة ، دويلات وأمارات عديدة ، تتشح كل منها بالسيادة المستقلة . وكان من نكد الطالع أن هذه الدويلات المسلمة الصغيرة . وهى التى تسمى فى تاريخ الأندلس ، « بدول الطوائف» كانت جميعاً . يسودها الخلاف والشقاق ، لا تجمعها أمام العدو والمشترك — اسبانيا النصرانية — أية كلمة أوجبهة مشتركة ، بل كانت جميعاً تخاصم بعضها بعضاً . وتضطرم بينها الحرب الأهلية بلا إنقطاع ، وكل تحاول أن تنتزع ماتستطيع من أراضى الأخرى . وهكذا كانت المأساة تتكرر كل يوم فى ربوع الأندلس المسلمة ، واسبانيا النصرانية من وراء ذلك ترقب الفرص ، للضرب والتفريق بين هذه الدول المتخاصمة المتنابذة ، وأمراء الطوائف فيما بين ذلك يلتجئون إلى الملوك النصارى ، يرتمون على اعتابهم ، ويلتمسون نصرتهم كل على الآخر . والملوك النصارى ملوك قشتالة ، وأرجوان وناڤار وقطلونية ، يهرعون إلى تلبية هذه الدعوات ، وينتهزون هذه الفرص . وكانت هذه الحروب الانتحارية الصغيرة ، تجرى يومئذ فى سائر أنحاء الأندلس ، وكانت فى الوقت الذى خرج فيه السيد بعصابته من قشتالة تضطرم بنوع خاص فى الإمارات الشمالية والشرقية التى استقر فيها بنوهود بين سرقسطة ، وثغور الشاطئ ، وفيما بينها وبين بلنسية . فإلى هذا الميدان المضطرم هبط السيد وجنوده المرتزقة ، والتحق أولا بخدمة المقتدر بن هود أمير سرقسطة . وكان المقتدر قد استعان على محاربة أخيه المظفر صاحب لاردة ، بجنود من

البشكنس والقطلان حتى هزمه أخيراً وأسره . فكان المظفر أسيراً وقت أن حل السيد ببلاط المقتدر . ثم توفى المقتدر بعد ذلك بقليل فى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) بعد أن قسم مملكته بين ولديه ، فحض المؤتمن بسرقسطة وأعمالها ، وأخاه المنذر بدانية ، وطرطوشة ولاردة . ثم وقعت الحرب الأهلية بين الأخوين ، فاستعان المنذر بسانشو راميرز ملك أراجون ، وكونت برشلونة ،وحارب السيد إلى جانب المؤتمن ، ولد حاميه والمحسن إليه ، وانتهى الأمر بهزيمة المنذر ، وعاد السيد إلى سرقسطة ظافراً ، فاحتفى به أهلها أيما احتفاء ، وبالغ المؤتمن فى إكرامه وإثابته . وكان المؤتمن يعتز بصداقة السيد ومحالفته ، ويعلى من شأنه ، ويأخذ بنصحه فى معظم الأمور ، ولايرى فى ذلك غضاضة وانحرافاً . وكان المنذر من جهة أخرى يبغض السيد أشد البغض ، ويستعين فى محاربته بالأمراء القطلان أصحاب برشلونة. ولما توفى المؤتمن فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) خلفه فى سرقسطة وأعمالها ولده المستعين ، والتحق السيد بخدمته أيضاً ، واستمرعلى مكانته ونفوذه فى المملكة . وحمل ابن بسام صاحب الذخيرة على حماية بنى هود للسيد ،واستخدامهم إياه ، وإعلائهم لشأنه فى قوله : « وكان بنو هود هم الذين أخرجوه (يعنى السيد) من الخمول ، مستظهرين به على بغيهم الطويل ، وسلطوه على أقطار الجزيرة ، يضع قدمه على صفحات أنجادها ، ويركز علمه فى أفلاذ أكبادها ، حتى غلظ أمره ، وعم أقاصيها ودانيها شره »[1] .

---

(١) كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » — القسم الثالث — مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد لوحة ١٨ ب . ومؤلف هذه الموسوعة الأدبية التاريخية الجليلة ، أعنى كتاب الذخيرة ، هو أبو الحسن على بن بسام الشنترينى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) . وأصله من مدينة شنترين من غربى الأندلس . وقد كتب كتابه بمدينة قرطبة وانتهى من كتابته فى سنة ٥٠٣ هـ . وينقسم كتاب الذخيرة إلى أربعة أقسام أومجلدات كبيرة : الأول يختص بقرطبة وبلاد متوسطة الأندلس ، وأعيانها وكتابها وشعرائها ، والثانى يختص بغرب الأندلس وحضرة اشبيلية ، وبلاد ساحل البحر المحيط وأخبار رؤسائها وأعيانها ، والثالث يختص بالجانب الشرقى من الأندلس والثغر الأعلى وأعيان كتابه وشعرائه ، والرابع يختص بمن طرأ على الجزيرة من الأدباء والشعراء ، ومن نجم فى عصر المؤلف بافريقية والشام والعراق . وكتاب الذخيرة من أنفس المصادر التاريخية والأدبية والاجتماعية الأندلسية ، ولاسيما عن عصر الطوائف وأمرائه وأدبائه وشعرائه . ومما يدعو إلى الغبطة أن البحث قد استطاع أخيراً أن يضع يده على النص الكامل لكتاب الذخيرة بأقسامه الأربعة ، بعد أن لبث مدة طويلة مفتقداً لبعض أجزائه . وقد نشرت بعض أجزاء من الذخيرة بعناية جامعة القاهرة . ويوجد منه بدار الكتب المصرية نسخة =

وكانت بلنسية ، وهى أعظم ثغور الأندلس الشرقية ، فى ذلك الحين فريسة للاضطراب والفوضى ، وكانت حينما سقطت الخلافة ، وذاعت الفوضى فى جنبات الأندلس ، قد قام بها عبدان من العبيد العامريين ، هما مظفر ومبارك ، واستطاعا أن يفوزا بحكمها بضعة أعوام . ثم حكمها من بعدهما مجاهد العامرى ، وهو أيضاً من الفتيان العامرين ، فترة قصيرة . وبايع الفتيان العامريون بعد ذلك على إمارتها لعبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور . حفيد المنصور بن أبى عامر . واستطالت إمارة عبد العزيز المنصور لبلنسية زهاء أربعين عاماً . تقلب خلالها فى حوادث وخطوب جمة . وحكم خلالها ألمرية مدى حين . ولما توفى فى سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦١ م) ، خلفه فى الإمارة ولده عبد الملك . ولقب بالمظفر ، وكانت إمارة بلنسية تشتمل يومئذ على شاطبة ، وعلى قونقة وغيرها من القواعد القريبة . وكان المظفر قد تزوج ابنة المأمون بن ذى النون ملك طليطلة .وكان المأمون من أعظم ملوك الطوائف ،وأقواهم جانباً .وكان يحقد على صهره عبد الملك ، لما ظهر من سوء تصرفه ، واستهتاره . وإدمانه على الشراب ، ولأنه كان يسىء إلى ابنته . ويبالغ فى إهانتها وإيلامها . وكان لذلك يضمر نحوه نيات سيئة . فلما زحف القشتاليون على بلنسية فى سنة ١٠٦٥م بقيادة ملكهم فرناندو ، وحاصروها ، سار المأمون فى قواته بحجة إنجاد صهره عبد الملك .وما كاد القشتاليون يرتدون عن المدينة حتى دخلها المأمون ، وعزل صهره وقبض عليه ، واعتقله بقلعة قونقة . وعهد بشئون بلنسية إلى الوزير أبى بكر بن عبد العزيز . ولما توفى أبو بكر . خلفه فى حكم بلنسية وأعمالها ولده عثمان بن أبى بكر .

وفى تلك الأثناء تطورت الحوادث فى طليطلة . وتوفى المأمون بن ذى النون ، وخلفه فى الحكم حفيده يحيى بن ذى النون الملقب بالقادر . وكان القادر أميراً حدثاً ضعيفاً ، فاضطربت الأمور فى عهده ، ولم تلبث أن اضطرمت طليطلة بالثورة عليه ، فلم ير وسيلة لحماية عرشه سوى الالتجاء إلى حماية ألفونسو السادس ملك

= خطية تحتوى على قسمين فقط هما الأول والثانى . ومما هو جدير بالذكر أن كتاب الذخيرة كان ضمن المصادر الهامة التى اعتمد عليها الملك ألفونسو العالم ملك قشتالة فى كتابة القسم الخاص بحوادث بلنسية ، وتاريخ السيد الكمبيادور — من موسوعته التاريخية Crónica General ويبدو ذلك جلياً فى الفصول رقم ٩٠٠ إلى ٩١٠ من تلك الموسوعة . راجع بالأخص Primera Crónica General (Ed. R.M. Pidal) T.II. P. 568 — 575

قشتالة . وكان هذا الملك القوى ، يصول بسلطانه وقواته المتفوقة على ملوك الطوائف ، ويطاردهم واحداً بعد الآخر ، ويرهقهم بطلب الجزية ومختلف المغارم ، وكانوا جميعاً يعترفون بطاعته . وكان ضغطه يشتد بالأخص على طليطلة وأميرها ، وكانت طليطلة أقرب قواعد الطوائف إليه ، وأهمها فى نظره ، لأنها كانت هى الحاجز القوى ، الذى يحول دون تقدمه إلى قلب الأندلس . فلما استنصر به القادر ، استجاب فى الحال لدعوته ، وبعث معه حملة من الجند القشتاليين ، هاجمت المدينة الثائرة وأخضعتها ، وأجلست ملكها الضعيف على عرشه الواهى ، وذلك فى أواخر سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) . ثم تتابعت الحوادث بعد ذلك بسرعة وألفونسو يدبر خططه ، ويعد عدته ، لافتتاح طليطلة ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع أن يظفر ببغيته ، وسقطت القاعدة الأندلسية التالدة فى يده فى فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو سنة ١٠٨٥ م) .

وكان ألفونسو ، قد تعهد فيما تعهد للقادر لقاء تسليم المدينة ، أن يمكنه من استرداد بلنسية ، التى كانت تحت سيادة جده المأمون ، ثم خرجت من قبضته على يد الوزير أبى بكر . فلما خرج القادر من طليطلة ، سار فى أهله وأمواله ، صوب بلنسية ، ومعه فرقة قوية من الجند النصارى أمده بها ألفونسو السادس . وكان أهل بلنسية فى ذلك الحين قد بحثوا الأمر ، وانتهوا إلى قبول دعوى القادر باعتباره صاحب الولاية الشرعية ، وخشية أن تتعرض المدينة لعيث القشتاليين ، فأعلنوا خلع عثمان بن أبى بكر عن الولاية ، ودخل القادر بلنسية ، وأعلن أميراً لها ، وعسكر حلفاؤه القشتاليون فى ضاحية الرُّصافة قريباً منها (فبراير سنة ١٠٨٦ م) .

ولكن القادر ما كاد يتولى حكم بلنسية ، حتى فرض على المدينة حكم طغيان شامل ، فمال على أهلها ، وأذلهم وأرهقهم بمطالبه المتوالية ، من الأموال والمغارم ، التى تتطلبها نفقات حلفائه القشتاليين ، وحشد حوله طائفة من أوباش الجند يعيثون فى المدينة فساداً ، ويعتدون على الأموال والأنفس ، واضطر كثير من الأعيان والأكابر أن يغادروا المدينة ، فراراً من هذا الطغيان المرهق .

ولم ينقذ أهل بلنسية من هذه المحنة سوى تطور الحوادث فى الناحية الأخرى من شبه الجزيرة . ذلك أن المرابطين عبروا من عدوة المغرب ، بقيادة عاهلهم

يوسف بن تاشفين إلى الأندلس فى ربيع الآخر سنة ٤٧٩ هـ (أغسطس ١٨٠٦ م) غياثاً لأمرائها وللإسلام ، وأخذ ملك قشتالة يجمع الجند من كل ناحية ، واضطر الجند القشتاليون إلى مغادرة بلنسية ليكونوا إلى جانب مليكهم . ونشبت بين الجيوش النصرانية المتحدة ، وبين المرابطين وجيوش الطوائف ، معركة الزلاّقة الشهيرة ، التى كتب فيها النصر الباهر لجيوش الإسلام ، وسحق فيها القشتاليون ، وحلفاؤهم وذلك فى شهر رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) .

وعندئذ تنفس أهل بلنسية الصعداء ، وأخذوا يرفعون أصواتهم ضد القادر وحكمه . وبدأ حكام الحصون المجاورة فى التحرك والعصيان . واشتد الإضطراب بالمدينة ، وسرت إليها الفوضى . وشعر القادر أنه عاجز عن مواجهة هذا الموقف الصعب ، وهو أعزل لاسند له ، وأخذت الأطماع القديمة ، التى كانت تخالج الأمراء المجاورين حول امتلاك بلنسية ، تبدو من مكامنها . وكان المنذر بن هود صاحب لاردة وطرطوشة ، أول من بادر إلى العمل فى هذا السبيل ، فسار فى قواته جنوباً صوب بلنسية ومعه فرقة من المرتزقة القطلان ، وضرب الحصار حول المدينة ، وكان بداخلها كثير من الأنصار يؤيدون قضيته . ولم ير القادر وسيلة للخروج من هذا المأزق ، سوى الاستغاثة بألفونسو السادس ملك قشتالة . وبعث فى نفس الوقت بصريخه إلى المستعين بن هود صاحب سرقسطة وخصيم عمه المنذر. وكان المستعين يتوق أيضاً لافتتاح بلنسية . وكان أبوه المؤتمن قد بذل من قبل محاولة قوية لافتتاحها ، ولكنه فشل فى محاولته ، فلما تلقى المستعين صريخ القادر ، بادر بالاستجابة ، وهرع إلى بلنسية فى بعض قواته متظاهراً بالسير إلى إنجادها ، وهو يبطن نية الاستيلاء عليها ، وكان إلى جانبه فى هذه الحملة حليفه السيد الكمبيادور فى قواته . وكان الحليفان قد تعاهدا سراً على أن يتعاونا فى افتتاح بلنسية . وأن تكون الأسلاب كلها من نصيب السيد ، والمدينة ذاتها من نصيب المستعين . وكان جيش السيد فى ذلك الحين يبلغ نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، فلما علم المنذر بن هود بأمر هذه الحملة المشتركة ، خشى عاقبة الاصطدام ، ورفع الحصار عن بلنسية قبل أن يقدم إليها خصومه ، وعاد أدراجه .

وماكاد المستعين والسيد يصلان إلى بلنسية ، حتى كشف السيد عن حقيقة

خلاله ، خلال مغامر لاذمام له يبيع العدو والصديق معاً . ذلك أنه تلقى من القادر فى الخفاء تحفاً ثمينة . فماطل فى غزو المدينة بحجة أن القادر مستظل بحماية ألفونسو. ونصح القادر سراً بألا يسلم المدينة لأحد ، وهو يعد القادر والمستعين كل بمعزل عن الآخر أنه سوف يعاونه على تحقية بغيته فى الوقت الملائم ؛ ويؤكد للمستعين أنه على أهبة لمعاونته على افتتاح المدينة إذا حصل على موافقة ألفونسو . وأرسل السيد فى الوقت نفسه إلى ملك قشتالة ، يؤكد له ولاءه وخضوعه ، ويؤكد له أنه فيما يعمله وفيما يغنمه إنما هو تابع له ، وأن جيشه هو تحت تصرف الملك ، وأنه يقاتل المسلمين ؛ وسوف يحصل على سيادة شرقى الأندلس بسهولة . وقد وافق ألفونسو على رسالة السيد ، وأذن له أن يقاتل حيثما شاء فى أراضى المسلمين . ثم سار السيد إلى قشتالة ، واستطاع أن يحصل من الملك ألفونسو على مرسوم ملكى يصرح فيه للسيد ويؤكد أن كل الأراضى التى يفتتحها من بلاد المسلمين تغدو ملكاً له ، يرثه عقبه من بعده .

وأدرك المستعين خلال ذلك ، مدى نفاق السيد وغدره ، فقطع علائقه معه ، واتجه إلى محالفة الكونت برنجير أمير برشلونة ، وكان من ألد أعداء السيد . وقدم المستعين إلى الكونت أموالا جليلة ، وبعثه فى بعض قواته لمحاصرة بلنسية . ولكن القادر اعتزم أن يصمد لهذا الحصار الجديد ، حتى يعود السيد من قشتالة . وأخيراً عاد السيد من قشتالة . ومعه جيش قوى من سبعة آلاف مقاتل ، واخترق أراضى السهلة ، وأرغم أميرها المسلم ابن رزين على دفع الجزية . وكان الكونت برنجير ما يزال على محاصرته لبلنسية ، فلما اقترب منها السيد بقواته ، نشبت بينهما معركة هزم فيها الكونت وأسر مع نفر من أصحابه ، ولم يطلقهم السيد إلا لقاء فدية كبيرة. ثم انتهى الأمر بينهما إلى التفاهم ، وعاد الكونت بجيشه شمالا إلى برشلونة .

وعندئذ غدا السيد قائد جيش خطر من المرتزقة ، أو بالحرى رئيس عصابة ناهبة تجوب أنحاء الولايات الشرقية طلباً للغنيمة والسلب ، وأضحى مثار الروع والرعب فى هذه الأنحاء . وكان السيد بعد أن هزم خصمه الكونت برنجير ، قد سار إلى مربيطر وأخضع صاحبها ابن لبون على دفع الجزية ، ثم نزل أخيراً بجنده فى « الكدية » ضاحية بلنسية الشمالية . فى الحال بعث إليه القادر بالأموال والتحف ،

وأبلغه أنه يضع نفسه تحت حمايته ، ويؤدى له الجزية ؛ واتفق بينهما على أن تكون الجزية ألف دينار كل أسبوع ، على أن يقوم السيد بحمايته من سائر أعدائه .

وخرج السيد من معسكره فى « الكدية » إلى إمارة ألبونت القريبة ، وأرغم أميرها عبد الله بن قاسم على أن يدفع الجزية ، ثم عاد جنوباً وعسكر فى بلدة « ركانه » الواقعة غربى بلنسية .وهكذا أخضع السيد لصولته سائر الإمارات المسلمة فى هذه المنطقة : بلنسية ، ومربيطر ، وألبونت . وشنتمرية الشرق ، وفرض عليها جميعاً الإتاوات الفادحة ، واستقر بقواته على مقربة منها ، تتردد بعوثه فى أراضيها ، وتشعرها فى كل لحظة بسلطانه وجبروته .

وفى ذلك الحين وقعت حوادث جديدة كان لها أثر فى تطور موقف السيد . أولها أن خصوم السيد فى بلاط قشتالة ، استطاعوا أن يوقعوا به لدى ملك قشتالة ، وأن يصوروا له تصرفاته فى صورة العقوق والخيانة . وأمر الملك بناء على ذلك بإخلاء سائر الحصون والدور الخاصة بالسيد ، وبأن يقبض على زوجه وأولاده الصغار ، لأن القانون كان ينص عندئذ على تضامن الأسرة فى الأمور الجنائية . ومن جهة أخرى ، فقد تطورت الأمور فى الثغر الأعلى ، وشعر المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، أن تقدم المرابطين فى شرقى الأندلس ،واستيلاءهم على ثغر مرسية ، مما ينذر بالخطر ، ويخشى معه أن يستمر تقدمهم نحو الشمال . فعندئذ استغاث بالسيد مرة أخرى ، وعقد معه حلفاً جديداً .وسار السيد فى جيشه إلى سرقسطة ، وعسكر على مقربة منها . وهنالك عقد محالفة مع ملك ناقار ، وأخرى مع ملك أراجون . وكان الغرض من هذه الأحلاف جميعاً هو التعاون على دفع خطر المرابطين الداهم ، وإنقاذ شرقى الأندلس من سلطانهم . ولبث السيد حيناً فى سرقسطة ، ينظم شئونها وخططها الدفاعية . وهذا ما يشير إليه ابن بسام فى الذخيرة بقوله : « ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود (المستعين) المنتزى إلى وقتنا هذا على ثغر سرقسطة ، بعساكر أمير المسلمين (يريد يوسف بن تاشفين) تنسل منه كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلبا من أكلب الجلالقة ، يسمى بلذريق ، ويدعى بالكنبيطور. وكان عقالا ، وداء عضالا ، له فى الجزيرة وقائع ، وعلى طوائفها بضروب المكاره إطلاعات ومطالع »[1] .

---

(١) الذخيرة — القسم الثالث (مخطوط الأكاديمية السالف الذكر) لوحة ١٨ ب و ١٩ ا

وهنا اعتزم ألفونسو السادس ملك قشتالة أن يعاقب السيد على تصرفاته المتسمة بالخروج والخيانة ، والتعدى على حقوق قشتالة ، ولم يجد وسيلة أجدى لردع السيد ، وتحطيم نفوذه ، من أن يفتتح بلنسية ، التى كان السيد فى الواقع سيدها الحقيقى ، والتى كانت معقل سيادته ونفوذه . فعقد حلفاً مع جمهوريتى جنوه وبيزه لتمداه بالسفن من ناحية البحر قبالة بلنسية . ثم سار فى قواته إلى بلنسية وعسكر فى جُباله (كبولا) من ضواحيها ، وطلب إلى القادر وإلى سائر الحصون المجاورة ، أن يمتنعوا عن دفع أية إتاوة أوجزية للسيد، إذ هو صاحب الحق الشرعى فيها . وعلم السيد بكل ذلك وهو فى سرقسطة ، فبعث إلى ألفونسو يتوعده بأنه سوف يقابل القوة بالقوة . ولبث ألفونسو ينتظر عبثاً مقدم السفن الحليفة ، ومن جهة أخرى فقد شعر بحرج مركزه ونفاذ قواته ، فعندئذ أمر برفع الحصار ، وارتد فى قواته راجعاً إلى قشتالة . وجاءت السفن الحليفة بعد ابتعاده عن بلنسية ، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً . وعمد السيد فى الوقت نفسه إلى تنفيذ وعيده . وسار فى قواته من سرقسطة إلى قلهرة ، وعاث فى أحواز قشتالة ، انتقاماً من الملك ومستشاريه الذين حرضوه عليه . فلما رأى ألفونسو ذلك وشعر بخطورة هذا الاشتباك بينه وبين السيد ، اعتزم أن يعود إلى سياسة اللين ، وأصدر عفوه عن السيد ، وكتب إليه بذلك ، وبأنه قد رفع الحظر عن أملاكه ، وأطلق سراح أهله ، وأنه حر أن يعود إلى قشتالة متى شاء . وكان ذلك فى أوائل سنة ١٠٩٢ .

* * *

وكانت بلنسية خلال ذلك تعيش فى حالة اضطراب مستمر ، وكان البلنسيون يضطرمون سخطاً ، ويترقبون الفرص لتحطيم هذا النير المرهق الذى فرضه السيد عليهم . وكان قاضى المدينة جعفر بن عبد الله بن جحّاف المعافرى يتزعم الحزب المناوئ للسيد والقشتاليين بوجه عام ، ويناهض الحزب « الإسبانى » ، وهو الذى يلتف حول القادر . وكان يثير فى الجموع روح الثورة ، ويتطلع إلى انتزاع السلطة . وكان المرابطون قد اقتربوا فى ذلك الوقت من بلنسية باستيلائهم على مرسية ودانية ، ففاوض ابن جحاف قائد المرابطين ابن عائشة ، ووعده بتسليم المدينة إذا ساعده على محاربة القادر والسيد .فاستجاب لدعوته ، وبعث إليه سرية

من الجند المرابطين ، وماكاد المرابطون يظهرون فى شوارع المدينة ، حتى اضطرم البلنسيون حماسة ، وقاد ابن جحاف جموع الثائرين ، وقبض على ابن الفرج مندوب السيد فى المدينة ، واقتحم القصر وقبض على القادر ، وأمر به فقتل وحملت رأسه فوق رمح وطيف بها فى شوارع بلنسية ، وكان ذلك فى اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة ٤٨٥ هـ (٢٨ أكتوبر ١٠٩٢ م) . واحتوى ابن جحاف على طائفة عظيمة من الأموال والذخائر التى كان يحتفظ بها القادر ، وآلت السلطة بذلك إلى « الجماعة » . وفى اليوم التالى ، اختير ابن جحاف رئيسا للجماعة ، فتولى زمام الأمور ، وأخذ يحشد الجند ويحصن أطراف المدينة استعدادا للطوارئ .

ولما علم السيد بهذه التطورات المزعجة ، سار فى الحال فى قواته صوب بلنسية ، وفرض المغارم والأقوات على سائر الحصون الواقعة فى طريقه ، ونزل فى ضاحية « جُبالة » . وفى الحال ضرب الحصار على المدينة ، بعد أن أحرق ما حولها من الضياع والمروج ، ثم اقتحم « الكُدية » ضاحيتها الشمالية ، واستولى على معظم الأنحاء القريبة . وأنشأ ابن جحاف فرقة من المرابطين وغيرهم لتقاوم حملات السيد المخربة . وكثر الجدل داخل المدينة بين مختلف الأحزاب ، وبعث السيد سراً إلى ابن جحاف يطلب إليه طرد المرابطين ، ويتعهد بأن يترك له حكم المدينة ، وأن يمده بالعون والحماية . وكان ابن جحاف يخشى عدوان السيد وسطوته ، ويؤثر المسالمة والتفاهم ، وكان يؤيده فى ذلك معظم سكان المدينة فجرت المفاوضات بين الفريقين ، وانتهت إلى ما يأتى : أن يغادر المرابطون المدينة آمنين . وأن يعطى ابن جحاف إلى السيد ثمن ما كان مودعاً بمخازنه من المؤن وقت مصرع القادر ، وأن تؤدى له الجزية السابق تقريرها ، ومقدارها ألف دينار فى الأسبوع مع متأخراتها . وأن يحتفظ السيد بضاحية الكدية . ويرتد جنده إلى جبالة . وهكذا تم التفاهم بين الفريقين وعادت بلنسية إلى وضعها السابق ، بلداً يؤدى الجزية إلى السيد . وغادر المرابطون المدينة مغتبطين ، لما تولاهم من السأم فى بلد لا تهدأ ثائرته ، ولا يثبت على حال .

وعاد السيد فرابط بقواته فى جباله . ولكنه سرعان ما نقض عهوده ، شيمته التى تلازمه فى كل عمل وكل موطن ، وأخذ يغير فى جنده على ضواحى المدينة

ويعيث فيها ، ويرهق ابن جحّاف بمطالبه المالية التي لاحد لها ، وابن جحاف يعانى فى نفس الوقت من الاضطراب الداخلى : ومن دسائس خصومه ، وكان هؤلاء يتصلون سراً بالسيد ، ويأتمرون معه على ابن جحاف . ولما اشتط السيد فى مطالبه ، من احتلال بعض ضواحى المدينة ، وفى تسليم مواردها إليه ، وغير ذلك من المطالب التعسفية ، رفض ابن جحاف ، وأغلق أبواب المدينة ، واعتزم مقاومة السيد بكل ما وسع ، وبعث بصريخه إلى ابن عائشة قائد المرابطين ، وإلى المستعين ملك سرقسطة ، وإلى ألفونسو ملك قشتالة ، فلم ينل من أحد شيئاً سوى الوعود . وضرب السيد الحصار حول المدينة ، وعاث فى الأنحاء المجاورة ، ولم يدخر وسعاً فى قطع الأقوات عن المدينة المحصورة . واستمر هذا الحصار المرهق عشرين شهراً ، حتى بلغ الضيق بالبلنسيين أشده ، وفتك بهم الجوع والحرمان أيما فتك ، وعندئذ اجتمع أعيان المدينة ، وأرغموا ابن جحاف على مفاوضة السيد فى التسليم وعقد الصلح ، فأذعن لمشيئتهم ، وتولى وفد منهم مفاوضة السيد ، وتم الاتفاق على أن يبعث البلنسيون رسلهم إلى ملك سرقسطة ، وإلى ابن عائشة قائد المرابطين فى طلب النجدة ، وذلك فى ظرف خمسة عشر يوماً ، فإذا لم يقع الإنجاد من أحد ، سلمت المدينة بالشروط الآتية وهى :

« أن يبقى ابن جحاف قاضياً للمدينة وحاكماً لها ، وأن يؤمن فى نفسه وماله وأهله ، وأن يؤمن السكان فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يتولى مندوب السيد تحصيل الضرائب ، وأن يرابط السيد بجيشه فى « جبالة » ، وألا يقوم بتغيير شىء من شرائع المدينة وأحكامها .

عقدت الهدنة على هذه الشروط ، وسافر الرسل فى طلب النجدة ، ولكن مضت المهلة المقررة دون أن يعود أحد منهم . فى صباح اليوم التالى وهو يوم الخميس ١٥ يونيه سنة ١٠٩٤ م (٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ) خرج ابن جحاف ومعه عدة من أعيان المسلمين والنصارى ، ووقعوا مع السيد عهداً بتسليم المدينة ، على أن يؤمن سكانها فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يسلم ابن جحاف إلى السيد سائر أموال القادر . وعند الظهر فتحت بلنسية أبوابها للسيد الكمبيادور وجنده ، واحتشد البلنسيون بدورهم كالأشباح هزالا ليشهدوا دخول القشتاليين الظافرين بلدهم .

ودخل السيد وجنده بلنسية ، وفى الحال احتلوا أبراجها خلافاً لشروط الهدنة ، ونزل السيد بالقصر ، ثم جمع أشراف المدينة ، وألقى فيهم خطاباً وعدهم فيه ، بأن يسير شئون المدينة بالعدل ، وأن يستمع لظلامات أهلها ، وأن يرد إلى كل ذى حق حقه ، إلى غير ذلك من الوعود الخلابة . ومع ذلك فقد احتل النصارى معظم دور المدينة وضياعها ، ولم يستمع أحد إلى تذمر أوظلامة .وتسلم السيد من ابن جحاف أموال القادر وذخائره ، ولكنه شدد عليه فى طلب المزيد منها ، وطلب إليه الحلف أمام أعيان الشهود من الملتين ، فحلف ابن جحاف بأنه لم يخف منها شيئاً ، وليس لديه شيء منها ، وأنذره السيد بأنه إذا وجد لديه شيئاً مما تقدم ، فإنه سوف يستبيح دمه دون رحمة ، ووافق الشهود على هذا العهد . وشاءت الأقدار أن يقع السيد بعد ذلك بقليل ، على مخبأ الحلى والذخائر التى انتزعها ابن جحاف من القادر حين مقتله ، فكان ذلك نذيراً بنكبته المروعة ، التى يصفها لنا المؤرخ المعاصر ، وشاهد العيان، ابن علقمة فى عبارات مبكية .

ذلك أن السيد أمر فى الحال بالقبض على ابن جحاف وأفراد أسرته ، وعذبه عذاباً شديداً ، ثم أمر بإعدامه حرقاً . فأقيمت له وقدة كبيرة فى ساحة المدينة، وأحرق فيها بصورة مروعة . ولقى هذا القاضى المجاهد مصيره بشجاعة مؤثرة . ولم يعف السيد عن زوجته وبناته إلا بشق النفس . وأمر السيد كذلك بإحراق جماعة من أعلام بلنسية من صحب ابن جحاف ومعاونيه ، ومنهم أبو جعفر البتى الشاعر المشهور[1] . وبدا السيد عندئذ فى ثوبه الحقيقى ، ثوب الفاتح المتجبر ، والطاغية المنتقم ، فمال على البلنسيين وأذلهم واشتط فى إرهاقهم بصنوف المظالم والمغارم . وغادر بلنسية كثير من أهلها المسلمين ، واحتل النصارى دورهم . وغدا السيد ، وهو يزاول سلطانه بالقصر ، كأنه ملك متوج ، وسيد مملكة عظيمة ، وغدا باستيلائه على الثغر المسلم العظيم — بلنسية — سيد شرقى الأندلس كله . والواقع أن افتتاح بلنسية ، يعتبر فى الروايات القشتالية ، أعظم حدث فى حياة السيد ، وأعظم عمل بطولة استطاع أن يحققه .

---

(١) وهو أحمد بن عبد المولى البتى نسبة إلى بتة من قرى بلنسية . وكان من أكابر الأدباء وعلماء اللغة .

وفى محنة بلنسية يومئذ يقول الشاعر المعاصر ، أبو إسحاق بن خفاجة :

عاثت بساحتك العدا يادار ... ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد فى جنابك ناظر ... طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمحصت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان فى عرصاتها ... لا أنت أنت ولا الديار ديار

وروعت الأندلس لسقوط بلنسية فى أيدى النصارى ، كما روعت من قبل لسقوط طليطلة . وتوالى على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عاهل المغرب ، والظافر فى موقعة الزلاّقة ، صريخ الأندلس ، ورسائل أعيانها ، تصف ما أصاب بلنسية ، وشرق الأندلس كله من صنوف الدمار والويل والذل ، على أيدى النصارى . قال ابن بسام : « وتجرد أمير المسلمين عندما بلغه هذا النبأ الفظيع ، واتصل به هذا الرزء الشنيع ، فكانت قذى أجفانه وحماع شأنه ، وشغل يده ولسانه » . واعتزم أمير المسلمين أن يسترد المدينة الأندلسية العظيمة ، فسار إلى سبتة ، وحشد الجند ، وندب ابن أخيه محمداً بن تاشفين ليقود الحملة ، وكتب إلى حاكم غرناطة المرابطى ، وإلى أمراء شرقى الأندلس ، أن يجمعوا الجند للمعاونة فى استنقاذ بلنسية ، وعبرت الجنود المرابطية إلى شبه الجزيرة فى سبتمبر سنة ١٠٩٤ م ، أعني لثلاثة أشهر فقط من سقوط بلنسية ، واجتمعت الحشود الأندلسية ، وسارت القوات المتحدة ، صوب بلنسية ، فوصلت إلى ضواحى بلنسية الغربية فى شهر أكتوبر (رمضان سنة ٤٨٨ هـ) .

وكانت الأنباء قد وصلت إلى بلنسية ، بمقدم الجيش المرابطى ، فشاع الذعر بين النصارى ، واتخذ السيد إجراءات صارمة لتأمين الدفاع عن المدينة . ثم بدأت هجمات المرابطين على المدينة بشدة ، فلما رأى محمد بن تاشفين مناعة المدينة ، وصعوبة اقتحامها ، ضرب حولها الحصار المطبق . ولم تمض أيام قلائل ، حتى خرج السيد فى قواته بالليل ، وفاجأ المعسكر الإسلامى ، وهاجمه بشدة ، فأوقع فيه الاضطراب والذعر ، واستولى على غنائم عظيمة من الخيل والسلاح والعتاد والمؤن ، وقتل من المسلمين عدد جم . ثم عاد بسرعة ، وامتنع داخل المدينة .

واستمر الحصار طويلا ، وصمم المرابطون على ألا يبرحوا المدينة حتى تسقط

فى أيديهم . وبعث السيد إلى پيدرو الأول ملك أراجون يستنجد به ، وكتب أيضاً إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وجاء ملك أراجون لنجدته فى بعض قواته . ووقعت بين المسلمين والنصارى معركة شديدة عند جبل «منديز» هزم فيها المسلمون (يناير ١٠٩٧م) . ثم عاد ملك أراجون إلى بلاده ، وعاد السيد إلى المدينة .

وفى تلك الأثناء كان جيش مرابطى يسير من الجنوب نحو أراضى طليطلة ، ليشغل ملك قشتالة ، ويعيقه عن السير إلى بلنسية . ووقعت بين المرابطين وألفونسو السادس فى كونسوجرا موقعة هزم فيها القشتاليون ، وقتل فيها دون دېجو ابن السيد الوحيد . وفى نفس الوقت سار ابن عائشة والى مرسيه فى جيش ضخم إلى أحواز قونقة ، وهزم القشتاليين بقيادة ألبارهانيس . ثم التقى فى عوده نحو الجنوب بفرقة من جنود السيد ، فمزقها ولم ينج منها إلا عدد يسير فروا إلى بلنسية .

وكان السيد قد اشتد عليه المرض يومئذ ، وهدمه الإعياء . وأدمى قلبه مصرع ولده الوحيد ، فتوفى غماً وألماً . وذلك فى يوليه سنة ١٠٩٩ م . فتولت مكانه زوجه خمينا الدفاع عن المدينة . واستطاعت أن تصمد أمام هجمات المرابطين نحو عامين آخرين . وأخيراً بعثت إلى ألفونسو السادس تستغيث به ، وتعرض تسليم المدينة إليه . فهرع ألفونسو إلى بلنسية فى بعض قواته . ودخلها فى مارس سنة ١١٠٢م. وكانت القوات المرابطية ، قد اجتمعت قبل ذلك ببضعة أشهر . تحت إمرة قائدها الجديد الأمير أبى محمد المزدلى . تستعد للوثبة الحاسمة . فلما قدم ألفونسو بقواته ، اجتنبت لقاءه ، وعسكرت فى «كوليرا» الواقعة على البحر بين بلنسية وشاطبة . وقضى ألفونسو شهراً فى بلنسية ثم خرج إلى أحواز كوليرا . ينتسف الزروع ، ويستطلع الموقف . فهالته ضخامة الجيش المرابطى . فارتد إلى المدينة ، وهو عازم على إخلائها ، ولم يجرأ أن يغامر بجيشه مع العدو القوى فى مواقع نائية . وغادر بلنسية سكانها النصارى يحملون أمتعتهم وأموالهم . وخرجت خمينا زوجة السيد ، ومعها ذخائر القادر بن ذى النون ، والأموال العظيمة التى انتهبها السيد خلال غزواته ومغامراته ، وقد استولى ألفونسو فيما بعد على معظمها . ثم خرج ألفونسو وجنده ، وخرج معه فرسان السيد يحملون رفات زعيمهم لتدفن فى أراضى قشتالة (٤ مايو سنة ١١٠٢ م) . بيد أنه أمر قبل خروجه أن تحرق المدينة ، ولم يغادرها إلا بعد أن غدا معظمها أطلالا دارسة .

وفى اليوم التالى ، الخامس من شهر مايو سنة ١١٠٢ م ، الموافق شهر شعبان سنة ٤٩٥ هـ ، دخل المرابطون بلنسية ، وعاد الثغر العظيم بذلك إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى ، وعاد السلام يخيم على تلك الربوع ، وانهار باختفاء السيد ، أكبر عامل فى بث الروع والاضطراب إلى شرقى الأندلس ، ووقفت مغامرات النصارى فى تلك الأنحاء مدى حين .

* * *

والآن وقد انتهينا من استعراض حياة السيد الكمبيادور ، ومغامراته فى شرقى الأندلس ، وقصة افتتاحه لمملكة بلنسية المسلمة ، نود أن نقول كلمة عن شخصيته وخلاله ، وحكم التاريخ فى شأنه .

لقد اختلفت الآراء فى تصوير شخصية السيد وتقدير بطولته . فالآداب النصرانية ، والآداب القشتالية بوجه خاص ، تحاول أن تجعل منه مثلا أعلى للبطولة القومية ، وتحيط تاريخه بطائفة من الأساطير المغرقة ؛ وتذهب فى بعض الأحيان إلى اعتباره فضلا عن كونه بطلا قومياً لإسبانيا النصرانية ، قديساً يحيط الجلال بسيرته ، وتروى لنا أن الناس كانوا على هذا الاعتبار يحجون إلى مزاره ، ويلتمسون البركة من رفاته . وكان قد دفن أولا فى دير « سان پيدرو دى كردينا » على مقربة من مدينة برغش ، ثم نقلت رفاته بعد ذلك إلى بناء بلدية برغش . ومما يروى فى ذلك أن تابوت السيد فتح أيام الإمبراطور شارلكان فى سنة ١٥٤١ م ، فانتشرت منه رائحة ذكية ، ووجدت الجثة ملفوفة فى رداء عربى ومعها سيف ورمح ، وكان الشرق عظيما فى تلك الآونة ، فما كاد يفتح التابوت حتى هطل مطر غزير ، روى جميع أرجاء قشتالة . وأشد ما تبدو هذه الأساطير فى الشعر وفى الملاحم والأغانى القشتالية ، التى وضع معظمها بعد وفاة السيد بنحو قرن ؛ ففيها يصور السيد بأنه الفارس الكامل . الشهم الذى لايقهر فى الحرب ، وبأنه مثل الوطنية الحقة ، وزهرة الخلال والفضائل النصرانية . ومن أشهر الملاحم التى وضعت عن السيد ، وأقربها إلى عهده قصيدة أوملحمة Mio Cid (سيدى) الشهيرة ، التى كتبت بعد وفاته بنحو أربعين عاماً فقط ، وهى فضلا عما تحتويه من صور العصر وحوادثه وعاداته . تقدم لنا صورة كاملة لخلال السيد . وتشيد بوطنيته وإخلاصه وفروسيته ، وشهامته ورفقه ولينه ، ورقيق مشاعره .

بيد أننا إذا جردنا السيد من إغراق الأسطورة، ومن أضواء الملاحم والأغانى، وإذا أردنا أن نحكم على شخصيته من حوادث حياته، فإن الرأى المنزه المجرد من المؤثرات القومية والدينية، يحملنا فى الحال على الحكم عليه، وعلى خلاله بأقسى النعوت الأخلاقية والأدبية. لقد كان السيد جندياً عظيما، وقائداً بارعاً، مافى ذلك من ريب، ولقد أشادت الرواية الإسلامية المعاصرة ذاتها بخلاله كفارس وقائد مظفر، فيقول لنا ابن بسام مثلا فى وصفه مايأتى: «وكان هذا البائقة وقته، فى درب شهامته، واجتماع حزامته، وتناهى صرامته، آية من آيات ربه. وكان — لعنه الله — منصور العلم مظفراً على طرائق العجم، لقى زعماءهم، ففل حد جنودهم، وقتل بعدده اليسير، كثير عديدهم»[1]. ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن السيد، كان إلى جانب هذه الجرأة، والبراعة العسكرية، والمغامرات المظفرة يتصف بكثير من الرذائل والصفات الذميمة التى تأباها خلال الفروسة. فهو حسبما رأينا من حوادث حياته، التى استقيناها من أوثق المصادر، ولاسيما من أعظم مؤرخيه المعاصرين العلامة، منندیث پیدال[2]، يبدو مغامراً لامبدأ له ولا ذمام، يسعى إلى الكسب أينما كان وبأى الوسائل. وهو يبدأ حياته فى خدمة الملوك المسلمين أعداء أمته ودينه، ثم يخرج عليهم ويتنكر لهم. وهو يقطع مختلف العهود ثم ينقضها، متى رآها عقبة فى سبيل مآربه، وهو يبيع العدو والصديق لكسب المال. ويبدو فى معظم حملاته العسكرية، قاطع طريق، ورئيس عصابة ناهبة، أكثر منه قائد جيش مجاهد منظم. وهو جشع لاقتناء المال، لايخبو له فى ذلك ظمأ، وهو يناوئ مليكه وأمته، ويخرج عليه غير مرة. ويعيث فى أراضى بلاده، وينتهك حرماتها، تحقيقاً لمآربه الشخصية، وأغراضه المادية. وعلى العموم فهو يبدو مغامراً يجمع فى شخصه كل رذائل عصره. وهو بذلك أبعد من أن يكون بطلا قومياً. وأشد بعداً من أن يبدو قديساً خارقاً.

والتفكير الغربى نفسه يختلف فى تقدير السيد ومنزلته من البطولة. فالعلامة المستشرق دوزى مثلا يخصص لحياته كتابا، وينتهى فيه إلى أن السيد لم يكن إلا جندياً مغامراً يبحث وراء طالعه، ويجمع فى شخصه من رذائل عصره أكثر مما

---

(١) كتاب الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط السالف الذكر لوحة ١١٩

(٢) فى كتابه R. M. Pidal : La Espana del Cid (Madrid 1947) ويقع فى مجلدين كبيرين ويعتبر أغزر وأقيم، مرجع كتب عن السيد الكمبيادور وعصره.

يجمع من فضائله(١) ويجاريه فى هذا الرأى العلامة الفرنسى رينان . ويقول : « إنه لم يفقد بطل بخروجه من حيز الأسطورة إلى حيز التاريخ قدر ما فقد السيد » ، ولكن العلامة منديث پيدال ، مؤرخ السيد ، يخالف كل هذه الآراء ، ويبالغ فى تقدير السيد ، ويخصص لتصوير بطولته شذورا عديدة ، ويقول « إن الشعر والتاريخ يتفقان فى شأنه ، وإنه بالعكس لايوجد بطل ملاحم أكثر لمعاناً فى ظل التاريخ »(٢) .

ويخصص ابن بسام ، وهو معاصر لمعظم الأحداث التى خاضها السيد ، لشخصية السيد وأعماله شذوراً كثيرة ، بيد أنه قد كُتب عن السيد ، وعن مأساة بلنسية بالأخص وثيقة عربية مؤثرة كتبها مؤرخ بلنسى ،وشاهد عيان للحوادث ، هو أبوعبدالله محمد بن خلف الصدفى المعروف بابن علقمة . وهو أديب وشاعر ولد ببلنسية سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م) وتوفى بها سنة ٥٠٩ هـ(١١١٥ م) . وقد هزته الحوادث والخطوب المفجعة ، التى مرت بوطنه بلنسية ،والتى شهدها عن كثب ، فألف تاريخاً لحوادث عصره . ولاسيما افتتاح السيد لبلنسية ،وما اقترن به من المآسى . ويقول لنا ابن الأبار إن هذا المؤلف كان يسمى « البيان الواضح فى الملم الفادح »(٣) . وقد نوه بتاريخ بلنسية هذا الذى ضاع ، ولم يصلنا ، فضلا عن ابن الأبار ، وهو بلنسى أيضاً ، كثير من المؤرخين اللاحقين . هذا وقد أثبت البحث الحديث ، أن التواريخ القشتالية المعاصرة واللاحقة ، قد نقلت كثيراً مما ورد فى تاريخ ابن علقمة ، عن أعمال السيد وحوادث بلنسية ، وذلك إما بطريق مباشر ، أو عن طريق ما نقله منه ابن بسام فى الذخيرة .ويبدو ذلك بنوع خاص فى تاريخ ألفونسو العالم Crónica General — حسبما أشرنا إليه من قبل(٤) .

---

(١) كتاب دوزى المشار إليه هو : Le Cid d'après de nouveaux Documents (Leyde 1860) وقد نشر فى الطبعة الثالثة من كتاب دوزى : Recherches ; V.II.p. 1—233

(٢) R. M.Pidal : ibid ; V.II.p. 593-604

(٣) فى كتاب « التكملة » ج ١ ، ترجمة رقم ٥١٤ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و٣٠٦ . وابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٩١

(٤) يراجع فى تاريخ السيد وحوادث بلنسية : البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و٣٠٦ ، ونفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٥٧٧ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٠٣ و٢٠٤ . والذخيرة — القسم الثالث المخطوط اللوحات من ١٩ إلى ٢٦ . وكذلك دوزى فى مؤلفه المشار إليه Le Cid المنشور ضمن كتابه : Recherches sur L'Histoire et Littérature d'Espagne au Moyen Age وكذلك مؤلف الأستاذ پيدال الذى سبقت الإشارة إليه : La Espana del Cid وأخيراً كتاب : A.P. Ihars : Valencia Arabe V.1. p. 227—332

الفصل الثاني

سقوط طليطلة

٤٧٨ هـ — ١٠٨٥ م

لبثت الأندلس أو اسبانيا المسلمة ، نحو ثلاثة قرون كتلة واحدة ، تخضع لحكومة مركزية واحدة ، ولاتعرف داخل شبه الجزيرة خصما سوى اسبانيا النصرانية . فلما بدت أعراض الوهن على الخلافة الأموية ، وغلبت عليها الدولة العامرية القوية وسلبتها سلطانها الفعلى ، ولم تبق لها سوى رسومها الشكلية ، ولما انهار صرح الدولة العامرية غير بعيد (٣٩٩ هـ — ١٠٩٩ م) ، ثم تلتها الخلافة الأموية بعد فترة قصيرة من الاضطراب والاحتضار ، فتردت فى نفس الهاوية ، التى حفرتها يد المطامع والأهواء المضطرمة ، سقطت الأندلس فريسة الطغيان والفوضى ، واجتاحها سيل جارف من الانحلال والتفرق ، ووثب الخوارج المتطلعون إلى الرياسة ، الظمأى إلى السلطان والملك ، بالفريسة الممزقة ، فأجهزوا عليها ، وتخاطفوا أشلاءها ، وشادوا منها دولا وإمارات صغيرة مستقلة ، وما كادت هذه الدويلات أوالإمارات الناشئة تستقر فى مراكزها ، حتى نشطت إلى تمزيق بعضها البعض ، وعمدت إلى خوض سلسلة لانهاية لها من الحروب والمعارك الداخلية ، لم تفق من غمارها ، إلا حينما شعرت بيد اسبانيا النصرانية القوية ترهقها ، وتبطش بها واحدة بعد الأخرى ، وعندئذ اتجهت إلى الاستنجاد بإخوانها المسلمين — المرابطين — فماوراء البحر ، فعبروا إليها منقذين ، ثم انتهوا بالقضاء عليها .

هؤلاء الرؤساء الذين ورثوا ملك الدولة الأموية بالأندلس يسمون « ملوك الطوائف» .وقد وثبوا إلى الطليعة إبان العاصفة ، وهم ما بين وزير سابق ، وحاكم لإحدى المدن ، وشيخ للقضاء ، وكبير من ذوى المال والحسب ، وأنشأوا لهم حكومات مستقلة ، وأسراً ملوكية ، وسما شأن البعض منهم ، فامتد سلطانه إلى أكثر من ولاية من الولايات الكبيرة ، مثل بنى عباد ، الذين امتد سلطانهم من

أواسط الأندلس حتى شاطئ المحيط ، والذين سطع بلاطهم فى إشبيلية ، حتى كاد يعيد بروعته وبهائه ، سيرة البلاط الأموى الذهب .

وقد كان فى وسع هذه الدويلات المسلمة الجديدة ، أن تقيم سداً منيعاً فى وجه اسبانيا النصرانية ، لو اتحدت كلمتها ، على مقاومة العدو المشترك ، غير أنها شغلت عن الخطر العام الذى يهدد حياتها جميعاً ، بالمنازعات الشخصية ، والحروب الأهلية الصغيرة ، ولم تحجم فى سبيل مغالبة بعضها البعض ، عن الالتجاء إلى الملوك النصارى ، فيلبى هؤلاء مغتبطين تلك الدعوات الإنتحارية ، ويضربون هذه الدويلات الصغيرة بعضها ببعض ، وينتزعون منها كل ما يمكن انتزاعه من الأراضى والمدن .

* * *

وكانت طليطلة أول قاعدة أندلسية عظيمة ، وأول ركن منيع انهار من صرح الإسلام بالأندلس ، فى تلك الغمرة الإنتحارية المؤلمة التى سادت دول الطوائف. وكانت طليطلة منذ أواخر القرن الخامس الميلادى حاضرة ملوك القوط من خلفاء «ألاريك» ولكن العرب لم يتخذوها عقب الفتح قاعدة لدولة الإسلام فى اسبانيا ، بل اتخذوا إشبيلية أولا ، ثم استبدلوها غير بعيد بقرطبة ، التى لبثت قاعدة الولاة ثم قاعدة الدولة الأموية . وكانت طليطلة ، ومعظم سكانها من البربر والمولدين (المسلمين الإسبان) ، مدينة متمردة شديدة المراس ، تعتز بماضيها ، ومنعتها الطبيعة . وأسوارها وقلاعها الحصينة . والواقع أن طليطلة بموقعها على المنحدر الصخرى الوعر ، الذى يحتضنه نهر التاجُه ، ويحيط به فى شبه جزيرة ، ما زالت تنبىء عن حصانتها الطبيعية القديمة ، أيام كانت مدينة من أمنع مدن العصور الوسطى . وقد لبثت طليطلة ، طوال أيام الدولة الأموية فى طليعة المدن المتمردة الثائرة ، ولقى أمراء الدولة الأموية فى إخضاعها متاعب وصعابا كثيرة . ولما انتثر عقد الخلافة ، وقامت دول الطوائف فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، كانت طليطلة وأحوازها غنما لبنى ذى النون ، أقاموا بها مملكة لامعة زاهية ، ولكن سيئة الطالع قصيرة الأمد . وكان بنو ذو النون من أصول البربر ، ظهروا أيام المنصور بن أبى عامر ، على يد عميدهم عبد الرحمن بن ذى النون وولده

إسماعيل ، وخدم عبد الرحمن فى ذولة المنصور ، فلما ذهبت الدولة العامرية ، لحق بنوذو النون بالثغر الأوسط ، ومنح إسماعيل بن ذى النون ولاية قلعة إقليش فى عهد الخليفة سليمان الظافر (٤٠٣ — ٤٠٧ هـ) ، وأخذ إسماعيل من ذلك الحين ، وفى ظل الاضطراب العام الذى ساد فى النواحى ، يستولى على البلاد والأماكن المجاورة ، حتى بسط سلطانه على كورة شنتبرية (Santaver) كلها ، وهى تشمل المنطقة الواقعة عند منابع نهر التاجه ، فيما بين قونقة وأحواز طليطلة .

وكانت طليطلة حينما انهارت الخلافة وسادت الفتنة ، قد قام بالأمر فيها قاضيها أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدى ، وجماعة من الرؤساء . ثم وقع الخلاف بين القاضى وزملائه ، وانفرد أحدهم بالحكم ، وهو عبد الملك بن متيوه ، وأساء السيرة واضطربت الأمور ، فرأى أهل طليطلة ، أن يتخلصوا من أولئك الزعماء جملة ، وبعثوا رسلهم إلى عبد الرحمن بن ذى النون يستدعونه إلى الرياسة ، فبعث إليهم ولده إسماعيل ، وكان ذلك فى سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) .

وهكذا تولى إسماعيل بن ذى النون حكم طليطلة ، وبدأت بذلك دولة بنى ذى النون فى تلك المنطقة القاصية من الثغر الأوسط ، المتاخمة مباشرة لمملكة قشتالة ، ولم يطل أمد إسماعيل فى الملك أكثر من بضعة أعوام ، إذ توفى فى سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) . فخلفه ولده يحيى بن إسماعيل ، وتلقب بالمأمون . وكان المأمون أميراً قوياً نابهاً ، وفى عهده اتسعت حدود مملكة طليطلة ، وترامت شرقاً حتى بلنسية ، وأضحت من أعظم دول الطوائف رقعة وموارد ، وساد بها الأمن والسكينة والرخاء .

واستطال عهد المأمون بن ذى النون ثلاثة وثلاثين عاماً ، أنفق معظمها فى حروب داخلية مع منافسيه من ملوك الطوائف . وبدأت أول مرحلة من تلك الحروب بينه وبين ابن هود صاحب مملكة سرقسطة ، وهو جاره من الناحية الشمالية الشرقية ، وكان مدار النزاع بينهما السيادة على مدينة وادى الحجارة الحصينة . ووقعت الحرب بين الفريقين ، وانتصر ابن هود على المأمون فى البداية . فدخل وادى الحجارة ، وطارد قوات المأمون حتى طلبيرة . فجنح المأمون عندئذ إلى الاستنصار بفرناندو الأول ملك قشتالة ، ووعده بأن يؤدى له الجزية ،

فاستجاب فرناندو لدعوته ، وبعث معه قوة من جنده ، فعاثت فى أراضى ابن هود ، ثم كرر المأمون الإغارة عليها ، وعاث فيها بدوره ، وآثر ابن هود عندئذ أن يمتنع بقلاعه . ثم رأى أن يحذو حذو خصمه فى الاستنصار بملك قشتالة ، فبعث إليه أموالا وتحفاً طائلة . فاستجاب فرناندو أيضاً إلى دعوته ، وبعث قواته ، فعاثت فى أراضى ابن ذى النون شمالى طليطلة حتى وادى الحجارة ، فاستشاط المأمون غيظاً ، وبعث إلى غرسية ملك ناڤار أخى فرناندو ملك قشتالة بالأموال والتحف ، ملتمساً محالفته على ابن هود . فأغار غرسية بقواته على أراضى ابن هود فيما بين تطيلة ووشقة . ورد فرناندو على ذلك . بأن قام لحساب ابن هود بالإغارة على أحواز طليطلة وتخريبها .

وهكذا استمرت هذه الحرب الإنتحارية بين الأميرين المسلمين حينا ، وفرناندو ملك قشتالة . وأخوه غرسية ملك ناڤار ، يلعب كل فيها دوره الذميم ، فيغير النصارى من حلفاء ابن هود على أراضى طليطلة ، ويغير النصارى من حلفاء ابن ذى النون على أراضى ابن هود . ولم تنته هذه المأساة إلا بوفاة سليمان ابن هود فى سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٣م) بعد أن استمرت ثلاثة أعوام ، وهدأت الأمور بذلك نوعاً فى أراضى الثغر الأعلى .

ثم إن المأمون ما لبث أن اشتبك فى حرب جديدة مع جاره من الغرب المظفر ابن الأفطس صاحب بطليوس . بيد أن هذه الحرب لم تسفر عن نتائج ذات شأن . وكان فرناندو ملك قشتالة . قد عاد فى تلك الآونة إلى الإغارة على أراضى طليطلة ، ولكن فى تلك المرة لحسابه الخاص . وكان هذا الملك القوى ، يطمح إلى إخضاع ممالك الطوائف الضعيفة المتخاصمة أوعلى الأقل إلى إضعافها واستصفاء ثرواتها بمطالبه المرهقة فى الجزية . ولم يجد المأمون إزاء هذا العدوان بدأ من أن يذعن إلى الصلح وأن يتعهد بأداء الجزية لملك قشتالة .

وكانت خطوة المأمون التالية استيلاؤه على بلنسية ، وكان أمير بلنسية يومئذ هو صهره ، زوج ابنته عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى عامر ، وكان المأمون يحقد عليه ، لما كان يجنح إليه من سوء معاملة لإبنته وإيلامها . ولما كان يتصف به من التهتك والمجون . واعتزم أن ينزعه ملك بلنسية ، وكان القشتاليون قد ساروا إلى

بلنسية بغية الإغارة عليها . فسار المأمون فى أثرهم بحجة إنجاد المدينة ، ثم دخلها . وفى رواية أخرى أن المأمون سار إلى بلنسية مع حلفائه النصارى ، ودهم بلنسية والبلنسيون غارقون فى اللهو واللعب ، فلم يستطيعوا دفاعاً ، ودخل المأمون بلنسية ، وقبض على أميرها عبد الملك وآله (سنة ٤٥٧ هـ — ١٠٦٥ م) ، وأبقى على حياته رعياً لإبنته ، واكتفى باعتقاله فى قلعة إقليش .

ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى فرناندو ملك قشتالة ، وثارت بين أولاده الثلاثة ، سانشو ملك قشتالة ، وألفونسو ملك ليون ، وغرسية ملك جليقية ، حرب أهلية استمرت أعواماً ، وانتهت مرحلتها الأولى فى سنة ١٠٧١ م بانتصار سانشو ، واغتصابه ملك أخويه . فالتجأ غرسية إلى حماية ابن عباد ملك إشبيلية ، والتجأ ألفونسو إلى حماية المأمون بن ذى النون ، وعاش فى بلاط طليطلة ، عدة أشهر معززاً مكرماً ، حتى توفى أخوه سانشو قتيلا فى موقعة نشبت بينه وبين أخته أوراكا فى سمورة ، واستدعى ألفونسو فى الحال لاعتلاء عرش قشتالة ، خلفاً لأخيه . وسنرى فيما بعد ، كيف استغل هذا الأمير النصرانى ، شهامة مضيفه الأمير المسلم وكرمه ، فى دراسة خطط طليطلة . وترتيب الاستيلاء عليها ، حينما سنحت له الفرصة ، لإنزال ضربته الغادرة بحفيد المحسن إليه .

وكانت آخر مرحلة فى صراع المأمون مع زملائه أمراء الطوائف ، محاولة الاستيلاء على قرطبة . وكان النضال فى ذلك يضطرم بينه وبين المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية . وكان المأمون حينما زحف لأول مرة على قرطبة ، يحاول انتزاعها من حكامها بنى جهور ، قد رد عنها أمام قوات ابن عباد ، التى قدمت إليها استجابة لصريخ بنى جهور . ولكن قوات ابن عباد ، لم تلبث أن استولت عليها بطريقة غادرة وفقاً لخطة سرية وضعها المعتمد . وبذلك تم القضاء على دولة بنى جهور ، وخلصت قرطبة لبنى عباد ، وندب المعتمد ولده سراج الدولة حاكماً لها (٤٦٢ هـ — ١٠٧٠ م) .

بيد أن المأمون لبث يتحين الفرص ، لتنفيذ مشروعه فى انتزاع قرطبة . وهنا لجأ إلى سلاح التآمر ، فاتصل برجل من رجاله يدعى حكم بن عكاشه ، وكان مغامراً وافر الجرأة فاتفق معه المأمون على أن يقوم بتدبير مؤامرة للفتك بالعباديين

والاستيلاء على قرطبة . فوضع ابن عكاشة لذلك خطة محكمة ، وحشد إلى جانبه جمعاً من المغامرين الأشداء ، وفى ذات ليلة استطاع أن يجوز إلى قرطبة بمعاونة نفر من صحبه فتحوا له الأبواب ، وكان قائد العباديين ابن مرتين رجلا متهاوناً عاكفاً على لهوه ، فقصد المغيرون إلى دار الحاكم سراج الدولة ، ودهموه على غرة ، فقتل مدافعاً عن نفسه ، ثم قصدوا إلى دار ابن مرتين ففر تحت جنح الظلام ، ولكنه أخذ بعد ذلك وقتل ، وهكذا كللت خطة ابن عكاشة بالنجاح ، وبسط حكمه على المدينة ، ودعا الناس إلى بيعة المأمون بن ذى النون وطاعته ، وبعث إليه برأس سراج الدولة ولد المعتمد . وكان المأمون يقيم يومئذ فى بلنسية فقدم على عجل ، ودخل قرطبة فى موكب عظيم ، وذلك فى أواخر جمادى الآخرة سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) ولكنه لم يلبث طويلا حتى مرض وتوفى بعد أشهر قلائل ، فى أواخر ذى القعدة من نفس العام ، واحتمل جثمانه إلى طليطلة ودفن بها . وقيل إنه توفى مسموماً . وتولى ابن عكاشة حكم قرطبة باسم حفيده يحيى القادر الذى خلفه فى حكم طليطلة . وكانت وفاة المأمون إيذاناً بتطور الحوادث . ذلك أن المعتمد بن عباد ، كان يضطرم رغبة فى استرداد قرطبة والانتقام لمقتل ولده ، فما كاد المأمون يختفى من الميدان ، حتى زحف فى قواته على قرطبة ، وأدرك ابن عكاشة أنه لا طاقة له بالمقاومة ، ففر من المدينة ودخلها ابن عباد على الأثر ، وبعث فى أثر ابن عكاشة سرية من الفرسان طاردته حتى ظفرت به وقتلته ، وجيء به فصلب مع كلب إمعاناً فى الزراية به .

وكان المأمون بن ذى النون من أعظم ملوك الطوائف وأطولهم عهداً ، إذ حكم ثلاثة وثلاثين عاماً ، وامتدت رقعة مملكة طليطلة فى عهده حتى وصلت شرقاً إلى بلنسية ، وازدهرت وعمها الرخاء ، وجمع المأمون ثروات طائلة ، وابتنى بعاصمته قصوراً باذخة ، اشتهرت فى ذلك العصر بروعتها وفخامتها . وأنشأ له فى منحنى نهر التاجه ، ضاحية بديعة زودت بالقصور الفخمة والبساتين اليانعة ، وعرفت « بالمنية » . وكان يقصدها فى سويعات لهوه وأنسه .

* * *

وخلف المأمون حفيده ، يحيى بن ذى النون الملقب بالقادر ، ذلك أن هشاماً ولد المأمون توفى قبل وفاته ، وكان القادر فتى حدثاً قليل الخبرة والتجارب ،

قد ربى فى أحجار النساء ، ونشأ بين الخصيان والغانيات ، فغلب على أمره العبيد والموالى . وكان يحكم مملكة عظيمة ولكن مفككة . وتولى تدبير الأمور له فى البداية وزير أبيه أبو بكر بن الحديدى ، ولكنه ما لبث أن برم بسلطانه واستئثاره بالأمور ، وحرضه بعض خصومه على التخلص منه . فاستدعى ذات يوم نفراً من خصوم الوزير بمجلسه ، ثم استدعاه إليه . فلما حضر ابن الحديدى ورآهم استشعر الخطر ، وحاول أن يلوذ بحماية القادر ، ولكن القادر غادر المكان . وفتك الحضور بابن الحديدى . وتمت هذه الجريمة فى أوائل المحرم سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) .

ولكن سرعان ما أدرك القادر سقطته . ذلك أنه ما كاد الوزير القوى يختفى من الميدان ، حتى بدأت الفتن والدسائس تعمل عملها . وأخذ خصوم القادر وخصوم جده من قبل . يحيكون الدسائس من حوله . ويثيرون الشغب ضده . وكان ابن هود صاحب سرقسطة يرهقه بغاراته المتوالية . ويستعين ضده بالجند النصارى ، حتى انتهى بالاستيلاء على مدينة شنت برية . وثار فى بلنسية الوزير أبو بكر بن عبد العزيز وخلع طاعة بنى ذى النون . ورأى القادر أنه لا قبل له بمقاومة خصومه فى الداخل أو الخارج ، فاتجه إلى ألفونسو السادس يلتمس إليه العون والحماية . وكان المأمون قد اعترف بطاعته من قبل ، وتعهد له بأداء الجزية . وكان القادر يحذو حذوه فى تأدية الجزية . ولكن ملك قشتالة أخذ عندئذ يشتط فى مطالبه ، ويطالب القادر بالمال تباعاً ، وبتسليم بعض حصونه القريبة من الحدود . كل ذلك والقادر عاجز عن رده ، مرغم على إرضائه ، حتى كادت خزائنه تنضب . ولم تلبث أن اضطرمت طليطلة أخيراً بالثورة . فاضطر القادر أن يلوذ بالفرار . وأن يلتجئ مع أهله وولده إلى حصن وبذة (٤٧٣ هـ) . وألفى أهل طليطلة أنفسهم بلا أمير ولا حكومة تقى المدينة شر الفوضى ، فرأى جماعة منهم أن يستدعوا المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس ليتولى أمرهم ، فقبل المتوكل هذه المهمة كارهاً ، وقدم إلى طليطلة وتولى أمرها .

وعندئذ عاد القادر يلتمس عون ملك قشتالة ، فكتب إليه يذكره بسالف الود بينه وبين جده المأمون ، وما كان للمأمون من فضل فى عونه وإغاثته ، ويطلب منه العون فى محنته . فاستجاب ألفونسو لدعوته . وسار معه إلى طليطلة فى سرية

من فرسانه ، فلما شعر ابن الأفطس بحركة ألفونسو ومقدم القادر ، غادر طليطلة مسرعاً إلى حاضرته . ودخل القادر طليطلة فى حمى ألفونسو وجنده النصارى ، ومزق المعارضون شر ممزق ، وجلس القادر مرة أخرى على عرشه المضطرب الواهى ، والفوضى تسود المدينة ، وأهلها فى كدر ووجوم ، يتوقعون من تلك الحال سوء المصير ، وكان ذلك فى أواخر سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) .

* * *

والواقع أن كل شىء كان ينذر بوقوع النكبة المرتقبة . ذلك أن ألفونسو السادس ملك قشتالة كان يدبر خطته الكبرى للاستيلاء على طليطلة ، وكانت فى يد ملكها الضعيف المتخاذل ، تبدو له ثمرة دانية القطوف . وكان ألفونسو إلى جانب خططه العسكرية ، قد مهد لمشروعه بأعمال السياسة ، فعقد مع المعتمد بن عباد حلفاً . يتعهد فيه بأن يعاون ابن عباد بالجند المرتزقة ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين ، ويتعهد ابن عباد من جانبه بأن يؤدى إلى ملك قشتالة جزية كبيرة ، ويتعهد بالأخص بما هو أهم ، وهو أن يتركه حراً طليقاً فى أعماله ضد مملكة طليطلة ، وألا يعترض مشاريعه فى سبيل الاستيلاء عليها . وفى هذا الوقت كان معظم ملوك الطوائف . قد خضعوا لضغط ملك قشتالة ووعيده ، وتعهدوا بأداء الجزية . إلا المتوكل ابن الأفطس ملك بطليوس الشهم . فكان ألفونسو السادس بذلك على يقين من أن الجو قد أضحى ممهداً لتنفيذ مشروعه ، وأنه لن يجرأ أحد من الملوك المسلمين أن يقف فى طريقه . وكان مما يقوى أمله أن أهل طليطلة لم يكونوا على وفاق فيما بين أنفسهم ، وأنه يوجد من بينهم ثمة حزب قوى يناصر سياسته وأطاعه . ويشجعه على العمل . وكانت الغزوات ، والحملات المتوالية التى شنها ألفونسو على أراضى طليطلة حتى ذلك الحين . سواء لحسابه الخاص ، أو بحجة معاونة القادر ضد الثوار عليه ، قد نالت من هاتيك السهول وخربت كثيراً من ربوعها النضرة ، وأشاعت فيها الضيق والحاجة ، وأخذت العاصمة طليطلة نفسها تتأثر بهذا الضغط على مواردها . ثم أن ألفونسو بدأ سلسلة جديدة من هذه الحملات المخربة ، منذ سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) ، أى منذ عاد القادر إلى عرشه . واستمرت أربع سنوات كاملة ، وكانت تنظم بتواطئ

الحزب الموالى للنصارى من أهل طليطلة ، وفى كل عام يجتاح ألفونسو بقواته أراضى طليطلة من سائر جنباتها ، ويخرب الضياع ، ويقطع الأشجار ، وينسف الزروع ، ويسبى الذرية ، ولايجد أمامه من يرده عن هذا العيث ، وكان من الواضح أن هذه الأعمال المدمرة سوف تنتهى بالقضاء على كل موارد طليطلة ، وتجريدها من وسائل الدفاع ، وهو ماكان يرمى إليه ملك النصارى .

وكان موقف ملوك الطوائف فى تلك الآونة العصيبة من حياة اسبانيا المسلمة ، موقفاً يثير الألم والحسرة معاً . فقد كان أعظمهم وأقواهم المعتمد بن عباد ، بعد أن تفاهم مع ألفونسو السادس ، على تركه وشأنه فى مشاريعه نحو طليطلة ، مشغولا بمحاربة عبد الله بن بُلُقّين بن باديس صاحب غرناطة ، وكان المقتدر بن هود أقوى الأمراء المتاخمين لمملكة طليطلة من الشمال والشرق، مشغولا بنضاله المستمر ضد هجمات ملك أراجون وأمراء برشلونة . وكانت دول الطوائف الشرقية والجنوبية . مثل بلنسيه والمرية بعيدة عن ميدان الصراع ، لاتستطيع حتى إذا شاءت لبعد الشقة ، أن تنجد طليطلة بصورة ناجعة . وهكذا عدمت الحاضرة المسلمة ، كل مصدر للعون الحقيقى . كل ذلك والموقف يتحرج ، وألفونسو السادس ماض فى غزواته المدمرة ، حتى أضحت سهول طليطلة كلها خراباً يبابا . ولم يكن يخفى على عقلاء المسلمين أن الموقف عصيب . وأن سقوط طليطلة إحدى قواعد الأندلس العظمى فى يد قشتالة ، إنما هو نذير السقوط النهائى . وأن انهيار الحجر الأول فى صرح الدولة الإسلامية ، إنما هو بداية انهيار الصرح كله . فبادر جماعة منهم إلى الحث على الاتحاد واجتماع الكلمة إزاء الخطر المشترك ، ونهض القاضى العلامة أبو الوليد الباجى ، بإشارة المتوكل بن الأفطس ، فطاف بالولايات والقواعد الأندلسية صائحاً منذراً ، محذراً من عواقب التفرق ،وهو يهيب بملوك الطوائف وشعوبها ، أن يبادروا إلى نجدة طليطلة . مؤكداً أن ملك قشتالة سوف يسحق دول الطوائف كلها ، واحدة بعد الأخرى . ولكن جهود أولئك الرسل العقلاء ، الذين كانوا يستشفون ببصرهم الثاقب ، ما يضمره المستقبل من ويل ، ذهبت كلها سدى ، وغلبت الأطماع والأهواء الشخصية على كل تفكير سليم ، ومبدأ حكيم . ولبث ملك إشبيلية المعتمد ،وهو أول وأقرب من تقع عليه تبعة

الإنجاد ، يشهد تفاقم الخطب جامداً معرضاً ، وكل همه أن يحتفظ بما انتزعه من أراضى مملكة طليطلة الجنوبية . ولم يتقدم لإنجاد القادر وإنجاد أهل طليطلة ، سوى أمير بطليوس الشهم ، عمر المتوكل بن الأفطس ، فبعث ولده الفضل والى ماردة فى جيش قوى ، ليحاول رد ألفونسو عن طليطلة[١] ، ولكنه لم يستطع مغالبة لقوى النصارى المتفوقة ، فارتد آسفاً بعد أن خاض معارك دامية .

وهكذا تركت المدينة المنكوبة لمصيرها . وفى خريف سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤م) اقترب ألفونسو السادس بقواته من المدينة ، ونزل بالمنية المسورة الواقعة فى منحنى نهر التاجُه ، وهى المنية الشهيرة التى كان المأمون بن ذى النون قد زودها بالقصور الفخمة والبساتين اليانعة ، والتى تعرفها الرواية القشتالية ببستان الملك Huerta del Rey. ويقول ابن بسام فى وصفها « المنية المسورة التى كان المأمون يحشد إليها كل حسن ، ويباهى بها جنة عدن » . وضرب ألفونسو الحصار حول طليطلة ، ثم دخل الشتاء وشحت الأقوات ، واشتد الأمر بأهل المدينة . وكان موقف القادر بن ذى النون مريباً ، ولم يكن دون شك متفقاً فى الشعور مع الحزب المناوئ لملك قشتالة ، المتشدد فى المقاومة ، والحريص على رده ، وكان جماعة من هؤلاء يعملون بكل ما وسعوا إلى إطالة أمد المقاومة ، عسى أن يمل ملك قشتالة ويخبو عزمه . أو يتقدم لإنجادهم أحد ، ولكن الأمر كان يشتد بالمدينة المحصورة يوماً عن يوم . دون بادرة أمل ، حتى تحرج الموقف واضطر الزعماء والقادة بالاتفاق مع القادر ، أن يرسلوا إلى ملك قشتالة ، وفداً للتحدث فى أمر الصلح . فأبى أن يستقبلهم ، واستقبلهم وزيره سسنندو (وبالعربية ششنند) ، وكان هذا الوزير من النصارى المستعربين ، أسر حدثاً وربى فى بلاط إشبيلية ، وخدم المعتضد بن عباد ، ثم نزح إلى جليقية وخدم فى بلاط قشتالة ، وكان داهية ، ذا براعة فائقة . وكان هو المتولى لتنفيذ سياسة ألفونسو نحو ملوك الطوائف ، وتنظيم علائقه بهم . فانتهى بأن وطد سلطان مليكه لديهم ، والتزم معظمهم له بأداء الجزية . فلما قصد إليه وفد طليطلة استمع إليهم ، وأبدى أنه لافائدة من المفاوضة ، وأنه لابد من تسليم المدينة ، وأن مليكه لن يتزحزح عن مطلبه قيد شعرة . ويقول لنا ابن بسام فى هذه المناسبة ، أن سسنندو أدخل زعماء طليطلة لدى مليكه ، وأن ألفونسو السادس حينما ذكروا له أنهم

ينتظرون العون والإنجاد من بعض ملوك الطوائف ، أنبهم وسخر منهم ، واستدعى من خيامه سفراء ملوك الطوائف ، وقد كانوا جميعاً يومئذ لديه ، يسعون إلى خطب وده ، ويقدمون إليه الأموال المطلوبة ، وأن زعماء طليطلة خرجوا من لديه يتعثرون فى أذيالهم ، وقد فقدوا كل أمل ، وأيقنوا سوء المصير(١) .

وكان قد مضى على حصار القشتاليين للمدينة يومئذ زهاء تسعة أشهر ، وقد تفاقم الخطب وبلغت الشدة بالمحصورين أقصاها ، وتحطمت كل محاولة لعقد الصلح مع ملك قشتالة ، سواء من جانب القادر للاعتراف بطاعته والحكم باسمه ، أو من جانب زعماء المدينة ، ولم يجد تشدد أولئك الذين تمسكوا بالمقاومة والدفاع حتى الموت شيئاً . وغلب صوت الشعب الذى أضناه الجوع والحرمان . ولم تمض ثلاثة أيام على تلك المقابلة ، حتى عرضت المدينة التسليم لملك قشتالة . ويلخص الأب ماريانا وهو من أقدم المؤرخين الذين كتبوا عند سقوط طليطلة شروط التسليم فيما يلى :

« أن يسلم القصر وأبواب المدينة والقناطر وحديقة الملك إلى الملك ألونسو (ألفونسو) . وأن يذهب الملك المسلم حراً إلى مدينة بلنسية وفقاً لرغبته . وأن يسمح بالحرية لمن شاء أن يتبعه من المسلمين ، وأن يأخذوا معهم أموالهم . وأما الذين يقيمون فى المدينة ، فلا تؤخذ أمتعتهم ولا أملاكهم ، وأن يبقى المسجد الجامع بأيدى المسلمين يقيمون فيه شعائرهم ، وألا تفرض عليهم ضرائب أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم ، وأن تجرى عليهم أحكام شريعتهم ، وعلى يد قضاتهم المسلمين دون غيرهم ، وأن يقسم الطرفان كل وفق تقاليده ، على احترام هذه العهود ، وأخيراً أن يقدم أهل المدينة لفيفاً من أعيانهم كرهائن »(٢) . على أن هذا النص الذى يقدمه ماريانا ينقصه شىء من الدقة . والمتفق عليه أن شروط تسليم طليطلة قد صيغت على النحو الآتى :

« أن يؤمن أهل المدينة فى النفس والمال . وأن يغادرها من شاء منهم حاملين أموالهم . وأن يسمح لمن عاد منهم باسترداد أملاكهم ، وأن يؤدى المقيمون بها إلى ملك قشتالة . ما كانوا يؤدونه لملوكهم من الضرائب والمكوس . وأن يحتفظ المسلمون

---

(١) كتاب الذخيرة القسم الرابع من المجلد الأول ص ١٢٩ و ١٣٠

(٢) Mariana : Histora General de Espana (Cap. 16)

إلى الأبد بمسجدهم الجامع ، وأن يتمتعوا أحراراً بإقامة شعائرهم ، وأن يحتفظوا بقضاتهم وشريعتهم ، وأن يسلموا إلى ملك قشتالة سائر القلاع والحصون والقصر الملكى والمنية المسورة التى كان ينزل بها » . وأما بالنسبة للقادر ، فقد تكفل ملك قشتالة بأن يمكنه من الاستيلاء على بلنسية ، وقيل بل عرض عليه أن يحصل له أيضاً على دانية وشنتمرية الشرق ، إذ كان يعرف جيداً أنها إذا خلصت للقادر فسوف تكون فى الواقع ملكاً له ، ورهن تصرفه ، وذلك عن طريق حمايته لملكها الضعيف المستسلم إليه[١] .

تلك هى الشروط التى اتفق عليها لتسليم طليطلة ، وتظاهر ملك قشتالة بقبولها وتعهد باحترامها وعدم النكث بها . وكان ذلك فى اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٠٨٥ م . ومضى على ذلك زهاء أسبوعين آخرين ، كان يستعد خلالهما القادر لتهيئة أسباب الرحيل ، وإخلاء المدينة . وفى يوم الأحد الخامس والعشرين من مايو (فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ) دخل ألفونسو السادس مدينة طليطلة ظافراً ، ونزل فى الحال بقصرها المشهور . وهو الذى كان ينزل به أيام محنته فى ضيافة المأمون ، وعهد بحكم المدينة إلى الوزير سسنندو ، فسلك مع أهلها مسلك المودة واللين ، وبذل جهده ليخفف عنهم وقع هذا التبدل فى مصايرهم ، فاستمال قلوب الكثيرين منهم ، ونصح سسنندو إلى مليكه بأن يلزم الاعتدال والروية فى معاملة المدينة المفتوحة ، وأن يقف مؤقتاً عند هذا الحد ، وألا يلح على ملوك الطوائف ، خوفاً من أن تنقلب الآية ، فيتجهوا بأبصارهم إلى وجهة أخرى .

واستتبع استيلاء ألفونسو على طليطلة ، استيلاؤه على سائر أراضى مملكة طليطلة الباقية ، بعد الذى استولى عليه منها ابن عباد صاحب إشبيلية ، أعنى قسمها الواقع شمال نهر التاجه من طلبيره غرباً حتى وادى الحجارة وشنت برية شرقاً .

أما الملك المنكود يحيى القادر بن ذى النون ، فقد غادر طليطلة بأهله وأمواله ، ومعه جماعة كبيرة من الكبراء والأشراف ، الذين آثروا مغادرة المدينة المفتوحة . قاصداً إلى بلنسية ، واستقر أياماً بمحلة ملك قشتالة واضعاً نفسه تحت حمايته ، وكان ملك قشتالة قد وعده بأنه إذا تعذر تحقيق غايته فى الحصول على ولاية

---

(١) R.M. Pidal : La Espana del Cid p. 306

بلنسية بطريقة سلمية ، فإنه سوف يبعث لمعاونته قائده الشهير ألبرهانيس . ونزل القادر وصحبه بحصن قونقة حتى تتهيأ له ظروف العمل لتحقيق بغيته . ثم رأى أهل بلنسية أن يتقبلوا مقدم القادر وولايته ، باعتباره صاحب الولاية الشرعية عليهم ، وخشية من سوء العواقب . وهكذا تمت للقادر أمنيته فدخل بلنسية ، وتولى إمارتها ، ولبث بها أعواماً ، تضطرم من حوله الخطوب والفتن ، حتى لقى مصرعه فى رمضان سنة ٤٨٥ ﻫ (أكتوبر ١٠٩٢ م) ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة بلنسية .

* * *

وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية الكبرى . وخرجت من قبضة الإسلام إلى الأبد ، وارتدت إلى النصرانية حظيرتها القديمة ، بعد أن حكمها الإسلام ثلاثمائة وسبعين عاماً . ومن ذلك الحين تغدو طليطلة حاضرة لمملكة قشتالة ، ويغدو « قصرها » منزلا للبلاط القشتالى ، بعد أن كان منزلا للولاة المسلمين .وقد كانت بمنعتها المأثورة وموقعها الدفاعى الفذ . فى منحنى نهر التاجه ، حصن الأندلس الشمالى ، وسدها المنيع الذى يرد عنها عادية النصرانية ، فجاء سقوطها ضربة شديدة لمنعة الأندلس وسلامتها ، وانقلب ميزان القوى ، فبدأت قوى الإسلام تفقد تفوقها فى شبه الجزيرة ، بعد أن استطاعت أن تحافظ عليه زهاء أربعة قرون ، وأضحى تفوق القوى النصرانية أمراً لاشك فيه. ومن ذلك الحين تدخل سياسة الاسترداد النصرانية La Reconquista فى طور جديد قوى ، وتتقاطر الجيوش القشتالية لأول مرة منذ الفتح الإسلامى ، عبر نهر التاجه إلى أراضى الأندلس ، تحمل إليها أعلام الدمار والموت . وتقتطع أشلاءها تباعاً فى سلسلة لا تنقطع من الغزوات والحروب .

ويقول كوندى معلقاً على سقوط طليطلة : « وقد كانت سداً أوحد يحول دون اقتحام النصارى لنهر التاجه ، وكشف هذا الحادث الذى أسبغ على سلطان ملك قشتالة قوة جديدة ، للمسلمين عن ضعفهم : وصور لهم أشباح العبودية والموت تتعانق. بعد قرون من السلطان والمجد . فى ظلمات مستقبل مشئوم ، ولم تكن أمامهم لاتقاء هذه المصائب سوى وسيلة واحدة ، هى أن يتحدوا ،وأن

يعهدوا إلى الأيدى الماهرة ، بإدارة كل قواهم مجتمعة . ولكن المصالح الخاصة غلبت عندئذ ، كما تغلب دائماً على الصالح العام ، واستمرت تنحدر مسرعة إلى هاوية الانحلال »[١]

وكان لظفر ألفونسو السادس بالاستيلاء على طليطلة ، فضلا عن آثاره المادية الخطيرة ، وقع أدبى عميق فى سائر ممالك اسبانيا . فقد كانت طليطلة عاصمة المملكة القوطية القديمة ، وكانت إلى جانب ذلك حاضرة اسبانيا الدينية ، وقد وطد استيلاء ملك قشتالة عليها ، مركز الصدارة الذى يتمتع به بين زملائه ملوك اسبانيا النصرانية ، ووطد هيبته الملوكية والإمبراطورية ، فأصبحوا جميعاً يقرون له بلقب الإمبراطور الذى اتخذه لنفسه . ومن جهة أخرى فقد كان لتلك النكبة التى حلت بالإسلام فى اسبانيا ، أعظم وقع فى أنحاء الأندلس ، وفى سائر أنحاء العالم الإسلامى ، وقد ارتاع لها ملوك الطوائف جميعاً ، وأدركوا بعد فوات الوقت أنها نذير بالقضاء عليهم واحداً بعد الآخر ، وأدرك المعتمد بن عباد بالأخص ، وهو أشد ملوك الطوائف مسئولية عما حدث ، أنه لن يمضى وقت طويل حتى يواجه نفس الخطر الداهم . بيد أن النكبة كانت فى نفس الوقت نقطة تحول عظيم فى تفكير أولئك الأمراء المتخاصمين المتنابذين ، ملوك الطوائف ، وفى روحهم ، فجنحوا جميعاً ولأول مرة إلى اجتماع الكلمة ، ونبذ الشقاق ، واتجهوا بأنظارهم جميعاً ، إلى ماوراء البحر ، يلتمسون غوث إخوانهم فى الدين ، إلى أولئك البربر المرابطين ، الذين كان لتدخلهم فى سير الحوادث بالأندلس ، أعظم الآثار[٢] .

وأذكى رزء الأندلس بفقد طليطلة فجيعة الشعر الأندلسى . ونظمت فى بكائها القصائد الرائعة ، وكان من أشهرها القصيدة الرائية الكبرى التى مطلعها :

---

(١) J. Conde : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana

(٢) يراجع فى حوادث سقوط طليطلة : الذخيرة ، القسم الرابع من المجلد الأول ص ١٢٧ – ١٣٣ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٨١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٣ .

وراجع أيضاً : R.M. Pidal : La Espana del Cid p. 303-807

ودوزى فى : Histoire des Musulmans a'Espange V. II. p. 120 et suiv.

لثكلك كيف تبتسم الثغور سروراً بعد ما بئست ثغور
طليطلة أباح الكفر منها حماها إن ذا نبأ كبير
فليس مثالها إيوان كسرى ولا منها الخورنق والسدير
ومنها :
مضى الإسلام فابك دما عليه فما ينفى الجوى الدمع الغزير
ونح واندب رفاقا فى خلاة حيارى لاتحط ولا تسير
ولا تجنح إلى سلم وحارب عسى أن يجبر العظم الكسير[1]

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٣ وما بعدها .

الفصل الثالث

موقعة الزلاّقة

٤٧٩ هـ – ١٠٨٦ م

كان سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة ، نذيراً مزعجاً لملوك الطوائف ، أيقظهم من ذلك السبات المؤلم الذى انحدروا إليه ، وبصرهم بمخاطر ذلك الشقاق الذى طال عهده بينهم ، وبدت لهم عندئذ تلك الحقيقة المروعة التى كانوا يغمضون أعينهم عن إدراكها ، وهى أن ملك قشتالة القوى يعتزم القضاء عليهم جميعاً ، ويعتزم محو كلمة الإسلام من الأندلس قاطبة .والواقع أن ألفونسو السادس ماكاد يستولى على الحاضرة الإسلامية الكبرى ، حتى لاح له أن نهاية الطوائف كلها قد دنت ، وأنه سوف يتبع نصراً بعد نصر ، ويلتهم حاضرة بعد أخرى ، ومن ثم فقد وضع خطته لتنفيذ الخطوة التالية ، فوجه إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية رسالة ، ملؤها الوعيد والنذير ، يطالبه بتسليم أعماله ، ويحذره من مثل طليطلة ومحنتها . ووجه إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس رسالة مماثلة ، يطلب إليه تسليم بعض قلاعه وحصونه ، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض . وقد رد كل من الأميرين على ملك قشتالة برسالة يرد فيها وعيده ، ويعرب فيها عن أهبته لدفع عدوانه .

على أن أعظم نتيجة لسقوط طليطلة تتمثل فى اجتماع كلمة ملوك الطوائف ، على مقاومة ملك قشتالة ، والاستنصار بإخوانهم المسلمين ، فيما وراء البحر ، أعنى المرابطين . وبعث أمراء الطوائف إلى عاهل المرابطين ، يوسف بن تاشفين ، سفراءهم ، يشرحون له ما نكبت به الأندلس من عدوان النصارى ، وما يهددها من خطر المحو والفناء ، إذا لم يتدا ركها بعاجل غوثه وإنجاده . وكان أولئك المرابطون ، وأصلهم من قبيلة لمتونة أحد بطون قبيلة صنهاجة البربرية الكبرى ، قد ظهروا فى قلب الصحراء ، جنوبى المغرب ، قبل ذلك بنحو خمسين عاماً ،

وانتظموا أولا إلى طائفة دينية تحت قيادة زعيمهم الروحي عبد الله بن ياسين ، وتسموا بالمرابطين ، وبدأوا يغزون القبائل الوثنية المجاورة ، حتى قوى أمرهم . ثم غزوا جنوبي المغرب ، واستولوا على سجلماسة . ودرعة ، ثم توالت فتوحهم تباعاً ، وعبروا جبال الأطلس ، واستمروا فى غزواتهم المظفرة ، حتى تم فتح المغرب كله . وكانت قيادتهم فى البداية للأمير عمر بن يحيى اللمتونى ، ثم لأخيه أبى بكر . واختار أبو بكر للقيادة ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى ، فشاء القدر أن يتم على يديه معظم الفتوح التى وحدت المغرب . ومهدت لقيام الدولة المرابطية الكبرى ، تسيطر على سائر أنحاء المغرب من إفريقية شرقاً حتى المحيط غرباً ، ومن شاطئ البحر المتوسط شمالا حتى مشارف الصحراء الكبرى جنوباً . وأنشأ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش لتكون عاصمة للدولة الجديدة (٤٥٤ هـ — ١٠٦٢م) . ونظم الجيوش المرابطية العظيمة ، وجهزها بالرماة والعدد الوافرة ، حتى بلغت يومئذ أكثر من مائة ألف فارس ، من قبائل صنهاجة وكدالة وجزولة وزنانة ، والمصامدة ، وأنشأ له حرساً خاصاً من العبيد ، يمتاز بالشجاعة الفائقة . وعلى الجملة ، فقد كان عاهل المرابطين حينما وصله صريخ أمراء الطوائف فى ذروة ظفره وقوته ومجده .

واستشار عاهل المرابطين قومه وفقهاءه فيما يجب عمله . فاتفقت الآراء على وجوب الاستجابة إلى صريخ الأندلس ، وإنجادها والعمل على إنقاذها من عدوان النصارى . ولم يك ثمة شك فى أن أولئك الجند الصحراويين — المرابطين — كانت تحدوهم نزعة مشكورة من الجهاد فى سبيل الله . بيد أن يوسف بن تاشفين ، رأى عملا بنصح وزيره الأندلسى عبد الرحمن بن أسباط أن يطلب إلى ابن عباد تسليم ثغر الجزيرة إليه ، ليكون معبراً أميناً لجنوده . فى الذهاب والعود . فنزل ابن عباد عند هذه الرغبة ، وأمر حاكم الجزيرة ولده يزيدا الراضى بإخلائها ، لتكون رهن تصرف عاهل المرابطين .

وهكذا اعتزم يوسف بن تاشفين أن يعبر إلى الأندلس . فاستنفر سائر قواته وحشوده للجهاد ، وكان قد تم له يومئذ افتتاح سبتة . فسار إليها والجيوش تتلاحق فى أثره من كل نواحي المغرب ، وحشد السفن لعبور جيشه . وكان أول ما عبر منها

قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة ، عبرت إلى ثغر الجزيرة الخضراء واحتلته طبقاً لما تم الاتفاق عليه . ثم أخذت الجيوش المرابطية تعبر تباعاً ، حتى تم عبورها جميعاً إلى شبه الجزيرة . وفى يوم الخميس ، منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩هـ (٣٠ يونيه سنة ١٠٨٦ م) عبر البطل الشيخ فى بقية قواته . وماكادت السفن العابرة تمخر عباب المضيق حتى اضطرب البحر وتعالت الأمواج ، فنهض الزعيم المرابطى ، حسبما يحدثنا بنفسه ، وسط سفينته ، ورفع يديه إلى السماء قائلا : « اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازنا هذا خيرة للمسلمين ، فسهل علينا جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » . ثم يقول لنا إنه ماكاد يتم كلامه حتى « سهل الله المركب ، وقرب المطلب » . وشاء ربك أن تعبر السفن المرابطية ، فى ريح طيبة وبحر هادئ ، وأن تصل إلى ثغر الجزيرة فى سلام[1] .

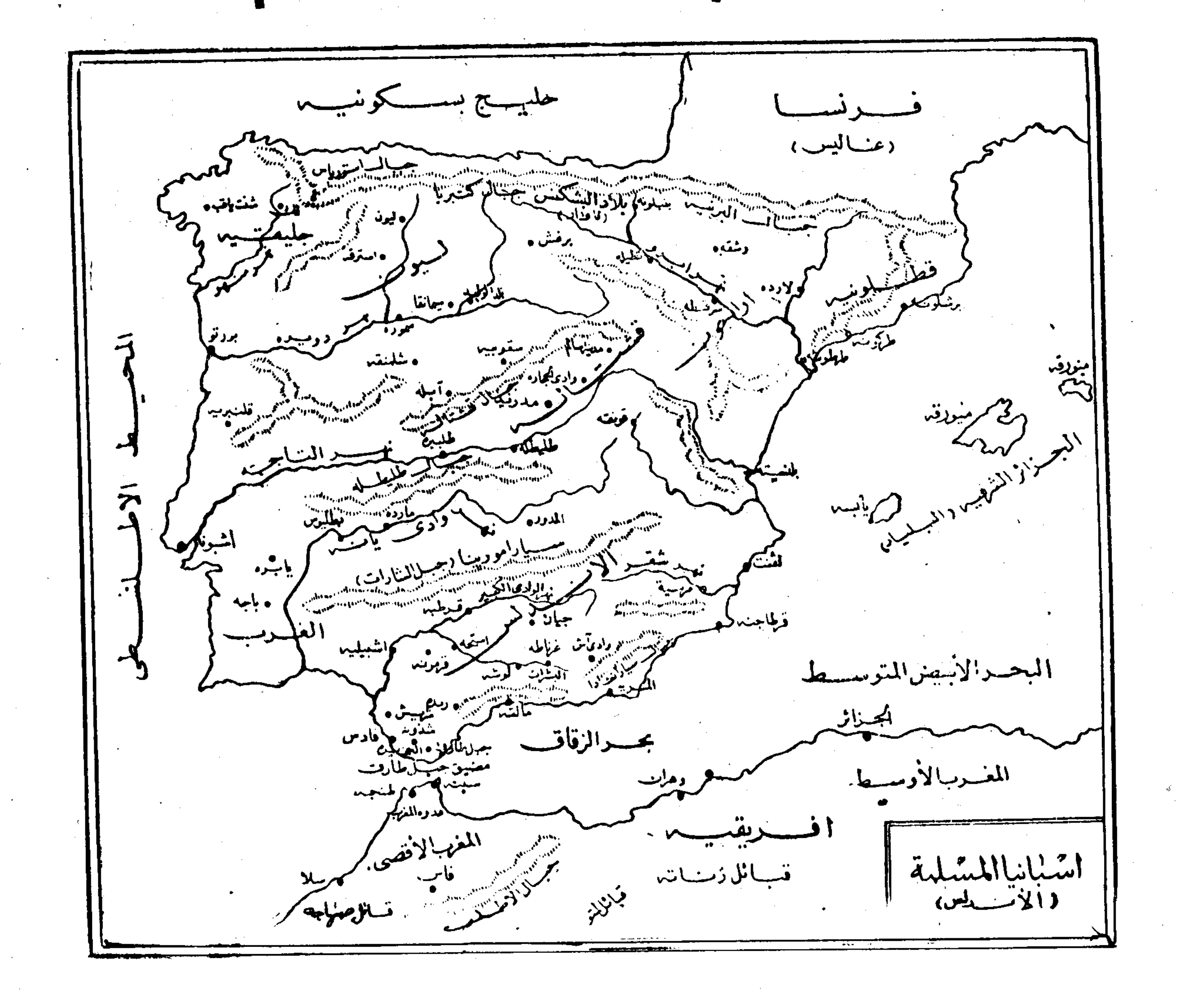
* * *

نزل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ثغر الجزيرة الخضراء ، وماكاد يطأ بقدميه أرض الأندلس ، حتى سجد لله شكراً ، ثم أخذ فى تحصين الجزيرة ، وإصلاح أسوارها وأبراجها ، ورتب لها حامية خاصة من جنده ، ثم سار فى قواته صوب إشبيلية .

وبعث المعتمد بن عباد ولده عبد الله لاستقبال يوسف بالجزيرة ، ورتب تقديم المؤن والأطعمة والضيافات للجيش المرابطى على طول الطريق إلى إشبيلية ، واستعد لذلك استعداداً عظيما سر به يوسف . ولما اقترب العاهل المرابطى من إشبيلية خرج المعتمد إلى لقائه فى وجوه أصحابه ، وتعانق الملكان ، وتضرعا إلى الله أن يجعل جهادهما خالصاً لوجهه . وقدم ابن عباد إلى أمير المسلمين جليل الهدايا والتحف ، وقدم المؤن والضيافات لسائر الجيش القادم ، وقرت عيناه بما رأى من ضخامته وروعة استعداده ، وأيقن ببلوغ النصر المنشود . وفى اليوم التالى سار أمير المسلمين إلى إشبيلية ، تلاحقه قواته ، وأقام بها ثلاثة أيام ، وكان فى أثناء

---

(١) راجع روض القرطاس لابن أبى زرع (طبعة أوبسالة) ص ٩٣ . وهذا ما ذكره يوسف ابن تاشفين نفسه فى خطابه عن موقعة الزلاقة إلى المعز بن باديس (ويراجع هذا الخطاب فى كتابى « دول الطوائف » ص ٤٢٤ وما بعدها) .



اسبانيا المسلمة
(الأندلس)
خليج بسكونيه
فرنسا
(غاليس)
المحيط الاطلنطي
جبال استورياس
جبال كنتبريا
بلاد البشكنس
جبال البرنيه
جليقيه
ليون
استرقه
سمورة
شلمنقه
برغش
قشتالة
وشقه
لارده
قطلونيه
برشلونه
طركونه
طرطوشه
سرقسطة
تطيله
نهر ابره
شنت ياقب
بورتو
وادي دويره
نهر دويره
قلنبريه
شقوبيه
مدينة سالم
وادي الحجاره
آبله
طليطلة
طلبيرة
نهر التاجه
جبال طليطلة
قونقه
بلنسيه
ماردة
بطليوس
وادي يانه
اشبونه
يابره
باجه
الغرب
سيارا مورينا (جبل الشارات)
نهر شقر
لقنت
مرسيه
قرطاجنه
قرطبة
الوادي الكبير
جيان
استجه
غرناطه
وادي آش
البشرات
المرية
اشبيليه
قرمونه
مالقة
شذونه
قادس
الجزيرة
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
بحر الزقاق
البحر الأبيض المتوسط
منورقه
ميورقه
يابسه
الجزائر الشرقية (البليار)
الجزائر
وهران
المغرب الأوسط
افريقيه
قبائل زناته
المغرب الأقصى
فاس
سلا
قبائل صنهاجه
جبال الأطلس

ذلك قد كتب إلى سائر ملوك الطوائف يدعوهم إلى اللحاق به ، والمشاركة فى الجهاد فى سبيل الله ، فلبى دعوته منهم عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، وأخوه تميم صاحب مالقة ، واعتذر المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية بضعفه وكبر سنه ، وبعث ابنه معز الدولة فى فرقة من جنده . ثم سار أمير المسلمين فى قواته الحرارة ومعه ابن عباد فى قوات إشبيلية وقرطبة ، وقصدوا إلى بطليوس فلقيهم أميرها عمر المتوكل ، وقدم لهم المؤن والضيافات الواسعة . وأنفق أمير المسلمين أياماً فى بطليوس ينتظر وفود الرؤساء من سائر أقطار الأندلس ، حتى علم وتأكد لديه أن كل واحد منهم مشغول بمدافعة النصارى ، ولم يلحق به منهم سوى عبد الله وأخيه تميم ومعز الدولة ، وانتظمت القوات الأندلسية إلى وحدة قائمة بذاتها يتولى قيادتها ابن عباد ، واحتلت المقدمة ، واحتلت الجيوش المرابطية المؤخرة . وانتهت الجيوش الإسلامية المتحدة فى سيرها إلى سهل يقع شمال بطليوس على مقربة من حدود البرتغال الحالية ، ويمتد مصعداً نحو مدينة قورية ، وتسميه الرواية العربية بسهل الزلاّقة(١) .

وكانت أنباء عبور المرابطين إلى شبه الجزيرة قد وصلت إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وهو محاصر لسرقسطة ، فترك الحصار على عجل ، وتنفس مختنق المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، وبعث ألفونسو إلى سانشو رامبرز ملك أراجون يستدعيه لإنجاده ، وكان يقوم بمحاصرة طرطوشة ، وبعث كذلك إلى أمراء ما وراء البرنيه ، وحشد كل ما استطاع حشده من قوات جليقية وأشتوريش وبسكونيه (نافار) ، واستدعى قائده ألبارهانيس بقواته من بلنسية ، وتقاطر إليه سيل من المتطوعة من جنوبى فرنسا وإيطاليا ، واعتزم ألفونسو أن يلقى الأعداء فى أرضهم حتى لا تخرب بلاده ، إذا حلت به الهزيمة ، وسار على رأس القوات النصرانية المتحدة للقاء المسلمين ، وهو واثق من تفوقه فى العدد والعدة والكفاية الفنية ، ولم تصله أنباء دقيقة عن حالة الجيش الإسلامى .

واستقرت الجيوش النصرانية ، فى مكان يبعد نحو ثلاثة أميال عن المعسكر

---

(٢) الحلل الموشية ص ٣٣ و ٣٤ ، والروض المعطار ص ٨٧ — ٩٠ . وسهل الزلاقة هو بالإسبانية Sacrajas وهو يقع على ثلاثة مراحل من شمالى بطليوس إلى يسار نهر جريرو أحد أفرع نهر وادى يانه .

الإسلامى ، يفصل بينها وبين المسلمين فرع نهر وادى يانه الممتد شمالا فى اتجاه نهر التاجه ، والذى يسمى اليوم « جزيرو » . وجعل ألفونسو على مقدمة جيشه ، قائده ألبارهانيس ، وكانت تتألف فى معظمها من جنود أراجون والمتطوعة . وقد اختلفت الرواية فى تقدير قوات المسلمين والنصارى ، وتقدر بعض الروايات العربية جيش النصارى بثمانين ألف مقاتل ، ويقدره البعض الآخر بخمسين ألفاً . وأما الجيش الإسلامى فيقدره البعض بثمانية وأربعين ألفاً .والبعض الآخر بعشرين ألفاً . على أنه يبدو من الروايات المختلفة أن النصارى كانوا يفوقون المسلمين فى العدد[1] . وكان الجيش الإسلامى ينقسم حسبما قدمنا إلى وحدتين كبيرتين : قوات الأندلس ، وتحتل المقدمة ، ويقودها المعتمد بن عباد ، ويقود منها المتوكل بن الأفطس قوات الميمنة ، ويشغل أهل شرقى الأندلس الميسرة . وأما القوات المرابطية . فكانت تحتل المؤخرة ، وتنقسم إلى قسمين ، يضم الأول فرسان البربر من سائر القبائل ، ويتولى قيادته داود بن عائشة أبرع قواد البربر ، ويتولى يوسف قيادة الجيش الاحتياطى المؤلف من نخبة أنجاده المرابطين من لمتونة ، وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية .

ولبث الجيشان الخصمان ، كل منهما تجاه الآخر لايفصلهما سوى النهر ، مدى أيام ثلاثة ، والرسل تتجاوب بينهما . وكتب يوسف قبل المعركة إلى ملك قشتالة عملا بأحكام السنة كتاباً يعرض عليه فيه الدخول فى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، ومما جاء فيه « بلغنا يا أدفونش ، أنك دعوت إلى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله فى هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

فاستشاط ألفونسو لذلك الخطاب غضباً ، ورد على كتاب أمير المسلمين بكتاب غليظ يفيض بالوعيد ، فاكتفى يوسف بأن رد إليه كتابه ممهوراً بتلك العبارة : « الذى سيكون ستراه »[2]

وحاول ألفونسو خديعة المسلمين فى تحديد يوم الموقعة ، فكتب إلى المعتمد ابن عباد يوم الخميس ، يقول له ، إن غداً يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، وبعده

---

(١) الحلل الموشية ص ٣٨ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٨

(٢) الحلل الموشية ص٣٥ و٣٨ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ ، وابن الأثير ج ١٠ ص٥٢

السبت يوم اليهود، وهم كثير فى محلتنا، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فيكون اللقاء بيننا يوم الاثنين ، فأدرك ابن عباد ويوسف خديعته ، وجاءت طلائع المعتمد فى الليل تنبىء أن معسكر النصارى فى حركة وضوضاء وجلبة أسلحة ، مما يدل على استعداد القوم لبدء القتال . ومن ثم فقد لبث المسلمون على أهبتهم حذرين متحفزين(١) .

وقد حدث فى الواقع ما توقعه المسلمون ، فإنه ما كاد يتنفس صبح اليوم التالى ، وهو يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ (٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) حتى زحف النصارى ، وبدأ القتال ، واشتبك الجيشان فى معركة عامة ، فهجمت مقدمة القشتاليين والأرجونيين التى يقودها ألبار هانيس ، على مقدمة المسلمين المؤلفة من القوات الأندلسية ، والتى يقودها ابن عباد . وكان هجوماً عنيفاً ردها عن مواقعها ، واختل نظامها ، فارتد معظمها نحو بطليوس . ولم يثبت فى وجه الهاجمين سوى المعتمد وفرسان إشبيلية . فقاتلوا النصارى بشدة ، وأثخن أميرهم الباسل جراحاً ، وتفرق معظمهم من حوله ، وكثر القتل فى جند الأندلس . وكادت تدور عليهم الدائرة ، دون أن يتقدم لإنجادهم أحد . وفى الوقت نفسه كان ألفونسو قد هاجم مقدمة المرابطين التى يقودها داود بن عائشة ، وردها أيضاً عن مواقعها . فى تلك الآونة العصيبة ، دفع يوسف بقوات البربر التى يقودها أبرع قواده ، وهو سير بن أبى بكر اللمتونى ، لإنجاد الأندلسيين والمرابطين معاً ، ونفذ سير بقواته إلى قلب النصارى بشدة . وسرعان ما تغير وجه المعركة ، إذ استرد الأندلسيون والمرابطون ثباتهم ، وعاد الفارون إلى صفوفهم ، واضطرمت المعركة فى هذا الجناح رائعة ، ترجح بها كفة المسلمين ، وكان ألفونسو قد تقدم فى ذلك الوقت فى هجومه ، حتى صار أمام خيام المرابطين ، واقتحم الخندق الذى يحميها . ولكن حدث فى نفس الوقت أن لجأ يوسف إلى خطة مبتكرة . إذ تقدم فى قواته الاحتياطية من لمتونة وصنهاجة ، وتجاوز النصارى الهاجمين ، وقصد إلى المعسكر النصرانى ذاته ، وهاجمه بشدة ، وكانت تحرسه قوة ضعيفة ، ففتك بها ، ووثب إلى مؤخرة القشتاليين وأثخن فيهم من الوراء ، وطبوله تضرب من حول جيشه بشدة ، فيشق دويها الفضاء ، وتبث الفزع فى صفوف النصارى . ثم أضرم النار فى محلة القشتاليين ، فارتفعت ألسنتها فى الهواء . فلما علم ألفونسو بما حل بمعسكره ،

---

(١) الحلل الموشية ص ٣٩ ، والروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٩٢

ارتد من فوره لينقذ محلته من الهلاك ، فاصطدم بمؤخرة المرابطين ، ووقعت بين قوات العاهلين معركة هائلة مزقت فيها صفوف القشتاليين ، ولم يستطع الملك النصرانى أن يصل إلى محلته إلا بعد خسائر فادحة ، وهنالك استؤنفت المعركة ، ويوسف فوق فرسه يصول ويجول ، ويحث جنده على الثبات ويرغبهم فى الاستشهاد ، ودوى الطبول من حولهم يصم الآذان . وينوه الأستاذ پيدال بتأثير وقع الطبول وضجيجها فى اضطراب القشتاليين ، ويقول إنه لم يسبق من قبل أن عرفت الجيوش الإسبانية مثل هذا الضجيج الذى تهتز له الأرض . ومن جهة أخرى ، فقد عمد المرابطون إلى القتال فى صفوف متراصة ، متناسقة ثابتة ، وهى أيضاً خطة جديدة لهم فى القتال ، ولم يكن للفرسان النصارى عهد بمثلها ، إذ كانوا معتادين على القتال الفردى . ومن ثم فقد ألفوا أنفسهم ، بالرغم من تفوقهم فى السلاح ، عاجزين عن مناهضة هذه الصفوف المتراصة التى تفوقهم بكثافتها وعديدها[1] .

واشتد هجوم المرابطين فى نفس الوقت بقيادة سير بن أبى بكر على مقدمة القشتاليين التى يقودها ألبرهانيس ، واستردت جيوش الأندلس كل إقدامها وشجاعتها ، وكثر القتل من الجانبين فى صفوف القشتاليين . وكانت الضربة الأخيرة أن دفع يوسف بحرسه الأسود ، وقوامه أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعركة ، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة ، وأن يطعنه بخنجر فى فخذه طعنة نافذة . وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب ، وأدرك ألفونسو وقادته وفرسانه ، أنهم يواجهون الموت إذا استمروا فى موقفهم . وعندئذ بادر ألفونسو فى فل من صحبه وأشرافه إلى التراجع والاعتصام بتل قريب ، حتى دخل الليل ، فسار وصحبه تحت جنح الظلام . وتقدر الرواية من أفلت مع ملك قشتالة بنحو أربعمائة أوخمسمائة فارس ، معظمهم جرحى . وكانت صفوف النصارى قد مزقت عندئذ فى كل ناحية شر ممزق ، وتعالت أكوام الأشلاء والجرحى ، وطورد الفارون فى كل مكان ، وهلك كثير منهم أثناء المطاردة ، ولم ينقذ البقية الباقية من الجيش النصرانى سوى دخول الظلام ، وأمر يوسف بوقف المطاردة .

---

(١) روض القرطاس ص ٩٥ ، والحلل الموشية ص ٤٢ . وكذلك :
R.M. Pidal : La Espana del Cid p. 335 & 336

وأمضى المسلمون الليل فى ميدان الحرب ، يرقبون حركات النصارى . وفى صباح اليوم التالى أخذت فرسانهم فى مطاردة المتخلفين من جند العدو ، وعمدت قوة أخرى إلى جمع الأسلاب ، وكانت عظيمة وافرة . وتقول الرواية الإسلامية أنه لم ينج من الجيش النصرانى سوى خمسمائة فارس أو أقل ، هم الذين فروا مع ملك قشتالة . وتابع ملك قشتالة فراره مع فلوله ، ولم يتوقف إلا عند قورية ، على بعد عشرين مرحلة من ميدان الموقعة . وتضيف الرواية إلى ذلك أن معظم أولئك الفرسان الفارين كانوا مثخنين بالجراح ، فمات معظمهم فى الطريق ولم يصل منهم إلى طليطلة مع مليكهم سوى مائة[1]. بيد أن يوسف فى رسالته التى بعث بها فى وصف المعركة إلى المعز بن باديس ، يقول لنا ، إنه علم أن الذى انقطع به ألفونسو من عسكره يبلغون نحو ألفى رجل ، قد أثخن معظمها جراحة ، وأنهم انتظروا حتى دخول الليل ، ثم لجأوا إلى الفرار . ويقول لنا يوسف فى رسالته المشار إليها ، إنه قتل من أكابره نحو العشرين . ثم تقول الرواية الإسلامية أيضاً إن المسلمين لم يخسروا فى المعركة سوى نحو ثلاثة آلاف ، هذا فى حين أن النصارى قد هلك معظمهم ، وتذهب فى تقدير خسائر النصارى إلى حد قولها إنهم بلغوا نحو ثلاثمائة ألف[2] . بيد أن هنالك أقوالا أكثر اعتدالا ، فيروى مثلا أن أمير المسلمين أمر بقطع رؤوس القتلى من النصارى ، فقطعت وجمعت فاجتمع منها تل عظيم ، أذن فوقه للصلاة ، واجتمع منها بين يدى المعتمد بن عباد أربعة وعشرين ألفاً ، وأن رؤوس القتلى التى وزعت على قواعد الأندلس ، بلغت أربعين ألفاً ، وأنه أرسل إلى المغرب أربعين ألفاً أخرى لتوزع على قواعده . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الروم (القشتاليين) وكانوا ثمانين ألف فارس ، ومائتى ألف راجل فقتلوا أجمعين ، ولم ينج منهم إلا ألفنش فى مائة فارس . ومن الغريب أن هذه الأرقام نفسها ، هى التى وردت فى خطاب الفتح الرسمى الذى بعث به يوسف إلى المغرب[3] وهذه كلها أقوال تحمل طابع المبالغة بلا ريب ، وإن

---

(١) روض القرطاس ص ٩٦

(٢) الحلل الموشية ص ٤٣

(٣) روض القرطاس ص ٩٦ و٩٧ . وراجع أيضاً أقوال الروايات الإسلامية الأخرى عن خسائر النصارى فى الموقعة فى ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٣٠ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣

كانت الرواية النصرانية ، تجمع على أن الموقعة كانت هائلة ، وأن خسائر النصارى فيها كانت فادحة . ولاريب أيضاً أن خسائر المسلمين كانت عظيمة ، وإن كانت أقل بكثير من خسائر النصارى . وليس من المعقول أن تقتصر على ثلاثة آلاف فى مثل هذه الحشود الضخمة . ذلك أنه فى معركة ، يطبعها من الشدة والتفانى والحماسة الدينية ، ماطبعت به موقعة الزلاّقة ، لابد أن تكون الخسائر فيها فادحة من الجانبين الظافر والمغلوب .

وذاعت أنباء النصر فى الحال فى سائر جنبات الأندلس ، واستبشر المسلمون فى شبه الجزيرة بما أتاهم الله من عزيز نصره . وكتب يوسف بأنباء الموقعة أو بالفتح حسبما يسميه إلى بلاد العدوة ، وكتب رسالته المسهبة عن الموقعة وسيرها إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وهى التى أشرنا إليها فيما تقدم غير مرة . وتجاوبت أصداء النصر فى سائر مدن المغرب وإفريقية ، وعم الفرح والبشر سائر الناس ، فأخرجوا الصدقات ، وأعتقوا الرقاب . وقيل إن يوسف بن تاشفين اتخذ لقبه أمير المسلمين عقب نصر الزلاقة ، ولكن الرواية الراجحة أنه اتخذ هذا اللقب بالمغرب قبل ذلك بأعوام عديدة . بيد أنه مما يلفت النظر أن أمير المسلمين وحلفاءه الأندلسيين ، لم يحاولوا استغلال نصرهم بمطاردة العدو داخل بلاده ، بل ولم يحاولوا السير إلى طليطلة لاستردادها ، وقد كانت الفرصة سانحة ، وقد قيل لنا فى ذلك إن ابن عباد نصح أمير المسلمين بمطاردة العدو المنهزم والقضاء على فلوله . فاعتذر يوسف عن ذلك بحجة انتظار ورود الفارين من المسلمين أولا حتى لايهلكهم النصارى ، ونسبت فى ذلك إلى الرجلين نيات مريبة[1]

وعلى أى حال فقد وقف نصر المسلمين عند هذا الحد ، وتفرق الجيش الإسلامى وارتد أمراء الأندلس كل إلى بلاده : ونلاحظ فيما يتعلق بأمراء الأندلس ، ما أبداه المعتمد بن عباد وجند إشبيلية فى ذلك اليوم المشهود من فائق الشجاعة وحسن البلاء ، وقد أثخن المعتمد جراحاً ، ولكنه لم يغادر ميدان المعركة حتى تداركته النجدات المرابطية . وتخص الرواية الإسلامية المعتمد بتقديرها وثنائها ، وينوه أمير المسلمين بثباته وبطولته ، فى خطابه بالفتح إلى المغرب ،

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٣

وينوه بذلك أيضاً فى رسالته التى أرسلها إلى المعز بن باديس عن الموقعة . بيد أنه مما كدر صفو هذا النصر ، أن تلقى أمير المسلمين فى نفس هذا اليوم ذاته ، نبأ وفاة ولده الأكبر الأمير أبى بكر ، وكان قد استخلفه فى مراكش وتركه مريضاً فى سبتة ، فقرر العودة إلى المغرب فوراً . وقيل فى ذلك إن إسراع يوسف بالعود ، لم يكن راجعاً إلى وفاة ولده ، بل كان راجعاً بالأخص إلى إستيائه وتبرمه مما شهده من أحوال أمراء الأندلس وخلافاتهم فيما بين أنفسهم وفيما بينهم وبين شعوبهم[1] . ومن ثم فقد عاد أمير المسلمين فى قواته إلى إشبيلية ، فاستراح بظاهرها أياماً ، ثم قفل راجعاً إلى المغرب ، تاركاً من جنده ثلاثة آلاف رهن تصرف المعتمد .

* * *

وقد كان يوم الزلاقة من أيام الإسلام المشهودة فى انتصاره على النصرانية . ومن الواضح أن لقاء الإسلام والنصرانية فى سهول الزلاقة ، إنما هو صفحة من سيرة الحروب الصليبية التى كانت اسبانيا أول مهاد لها ، والتى اضطرمت بعد ذلك بقليل فى المشرق ، فى الوقت الذى كانت تضطرم فيه فى اسبانيا ، فوقعة الزلاقة تعنى فى الواقع أكثر من هزيمة لملك قشتالة ، وأكثر من ظفر للمرابطين وحلفائهم الطوائف . ذلك أن فورة المرابطين الدينية ، التى اجتاحت بوادى المغرب ومدنه فى فترة قصيرة ، ثم عبرت البحر إلى اسبانيا لنصرة الدول الإسلامية بادئ ذى بدء وانتزعتها من الطوائف بعد ذلك ، كانت عنيفة رائعة . توجست النصرانية منها ، واستشفت فى اضطرامها تجدد ذلك الخطر الداهم ، الذى كان غير مرة ينذر بمناهضة النصرانية فيما وراء جبال البرنيه . وقد جاشت اسبانيا المسلمة بمثل هذه الثورة بعد موقعة بلاط الشهداء ، وخلاص النصرانية على يد كارل مارتل (سنة ٧٣٢ م) مرتين : الأولى فى عهد الناصر لدين الله (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) ، والثانية فى عهد الحاجب المنصور (٣٦٨ — ٣٩٢ هـ) . وفى كلتا المرتين ردت اسبانيا إلى ما وراء الجبال الشمالية ، ونفذ الغزو الإسلامى إلى قاصية اسبانيا .

وإن تصرف ألفونسو ملك قشتالة عقب الموقعة ، ليؤكد هذا المعنى الصليبى

---

(١) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروفنسال (ص ١٠٧)

الذى ينطوى عليه لقاء الزلاقة ، فهو قد شعر بأن التحالف بين الإسلام فى إفريقية والأندلس ، يوشك أن يقضى على اسبانيا النصرانية ، وأنه لابد أن يقابله حلف بين قوى النصرانية . ومن ثم فقد بعث بكتبه ورسله إلى الملوك والأمراء النصارى فيما وراء البرنيه ؛ يهيب بهم ويحذرهم من الخطر الداهم ، وينذرهم بأنهم إذا لم يتداركوه بالعون ، فإنه سوف يضطر إلى الصلح مع المسلمين ، وسوف يتركهم أحراراً فى عبور البرنيه . وقد ألفت صيحة ألفونسو صداها فى فرنسا ، وفى مختلف الإمارات الفرنجية التى حولها ، وبادر أمير برجونية الدوق أودو ، وهو صهر ألفونسو ، بحشد الأمداد ، وشاركه فى ذلك أمير تولوشه ، وهرع إلى التطوع فرسان من نورماندى وبواتو ، ومن سائر أنحاء فرنسا . وسارت بالفعل قوى الأمداد صوب اسبانيا . ولكن ألفونسو ، حين علم بأن يوسف بن تاشفين قد عبر البحر فى معظم قواته عائداً إلى المغرب . بعث إلى الأمراء الفرنج يشكرهم ، وينبئهم برحيل المرابطين ، وأنه لم تعد ثمة ضرورة لقدمهم(١) .

ويشعر المؤرخون المسلمون أنفسهم بخطورة موقعة الزلاقة وصفتها الصليبية ، فيحيطون حوادثها بطائفة من الأساطير الدينية . من ذلك ما قصه علينا يوسف نفسه فى رسالته لمناسبة عبوره البحر من المغرب إلى الأندلس ، ومادعا به ربه حينما ثارت العواصف فى وجه سفنه ، وما تلا ذلك من هدوء العواصف والموج ، وذلك حسبما ذكرناه ، فيما تقدم . ومن ذلك أن ملك قشتالة حينما كان يتأهب لمحاربة المسلمين توالت عليه الأحلام المرعبة . فرأى ذات يوم أنه يركب فيلا قد تدلى بجانبه طبل ، يحدث صوتاً مرعباً كلما قرعه ، وأن فقيهاً مسلما من أهل طليطلة فسر له ذلك الحلم بأنه نذير بهزيمته الساحقة ، مشبهاً ذلك بما حدث عام الفيل من سحق أبرهة ، وقد كان يركب الفيل أيضاً(٢) . ومنه مبالغة الرواية الإسلامية فى تقدير خسائر النصارى ، ومبالغتها فى نفس الوقت فى التقليل من خسائر المسلمين ، مما تقدم ذكره ، إلى غير ذلك .

على أن هذه الأساطير والمبالغات ، لا يمكن أن تثير ذرة من الريب حول أهمية هذه الموقعة الشهيرة . ولا تنتقص من شأن نتائجها الحاسمة . فقد كان من

---

(١) R. M. Pidal : Ibid; p. 340

(٢) الحلل الموشية ص ٣٥ و٣٦

النتائج العملية المباشرة لنصر الزلاقة ، أن عادت إلى اسبانيا المسلمة ، روح الثقة والأمل ، وأخذت قواها المتخاذلة فى الانتعاش والنهوض من عثارها ، وأن عادت إلى الشعب الأندلسى روح الحماسة الدينية ، التى كاد يقضى عليها أمراء الطوائف بتصرفاتهم المشينة ، وترامیهم على أعتاب الملوك النصارى ، وتحرر أمراء الطوائف من ذلك الخزى ، الذى لحقهم عصراً ، بالخضوع لملك قشتالة ، ونكلوا عن دفع المغارم التى كان يقتضيها منهم برسم الجزية. بيد أن هذه النتائج المحلية الخاصة ، لا تعد شيئاً إذا قيست بالنتائج العامة البعيدة المدى ، التى ترتبت على هذا النصر الباهر . فنى سهول الزلاقة ، ارتد سيل النصرانية الجارف عن الأندلس المسلمة ، بعد أن كان ينذرها بالمحو والفناء العاجل ، وغنم الإسلام حياة جديدة فى اسبانيا ، امتدت إلى أربعة قرون أخرى ، ومهدت السبل لسيطرة المرابطين على اسبانيا المسلمة ، ومن بعدهم لخلفائهم الموحدين ، وجُعلت الأندلس ولاية مغربية زهاء مائة وخمسين عاماً . وبالرغم من أن حياة اسبانيا المسلمة لم تكن من ذلك الحين سوى صراع دائم بينها وبين اسبانيا النصرانية ، فإنها استطاعت أن تتابع نشاطها المنتج ، وتقدمها الحضارى الباهر[1].

(١) راجع فى تفاصيل موقعة الزلاقة : روض القرطاس ص ٩٣ — ٩٨ ، والحلل الموشية ص ٣٣ — ٤٦ ، والمعجب للمراكشى ص ٧٠ — ٧٣ ، والروض المعطار ص ٧٦ ، ٩٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص٥٢٧ — ٥٣١ ، وابن خلكان ج ٢ ص٤٨١ ومابعدها . وابن الأثير ج ١٠ ص٥٢ — ٥٣ وراجع أيضاً : R. M. Pidal : ibid; p. 331—340. Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne, V. II. p. 126—130 و

الفصل الرابع

مصرع غرناطـــة

٨٩٧ هـ – ١٤٩٢ م

ليس بين فواجع التاريخ الإسلامى ، أروع وأدعى إلى الحزن وذرف الدمع من مصرع غرناطة الأندلس ؛ فى تلك الصفحة المؤسية المشجية ، ضروب روائع من البسالة ، وتقديس الحرية والكرامة القومية . والتفانى فى الذود عن الوطن ، وفيها ضروب روائع من الاضطهاد والاستشهاد . والتضحية فى سبيل الوطن والدين ؛ قصة شعب نبيل تالد ، شاد صروح عظمته وحضارته فى تلك المهاد قروناً ، ولبث أحقاباً سيد الجزيرة يجوس خلالها فى كبرياء وعزة ، فإذا به يضعف تباعاً أمام عدوه ويفقد قواعده الزاهرة واحدة فأخرى . ثم يصبح فلا يجد من نفسه إلا بقية ممزقة دامية ، تمتنع بين أسوار آخر معقل إسلامى هو غرناطة .

ومن ثم كانت روعة المأساة : غرناطة التى لبثت أحقاباً سيدة الأندلس ، تشرف من حمرائها على مصائر شعب عظيم عزيز الجانب . وترسل من معاهدها ومدارسها ضوء العلوم والفنون إلى جنبات الجزيرة ، وإلى جنوبى أوربا ، وفيها للإسلام دولة ، تجد نفسها فى سنة ١٤٩١ م . فريدة منبوذة من كل ناصر ، تحيط بها جيوش النصرانية من كل صوب ، ظمئة إلى حرياتها . متطلعة إلى حمرائها ، فتشهد بذلك معركة الفصل ، ومصرع الإسلام فى ديار الأندلس ، ويكتب عليها أن تكون قبراً لهذه الأندلس وحضارتها الزاهرة . وفنونها وعلومها . وكل أسباب مجدها وعظمتها .

كانت دولة الإسلام فى الأندلس قبل ذلك بحقبة يسيرة . قد أخذت تنحدر بسرعة إلى هاوية الانحلال والفناء ، وأخذت قواعدها وثغورها الباقية تسقط تباعاً فى يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق منها فى أواخر القرن الخامس عشر سوى مملكة غرناطة الصغيرة وفيها مدن وثغور قلائل . ثم حل الصراع الأخير . واتحدت

اسبانيا النصرانية باتحاد مملكتي أراجون وقشتالة ، وذلك بزواج الملكة إيسابيلا ملكة قشتالة من فرديناند الخامس (فرناندو) ملك أراجون (سنة ١٤٧٩ م) وهما اللذان عرفا فيما بعد « بالملكين الكاثوليكيين » . وكان مشروع غزو مملكة غرناطة والقضاء على الأمة الأندلسية المسلمة ، يذكي فى نفس هذين الملكين أشنع ضروب التعصب الديني والقومى . ومن ثم فقد اعتزمت اسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للإسلام فى الأندلس ، فتدفقت جيوشها المتحدة على مملكة غرناطة . وكانت أحوال مملكة غرناطة يومئذ تنذر بالويل ، فقد دب إليها الخلاف الداخلي ، ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية ، وشطرتها إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر ؛ أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن السلطان على أبى الحسن النصرى ؛ ووادى آش وأعمالها ويحكمها عمه أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف « بالزغل » أى الشجاع أو الباسل . وكان فرديناند وإيسابيلا قد شهرا الحرب على مملكة غرناطة قبل ذلك بأعوام ، واستوليا تباعاً على مالقة أمنع ثغور الأندلس (شعبان سنة ٨٩٢ هـ — أغسطس سنة ١٤٨٧ م) ثم على وادى آش والمنكب والمرية (أواخر ٨٩٤ هـ — ١٤٨٩ م) ثم على بسطة (المحرم سنة ٨٩٥ هـ — ديسمبر سنة ١٤٨٩ م) ؛ ثم جاء دور مدينة غرناطة آخر معقل للإسلام ، وكان ملكها أبو عبد الله محمد يسالم فرديناند ويصانعه ، ويعترف بطاعته . وفى فاتحة سنة ١٤٩٠ م (أوائل صفر سنة ٨٩٥ هـ) ، أرسل الملكان الكاثوليكيان إلى السلطان أبى عبد الله سفارة يطلبان فيها إليه ، تسليم مدينة الحمراء ، وهى قصر الملك ، وأن يبقى هو مقيما بغرناطة تحت حمايتهما . وكان هذا الأمير الضعيف ، آخر ملوك الإسلام بالأندلس . قد عركته الخطوب والحوادث التى جازها منذ تولى الملك . وأدرك ما تنطوى عليه سياسة الملكين النصرانيين من ضروب النفاق والغدر ، فرد برفض هذا الطلب المهين ، وجمع الكبراء والقادة ، فأيدوه جميعاً فى موقفه ، وأعلنوا عزمهم الراسخ على الدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم . وهكذا حمل أبو عبد الله بعزم شعبة على القتال والجهاد ، فاضطرمت الحرب ووقعت بين الغرناطيين والنصارى خلال سنة ٨٩٥ هـ (١٤٩٠ م) عدة معارك ثبت فيها المسلمون واستردوا عدة حصون . ووقفت الحرب خلال الشتاء مدى أشهر ؛ ثم زحف النصارى منذ الربيع على

غرناطة فى جيش ضخم مزود بالمدافع والذخائر الوافرة ، وهبطوا مرج غرناطة الجنوبى فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ هـ (مارس سنة ١٤٩١ م) وضربوا حولها الحصار الصارم ؛ وأنشأ فرديناند لجيشه فى تلك البقعة مدينة صغيرة مسورة سميت سانتافيه (Santa Fé) (شنتفى) أو الإيمان المقدس رمزاً للحرب الدينية ؛ وبدأ الفصل الأخير فى الصراع بين الإسلام والنصرانية فى اسبانيا[1] .

ولم يك ثمة شك فى نهاية ذلك الصراع وجيوش النصرانية تضطرم حول غرناطة كالموج الزاخر ، وافرة الأهبة والعدة والمؤن ، وغرناطة لاقوام لها غير جندها القليل، وعدتها ومؤنها المحدودة، وشعبها المضنى ؛ ولكن غرناطة لم تستسلم إلى قدرها القاهر قبل أن تستنفد فى اجتنابه كل وسيلة بشرية ، ومن ثم كان دفاعها من أمجد ما عرف فى تاريخ المدن المحصورة والقواعد الذاهبة . ولم يكن هذا الدفاع قاصراً على تحمل ويلات الحصار وفتكه مدى سبعة أشهر . بل كان يتعدى ذلك إلى ضروب رائعة من الإقدام والبسالة ؛ فقد خرج المسلمون خلال الحصار لقتال العدو المحاصر مراراً يهاجمونه ويثخنون فى محلاته ، ويفسدون عليه خططه وتدابيره . وكان الفرسان المسلمون يبدون خلال هذه المعارك من الشجاعة والبراعة والإقدام ، ما يثير روعة العدو ودهشته وإعجابه ؛ أولئك الأنجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسة الأندلسية التى لبثت قروناً زهرة الفروسة فى العصور الوسطى .

وكان روح الفروسة المسلمة فى تلك الآونة العصيبة فارساً رفيع المنبت

---

(١) راجع فى تفاصيل هذه الحوادث ، المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٢ — ٦١٥ . وقد انتهت إلينا عن سقوط الأندلس وغرناطة رواية عربية مفصلة بعنوان : « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » وهو كتاب يقع فى ست وخمسين صفحة ولا يعرف مؤلفه ، ولكنه يذكر فى نهايته أنه كتبه فى جمادى الآخرة سنة ٩٤٧ هـ أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة ، فروايته معاصرة تقريباً . والظاهر أنه من تأليف أحد أشراف غرناطة الذين بقوا فيها وأرغموا على التنصر ، ولكنهم لبثوا مسلمين فى روحهم وسريرتهم ، وأنه خشى أن يبوح باسمه لأنه يندب حظ الإسلام ويندد بفظائع النصارى . وقد نشر المستشرق الألمانى مارك ميللر هذا الكتاب (سنة ١٨٦٣) عن النسخة الخطية الوحيدة الموجودة بمكتبة الإسكوريال ، وهى نسخة لم يرد ذكرها فى معجم الغزيرى (معجم مكتبة الإسكوريال) ، ونقل المقرى فى نفح الطيب عن هذه الرواية معظم ماكتبه عن حوادث سقوط الأندلس ، (راجع الكتاب المذكور ص ٢٨ — ٤٠) .

والخلال ، وافر العزم والبراعة والشهامة ، هو موسى بن أبى الغسان[1] . وهو سليل أحد الفروع الملكية ، وأحد هذه الأصول القديمة التى عرفت برائع فروسيتها ، وعميق بغضها للنصارى ، والتى كانت ترى الموت خيراً ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز التالد مهاداً للكفر . ولم يكن بين أنجاد غرناطة يومئذ من هو أبرع من موسى فى الطعان وركوب الخيل . وكان يثير بمحياه الوسيم وظرفه وبراعته ، عطف المجتمع الغرناطى وإعجاب سيداته . وكان منذ رقى أبو عبد الله محمد عرش غرناطة ، ينقم منه استسلامه ، وخضوعه لملك النصارى ، ويعمل على إذكاء الروح الحربى ، وتنظيم الفروسة الغرناطية وتدريبها ، وقيادة السرايا إلى أراضى العدو ، ومفاجأة حصونه وحامياته فى الأنحاء المجاورة . وكان وقت أن أشرف فرديناند الخامس بجموعه على مرج غرناطة (La Vega) وأرسل إلى أبى عبد الله يدعوه إلى التسليم ، معبود الجند ، يلتفون حوله ، ويضطرمون لدعوته وحماسته . عندئذ كانت صرخة موسى : « ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية . أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة ، فى المكان الذى أموت مدافعاً عنه ، من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين » . وسرعان ماضج الشعب حماسة ، وسرت إلى غرناطة روح الحرب مرة أخرى ، وتأثر أبو عبد الله ووزراؤه بالحماسة العامة ، فأرسل إلى ملك النصارى يخبره بأنهم سيقاتلون حتى الموت .

دوت غرناطة بصيحة الحرب ، وتولى موسى قيادة الفروسة ، وقادها مراراً

---

(١) لم نعثر فى المصادر العربية على ذكر لموسى أو أعماله ، ولم يشر إليه صاحب « أخبار العصر » بكلمة ما ولم نقف على ذكره إلا فى موطن واحد . فقد ذكره الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير مولاى إسماعيل عاهل المغرب إلى كرلوس الثانى ملك اسبانيا فى رحلته التى كتبها عن سفارته بعنوان « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » ووصفه بأنه أخ للسلطان ابى الحسن النصرى (ص ١٣) . ولكن المصادر القشتالية تفيض فى ذكر موسى وروائع بسالته ، وفى مقدمة هذه المصادر رواية القس أنطونيو أجابيدا التى نقلها إيرفنج فى كتابه Conquest of Granada ، وكتاب بيريث دى إيتا المعنون : Guerras Civiles de Granada (حروب غرناطة الأهلية) ، وهو كتاب يزعم مؤلفه أنه نقله عن مصادر عربية . وأخيراً كتاب المؤرخ لافونتى الكنترا Historia de Granada, T.IV.p. 69&70) تاريخ غرناطة) وقد نقل المستشرق كوندى ما تعلق بموسى وفرسان غرناطة فيما يبدو من هذه المصادر ، ولكنه يقول إنه نقلها عن مصادر عربية لم يعينها كعادته (راجع كوندى — الترجمة الإنجليزية ج ٣ ص ٣٩ وما بعدها) .

إلى الحصون والقلاع النصرانية المجاورة ، حتى غدا اسمه مثار الرعب بين النصارى وكانت عوداته الظافرة تثير فى الشعب أيما حماسة . وكان فرديناند يرسل السرايا لإتلاف ما حول المدينة من المزارع والحقول تمهيداً للحصار ، فكان موسى ينظم السرايا لإزعاج قواته ، وقطع مواصلاته ، وانتزاع مؤنه ؛ ولكن جيوش النصارى ما لبثت أن ملأت سهل شنيل (النهر الذى تقع عليه غرناطة) ، واعتزم فرديناند ألا يدخر وسعاً فى إرهاق غرناطة ، وألا يرفع الحصار حتى تسلم آخر المدن المسلمة وتختتم بذلك حياة الأندلس . وكان موقف غرناطة حرجاً جداً ، فإن جميع المدن والحصون المسلمة القريبة منها أو الواقعة حولها . مثل بسطة ووادى آش ولوشة والحامة وغيرها ، قد وقعت فى أيدى النصارى كما قدمنا ، وسلم مولاى أبو عبد الله « الزغل » (عم ملك غرناطة) ملك البشرات ووادى آش جميع أراضيه ، وقطعت علائق غرناطة مع البر والبحر من كل ناحية ، ورابطت سفن النصارى فى مضيق جبل طارق وما حوله ، لتحول دون وصول أى مدد إليها من مسلمى إفريقية ، ولم يبق أمامها سوى طريق البشرات الجنوبية من ناحية جبل شلير (سيرا نقادا)[1] تجلب منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة . ولبثت المدينة المحصورة أشهراً تعانى مصائب الحصار صابرة جلدة ، حتى دخل الشتاء وغصت هذه الوهاد والشعب بالثلوج ، واشتد الجوع والبلاء بالمحصورين . عندئذ تقدم حاكم المدينة (أبو القاسم عبد الملك) ذات يوم إلى مجلس الحكم وقرر أن المؤن الباقية لاتكفى إلا لبضعة أشهر . وأن اليأس قد دب إلى قلوب الجند والعامة . وأن الدفاع عبث لا يجدى . ولكن موسى اعترض كعادته بشدة ، وقرر أن الدفاع ممكن وواجب ، وبث بادرة جديدة من الحماسة فى الرؤساء والقادة . فاستسلم أبو عبد الله إلى تلك الروح ، وسلم إلى القادة أمر الدفاع . وتولى موسى كعادته قيادة الفرسان ؛ وكان من مساعديه نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة وهما من أنجاد عصرهما ؛ ثم أمر بفتح الأبواب وأعد فرسانه أمامها ليل نهار . فاذا اقتربت سرية من النصارى ، داهمها بفرسانه فى لمح البصر وأثخن فيها . ومزقت على هذا النحو صفوف برمتها من النصارى ، وكان يقول لفرسانه : « لم يبق لنا إلا الأرض التى نقف عليها ، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن » .

---

(١) وتعرف أيضاً بجبل الثلج ترجمة لاسمها الإسبانى Sierra Nevada

وأخيراً رأى فرديناند الخامس أن يزحف بقواته على أسوار المدينة ،فخرج المسلمون إلى لقائه وعلى رأسهم أبو عبد الله وموسى ،ونشبت بين الفريقين فى المرج الواقع فى ظاهر غرناطة La Vega ، عدة معارك محلية هائلة ؛ وكان الفرسان وعلى رأسهم موسى كالعادة روح المعركة ، وكان أبو عبد الله يقود الحرس الملكى ، وكان القتال رائعاً خضب فيه كل شبر من الأرض بدماء الفريقين ، ولكن المشاة المسلمين كانوا ضعافاً لايعتمد عليهم ، فزقوا بسرعة وفروا هنا وهنالك ، وتبعهم فرسان الحرس الملكى إلى أبواب المدينة وعلى رأسهم أبوعبدالله ، وعبثاً حاول موسى أن يجمع شمل الجند وأن يدعوهم للذود عن أوطانهم ونسائهم وكل ما هو مقدس لديهم ، وألفى نفسه وحيداً فى الميدان مع فرسانه المخلصين وقد تضاءل عددهم ، وأثخن الباقون منهم جراحاً ، فاضطر عندئذ أن يرتد إلى المدينة وهو يرتجف غضباً ويأساً .

وهنا أوصد المسلمون أبواب المدينة ، وامتنعوا بأسوارها جزعين مكتئبين ، وأبدى النصارى وطيد العزم على متابعة الحصار ، وضيقوا على المدينة المحصورة بكل الوسائل وشددوا فى قطع علائقها ومواصلاتها ، والمسلمون داخل غرناطة يعانون أهوال الجوع والحرمان والمرض ، حتى دب اليأس إلى قلوب الناس جميعاً .فدعا أبو عبد الله مجلساً من كبار الجند والفقهاء والأعيان ، فاجتمعوا فى بهو الحمراء الكبير (بهو قمارش) ، واليأس ماثل فى وجوههم ، وشرح لهم أبوالقاسم عبد الملك حاكم المدينة ما انتهى إليه الخطب من تفاقم ، والأقوات والمؤن من نضوب ، وما يعانيه الشعب من بلاء ، وصرح الجماعة بأن الشعب لايقوى بعد على تحمل مصائب الدفاع ، وأن ليس لهم إلا التسليم أو الموت . وأجمعوا على طلب التسليم . ولكن موسى ابن أبى الغسان انفرد كعادته بالمعارضة وحاول أن يبث بكلماته الملتهبة قبساً أخيراً من الحماسة ، وكان مما قال : « لم يحن الوقت بعد للكلام عن التسليم . فلم تنضب كل مواردنا بل ما زال لدينا مورد هائل للقوة كثيراً ما أدى المعجزات . ذلك هو يأسنا ، فلنعمل على إثارة الشعب ، ولنضع السلاح فى يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ،وإنه لخير لى أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة ، من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها » .

على أن كلماته لم تؤثر فى تلك المرة ، فقد كان يخاطب رجالا نضب الأمل فى قلوبهم وغاضت فيهم كل حماسة ، ووصلوا إلى حالة من اليأس لاتنجح فيها البطولة ولايحسب فيها للأبطال حساب ، بل يعلو نصح الشيوخ ويغلب ؛ وهكذا حدث فإن أبا عبد الله أصغى إلى رأى الجماعة واعتزم التسليم ،وأرسل أبا القاسم عبد الملك إلى ملك النصارى ليفاوضه فى الشروط ، فاستقبله فرديناند الخامس بحفاوة . ولبثت غرناطة ترتجف من أقصاها إلى أقصاها ، حتى عاد الوزير يحمل آخر الشروط التى رضيها ملك النصارى وخلاصتها : أن يقف القتال بين الفريقين سبعين يوماً إذا لم تصل خلالها أمداد إلى المسلمين من إخوانهم فى إفريقية سلمت غرناطة ودخلت فى طاعة ملك النصارى ، وأن يطلق سراح جميع الأسرى من النصارى بلا فدية ، وأن يطلق الأسرى المسلمون كذلك ، وأن يؤمن المسلمون فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .وأن يحتفظوا بشريعتهم وقضاتهم ، وأن يتمتعوا أحراراً بشعائر دينهم من الصلاة والصوم والأذان وغيرها . وأن تبقى المساجد حرماً مصونة ، وألا يدخل نصرانى مسجداً أو دار مسلم، وألا يولى على المسلمين نصرانى أو يهودى ، وأن يجوز إلى إفريقية من شاء من المسلمين فى سفن يقدمها ملك النصارى فى ظرف ثلاثة أعوام ، وألا يقهر مسلم على التنصر ، وأن يوافق البابا على هذه الشروط . واتفق أيضاً على أن يغادر أبو عبد الله غرناطة إلى البشرات حيث يقطع ضياعاً يعيش فيها ويكون مقره بلدة أندرش من أعمالها ، وأن تقدم غرناطة خمسمائة من أعيانها كفالة بالإخلاص والطاعة(١) .

هذه خلاصة الشروط التى وضعت لتسليم غرناطة . وقد كانت بلاريب أفضل ما يمكن الحصول عليه فى مثل هذا الظرف العصيب . لو أخلص النصارى فى عهودهم . ولكن سنرى أنها كانت عهود غدر وخيانة . وأنها نقضت جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غرناطة . وهذا ما تنبأبه موسى بن أبى الغسان حينما اجتمع الزعماء فى الساعة العصيبة التى أتوا ليوقعوا فيها قرار التسليم ، وليحكموا على دولتهم

(١) أخبار العصر ج ٤٨ — ٥٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ — ٦١٦ . وقد نشرنا فى كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » (الطبعة الثانية) النص الكامل لمعاهدة تسليم غرناطة مترجماً عن النسخة القشتالية الرسمية المحفوظة بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا (راجع كتابى المذكور ص ٢٣٠ — ٢٣٦) .

بالذهاب وأمتهم بالمحو . عندئذ لم تملك كثير منهم نفسه من البكاء والعويل . ولكن موسى ابث وحده هادئاً صامتاً عابساً ، وقال : « أتركوا أيها السادة العويل للنساء والأطفال . نحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء ، وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة . ولكن مازال ثمة بديل للنفوس النبيلة ، ذلك هو موت مجيد ؛ فلنمت دفاعاً عن حريتنا ، وانتقاماً لمصائب غرناطة . وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه ؛ ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا الله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها » .

ثم صمت موسى . وساد المجلس سكوت الموت ، وسرح أبو عبد الله البصر حوله . فإذا اليأس ماثل فى تلك الوجوه التى أضناها العناء ، وإذا كل حماسة قد غاضت فى تلك القلوب الكسيرة الدامية .عندئذ صاح « الله أكبر ، لاإله إلا الله، محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله ، تالله لقد كتب على أن أكون شقياً .وأن يذهب الملك على يدى » ، وصاح الكبراء على أثره « الله أكبر ؛ ولا راد لقضاء الله » وكرروا جميعاً أنها إرادة الله ولتكن ، وأن لامفر من قضائه ولا مهرب ، وأن شروط ملك النصارى أفضل ما تمكن الحصول عليه . فلما رأى موسى بن أبى الغسان أنهم هموا بتوقيع صك التسليم نهض مغضباً وصاح : « لاتخدعوا أنفسكم . ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم . ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم . إن الموت أقل ما نخشى ، فأمامنا نهب مدينتنا وتدميرها ،وتدنيس مساجدنا وخراب بيوتنا ، وهتك نسائنا ؛ وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشى ، والسياط والأغلال ؛ وأمامنا السجون ، والأنطاع ، والمحارق : هذا ما سوف نعانى من مصائب وعسف ، وهذا ما سوف تراه على الأقل هذه النفوس الوضيعة التى تخشى الآن الموت الشريف . أما أنا فوالله لن أراه » . ثم غادر المجلس ، واخترق « بهو الأسود »[1] عابساً حزيناً وجاز إلى أبهاء الحمراء الخارجية ، دون أن يرمق أحداً أو يفوه بكلمة . ثم ذهب إلى داره وغطى نفسه بسلاحه ، واقتعد غارب

---

(١) هو بعمده الرشيقة وزخارفه البديعة أجمل أبهاء الحمراء ، وقد سمى كذلك بسبب نافورته الشهيرة التى تتوسطه ، ويحمل حوضها المستدير اثنا عشر من الأسود .

جواده المحبوب ، واخترق شوارع غرناطة حتى غادرها من باب إلبيرة[١] ، ولم يره إنسان أو يسمع به بعد ذلك قط .

هذا ما تقوله الرواية العربية عن نهاية موسى بن أبي الغسان[٢]، ولكن مؤرخاً إسبانياً قديماً هو القس أنطونيو أجابيدا يحاول أن يلقى ضياء على مصيره فيقول : إن سرية من الفرسان الإسبان تبلغ زهاء الخمسة عشر ، كانت تسير فى ذلك المساء بعينه على ضفة نهر « شنيل » فرأوا على ضوء الشفق فارساً مسلماً يدنو وقد دججه السلاح من رأسه إلى قدمه ،وكان مغلقاً خوذته ، شاهراً رمحه؛ وكان جواده القوى غارقاً مثله فى رداء من الصلب . فلما رأوه يعدو على ذلك النحو طلبوا إليه أن يقف وأن يعرف بنفسه . فلم يجب الفارس المسلم ، ولكنه وثب إلى وسطهم ، وطعن أحدهم برمحه وانتزعه من سرجه فألقاه إلى الأرض ، ثم انقض على الباقين . وكانت ضرباته ثائرة قاتلة ، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح ، ولم يرد إلا أن يقتل وأن يسيل الدم ، وكأنه إنما يقاتل للانتقام فقط ،وكأنما يتوق إلى أن يقتل دون رغبة فى أن يعيش لينعم بظفره . وهكذا لبث يبطش بالفرسان حتى أفنى أكثر من نصفهم . غير أنه جرح فى النهاية جرحاً خطراً ، ثم سقط جواده من تحته قتيلا بطعنة أخرى ، فسقط على الأرض ، ولكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره وأخذ يناضل عن نفسه ، فلما رأى قواه قد نضبت ، ولم يرد أن يقع أسيراً فى يد خصومه ارتد إلى ورائه بوثبة أخيرة ، وألقى بنفسه إلى مياه النهر ، فابتلعه لفوره ، ودفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق .

يقول الراوية المذكور ، إن هذا الفارس هو موسى بن أبي الغسان ، وإن بعض العرب المتنصرين فى المعسكر الإسبانى عرفوا جواده المقتول .وهى رواية لا بأس بها غير أن الحقيقة لم تعرف قط [٣].

* * *

(١) وهو بالإسبانية Puerta de Elvira وهو ما يزال موجوداً بمدينة غرناطة الحديثة ويقع فى جنوبها الشرقى .

(٢) هذه هى رواية كوندى فيما نقل عنه مصادر عربية غير معروفة (ج ٣ ص ٣٩٤) .

(٣) راجع هذه الرواية فى : Irving : Conquest of Granada. Ch. 97

وهكذا أذعنت غرناطة وسلمت (صفر ٨٩٧ هـ – ديسمبر سنة ١٤٩١ م) ودخل النصارى غرناطة فى الثانى من ربيع الأول سنة ٨٩٧ (٢ يناير سنة ١٤٩٢) واحتلوا حمراءها وباقى قصورها وحصونها ورفعوا الصليب وعلم القديس ياقب فوق « برج الحراسة » أرفع أبراجها . وخفق علم النصرانية فوق صرح الإسلام المنهار ، وانتهت دولة الإسلام فى الأندلس ، وطويت إلى الأبد تلك الصفحة المجيدة الخالدة من تاريخ الإسلام ، وقضى على تلك الحضارة الأندلسية الزاهرة ، وآدابها وعلومها وفنونها وكل ذلك التراث الباهر بالمحو والفناء .

تلك قصة غرناطة المشجية المبكية ؛ وتلك قصة فارسها موسى بن أبى الغسان ؛ قصة فارس مسلم ، يمثل أسمى خلال الفروسة ، وأجمل معانى التضحية والإخلاص والإباء والشهامة ؛ وإذا كانت الأساطير الإسبانية قد اتخذت من « السيد الكمبيادور » مثلا أعلى للبطولة والفروسة النصرانية ، وجعلت منه فارس اسبانيا القومى ، فإن فى سيرة الفارس الغرناطى المؤسية ، وخلاله الرفيعة ، ما يجعله بحق مثلا أعلى للفروسة الإسلامية ، ومن ثم فارس الأندلس القومى[1] .

---

(١) نجد الرواية النصرانية عن حوادث سقوط غرناطة مفصلة فى كتاب إيرفنج Conquest of Granada، وكذلك فى كتاب: Prescott : History of Ferdinand and Isabella, Ch. XIV &XV وفى L. Alcantra : Historia de Granada, T. III. pp. 56—78. وراجع كتابى « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » (الطبعة الثانية ص ٢٢٢ – ٢٤٧)

الفصل الخامس

موقعـــة القصر

أو موقعة وادى المخازن

٩٨٦ هـ — ١٥٧٨ م

لما انتهى الصراع البطئ المرير ، الذى لبث قروناً يضطرم بين اسبانيا المسلمة وبين اسبانيا النصرانية ، إلى نتيجته المحتومة ، وانتهت دولة الإسلام فى الأندلس بسقوط غرناطة آخر الحواضر الإسلامية فى يد فرديناند وايسابيلا فى فاتحة سنة ١٤٩٢ م ، أخذت السياسة الإسبانية الظافرة ، بعد أن تحقق حلمها العظيم ، تتجه إلى آفاق أخرى من الفتح والتوسع خارج شبه الجزيرة .

ودعك من ظفر اسبانيا باكتشاف العالم الجديد ، على يد كولومبس ، فى نفس العام الذى سقطت فيه غرناطة ، ومن استيلائها على شطر عظيم من أقطاره وجزائره . وتدفق ثرواته الطائلة إليها ، فإن هذه النعم العريضة لم تقنعها ولم ترد أن تقف عندها . ذلك أنها كانت دائماً تتجه إلى نفس الغاية التى اتجه إليها من قبل الرومان ثم الوندال ، وهى أن تبسط سيادتها على الضفة الأخرى من البحر ، وأن تعيد إذا استطاعت سيرة الاستعمار الرومانى فى الجانب الغربى من شمال إفريقية .

على أن اسبانيا قد تخلفت قليلا فى هذا الميدان عن جارتها النصرانية الصغيرة فى شبه الجزيرة . ونعنى البرتغال . ذلك لأن هذه المملكة الناشئة استطاعت عقب انهيار سلطان الموحدين ، أن تقضى فى أقل من قرن ، على القواعد الإسلامية فى ولاية الغرب الأندلسية . وكانت قد استولت على أشبونة أولشبونة فى سنة ١١٤٧م ثم تلتها شنترين ويابره . ثم شلب وشنتمرية الغرب ، وهكذا لم يأت منتصف القرن الثالث عشر ، حتى كانت البرتغال قد قضت على سلطان المسلمين نهائياً فى هذا القسم الغربى من شبه الجزيرة الإسبانية . وأخذت توطد قواها . وتتأهب للمغامرات الإستعمارية . هذا فى حين استمرت جارتها الكبيرة إسبانيا النصرانية

مدى قرنين آخرين ، فى صراعها مع اسبانيا المسلمة ، ولم تفرغ منه إلا فى أواخر القرن الخامس عشر .

ومن ثم فإنا نجد البرتغال تتطلع إلى هذا الميدان الجديد منذ أوائل القرن الخامس عشر. فى سنة ١٣١٥ م (٨٠٨ ﻫ) عهد يوحنا الأول ملك البرتغال وعهد السلطان أبى سعيد بن أحمد ملك المغرب ، استولى البرتغاليون على سبتة بعد حصار دام بضع سنين ، وحولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة . ولم يسبق منذ أن استولى المسلمون على سبتة فى سنة ٧١١ م ، أن سقط هذا الثغر المنيع فى أيد غير مسلمة ، وكان استيلاء البرتغاليين عليه فاتحة سلسلة متعاقبة من الحملات العدوانية الإستعمارية على شواطئ المغرب الغربية مهد لها البرتغاليون ، بالحملات البحرية الاستكشافية التى بدأها الأمير هنرى المشهور بالملاح ، ولد الملك يوحنا الأول . فقد بدأ هذا الأمير بتنظيم وقيادة عدة من البعوث البحرية منذ سنة ١٤١٨ م ، جاست خلال شواطئ المغرب الغربية ، والجزائر القريبة مثل ماديرا وغيرها ، وكانت بداية الكشوف البرتغالية لطريق الهند . وفى سنة ١٤٦٤ م (٨٦٩ﻫ) استولى البرتغاليون على ثغر طنجة . وفى سنة ١٤٧١م (٨٧٦ ﻫ) استولوا على ثغر أصيلا . وانحدروا فى نفس الوقت جنوباً إلى ساحل السوس ، واستولوا على بعض مواقعه . وفى سنة ١٥٠٣م (٩٠٧ ﻫ) نزلوا على مقربة من أزمور ، وبعد ذلك بثلاثة أعوام استولوا على ثغر العرائش ، ثم استولوا على أكادير وآسفى فى سنة ١٥٠٧ م ، ثم على أزمور فى سنة ١٥١٣ ، وجلوا عنها فى سنة ١٥٤١ م . وهكذا استطاعوا أن يسيطروا على معظم شواطئ المغرب الغربية .

وكانت هذه الحملات البرتغالية العدوانية ، تمتاز بنزعتها الصليبية ؛ وهى النزعة التى سادت حروب البرتغال مع المسلمين فى ولاية الغرب الأندلسية . ونحن نعرف أن البرتغال لم تستطع مغالبة المسلمين ، وانتزاع قواعدهم ، منذ أشبونة ويابرة وشنترين وغيرها إلا بمعاونة الحملات الصليبية المختلفة ، التى كانت تتخلف بشواطئها فى طريقها إلى المشرق . وكان من الطبيعى فى نفس الوقت أن يعتبر المغاربة مقاومة البرتغاليين ومحاربتهم جهاداً ونضالا قومياً وطنياً . وكان نجاح البرتغاليين فى هذه الحملات ، يرجع إلى تفوقهم فى الأسلحة الحديثة ولاسيما المدافع .

• • •

وفى هذا الوقت كانت اسبانيا النصرانية ، قد اختتمت حروبها مع اسبانيا المسلمة ، وانتهت بالاستيلاء على مملكة غرناطة آخر الدول الإسلامية بالأندلس (سنة ١٤٩٢ م) . وماكادت تطمئن إلى توطيد سلطانها فى الأراضى المفتوحة ، حتى أخذت تتطلع بعين الغيرة إلى فتوح البرتغاليين فى الشواطئ المغربية . وكان الكردينال خمنيس صاحب سياسة تنصير الأمة الأندلسية المغلوبة ، يرجو أن تجتاح الحملات الصليبية الإسبانية شواطئ المغرب الشمالية ، على نفس النسق الذى اجتاحت فيه حملات البرتغال شواطئ المغرب الغربية . وكانت اسبانيا قد بدأت حملاتها العدوانية بالفعل على الشواطئ المغربية قبل ذلك بقليل ؛ بالاستيلاء على ثغر مليلة فى سنة ١٤٩٠ م . وفى سنة ١٥٠٠ ، استولت حملة إسبانية صليبية بقيادة الكردينال خمنيس ذاته على ثغر المرسى الكبير . وفى سنة ١٥٠٩ سارت حملة صليبية أخرى بقيادة هذا الحبر المتعصب أيضاً : استولت على ثغر وهران فى مناظر مروعة من السفك والتقتيل لأهله المسلمين . وفى عهد الإمبراطور شارلكان ضاعفت اسبانيا اهتمامها بالاستيلاء على ثغور المغرب الشمالية ، وكان معظمها قد استقل عن السلطة المركزية ، وقامت به حكومات محلية ضعيفة ، فأخذت اسبانيا تلدس بين أمراء هذه الثغور ، وتوٌلب بعضهم على بعض . وفى سنة ١٥٢٥ م توفى سلطان تونس الحفصى ، واختلف أبناؤه على العرش ، فاستولى أمير البحر التركى خير الدين على تونس باسم السلطان . وهنا استغاث الأمير المخلوع أبو عبد الله محمد الحسن بالإمبراطور شارلكان ، فبعث إلى تونس بحملة بحرية حملت خير الدين على مغادرتها ، وردُ الأمير الحسن إلى العرش ليحكم باسم الإمبراطور وتحت حمايته (سنة ١٥٣٥ م) ، واحتل الإسبان بعض مواقع تونس وجزائرها ، وكذلك احتلوا ثغر بونة ، لمدى قصير .

وبعد ذلك ببضعة أعوام فى سنة ١٥٤١ م ، حاول الإمبراطور شارلكان أن يستولى على ثغر الجزائر ، وكانت الجزائر ومنطقتها قد آلت إلى الترك منذ أيام خير الدين ، فبعث الإمبراطور إليها أسطولا ضخماً وجيشاً كبيراً ، ونشب بين الإسبان وبين المغاربة ، بقيادة حسن باشا حاكم الجزائر وولد خير الدين ، قتال عنيف فى البر والبحر ، انتهى بتحطيم أسطول الإمبراطور وتمزيق جيشه ؛

ولم تنس اسبانيا ثغرى سبتة وطنجة . وكانت ترى منذ البداية أن استيلاء البرتغاليين على هذين الثغرين اللذين يواجهان أرضها على الضفة الأخرى من المضيق، افتئات على حقوقها ، وأنها هى صاحبة الحق الطبيعى فى الاستيلاء عليها . وسنحت هذه الفرصة فى عصر الملك فيليب الثانى. فقد أتيح لهذا الملك القوى أن يستولى على البرتغال فى سنة ١٥٧٠ ، باعتباره وارثاً شرعياً لعرشها ،وترتب على ذلك أن استولى الإسبان على سبتة وطنجة من أيدى البرتغاليين ، وتقرر ضمهما إلى العرش الإسبانى .

وقعت هذه الاعتداءات الإستعمارية كلها على ثغور المغرب عقب اضمحلال قوى الأندلس ، وسقوطها فى أيدى جارتيها المتربصتين بها فى شبه الجزيرة ، أعنى اسبانيا والبرتغال ، وكانت الأندلس دائماً درعاً يحمى المغرب من عدوان اسبانيا النصرانية ، فلما تداعى هذا الدرع القديم ، نشط الاستعمار إلى تنظيم عدوانه . وتحقيق أطماعه القديمة الدفينة ، وانتقل الصراع ، الذى لبث قروناً ، يضطرم فى شبه الجزيرة بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية ، وساهم المغرب فيه بأعظم قسط ، من مسرحه القديم داخل شبه الجزيرة ، إلى الضفة الأخرى من البحر ، إلى المغرب ذاته . وكان من سوء الطالع أن وقع هذا العدوان الاستعمارى فى عصور ، اجتاحت المغرب فيها ، ريح الفتنة ، ودبت إليه عناصر الانحلال والوهن . بيد أن المغرب لم ينس مع ذلك أن يدافع ما استطاع عن ثغوره وأراضيه، وقد كتب فى هذا الجهاد صفحات مشرفة ، سواء فى الدفاع عن ثغوره الشمالية أو الغربية . وكانت الثغور الشمالية ، إذا استثنينا سبتة وطنجة ، تحيط بها ظروف خاصة . وتقتتل على السلطان فيها قوى مختلفة . ومن ثم فقد كان الصراع حول الثغور الغربية ، أسبق وأطول مدى. وكان هذا الصراع بالأخص يضطرم ضد الاستعمار البرتغالى ، الذى امتد عدوانه على طول الشاطئ الغربى جنوباً حتى ثغر أكادير . وكان هذا الاستعمار مذ نمت قوة البرتغال البحرية ، وتعددت بعوثها البحرية الكشفية ، يرقب الفرص لمضاعفة عدوانه ، ويتحفز للتسلل كلما آنس ثغرة فى سير الحوادث يستطيع التسلل منها .وكان من سوء الطالع أن حوادث المغرب ، كانت تقدم إليه تلك الفرص من آن لآخر .وكان من أبرز أدوار هذا

الصراع ، تلك الموقعة الشهيرة — موقعة القصر — التى منى فيها الاستعمار بضربة من تلك الضربات القاصمة ، والتى تقدم إلينا أسطع مثل للصراع بين الشرق والغرب ، وبين الإسلام والنصرانية فى العصر الحديث .

* * *

فى سنة ١٥٧٣ م (٩٨١ ﻫ) توفى ملك المغرب السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله السعدى ، فخلفه ولده أبو عبد الله محمد المتوكل . وكان أخواه عبد الملك وأحمد عندئذ بالجزائر ، وهى يومئذ من ولايات السلطان العثمانى ، فسارا إلى قسطنطينية وسعيا لدى السلطان سليم فى سبيل إعانتهما على استرداد الملك ، باعتبارهما أحق من ولد أخيهما المتوفى . فاستجاب السلطان العثمانى لهذا المسعى ، وبعث معهما حاكم الجزائر المدعو الدولاتى ، جيشاً من خمسة آلاف مقاتل سارا به لمقاتلة ابن أخيهما المتوكل . والتقى الفريقان فى موضع يسمى بالركن على مقربة من فاس . وبذل عبد الملك جهوده ، لاجتذاب قادة ابن أخيه المتوكل ، وأغدق لهم الوعود . فانحاز إليه بعضهم ، وفت فى عضد المتوكل ، وهزم فى الموقعة التى نشبت ، ولاذ بالفرار ، ودخل عبد الملك فاس ظافراً ، ثم سار فى قواته صوب مراكش . وكان محمد المتوكل قد فرق صحبه وأنصاره إلى السوس ، ثم عاد بعد أن نظم قواته لمقاتلة عميه ، فالتقى الجمعان على مقربة من سلا ، وهزم المتوكل للمرة الثانية ، وارتد إلى مراكش ، يريد الامتناع بها ، فطارده عمه أحمد المنصور ، ففر إلى جبال درن ، ودخل السلطان أبو مروان عبد الملك مراكش فى ربيع الثانى سنة ٩٨٤ ﻫ (١٥٧٦ م) وتولى أخوه أحمد حكم مدينة فاس .

أما السلطان المغلوب محمد المتوكل ، فقد فر إلى طنجة ، وكانت يومئذ بيد البرتغال ، وإن كانت من الناحية السياسية من أملاك العرش الإسبانى . ثم عبر البحر إلى اسبانيا ، واستغاث بملكها فيليب الثانى ، وتضرع إليه فى معاونته ونصرته ، فلم يسعفه إلى طلبه ، فقصد عندئذ إلى البرتغال واستغاث بملكها سبستيان . وكان سبستيان وهو ابن الأمير يوحنا البرتغالى ، وجنة ابنة الإمبراطور شارلكان وأخت فيليب الثانى ، يومئذ فتى فى الثالثة والعشرين من عمره ، ربى فى كنف اليسوعيين . وكان ذهناً هائماً متعصباً ، يضطرم بروح صليبية عميقة ،

وتملأ مخيلته سير الفروسة الصليبية ، وجل أمانيه أن يشهر الحرب المقدسة على المغرب . وكان قد قاد بالفعل حملة إلى المغرب فى سنة ١٥٧٤ م ، ولكنها لم نسفر عن أية نتيجة . فلما قصد إليه محمد المتوكل ، وعرض عليه أن يتنازل له عن سائر ثغور المغرب الغربية ، وأن يكتفى هو بحكم المناطق الداخلية ، مقابل معاونته على استرداد عرشه من عميه ، استجاب إليه ، وألفى الفرصة سانحة لتحقيق أمنيته الدينية والاستعمارية معاً . فحشد جيشاً وأسطولا عظيمين ، وبدا لون الحملة الصليبي فى انضمام قوات كبيرة من المتطوعة الإسبان والألمان والإيطاليين وغيرهم إليها . وكان الأسطول البرتغالى الذى خرج من ثغر قادس ، يحمل هذا الجيش الضخم ، يتكون من نحو ألف سفينة . وسارت هذه الحملة البرتغالية العظيمة ، قاصدة إلى مياه المغرب ، وكان البرتغاليون قد استولوا قبل ذلك بقليل على ثغر أصيلا الواقع شمال ثغر العرائش ، فسارت الحملة فى هذا الاتجاه ، ونزل الغزاة إلى الشاطئ جنوبى أصيلا ، وساروا فى الداخل حتى وصلوا إلى وادى المخازن على مقربة من مدينة القصر الكبير ، وكان السلطان المخلوع محمد المتوكل ينتظر مقدم الحملة فى طنجة ، فانضم إليها بقواته القليلة ، وكانت لاتعدو ثلاثمائة مقاتل .

وكان السلطان أبو مروان عبد الملك قد استعد فى تلك الأثناء لمقاتلة الغزاة ، فسار بقواته إلى تامسنا على مقربة من الشاطئ تجاه المعمورة وسلا ، وتولى أخوه أحمد المنصور والى فاس إمداده بالعتاد والمؤن . ثم تقدم نحو الشمال ليلقى الغزاة ، وكان السلطان عبد الملك مريضاً ، يحمل فى محفة ، ولكنه لم يحجم عن قيادة جيشه ، والتأهب لخوض المعركة . وتختلف الرواية فى تقدير عدة القوات البرتغالية ، فتقدرها بعض الروايات بمائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل ، ويقدرها البعض الآخر بثمانين ألفاً . وفى رواية أخرى أن الحملة البرتغالية كانت تتألف على النحو الآتى : اثنا عشر ألفاً من الجند البرتغاليين ، وعشرون ألفاً من الإسبان ، وثلاثة آلاف من الألمان ، ومثلها من الإيطاليين ، وكان لديها مائتا مدفع . أما قوات الجيش المغربى فتقدرها الرواية بنحو أربعين ألفاً ، ولديها من المدافع أربعة وثلاثون .

والتقى الجمعان حينما نزل البرتغاليون ، بوادى المخازن ، على مقربة من مدينة القصر ، وكان المرض يشتد على السلطان عبد الملك شيئاً فشيئاً ، وهو فى محفته

لاينى عن توجيه حركات جيشه . وقيل أن محمداً المتوكل دس عليه من سمه ليموت قبل القتال ، فيختل أمر المسلمين ، وتلحق بهم الهزيمة . وكان مع الجيش المغربى طائفة من العلماء منهم العلامة الشهير الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسى وغيره ، يعملون على إنهاض همم الجند ، وإذكاء حماستهم . وكان قواد الجيش المغربى خمسة هم أبو على القتورى ، والحسين العلج الجنوى ، ومحمد أبو طيبة ، وعلى بن موسى وأخوه أحمد عامل ثغر العرائش . ونشبت بين الجيشين معركة هائلة أبلى فيها المغاربة أعظم البلاء . وبالرغم من أن السلطان عبد الملك قد توفى فى بداية المعركة ، فقد كتم حاجبه العلج رضوان موته ، ولبث يوجه الأوامر باسمه إلى مختلف القادة والجند ، واستمر القتال على أشده ، حتى دب الخلل أخيراً إلى صفوف الغزاة المعتدين ، ومزقوا تمزيقاً ، ومنوا بأعظم هزيمة ساحقة . وهلك الملك سبستيان غريقاً فى مياه الوادى . وهلك فى نفس الوقت محمد المتوكل غريقاً كذلك . وبالرغم من أن جثة الملك البرتغالى قد انتشلت ، ودفنت بالقصر ، ثم نقلت إلى سبتة ، ومن بعد ذلك إلى البرتغال ، ودفنت فى ديرسان جيرنمو بلشبونة ، فقد أحيط مصرعه بالأساطير ، واعتقد الكثيرون أنه لم يمت ، وأنه قد اختفى لحكمة دينية . أما محمد المتوكل فقد استخرجت جثته ، وسلخت ، وحشيت تبناً ، ثم حملت إلى مراكش حيث طيف بها ، وسمى من أجل ذلك بالمسلوخ . وكانت نهايته المشئومة عبرة العبر .

ووقعت هذه الموقعة الشهيرة — موقعة القصر أو موقعة وادى المخازن — فى يوم الاثنين آخر جمادى الأولى سنة ٩٨٦ هـ الموافق ٤ أغسطس سنة ١٥٧٨م . وتعرف فى التواريخ الإفرنجية كذلك « بمعركة الملوك الثلاثة » وقد هلكوا فيها جميعاً ، وكانت فضلا عن صفتها الحاسمة بين الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، من أعظم الكوارث التى أصابت الإستعمار فى حملاته العدوانية على المغرب(١) .

وفى الحال بويع السلطان أحمد المنصور مكان أخيه المتوفى ، فى مكان الموقعة ذاتها . وبادر السلطان الجديد شعوراً منه بأهمية الموقعة وخطرها البالغ ، بإرسال كتبه بالنصر إلى سائر القصور الإسلامية ، وفى مقدمتها بلاط قسطنطينية ، ومن

---

(١) نقل إلينا السلاوى فى الإستقصاء مختلف الروايات عن معركة القصر (ج ٣ ص ٣٢ — ٤١).

المحقق أن البلاط العثمانى ، استقبل أنباء هذا النصر بمنتهى الارتياح والرضى ، وألفى فيها بعض العزاء عما أصاب الأساطيل التركية قبل ذلك بأعوام قلائل من هزيمة ساحقة أمام الأساطيل النصرانية فى معركة لپانتو الشهيرة (سنة ١٥٧١ م) .

ومن جهة أخرى فقد كان لهذا النصر الباهر الذى أحرزته قوى المغرب المجاهدة على الغرب المعتدى ، أعظم أثر فى ردع الاستعمار البرتغالى ، وفى إذكاء روح المقاومة والجهاد بالمغرب . واستمر المغرب من بعد ذلك عصوراً ، يعمل جاهداً لاسترداد قواعده وثغوره من الإسبانيين والبرتغاليين .وقد كتب المغرب بجهاده الطويل الباسل فى هذا السبيل ، صفحات مشرقة من الجهاد القومى والدينى ، لايتسع المقام هنا لاستعراضها .وكان المغرب يشعر بالأخص بفداحة خسارته فى فقد ثغرى سبتة وطنجة . فأما عن سبتة فقد حاول المغاربة استردادها منذ البداية ، وحاصروها مراراً ، ولاسيما فى عهد مولاى اسماعيل عاهل المغرب العظيم ، فقد استمر حصارها ستة وعشرين عاماً من سنة ١٦٩٤ إلى سنة ١٧٢٠ م ، ولكن لم يتحقق الأمل المنشود من استردادها ، ومازالت حتى اليوم بيد اسبانيا .

أما طنجة فقد لبثت فى يد اسبانيا زهاء ثمانين عاماً ، ولكن بقيت إدارتها فى أيدى البرتغاليين ثم عادت تماماً إلى البرتغال فى سنة ١٦٥٦ ، بعد أن استعادت البرتغال استقلالها ، واستولى عليها الإنجليز فى سنة ١٦٦٢ . وقد حاول مولاى إسماعيل أيضاً أن يسترد طنجة وهاجمها غير مرة ، وأخيراً رأى الإنجليز أن يتركوها لأصحابها المغاربة ، فجلوا عنها سنة ١٦٨٤ م ، واستمرت ثغراً مغربياً ، حتى جعلت منطقة دولية بمقتضى معاهدة مدريد فى سنة ١٩١٢ ، وقد عادت أخيراً إلى أمها الكبرى ثغراً مغربياً ،وجزءاً لايتجزأ من الوطن المغربى .

الفصل السادس

مصرع الحضارة الأندلسية

ومأساة العرب المتنصرين

ثمانية قرون كاملة من نضال مضطرم بين العرب والإسبان ، وصراع متصل بين الإسلام والنصرانية ، وانقلابات وثوارث لانهاية لها فى سبيل الغلبة والسلطان ، ودول وإمارات كبرى وصغرى تتنازع تراث الدولة الأموية ، وجهاد مستمر من الإسلام ليحتفظ بأرضه وسيادته ، وجهاد مستمر من اسبانيا النصرانية لاستخلاص أراضى الوطن من الفاتح ، واستبسال الفاتح فى الحرص على وطنه المكسوب والذود عن دينه ومدنيته : تلك هى أدوار المأساة الأندلسية ، التى انتهت بذهاب دولة الإسلام فى اسبانيا .

وإذا كان لنا أن نعجب بذلك الجهاد المتصل الذى شهرته اسبانيا النصرانية على اسبانيا المسلمة ، وذلك التقدم المنظم الذى أحرزته خلال القرون فى سبيل استرداد أرضها وسيادتها ، وما أبدته دائماً من براعة فى الاستفادة من تفرق الدولة الإسلامية ، واتحاد كلمتها دائماً على مقاومة كل وثبة جديدة للأندلس ، ونبذها كل نزاع داخلى كلما أنذرها الخطر المشترك ، فإن التاريخ من جهة أخرى يسجل على اسبانيا المستردة لأوطانها ، الظافرة بعدوها ، أعظم الأخطاء والجرائم ، فى سياستها نحو الإسلام بعد ذهاب دولته ، ونحو بقية أهله وحضارته . ويرينا كيف جنت هذه السياسة الغاشمة على عظمة اسبانيا ، وكيف كانت من أعظم عوامل انحلالها .

كانت اسبانيا النصرانية عظيمة فى الهزيمة ولم تكن عظيمة فى النصر ؛ عظيمة فى الهزيمة لأن شرذمة من القوط الذين سحقهم طارق بن زياد فى موقعة شذونة ، وطاردهم موسى بن نصير حتى هضاب البرنيه ، هى التى وضعت أسس تلك الإمارات النصرانية ، التى استخفت بأمرها الدولة الإسلامية بادئ بدء ، ولم يمض قرنان حتى غدت فى عهد الناصر لدين الله (٩١٢ — ٩٦١ م) قوية شديدة

البأس ، تنافس الدولة الإسلامية ، وتثخن فى أقطارها ، بل غدت فى أواخر الدولة الأموية خطراً عظيما على وجود الدولة الإسلامية ذاته . كذلك كانت اسبانيا النصرانية وقت الخطر العام ، دائماً قدوة حسنة ، فى الذود عن دينها والتمسك بوحدتها القومية ، بل كانت فى ذلك أوفر عزماً وأشد حماسة ، من اسبانيا المسلمة . ففى الوقت الذى تحرك فيه الحاجب المنصور (٩٧٦ - ١٠٠١ م) ليغزو نصارى الشمال والغرب ، وليسحق استقلالهم القومى ، ألفى اسبانيا النصرانية كتلة واحدة ، ولم يوفق إلى تحقيق غايته ، وإن كان قد استطاع أن يمزق جيوش الإمارات النصرانية ، وأن يقتحم أمنع قلاعها وأنأى ثغورها . وفى الوقت الذى انفجر فيه بركان الثورة فى الدولة الإسلامية ، واجتاحتها ريح الخلاف والتفرق ، وتواثب على أشلائها ملوك الطوائف ، استطاعت اسبانيا النصرانية أن تستثمر عناصر الاضطراب والفوضى ، وأن تجعل من معظم الزعماء المسلمين آلات فى يدها ، تسيرهم وفق غاياتها ، وأن تبدو فى ذروة البأس واتحاد الرأى والقوى . ولما نبذ ملوك الطوائف خلافهم مدى لحظة ، واعتزموا أن يجعلوا من إماراتهم جبهة موحدة بزعامة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين ، كانت اسبانيا النصرانية أسبق إلى جمع كلمتها وتوطيد وحدتها . واجتمعت جيوش الإمارات النصرانية كلها فى سهول الزلاّقة (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) بقيادة أكبر أمرائها ألفونسو السادس ، واجتمعت جيوش الطوائف والمرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين . وهزمت اسبانيا النصرانية فى الزلاقة ، ولكن الهزيمة لم تزدها إلا عزماً واتحاداً . ولانعنى بذلك أن اسبانيا النصرانية لم تعرف أسباب الخلاف الداخلى ، فقد عرفته فى أطوار كثيرة ، وكان خطره عليها عظيما فى بعض المآزق ، ولكنا نريد أن نقول إنها لم تنس قط ساعة الخطر العام ، أن تخمد نزاعها الداخلى وجدلها الشخصى ، وهو مبدأ لم تعن الإمارات الإسلامية كثيراً بمراعاته وتطبيقه .

على أن اسبانيا النصرانية لم تكن عظيمة فى النصر . ذلك لأنها ماكادت تظفر بالغاية التى جاهدت من أجلها مدى القرون ، وماكادت تظفر بآخر معقل إسلامى ، حتى غلبت التطرف على الاعتدال ، والتعصب على الإيمان ، والشهوات الوضيعة على المثل الحكيمة ، فعملت بإصرار وعمد على هدم هذا الصرح الباهر ، الذى

أقامه الإسلام فى الأندلس ، وأودعه المسلمون كنوزاً رائعة من العلوم والمعارف والفنون ، واعتقدت أنها بهدمه تمحو الذكريات الأخيرة لاستعباد ذاهب ، وتمحو أثر العدو المغتصب ، وتطهر النصرانية مما أصابها من الانتهاك والدنس ، ولم تشفق على عظمة اسبانيا أن تنوى ، بذوى حضارة الأندلس وعظمتها الفكرية ، ولم تقدر خطورة هذا الجرم الشائن الذى ارتكبته بتبديد هذا التراث الباذخ ، الذى خلفه الإسلام فى اسبانيا للغرب والإنسانية كلها .

سلم المسلمون غرناطة آخر معاقلهم إلى العدو القاهر ، بعد أن استنفدوا كل وسائل الدفاع ؛ وقطع فرديناند الخامس على نفسه كل العهود التى تكفل لهم الأمن والطمأنينة ، على حياتهم وأموالهم وأعراضهم وضمائرهم وشعائرهم فى ظل الحكم الجديد ؛ غير أن فرديناند لم يحجم قط عن أن يقطع العهود والمواثيق متى كانت سبيلا لتحقيق مآربه ، وأن يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين والورع ؛ ولكنه لم يعتبر نفسه قط ملزماً بعهود يقطعها متى أصبحت تعارض سياسته وغاياته . وكان اليهود أول ضحايا سياسة الإرهاق والمحو التى رسمها منشئ اسبانيا الجديدة . ذلك أنهم كانوا فى ظل الحكم الإسلامى يتمتعون بكل صنوف الحرية ، ويقبضون على ناصية التجارة والشؤون المالية ، ولكنهم ما كادوا ينتقلون إلى الحكم الجديد ، حتى أمروا بترك دينهم ومعتقداتهم واعتناق النصرانية . وفرض النفى ومصادرة المال على المخالفين . فأذعن البعض إشفاقاً على وطنهم وثرواتهم . وألقى المخالفون إلى نيران محاكم التحقيق[١] ، أوشتتوا فى مختلف الأقطار بعد التجريد والحرمان ؛ بل لم ينج المتنصرون أنفسهم من المطاردة والإرهاق كلما هبت عليهم ريح شبهة ، فاتهموا بالزيغ أو التذمر . وكان هذا المثل السيئ داعياً إلى جزع المسلمين وحزنهم ، وإشفاقهم أن تستلب العهود التى قطعت لهم . وأن يتحول تيار الإرهاق والمطاردة إليهم ؛ ودوت فى آذانهم تلك الكلمة الخالدة والنبوءة الصادقة التى ألقاها عليهم موسى بن أبى الغسان أشجع فرسان غرناطة يوم أن اعتزموا التسليم للعدو : « أتعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم ؟ وأن يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ما له من حسن الطالع ؟ لشد ما تخطئون . إنهم جميعاً ظمئون إلى دمنا . والموت

(١) نريد بها المحاكم الكنسية الشهيرة المعروفة خطأ بمحاكم التفتيش (L'Inquisition)

خير ما تلقون منهم . إن ما ينتظركم شر الإهانات ، والانتهاك ، والرق ، ينتظركم نهب منازلكم ، واغتصاب نسائكم وبناتكم ، وتدنيس مساجدكم ، ينتظركم الجور والإرهاق ، تنتظركم المحارق الملتهبة[1] لتجعل منكم حطاماً هشيماً ! » .

وقد صدقت هذه النبوءة ، وتحققت مخاوف المسلمين : فلم يمض على تسليم غرناطة أعوام قلائل حتى بدأ الإسبان بتحوير المعاهدة وتعديل نصوصها ، ثم تفسيرها بطريق التعسف والتحكم ، ثم خرقها نصاً فنصاً ، واستلاب الحقوق الممنوحة واحداً فواحداً . فأغلقت المساجد وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم ، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم ، ثم دعوا علناً إلى التنصر ، وهددوا بأروع صنوف الأذى . وكان قبس من الحماسة ما يزال يضطرم بين سكان المناطق الجبلية ؛ فرفعوا أصواتهم بالتذمر والشكوى ، وثارت الأنفس وهاجت الخواطر . وكان مجلس الدولة يرقب فرصة لإلغاء المعاهدة والنكث المطلق ؛ فاتخذ من التذمر حجة ومن خطر الهياج سنداً[2] ؛ واعتزم أن ينفذ فكرة مشئومة كانت تجول بخاطره منذ أمد بعيد هي تشريد المسلمين وإبادتهم . ولم تكن السياسة تعوزها الحجة ؛ ألم يفاوض المسلمون إخوانهم في المغرب ومصر وقسطنطينية ؟ ألم يلتمسوا منهم المال والرجال للثورة والانتقام ؟ أليس في وجودهم خطر على الدولة والدين ؟ بيد أن مجلس الدولة جنح إلى التوسل بحماية الدين وأصدر قراره بوجوب اعتناق المسلمين النصرانية ، ونفي المخالفين منهم ؛ ذلك لأنه يعلم شدة تمسك المسلمين بدينهم وأنهم يؤثرون التشريد والنفي ؛ وماذاع قرار المجلس حتى ذكا الهياج في كل ناحية ، في غرناطة والبيازين[3] والبشرات ؛ وحاول المسلمون المقاومة ولكنهم كانوا عزلا ، وكانت جنود النصرانية صارمة شديدة الوطأة على الخارجين فمزقتهم بلا رأفة ؛ وحمل التعلق بالوطن ، وخوف الفاقة وهموم الأسرة ،

---

(١) كانت محارق ديوان التحقيق تقام في إشبيلية منذ سنة ١٤٨٠ أي قبل العهد الذي نتحدث عنه بخمس عشرة سنة .

(٢) راجع نفح الطيب ، ج ٢ ص ٦١٦

(٣) البيازين هو حي غرناطة الشعبي ، وهو يقع شمالها الغربي ، أمام مدينة الحمراء ، وما زال حي البيازين قائماً في غرناطة الحديثة محتفظاً بكثير من معالمه القديمة .

كثيراً من المسلمين على الإذعان والتسليم ، فتنصروا (٩٠٤ هـ – ١٤٩٩ م)
وعرف أولئك المتنصرون الجدد من ذلك التاريخ بالموريسكيين Los Moriscos ،
أو « العرب الأصاغر » . ولكن فكرة الإبادة كانت تجثم وراء السياسة الإسبانية ،
فكانوا فى نظرها حتى بعد التنصر خونة مارقين ، وكانوا أعداء للدين فى سريرتهم ،
وكانت حركاتهم وتصرفاتهم مثاراً للريب والمظنة . أما سكان المناطق الجبلية
فاستطاعوا المقاومة حيناً ، ولكن فرديناند جرد عليهم جموعاً عظيمة ، فآثروا
النفى وطلبوا الإجازة إلى إفريقية ، فخيرتهم حكومة قشتالة بين أن يعتنقوا النصرانية
فى ظرف ثلاثة أشهر ، وبين أن يغادروا اسبانيا تاركين أملاكهم للدولة ؛ فهاجرت
جموع كبيرة منهم إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها من ثغور
إفريقية . وبقى الذين استسلموا إلى الردة والتنصر موضعاً للإرهاق المستمر ، يروعهم
شبح السجن والتعذيب والإحراق لأتفه حجة وأقل بادرة .

وتصف الرواية المسلمة المعاصرة هذه المأساة فى تلك الكلمات المؤثرة : « ثم
بعد ذلك دعاهم (أى ملك قشتالة) إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع
وتسعمائة فدخلوا فى دينهم كرهاً وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من
يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، إلا من يقولها فى قلبه وفى خفية من الناس ،
وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الأذان ، وفى مساجدها الصور والصلبان بعد
ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من
الضعفاء والمعذورين لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم
تشتعل ناراً ودموعهم تسيل سيلا غزيراً ، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون
الصلبان ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التى هى
أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم ،
ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب وعذب بأشد العذاب ، فياها من فجيعة ما أمرها
ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها »(١) .

ويقول المقرى : « وبالجملة فإنهم (أى أهل غرناطة) تنصروا عن آخرهم
بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ،

---

(١) أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، ص ٥٤ و ٥٥

وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرها، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبياً إلا ما كان من جبل بللنقة(١) فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر. ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى، فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً »

فلما ارتقى شارل الخامس (شارلكان) عرش اسبانيا التمس المسلمون عدله، واستغاثوا به من سياسة العسف والإرهاق، على يد وفد بعثوه إليه ليشرح ظلامتهم وآلامهم (سنة ١٥٢٦م)، فعرضت مطالبهم على محكمة من رجال الدين وقضاة التحقيق والأحبار، وكان أهم ما عنيت ببحثه هو هل يعتبر التنصير الذى فرضه الأمر الملكى على المسلمين وتم بفعله ملزماً بمعنى أنه يحتم إعدام المخالف بالإحراق؟ وقد أجابت المحكمة على ذلك بالإيجاب، واعتبرت التنصير الذى وقع على المسلمين صحيحاً لاتشوبه شائبة. وهكذا اعتبر « التنصير الذى فرضه القوى على الضعيف، والظافر على المغلوب، والسيد على العبد، منشئاً لصفة لا يمكن لإرادة معارضة أن تزيلها ». هكذا يصف المؤرخ كوندى وهو اسبانى نصرانى قرار المحكمة. وإذاً فقد اعتبر قرار التنصير ملزماً وحتم على الموريسكيين أو العرب المتنصرين، أن يخضعوا لاعتناق النصرانية أويغادروا أوطانهم فى أجل قصير، وإلا كان جزاؤهم الموت فى محارق ديوان التحقيق، والتكفير عن إثمهم « بأعمال الإيمان » (الأوتودا فيه) Auto da fé ؛ وهى حفلات الإحراق التى ابتدعها « الديوان المقدس » لإعدام فرائسه ترفعاً عن سفك الدماء.

على أن موقف شارلكان من العرب المتنصرين، يمكن أن يوسم بالاعتدال بالنسبة لموقف ولده فيليب الثانى (١٥٥٥ — ١٥٩٨). وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ، وغاضت منهم كل مظاهر الإسلام والعروبة. ولكن قبساً

---

(١) جبل بللنقة هو الجبل المعروف فى الإسبانية Villa Leunga وهو يقع بجوار رندة.

دفيناً من دين الآباء والأجداد ، كان يجثم فى قرارة هذه النفوس الأبية الكليمة ، وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القديمة مازالت تربط هذا الشعب بماضيه المندثر ، وكانت الكنيسة تحيط هذا الشعب العاق ، الذى لم تنجح تعاليمها فى النفاذ إلى أعماق نفسه ، بكثير من البغضاء والحقد . فلما تولى فيليب الثانى ، ألفت فرصتها فى إذكاء عوامل الاضطهاد والتعصب ، التى خبت نوعاً فى عهد أبيه . وكان هذا الملك المتعصب ، حبراً فى قرارة نفسه ، يخضع لوحى الأحبار والكنيسة ، ويرى فى الموريسكيين ، عنصراً بغيضاً خطراً ، دخيلا على المجتمع الإسبانى ، فلم تمض أعوام قلائل على توليه الملك ، حتى صدرت ضد الموريسكيين طائفة من القوانين والفروض المرهقة ، منها تجريدهم من السلاح ، ومنها تحريم استعمال اللغة العربية ، وارتداء الثياب العربية ، وتحريم التقاليد العربية ، كاستعمال الحمامات ، وإقامة الحفلات على الطريقة الإسلامية وغيرها . وقد قيل فى تبرير هذه القرارات الهمجية ، إن الموريسكيين أعداء لإسبانيا يأتمرون بها ، ويفاوضون سراً ملوك إفريقية وتركيا ، وأنهم ليسوا من النصارى المخلصين ، بل مازالوا مسلمين فى سرائرهم ، فهم مازالوا يتكلمون العربية ، ويكثرون من الاستحمام اتباعاً لشعائر الإسلام . ومازال نساؤهم يخرجن محجبات . فكيف تعتبر هذه الأمور من المظاهر البريئة ؟ وحاول الموريسكيون دفاعاً عن أنفسهم ، فقالوا إن الأزياء والاستحمام واللغة والأخلاق والعادات الاجتماعية ، كلها تقاليد للتربية والعرف ، وليس لها علاقة بالدين ، وإن ترك الثياب القومية أمر صعب ، وإن الاستحمام ضرورى للصحة والنظافة فى الإقليم الحار ، وإن الرقص ذائع فى كل الأمم ، وإن تحجب النساء أمر يرجع إلى مبادئ العفاف والحشمة ، وأخيراً أنه ليس من السهل على أناس يتكلمون العربية منذ المهد ، أن يجردوا أنفسهم فجأة من كل وسيلة للتخاطب والتفاهم ، وأن يتعلموا لغة جديدة كاللغة القشتالية . ولكن هذا المنطق البسيط لم يقنع أحداً من ولاة الأمر ، وأعلن القانون الجديد فى غرناطة فى أول يناير سنة ١٥٦٧ ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدة . فحاول الموريسكون التظلم لدى المجلس الملكى ، ولدى العرش ذاته ، وأيدهم فى ذلك بعض الأكابر مثل المركيز دى مونديخار حاكم غرناطة . ولكن هذه الجهود كلها ذهبت عبثاً ، ومضت

السلطات فى تنفيذ أحكام القانون ، ولم تبد فى تنفيذها أى رفق أومهادنة ، كأنما الثورة المفروضة فى المظاهر الخارجية ، يمكن أن تفوز بانتزاع ميراث القرون من مشاعر وتفكير وأخلاق وإيمان دفين . وفعلت الحكومة بالموريسكيين ما هو شر وأنكى ، إذ نزعت منهم أطفالهم ذكوراً وإناثاً ، وألقتهم أكداساً فى المعاهد والمدارس العامة ، لتسهر على تكوين عقائدهم وأشخاصهم وفق ما تهوى .

عندئذ بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، ولاسيما فى غرناطة ، حيث كانت تحتشد منهم جموع كبيرة ، فتهامسوا على المقاومة والثورة ، والذود عن أنفسهم وعن بقية تراثهم ، أو أن يموتوا قبل أن تنطفىء فى قلوبهم وضمائرهم ، آخر جذوة من العزة والكرامة وعزم النضال . فأخذوا فى التأهب سراً . وبعثوا بكتبهم إلى إخوانهم فى سائر النواحى ، وأوفدوا بعض زعمائهم سراً إلى المغرب فى طلب العون والغوث . وفى شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ ، وقع حادث كان نذير الانفجار ، إذ اعتدى الموريسكيون على بعض المأمورين والقضاة الإسبان ، وعلى شرذمة من الجند الإسبان على مقربة من غرناطة ؛ ثم اجتاز زعماء الثورة جبل شُلَّير (سيرا نفادا)(١) إلى الهضاب الجنوبية . فلم تمض بضعة أيام حتى عم ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى الموريسكية فى أنحاء البشرات(٢) . واحتشدت الجموع المسلحة . ووثب الموريسكيون بالنصارى أينما وجدوا ففتكوا بهم ومزقوهم شر ممزق .

وهكذا اندلع لهيب الثورة فى جنوبى الأندلس ، وأعلن الموريسكيون استقلالهم . واستعدوا لخوض معركة الحياة أوالموت ، ورأى الزعماء أن يختاروا لهم أميراً يلتفون حوله ، ويكون رمز سلطانهم القديم ، فوقع اختيارهم على فتى من أهل البيازين يضطرم حماسة وجرأة وإقداماً ، ويدعى فرناندودى ڤالور . وكان هذا الاسم القشتالى يحجب نسبة عربية قديمة ، إذكان صاحبه ينتمى إلى بنى أمية أمراء الأندلس وخلفائها القدماء . فتسمى عند اختياره للرياسة باسم عربى هو محمد بن أمية ، واجتمع الثوار فى أعماق البشرات فى مواقع منيعة ، وعمت الثورة جميع أنحاء مملكة غرناطة القديمة . واستطاع الموريسكيون التغلب على سائر

---

(١) Sierra Nevada أو جبل الثلج كما تسمى أحياناً فى الرواية العربية ، وهو ترجمة لاسمها الإسبانى .

(٢) وهى بالإسبانية Alpuxurras

الحاميات الإسبانية المتفرقة فى تلك الأنحاء ، واقتحموا الكنائس والأديار ، وقتلوا القسس وعمال الحكومة . واستفحل أمر الثورة بسرعة ، واستطالت معاركها ، حتى جردت الحكومة على منطقة البشرات قوات كبيرة أحاطت بها من كل ناحية ، ونفذت إلى مواقع الثوار بعد معارك شديدة (سنة ١٥٦٩م) فامتنع الثوار بالجبال ، وقدمت إليهم بعض نجدات صغيرة من المغرب استطاعت أن تجوز الشاطئ رغم كل رقابة . ولبث القتال سجالا بين الفريقين مدى حين ، حتى اضطرت حكومة فيليب الثانى ، أن توفد من إشبيلية جيشاً كبيراً بقيادة أخيه القائد الشهير دون خوان ، فسارع الموريسكيون فى البيازين وأنحاء غرناطة القريبة ، إلى تقديم فروض الطاعة ، وأعلنوا براءتهم من الثورة ، وولاءهم التام للحكومة ، ولكن الثوار فى منطقة البشرات ، اعتزموا القتال إلى النهاية .

وفى أثناء ذلك قتل محمد بن أمية أو فرناندو دى ڤالور غيلة ، نتيجة لبعض الدسائس والمؤامرات التى وقعت فى المعسكر الموريسكى . فاختار الثوار مكانه زعيما آخر ، هو ابن عبو واسمه الموريسكى ديجو لوبث ، فتسمى بمولاى عبد الله . وكان مولاى عبد الله أكثر فطنة وروية وتدبيراً ، فحمل الجميع على احترامه ، وعنى بتنظيم قواته ، واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب . وانتصر على جند الحكومة فى بعض المعارك ، فذاعت شهرته ، وبايعه الموريسكيون فى أنحاء شرقى البشرات . وهنا سار الدون خوان فى جيشه الضخم ، أولا إلى وادى آش ثم إلى منطقة بسطة ، والمعارك المتوالية تضطرم بينه وبين الثوار فى هذه النواحى ، والموريسكيون يفاجئون جنده من آن لآخر ، ويثخنون فيهم ، وأخيراً اخترق جبال شُلَّير ، واستمر فى سيره جنوباً حتى وصل إلى أندَرَش . ولما رأى الدون خوان استبسال الثوار ، وفداحة المهمة ، لجأ إلى المفاوضة ، وأذاع منشوراً بالعفو العام ، وعد فيه بأن يمنح الموريسكيين شروطاً حسنة ، وأن يقمع الخارجين بلا رأفة . فجنح بعض من أضناهم النضال إلى المسالمة . ولكن الأكثرية أبت أن تصغى إلى أية وعود جديدة . ذلك أن الموريسكيين أيقنوا نهائياً أن اسبانيا النصرانية لا عهد لها ولا ذمام ، وأنها غير أهل للوفاء ، وارتد كثيرون بأسرهم إلى إفريقية خيفة الفشل والانتقام . ورأى مولاى عبد الله ، تحت ضغط الظروف ، أن يعمد

مؤقتاً إلى المهادنة والمسالمة . وبذلت بعض المساعى للمفاوضة وعقد الصلح ، ولكن مولاى عبد الله وزملاءه ، لم يروا فيما يعرضه الإسبان ، أى مغنم أورفع أية ظلامة مما ينقمون . عندئذ أعلن مولاى عبد الله أنه يرفض الخضوع بأية صورة ،وأنه سوف يمضى فى نضاله حتى الموت ، وعادت الثورة إلى اضطرامها . وثارت الحكومة الإسبانية لهذا التحدى ، واستشاط فيليب الثانى غيظاً ، وأمر أن يطارد مولاى عبد الله وجنده ، وأن يؤخذوا أحياء أوموتى . وأصدر فى نفس الوقت قراراً يقضى بنقل جماعات الموريسكين من أوطانهم فى الأندلس ، إلى مناطق أخرى داخل اسبانيا ، ونفذ هذا القرار بمنتهى الوحشية ، ونزع الموريسكيون من أوطانهم القديمة بعنف ، وشتتوا فى مختلف أنحاءقشتالة وليون وجليقية . ووضعوا تحت الرقابة الصارمة . وفى خلال ذلك كان مولاى عبد الله ما يزال على رأس جيشه الصغير يرقب الحوادث ، وكان يشعر أن قواه وموارده تتضاءل تباعاً،وقد غاض كل أمل فى النصر والسلم الشريف . وأخيراً استطاع الإسبان أن يقفوا على مخبئه ، وأن يدسوا عليه ضابطاً من ضباطه المحنقين ، فقام باغتياله مع شرذمة من أصحابه ، وحمل الإسبان جثته إلى غرناطة ، وهنالك مثلوا بها أشنع تمثيل ، وأحرقوها بعد ذلك فى الميدان الكبير .

* * *

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت ، وخبت آخر جذوة من العزم والنضال فى صدور هذا الشعب الأبى المجاهد ، وقضت المشانق والمحارق والمحن المروعة ، على كل نزعة إلى الخروج والنضال ، وهبت ريح من الرهبة والاستكانة على ذلك المجتمع المهيض المعذب ، وعاش الموريسكيون حقبة أخرى ، لايسمع لهم فيها صوت ، ولاتقوم لهم قائمة فى ظل العبودية الشاملة والإرهاق المطبق[1] .

وفى عهد فيليب الثالث ، اتخذت اسبانيا النصرانية خطوتها الحاسمة إزاء الموريسكيين ، بقية الأمة الأندلسية المغلوبة . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغدا أبناء قريش ومضر ، بحكم القوةوالإرهاق نصارى وقشتاليين ، يشهدون القداس فى الكنائس ، ويتكلمون ويكتبون القشتالية . غير أنهم

---

(١) راجع تفاصيل هذا النضال المؤثر فى كتاب « نهاية الأندلس » وتاريخ العرب المتنصرين» (الطبعة الثانية) ص ٣٣٩ — ٣٥٩ .

لبثوا مع ذلك فى معزل ، ولبثوا يتعلقون سراً بلغتهم القديمة ، وتراثهم الروحى القديم ، وقد ابتكروا فى عزلتهم وانطوائهم ، لغة سرية جديدة يسجلون بها تعاليم دينهم ، ويكتبون بها أدبهم القومى ، هى لغة الألخميادو « الأعجمية » ، الشهيرة «Aljamiado» ، وهى نوع من القشتالية المحرفة ، تكتب بأحرف عربية ، ولا يستطيع كشف أسرارها سواهم ؛ ولبثت اسبانيا النصرانية ، بعد أن فرضت عليهم دينها ولغتها ومدنيتها ، تأبى أن تضمهم إلى حظيرتها ، وتعتبرهم دائماً خوارج خطرين . وكانت ثمة منهم جموع كبيرة فى بلنسية ومرسية وغرناطة . وكان فيليب الثالث ملكاً ضعيفاً جباناً ، وكان يخشى الموريسكيين ، أولئك الذين يعيشون منذ نحو قرن فى ظل العبودية ، ويحملون أغلال الذل دون تذمر أو مقاومة . وكانت الحكومة الإسبانية تصورهم بأنهم خطر على العرش والدولة ، وتصورهم الكنيسة بأنهم خطر على العقيدة الكاثوليكية ، وتلح دائماً فى وجوب التخلص منهم بصورة نهائية . وأخيراً اعتزم العرش أمره ، وشاء القدر أن يكون فيليب الثالث هو المنفذ لتلك السياسة المشئومة . فأصدر قراره الشهير بنفى الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وإخراجهم نهائياً من سائر الأراضى الإسبانية ، وذلك فى سبتمبر سنة ١٦٠٩ (جمادى الثانية سنة ١١٠٨ هـ) . ويحتم القرار على الموريسكيين من الجنسين ، أن يرحلوا مع أولادهم فى ظرف ثلاثة أيام من نشره ، من المدن والقرى الداخلية إلى الثغور التى يعينها لهم مأمورو الحكومة ، والموت عقوبة المخالفين ، وأن لهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على على ظهورهم . واختلفت نصوص أوامر النفى المختلفة ، وفقاً لمختلف المناطق والجهات ، ومنح الموريسكيون فى غرناطة ثلاثين يوما للرحيل . وحشدت السفن لنقل المنفيين إلى إفريقية ، ونقل أولا من كان منهم فى الثغور ، ثم توالى نقلهم بعد ذلك . ونقلت منهم إلى مختلف الثغور المغربية مئات الألوف فى مناظر مؤسية ، واستقر كثير منهم فى تطوان وسلا ووهران وتونس ، وهلك أثناء النقل عشرات الألوف . وقصدت جماعات منهم إلى مصر وقسطنطينية عن طريق إيطاليا . ونزح سكان الشمال منهم إلى فرنسا ، حيث استقروا فى لانجدوك وجويان . واختلف المؤرخون فى تقدير من أخرج الموريسكيين من اسبانيا ، فقدرهم البعض بنحو مليون من الأنفس ، والبعض الآخر بستمائة ألف ، ويقدر من هلك منهم أو استرق خلال مأساة النفى بنحو مائة ألف .

وهكذا أخرجت البقية الباقية من الأمة الأندلسية نهائياً من شبة الجزيرة الإسبانية ، وانتهى بذلك الفصل الأخير من مأساة الموريسكين أو العرب المتنصرين ، وطويت صفحة شعب من أمجد شعوب التاريخ ، وحضارة من أعرق حضاراته[1]

* * *

وينوه النقد الحديث بخطورة السياسة التى اتبعتها اسبانيا فى إبادة الأمة الأندلسية ، ونفى الموريسكيين ، كعامل قوى الأثر فيما أصاب اسبانيا ، من أسباب الدمار والبؤس والانحطاط ، التى لم تبرأ منها حتى عصرنا ، ويعتمد فى هذا الرأى على طائفة من النتائج المادية والأدبية ، التى ترتبت على « النفى »، وحرمان اسبانيا من الثروات العقلية والفنية والصناعية ، التى كان يتمتع بها الموريسكيون ، بقية الأمة الأندلسية .

وقد تضاربت آراء المفكرين الإسبان أنفسهم ، فى التعليق على نفى الموريسكيين وما ترتب عليه من الآثار ، فمنهم من يشيد به ويعتبر أنه كان ضرورة لازمة لسلام اسبانيا وتحقيق وحدتها القومية والدينية ؛ ومعظم هؤلاء من رجال الدين أو الكتاب المتعصبين ، ومنهم من يحمل عليه ، ويرى أنه كان ضربة شديدة لعظمة اسبانيا ورخائها ، ومن هؤلاء المؤرخ الاجتماعى الإسبانى بكاتوستى ،فهو يعلق على قرار النفى بقوله :

«كان نفى الموريسكيين من أفدح المصائب التى نزلت بإسبانيا . والمسئولية الكبرى التى تقع على عاتق الملك فيليب الثالث ، وعلى نصائحه وأسلافه ، تتلخص فى أنهم لم يحموا مصالح الموريسكيين المادية ، فيمهدوا لتلك الطائفة العاملة سبل الحياة المستقرة الهادئة ، ولم يكن لهم من القوة أو الكياسة أو الحزم ما يمكنهم من إخضاع هذه الطائفة المتمردة ، التى عاشت فى اسبانيا فى أوقات كانت الأحقاد فى أوج اضطرامها بين الغالبين والمغلوبين » .

ويقول المؤرخ فلورثيو خانير « لقد كان نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية أفدح إجراء مخرب يمكن تصوره . وإنه ليمكن أن نتسامح فى المبالغة التى يصفه بها سياسى أجنبى هو الكردينال ريشليو حيث يصفه « بأنه أشنع إجراء بربرى

---

(١) تناولت تفاصيل مأساة النفى بإفاضة فى كتابى « نهاية الأندلس » ص ٣٧٦ وما بعدها .

عرف فى أى عصر سابق» ، والحق أن الصدع الذى منيت به ثروة اسبانيا العامة من جرائه، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول إنه لم يبرأ حتى يومنا».

ويجمل المؤرخ الأمريكى الدكتور لى ، وهو من أحدث الباحثين فى هذا الموضوع ، خلاصة بحثه المستفيض عن مأساة الموريسكيين فى تلك العبارة الموجزة : « إن تاريخ الموريسكيين لايتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء ، التى اتحدت لتنحدر بإسبانيا فى زهاء قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس إلى ذلتها فى عصر كارلوس الثانى»(١)

ويعلق مؤرخ الأندلس يوسف كوندى فى خاتمة تاريخه على مأساة النفى فى هذه العبارات الشعرية :

« وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد ، ذلك الشعب الباسل ، اليقظ الذكى المستنير ، الذى أحيي بهمته وجده تلك الأرض التى أسلمتها كبرياء القوط الخاملة إلى الجدب ، فأدر عليها الرخاء والفيض . واحتفر لها عديد القنوات ؛ ذلك الشعب الذى أحاطت شجاعته الفياضة فى السعود والشدائد معاً ، عرش الخلفاء بسياج من اليأس ؛ والذى أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس . فى مدنه صرحاً خالداً من الأنوار التى كان ضوؤها المنبعث ينير أوربا ، ويبث فيها شغف العلم والعرفان ؛ والذى كان روحه الشهم ، يطبع كل أعماله بطابع لانظير له من العظمة والنبل . ويسبغ عليه فى نظر الخلف لوناً غامضاً من العظمة الخارقة ، ودهاناً سحرياً من البطولة يذكرنا بعصور هومير السحرية ، ويقدم لنا فيهم أنصاف آلهة اليونان .

« ولكن شيئاً لايدوم فى هذا العالم ، فإن هذا الشعب : قاهر القوط ؛ الذى كان يبدو أنه صائر خلال القرون إلى أقصى الأجيال ، قد ذهب ذهاب الأشباح . وعبثاً يسائل اليوم السائح الفريد قفار الأندلس المحزنة ، التى كان يغمرها من قبل شعب غنى منعم . ظهر العرب فجأة فى اسبانيا كالقبس الذى يشق عباب الهواء بضوئه وينشر لهبه فى جنبات الأفق ثم يغيض سريعاً فى عالم العدم ؛ ظهروا فى اسبانيا فملأوها فجأة بنشاطهم وثمار براعتهم ، وأظلها كوكب من المجد شملها من النزاهة

(١) نقلنا كثيراً من تعليقات المفكرين والمؤرخين الإسبان وغيرهم على مأساة النفى فى كتابنا نهاية الأندلس ص ٣٩٨ — ٤١٤

إلى صخرة طارق ، ومن المحيط إلى شواطئ برشلونة . ولكن هوى يضطرم إلى الحرية والاستقلال ، وخلقاً متقلباً يميل إلى الخفة والمرح ، ونسيان الفضائل القديمة ، وميلا نكداً إلى التمرد والثورة ، يثيره دائماً خيال ملتهب ، وشهوات وأطماع عنيفة ، ونزعة إلى التغلب وغيرها من عوامل الاضمحلال ، قد عملت شيئاً فشيئاً على هدم ذلك الصرح العتيد ، الذى شاده رجال كطارق وعبد الرحمن الناصر ومحمد ابن الأحمر ، وأفضت بالعرب إلى خلافات داخلية ، فلت من بأسهم وحملتهم إلى هاوية الفناء .

« خرج ملايين العرب من اسبانيا حاملين أموالهم وفنونهم — ثروات الدولة ، فماذا أنشأ الإسبان مكانهم ؟ لانستطيع أن نجيب بشىء إلا أن حزناً خالداً يغمر هذه الأرض التى كانت من قبل تتنفس فيها أبهج الطبائع . إن ثمة بعض الآثار المشوهة مازالت تشرف على هذه البقاع الموحشة ، ولكن صرخة حقيقية تدوى من أعماق هذه الآثار ؛ ومن صميم هذه الأطلال الدارسة : الشرف والمجد للعربى المغلوب ؛ والانحلال والبؤس للإسبانى الظافر . » .

وماكلمات الأستاذ لاين پول أقل بلاغة إذ يقول فى مقدمة كتابه عن العرب فى اسبانيا : « لبثت اسبانيا فى يد المسلمين ثمانية قرون وضوء حضارتها الزاهرة يبهر أوربا ؛ وأزهرت بقاعها الخصيبة بمجهود الفاتحين ، وأنشئت المدائن العظيمة فى سهول الوادى الكبير ، فلم يبق ثمة ما يذكرنا بماضيها المجيد سوى الأسماء — والأسماء فقط — وتقدمت بها الآداب والعلوم والفنون دون سائر الأقطار الأوربية ، ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم الرياضية والفلكية والنباتية والتاريخ والفلسفة والتشريع إلا فى اسبانيا العربية ؛ فكل ما يدعو إلى عظمة أمة وسعادتها ،وكل ما يؤدى إلى رقى باهر وحضارة سامية فاز به مسلمو اسبانيا .

«. . . ذوت عظمة اسبانيا بسقوط غرناطة . وقد سطعت لمدى قصير أشعة من ضوء الحضارة العربية فوق الأرض التى كان ينعشها بحرارته ؛ ثم تضاءلت عظمة عصور فرديناند وإيسابيلا وشارل الخامس وفيليب الثانى وكلومبس وكورتيز وبيزارو لتموت بموتها دولة عظيمة ؛ ثم خفقت أعلام الخراب بسيادة ديوان التحقيق ، وسادت بعد ذلك فى اسبانيا ظلمة حالكة ، فأصبح لا يعرف الأطباء

بأرض كانت علومها منيرة إلا بالجهل والقصور . . . وقضى على فنون إشبيلية وطليطلة وألمرية وعفت صناعاتها ، وسحقت المعاهد العامة حتى تزول بزوالها آثار الإسلام ، وخربت المدن الكبيرة ، وذوت نضرة الوديان الخصيبة ، فحل البؤساء والدهماء واللصوص مكان الطلاب والتجار والفرسان . ذلك مبلغ انحطاط اسبانيا بعد إقصائها العرب ، وهكذا يبدو البون شاسعاً بين أدوار تاريخها ! » .

هكذا كانت مأساة العرب المتنصرين ، وهكذا كان مصرع الحضارة الأندلسية . ولعل فى قول أبى الطيب الرندى فى مرثيته الأندلسية الشهيرة[1] خير تفسير لتلك المأساة الخالدة التى تجوزها الأمم والدول والمدنيات على كر العصور :

لكل شىء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان
وينتضى كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذى يزن والغمد غمدان

(١) راجع هذه المرثية بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٤ و٥٩٥ . ويلاحظ أن أبا الطيب لم يقل قصيدته فى رثاء الأندلس عند سقوطها النهائى لأنه عاش قبل ذلك بقرنين ، ولكنه نظمها حينما سقطت القواعد الأندلسية الكبرى : قرطبه وإشبيلة وبلنسية ومرسية وغيرها فى أيدى النصارى فى منتصف القرن السابع الهجرى . راجع كتابى نهاية الأندلس (الطبعة الثانية) ص ٤٢ — ٤٣

الفصل السابع

تراث الأندلس الفكرى

فى مكتبة الإسكوريال

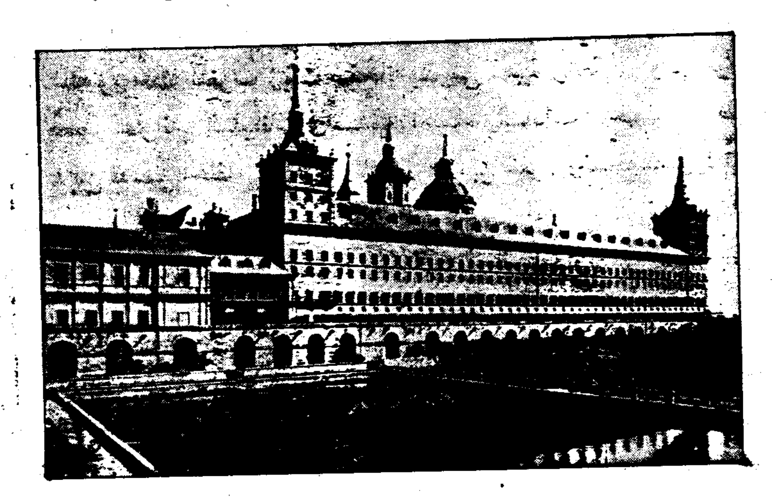
كان حضارة المسلمين فى اسبانيا مبعث ضوء عالمي فى العصور الوسطى ، وكان للتفكير فى الأندلس أعظم دولة ؛ وبينما كانت أوربا تجوز غمر البداوة والجهالة ، ويبلى تراث التفكير القديم فى ظلمات الأديار ، إذا معاهد قرطبة ترسل أضواءها إلى أقاصى الشمال والغرب . وفى قرطبة بلغ التفكير الإسلامى أرفع ذراه ، وبلغ تراثه أنفس مراحله وأعظمها . ولكن عواصف السياسة ، ومصائب الحروب ، وخطوب الزمن ، نكبت هذا الصرح غير مرة فقوضت دعائمه ، وبددت من كنوزه أثناء قيام الدولة الإسلامية ذاتها .

ولما تضاءلت عظمة الإسلام فى اسبانيا ، وانحصرت دولته فى مملكة غرناطة ، لبثت غرناطة زهاء قرنين مركز التفكير الإسلامى فى الغرب .ولبثت مستودع العلوم والآداب ، وغصت مكاتبها العامة والخاصة بنفائس الكتب والآثار . فلما سقطت دولة الإسلام فى اسبانيا بسقوط غرناطة معقله الأخير سنة ١٤٩٢ ، انهارت دعائم هذا الصرح الفكرى الجليل ، ولم تمض أعوام أخرى حتى ارتكبت اسبانيا النصرانية جريمتها الشائنة بتدمير تراث التفكير الإسلامى . فى سنة ١٤٩٩ ، أمر الكردينال خمنيس مطران طليطلة بجمع جميع الكتب والآثار العربية من سكان غرناطة وأرباضها ، وتنظيمها أكداساً فى ميدان باب الرملة أعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف وآلاف مؤلفة من كتب الآداب والعلوم واحتفل بإحراقها « بعمل من أعمال الإيمان » Auto-da-fé ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب وهبت لجامعة « ألكالا » (القلعة) ؛ وهلك فى تلك المحنة معظم تراث الأندلس الفكرى[1] . ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على

---

(١) يختلف المؤرخون فى تقدير عدد المخطوطات العربية التى ذهبت فريسة هذه الجريمة الشائنة، فيقدرها بعضهم بأكثر من مليون ، ولكن كوندى يقدرها بثمانين ألفاً ، وتقديره أرجح وأقرب =

بقية يسيرة من الآثار العربية جمعت من مختلف القواعد الأندلسية القديمة ، وأودعت فيما بعد فى أروقة قصر الإسكوريال المظلمة ، وفى بعض المكاتب العامة .



قصر الإسكوريال

ويقع قصر الإسكوريال فى الضاحية المسماة باسمه ، وهى تقع على بعد خمسين كيلومتراً من مدريد فى واد عميق تحف به الجبال . ويعتبر الإسكوريال من أضخم وأفخم الصروح الملوكية ؛ أنشأه فيليب الثانى ملك اسبانيا تخليداً لذكرى انتصاره على الفرنسيين فى موقعة سان كانتان (سنة ١٥٥٧ م) ، وتنويهاً بذكرى القديس لورنزو الذى استمد فيليب الثانى عونه فى تلك الموقعة ، واستغرق بناؤه اثنين وعشرين عاماً . وهو يضم قصراً ملكياً وكنيسة وديراً ومكتبة ومعهداً دينياً ومدفناً ملوكياً . وتغص أبهاء الجناح الملكى بالصور والبسط والتحف النادرة من صنع أقطاب الفن فى هذا العصر . على أن الذى يهم الباحث المتطلع من قصر الإسكوريال هو جناحه الأيمن . ففى هذا الجناح تقع المكتبة الشهيرة ، وإلى جانبها تقع الكلية الدينية التى يديرها الآباء الأوغسطينيون ، وهم الذين يشرفون على المكتبة . وتضم

= إلى المعقول ، لأن المكتبة الأموية الشهيرة فى قرطبة لم تزد طبقاً لأصح الروايات على ستمائة ألف مجلد . وقد بددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر ، ولم يجتمع فى غرناطة مجموعة بهذه الضخامة . ولكنها كانت تحتوى عدة مجموعات مختلفة خاصة وعامة ، وكان طبيعياً أنها وهى عاصمة الإسلام فى الأندلس تحتوى أنفس الآثار العربية الأندلسية .

المكتبة[1] بهواً شاسعاً فخماً يبلغ طوله نحو خمسين متراً وعرضه اثنا عشر ، وقد بنى سقفه بالحنايا المعقودة . وتعرض فيه اليوم طائفة من المخطوطات النادرة التى تحتويها المكتبة ، ومنها مصحف أندلسى ملوكى من القرآن الكريم كان ملكا للسلطان أحمد المنصور ملك المغرب زينت صفحاته بنقوش ذهبية رائعة ، ومنها مؤلف عربى مصور عنوانه « السلوانات فى مسامرة الخلفاء والسادات » يحتوى على طائفة مصورة من قصص الخلفاء ، وهو من تأليف محمد بن ظفر . ونسخة مصورة أيضاً من كتاب « منافع الحيوان » وهو من تأليف ابن الدريهم الموصلى ، ونسخة قشتالية من كتاب ألفونسو العالم فى الفلك ، وهو الكتاب الذى عاون فى تأليفه بعض علماء الأندلس .

ومكتبة الإسكوريال ليست غنية من الناحية الرقمية . فهى تضم نحو ستين ألف مجلد فقط ، منها خمسون ألف مجلد مطبوعة . ولكنها غنية بالأخص بما تحتويه من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانيةوالعبرية وغيرها . ويبلغ ما تحتويه اليوم من المخطوطات العربية ١٩٢٠ مجلداً .

وترجع هذه المكتبة التى تجذب محتوياتها اليوم جمهرة الباحثين من سائر أنحاء العالم إلى عصر فيليب الثانى ذاته ، وكانت فى بدايتها تتكون من المكتبة الملكية الصغيرة ، ومما كان يشتريه سفراء الملك من المخطوطات النادرة من مختلف الأقطار . وضمت إليها منذ البداية بضعة ألوف من المخطوطات العربية التى جمعت بعد سقوط غرناطة ، من غرناطة نفسها ، ومن سائر القواعد الأندلسية المغلوبة ولاسيما بلنسية ومرسية . ثم زادت هذه المجموعة العربية زيادة كبيرة فى عصر فيليب الثالث وذلك حينما أسرت السفن الإسبانية فى المياه المغربية تجاه ثغر آسفى سفينة مغربية كانت تنقل مكتبة مولاى زيدان سلطان مراكش (سنة ١٦١٢) . وقوامها ثلاثة آلاف مجلد فى مختلف العلوم والفنون ، فحملت إلى المكتبة الملكية . وبذلك بلغت المجموعة العربية فى الإسكوريال فى أوائل القرن السابع عشر نحو عشرة آلاف مجلد .

ولبثت هذه الآلاف العشرة من المخطوطات الأندلسية والمغربية فى قصر الإسكوريال زهاء نصف قرن . وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها فى اسبانيا .

---

(١) واسم هذه المكتبة الرسمى هو : « المكتبة الملكية لدير القديس لورنزو بالإسكوريال »
Real Biblioteca del Monasterio de San Lorenzo de El Escorial

ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس الفكرى . فنى سنة ١٦٧١ شبت النار فى الإسكوريال ، والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه أكثر من ألفين ، هى التى تثوى اليوم فى أقبية الإسكوريال[1] . وكانت الحكومة الإسبانية أثناء هذه العصور تحرص كل الحرص على إخفاء الآثار العربية عن نظر كل باحث ومتطلع ، كأنما كانت تخشى أن تبث روح التفكير الإسلامى فى تفكير اسبانيا النصرانية ، بعد أن بذلت لقتل هذا الروح كل جهد ووسيلة . وكان الكتاب الإسبان أنفسهم تحملهم نزعة الدين والجنس ، يعرضون عن كل بحث وتنقيب فى هذه المصادرة النفيسة ، التى تلقى أكبر ضوء على تاريخ اسبانيا وحضارتها وثقافتها أيام الدولة الإسلامية ، ولا يرجعون فى هذا القسم من تاريخ بلادهم إلا إلى المصادر القومية النصرانية ، ومن ثم كانت كتبهم فى هذه العصور تفيض بالتحامل والتعصب . ولم تفق الحكومة الإسبانية من جمودها ، ولم تفكر فى تنظيم تراث الأندلس والتعريف به قبل أواسط القرن الثامن عشر . فعندئذ انتدبت عالماً شرقياً يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية وهو ميشيل الغزيرى اللبنانى الذى يعرف فى الغرب باسم كازيرى Casiri ، وعهدت إليه بدرس الآثار العربية ووضع فهرس جامع لها . والظاهر أن مثل هذا الفهرس الجامع لم يوضع من قبل ، وكل ما هنالك أن العلامة شتاينشنيدر عثر أثناء مباحثه فى مكتبة الفاتيكان على ثبت لمحتويات مكتبة الإسكوريال باللاتينية أدرجت فيه أسماء مئات قليلة من الكتب العربية ، ووضحت عناوينها فى مزيج من العربية واللاتينية[2] ولكن المجموعة العربية لبثت طوال هذه العصور محجوبة مجهولة من البحث الحديث .

---

(١) وقد أتيح لى خلال زياراتى العديدة لقصر الإسكوريال أن أشاهد القبو الذى تحفظ فيه المخطوطات العربية وهو بهو سفلى منير شاسع يطل على الفناء الداخلى . وفى جانبه الأيسر تحفظ المخطوطات الأندلسية . وقد وضعت فى أربعة وعشرين دولابا لها أبواب من الزجاج المبطن بالأسلاك . ومعظم هذه المخطوطات على العموم فى حالة جيدة ، وكثير منها ما يزال محتفظاً بجلده الأثرى . بيد أن هناك بعض مخطوطات فى حالة سيئة ويخشى إذا لم تتدارك أن تهلك فى القريب العاجل . ولقد شعرت بنوع من الخشوع والتأثر البالغ ، وأنا أتأمل هذه البقية الباقية من تراث أمة عظيمة ذهبت بعد عصور طويلة من المجد كما تذهب الأشباح .

(٢) راجع : Direnbourg : Les Manuscrits arabes de l'Escurial — المقدمة

وكان « كازيرى » (الغزيرى) رجل المهمة فهوسورى درس العربية ثم درس اللغات السامية واللاتينية والإسبانية ، وقضى حداثته وفتوته فى رومة مهد المباحث الشرقية يومئذ إلى جانب مكتبة الفاتيكان التى تغص بالمخطوطات العربية والشرقية. فلبى دعوة الحكومة الإسبانية وعين سنة ١٧٤٩ مديراً لمكتبة الإسكوريال ،وأقام فى قصر الإسكوريال زهاء أربعة أعوام يستعرض الآثار العربية ويدرسها ويحققها، ثم بدأ يضع عنها الفهرس الجامع الذى عهد إليه بوضعه . وفى سنة ١٧٦٠ ظهر الجزء الأول من هذا الفهرس باللاتينية بعنوان :

Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis

« المكتبة العربية الإسبانية فى الإسكوريال » ، « وضع وشرح العلامة ميخائيل كازيرى السورى المارونى ، الحبر ، الحبير ، اللغوى ببلاط كارلوس الثالث » . وصدر الغزيرى معجمه بمقدمة طويلة تحدث فيها عن قيمة المخطوطات العربية وأهميتها . وقسم هذه الآثار إلى عدة فنون ؛ وبدأ بكتب اللغة وعلومها ، وهى تشمل من المخطوط رقم ١ حتى رقم ١٥٩ ، وأولها نسخة من كتاب سيبويه فى النحو ، ثم الشعر وأبوابه وعلومه ، ويشمل هذا القسم من رقم ١٦٨ إلى ٤٨٨ . ثم الفلسفة وما يتعلق بها وتشمل من رقم ٤٨٩ إلى ٧٠٥ . ثم الأخلاق والسياسة وتشمل من رقم ٧٠٦ إلى ٧٨٤ . ثم الطب والتاريخ الطبيعى وتشمل من رقم ٧٨٥ إلى ٩٠١ . ثم الرياضة والهندسة والفلك وتشمل من رقم ٩٠٢ إلى ٩٨٥ . ثم كتب الفقه وعلوم الدين والقرآن وتشمل من رقم ٩٨١ إلى ١٦١٧ . ثم الآثار النصرانية وتشمل من رقم ١٦١٨ إلى ١٦٢٨ . وهذه هى محتويات الجزء الأول من الفهرس . ولم يظهر الجزء الثانى إلا فى سنة ١٧٧٠ ، أى لعشرة أعوام كاملة من ظهور الجزء الأول . وأوله كتب الجغرافيا وتشمل من رقم ١٦٢٩ إلى ١٦٣٥ ، ثم التاريخ وتشمل من رقم ١٦٣٦ إلى ١٨٥١ . وهذا الرقم هو نهاية الفهرس . ولم يدون الغزيرى بعده شيئاً ، وإن كانت قد ظهرت بعد ذلك نحو مائة مخطوط أخرى على نحو ما نذكر بعد . ويختم الغزيرى معجمه بثبت جامع لأسماء المؤلفين وأرقام مؤلفاتهم.

ولم يقف الغزيرى فى معجمه عند ذكر العناوين والأسماء والمحتويات ، ولكنه يعمد فى فرص كثيرة إلى التحقيق والتعليق والشرح ، فيدرس حقيقة المخطوط وشخصية مؤلفه ، ويعرض خلال معجمه كثيراً من النصوص والتراجم ؛ وينقل

وثائق برمتها ؛ومعجمه مجهود علمى شاسع ينم عن غزارة علمه رغم ما يتخلله فى مواطن كثيرة من الخطأ والتحريف . وقد حمل على مجهوده بعض العلماء المتأخرين الذين درسوا من بعده مجموعة الإسكوريال وأبدوا ريبهم فى قيمته العلمية[1] . ولكن معجم الغزيرى يبقى مع ذلك مرجعاً نفيساً وبياناً غزيراً ، وعرضاً بديعاً للآثار العربية فى مكتبة الإسكوريال .

• • •

وكان أهم ما اتجهت إليه الأنظار بعد ظهور معجم الغزيرى هو التنقيب فى مجموعة الإسكوريال عن الروايات العربية المتعلقة بتاريخ العرب فى اسبانيا ، وسياسة الحكومات المسلمة وخواص المجتمع الإسلامى ؛ فعنى طائفة من الباحثين فى أواخر القرن الثامن عشر ومنهم أندريس وماسدى ، ببحث تاريخ الآداب والعلوم العربية ، فأخرج أندريس كتابه عن « أصول الأدب »[2] وأخرج ماسدى مؤلفه الضخم « التاريخ النقدى لإسبانيا والحضارة الإسبانية » .

Historia citica de España y de la cultura española

وهو من أجل المصادر فى تاريخ الحضارة الأندلسية ، وفيه نبذ وروايات شائقة عن خواص المجتمع الإسلامى فى اسبانيا ونواحى التفكير الإسلامية . ويفسح ماسدى للمراجع العربية فى مؤلفه مجالا شاسعاً . ولكن تاريخ اسبانيا المسلمة كما تعرضه المصادر العربية لبث محجوباً عن الغرب حتى جاء العلامة المستشرق يوسف كوندى أمين مكتبة أكادمية التاريخ بمدريد ، فدرس المصادر العربية من هذه الناحية درساً مستفيضاً . وأنفق أعواماً طويلة فى التنقيب فى مخطوطات الإسكوريال . وأخرج مؤلفه الشهير « تاريخ دولة العرب فى اسبانيا » .

Historia de la Dominacion de los Arabes en España

وظهر الجزء الأول من هذا التاريخ فى سنة ١٨١٠ . ولكن كوندى توفى فى نفس هذا العام ، فنشر الجزآن الباقيان من مخطوطته فى العام التالى . ويتناول الجزء

(١) راجع مقدمة ديرنبور المشار إليها .

(٢) كتب أندريس Andrés كتابه بالإيطالية بعنوان Dell' Origine, Pogressi e Stato attuale d'ogni Litteratura ونشر فى سبع مجلدات بين سنتى ١٧٨٢ و ١٧٩١ ، ثم ترجم إلى الإسبانية ، وظهر فى مدريد بين سنتى ١٧٨٤ و ١٨٠٦

الأول من تاريخ العرب فى اسبانيا، من الفتح حتى سنة ٣٧٢ ﻫ (٩٨٢ م) فى أوائل عهد الحاجب المنصور ، ويتناول الجزء الثانى تاريخ الدولة العامرية وملوك الطوائف حتى قيام مملكة غرناطة ، ويشمل الثالث تاريخ مملكة غرناطة حتى سقوطها فى سنة ٨٩٧ ﻫ (١٤٩٢ م) . وينقل كوندى كثيراً من الروايات العربية دون دقة أو تمحيص أو مقارنة ؛ ويقع فى كثير من الأخطاء التاريخية . ولكنه يمتاز فى كثير من تعليقاته وملاحظاته بالصراحة الجمة ، حتى إنه يذهب أحياناً إلى إصدار أشد الأحكام على أمته ومواطنيه خصوصاً فى الحوادث التى اقترنت بسقوط غرناطة ، واضطهاد الإسبان للعرب ومطاردتهم وتنصيرهم ؛ ثم إخراجهم بعد ذلك من من أوطان آبائهم وأجدادهم فى غمر من الفظائع والدماء . على أن أهم ميزة لمؤلف كوندى هى أنه أول مؤلف غربى يعرض للغرب قضية العرب فى اسبانيا من الناحية العربية ، وفيه لأول مرة يقف الغرب على دفاع العرب ووجهات نظرهم وخواص نظمهم وسياستهم .

ومن ذلك الحين أخذت المصادر العربية تمثل فى كل بحث يتعلق بتاريخ الأندلس ، حتى جاء العلامة المستشرق الهولندى رينهارت دوزى[1] فخص دراسة التاريخ الأندلسى ودراسة مصادره الغربية والعربية . بأعظم جهوده ، وأخرج لنا فى سنة ١٨٦١ كتابه القيم «تاريخ المسلمين فى اسبانيا حتى فتح المرابطين» Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Andaloiuse par les Almoravides فى أربعة أجزاء[2] . ويتناول دوزى تاريخ الأندلس بأسلوب فلسفى نقدى قوى ، ويعنى بشرح الظواهر السياسية والاجتماعية أكثر مما يعنى بسرد الحوادث . ومؤلفه بلا ريب من أجل المراجع الغربية فى تاريخ الأندلس وإن كانت تشوبه أحياناً نزعات من التحامل والتعصب . ويهاجم دوزى . كوندى ومؤلفه بشدة ، ويرميه بالادعاء والجهل حتى بمبادئ اللغة العربية . ويقول عنه فى مقدمة كتابه « مباحث فى تاريخ اسبانيا وآدابها فى العصور الوسطى »[3] : « إنه — أى

---

(١) سنة ١٨٢٠ — ١٨٨٣

(٢) وقد ظهرت منه طبعة حديثة فى ثلاثة أجزاء كبيرة سنة ١٩٣٢ ، منشورة بعناية العلامة الأستاذ ليفى بروفنسال ، وبها تعليقات وشروح عديدة قيمة بقلم الناشر .

(٣) Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge.

كوندى - لا يعرف من العربية غير الحروف التى كتبت بها سوى القليل ، وإنه يستعيض عن أقل المعارف الابتدائية بخيال وافر الخصوبة ، وقحة لامثيل لها ، فيزيف مئات التواريخ ، وآلاف الحوادث ، ويزعم فى نفس الوقت أنه ينقل النصوص العربية نقلا صادقاً » . ودوزى يذهب بعيداً فى الحكم على كوندى ومؤلفه. فإن كوندى يدلل فى كثير من المواطن على تمكنه من اللغة التى ينكر عليه دوزى معارفها الابتدائية ، وينقل كثيراً من الأقوال والروايات العربية المعروفة بدقة ؛ وإذا كان كوندى قد وقع فى كثير من الأخطاء سواء من حيث الوقائع أو التواريخ ، فإنه مع ذلك صاحب الفضل الأول فى إظهار الناحية العربية من تاريخ الأندلس للغرب ، ومؤلفه يبقى رغم ذلك مرجعاً له قيمته ، ولاسيما فى تاريخ الطوائف والمرابطين ، ومملكة غرناطة .

* * *

ولبث معجم «كازيرى » (الغزيرى) أكثر من قرن مرجعاً فريداً للمجموعة العربية فى الإسكوريال حتى قام المستشرق الفرنسى هارتفج ديرنبور بتكليف من وزارة المعارف الفرنسية ، بدراسة جديدة لمحتويات هذه المجموعة . فأنفق فى هذه المهمة أعواماً ، وأخرج فى سنة ١٨٨٤ ، أول جزء من معجمه : « المخطوطات العربية فى الإسكوريال » .

Les Munscrits arabes de l'Escurial

ومع أنه انتهى بالدرس والمقارنة إلى الارتياب فى قيمة مجهود سلفه ، وإلى تبيان كثير من أخطائه ، فإنه لم ير مع ذلك بدا من اتباع طريقته فى التنظيم والتبويب والترقيم ، مع تغيير يسير[1] . وقد عثر ديرنبور فى زوايا الإسكوريال على نحو مائة مخطوط عربى أخرى لم يذكرها كازيرى ، كما أنه لم يعثر على بعض مخطوطات ذكرها . وقد اختفى كثير من آثار هذه المجموعة خلال الأحقاب المختلفة ، ويرجع ذلك على ما يظهر إلى تهاون فى حفظها وصونها . ذلك أن مكتبة الإسكوريال لم تكن مكتبة عامة ، بل كانت مكتبة خاصة ، وكانت ومازالت تعتبر ملكاً خاصاً للعرش الإسبانى ، والإشراف عليها موكول حسبما قدمنا إلى هيئة خاصة هى جماعة الآباء الأوغسطينيين ، وليس للدولة عليها إشراف مباشر.

---

(١) راجع مقدمة ديرنبور لمعجمه المشار إليه .

وقد انتهى ديرنبور فى تعداده إلى الرقم ١٩٥٥ ،وكازيرى يقف عند الرقم ١٨٥١ التى تعادل رقم ١٨٥٦ من إحصاء ديرنبور ، فهو يزيد على كازيرى بمائة أثر جديد عثر بها . وخصص ديرنبور الجزء الأول من معجمه لكتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة متبعاً فى ذلك تقسيم كازيرى تقريباً ، ويشمل هذا الجزء سبعمائة كتاب وثمانية من (١ — ٧٠٨) . وفى سنة ١٩٠٣ ، أصدر ديرنبور قسما صغيراً من الجزء الثانى محتوياً على كتب الأخلاق والسياسية ، وتعدادها من الرقم ٧٠٩ إلى ٧٨٨ . ثم توفى سنة ١٩٠٥ دون أن يتم مهمته .فانتدب المستشرق الفرنسى ، الأستاذ ليڤى بروڤنسال لإتمام عمله .واستعان بمذكرات ديرنبور ، وأصدر الجزء الثالث من فهرس الإسكوريال سنة ١٩٢٨ ، محتوياً على كتب علوم الدين والجغرافيا والتاريخ (من الرقم ١٢٥٦ — ١٨٥٢)متبعاً تقسيم كازيرى وترقيمه أيضاً . ومايزال هذا الفهرس الجديد لمجموعة الإسكوريال العربية تنقصه بقية الجزء الثانى ، وفيه الطب والتاريخ الطبيعى والرياضة والفقه ، ثم الجزء الرابع محتوياً لأوصاف الكتب التى غابت عن كازيرى وعددها مائة (من الرقم ١٨٥٣ — ١٩٥٢) [1] .

وقد كان التنقيب فى تراث الآثار العربية والتعريف بها على هذا النحو فتحاً عظيما فى تاريخ اسبانيا المسلمة وتاريخ الحضارة الإسلامية . فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر لايعرف من هذا التاريخ سوى ماتعرضه الرواية النصرانية من شذور مغرضة . وكانت مئات من الحقائق تغمرهما حجب التعصب والتحامل والكذب ، فجاءت وثائق الإسكوريال تبدد هذه الحجب ،وتقدم الأدلة القاطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا ، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الأندلسية ، ومبلغ ماوصلت إليه من الازدهار والتقدم . فقد ظفر البحث فى هذه الوثائق مثلا بمخطوطات عربية ترجع إلى سنة ١٠٠٩ م كتبت على ورق من القطن ، ثم بأخرى ترجع إلى سنة ١١٠٦ م كتبت على ورق من الكتان ، مما يشهد لعرب الأندلس بفضل السبق والبراعة فى هذه الصناعة ، وكذا بطائفة من المخطوطات التاريخية ، تدل بأن المسلمين كانوا أول من استعمل المدافع البدائية

---

(١) راجع مقدمة الأستاذ ليڤى بروڤنسال للجزء الثالث من الفهرس . هذا وقد توفى العلامة المرحوم الأستاذ بروڤنسال (سنة ١٩٥٦) دون أن تتاح له فرصة إكمال هذا النقص .

وربما البارود فى الحرب ، وغير ذلك مما يلقى أكبر الضياء على حقائق لبثت تحتضر قروناً فى ظلمات الإسكوريال(١) .

(١) اطلعنا خلال بحوثنا بمكتبة الإسكوريال على كثير من المخطوطات العربية الهامة من أندلسية وغيرها ، نذكر بعضها فيما يلى لفتاً لأنظار الباحثين والأدباء :

(١) عدة آثار لابن الخطيب منها مجلدان من كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ، أولها رقم ١٦٧٣ ، ويقع فى ٥٠٠ صفحة كبيرة وتنقصه الصفحة الأولى وفى نهايته أنه كتب سنة ٨٩٥ هـ ، والثانى رقم ١٦٧٤ ويقع فى ٩٤ لوحة كبيرة وبها تراجم الأعيان من حرفى الميم والعين . ومنها كتاب «الدكان بعد انتقال السكان» وهو يضم عدة رسائل لابن الخطيب كتبها أثناء مقامه بمدينة سلا وفيها نبذ تاريخه هامة . يقع فى ٦٠ لوحة ومكتوب بخط أندلسى جميل ويحمل رقم ١٧١٢ ، ومنها كتاب ريحانة الكتاب رقم ١٨٢٥ ، وكتاب رقم الحلل فى نظم الدول رقم ١٧٧٦ ، واللمحة البدرية رقم ١٧٧١ .

٢ — قطعة من كتاب إعتاب الكتاب لابن الأبار ، وهى رقم ١٧٢١ ، وتقع فى ٧٨ لوحة ومكتوبة بخط أندلسى جميل ، ولكنها قديمة ومخرمة وبها التراجم مرتبة حتى حرف العين ، ثم بغير ترتيب ولا تحمل تاريخ كتابتها .

٣ — كتاب «لباب المحصل فى أصول الدين» لابن خلدون وبخطه ويحمل رقم ١٦١٤

٤ — كتاب «المصباح المضىء فى كتاب النبى الأمين ورسله إلى ملوك الأرض من عربى وعجمى» وهو مكتوب بخط جميل فى ١٤٤ لوحة متوسطة ، وفيه سير الملوك المعاصرين للنبى مثل كسرى وغيره ومكاتباتهم مع النبى ، كتب سنة ٩٧٢ هـ ، ويحمل رقم ١٧٤٢ .

٥ — «الرسالة الموضحة فى ذكر سرقات أبى الطيب المتنبى وساقط شعره» من كلام أبى على محمد ابن الحسن الحاتمى الكاتب ، ويقع فى ١٧٦ لوحة صغيرة ، ويشغل باب سرقات المتنبى ٨٧ لوحة وفى نهايتها انها كتبت سنة ٧١٧ هـ ؛ ويحمل رقم ٧٧٢ .

٦ — كتاب سياسة الأمراء ، بقلم إبراهيم بن عبد الواحد بن ذى النون وهو يتضمن ثلاثة عهود سياسية ، أولها عهد ملك إلى ابنه ، وعهد وزير إلى ولده ، وعهد رجل من أرفع طبقات العامة ، وفيها نصائح وإرشادات لكل منهم عما يجب عمله لتأدية مهمته ورسالته . مكتوب بخط أندلسى جميل ومجلد بجلدته الأصلية ويقع فى ٦٧ لوحة كبيرة ، ويحمل رقم ٧١٩

٧ — مجموعة بها تراجم أندلسية مختلفة لعبد الرحمن بن عبد الحكم وأولاده وأحفاده ، ولعدة من أمراء بنى الأغلب ملوك افريقية ، وترجمة للوزير ابن جهور ، وتراجم للرجال من المائة الثانية إلى المائة السادسة ، وفى نهايته تراجم لبعض الخلفاء الفاطميين ، ويقع فى ٢٠٠ لوحة كتب سنة ٩٩٠ هـ

٨ — كتاب نزهة البصائر والأبصار ، وهو مزيج من التاريخ والأدب والحكم ، ونبذ فى الإمامة والملك وغيرها ، يقع فى ١٠٧ لوحة كبيرة بخط مغربى ، ويحمل رقم ١٦٥٣

٩ — كتاب القول التام فى فضل الرمى بالسهام للسخاوى المصرى رقم ٧٦٥ ، ويقع فى ١٢٣ لوحة صغيرة مكتوب بخط نسخ جميل وبه أحاديث وحكم عن فضائل الرمى بالسهام والفروسة والشجاعة فى الحروب ، وفى نهايته أنه كتب سنة ٨٧٥ هـ

١٠ — «كتاب الأموال» لأبى جعفر بن نصر المالكى ويتناول أحكام الشرع فى الأموال والغنائم —

والخراج وغيرها وصفة أرض صقلية والأندلس عند الفتح ، وهو من أقدم مخطوطات المجموعة إذ كتب سنة ٦٧٧ ﻫ ، ويحمل رقم ١١٦٥

١١ — المخطوطان رقم ٤٨٨ و٥٣٨ ، ويحتوى كل منهما على مجموعة رسائل تاريخية وأدبية هامة مرابطية وغيرها .

١٢ — كتاب « تحفة العروس » لأبى عبد الله التيجانى وهو خاص بشئون النساء وأحكام الزواج ويحمل رقم ٥٦٢

١٣ — نسخة من كتاب « المصطلح الشريف » لابن فضل الله العمرى كتبت فى حياة المؤلف (القرن الثامن) بخط جميل مذهب وتحمل رقم ١٦٣٩

١٤ — الجزء الأربعون من تاريخ مصر للمسبحى ضمن مجموعة تحمل رقم ٥٣٤

بحــوث مفــردة

– ٢ –

الفصل الأول

مركو پولو

رحالتان شهيران هما أول من كشف للعالم أسرار المجتمعات الأسيوية فى العصور الوسطى، وروعة الشرق الأقصى، وبهاء قصوره، وبذخ أمرائه وسادته. ذان هما مركو پولو البندقى، وابن بطوطة الطنجى. وقد انتهى الرحالة الفرنجى من اختراق القارة الشاسعة، وفرغ من تدوين رحلته ومشاهداته، فى الوقت الذى ولد فيه الرحالة المسلم؛ واجتاز الأول القارة من أواسطها، واجتازها الثانى من الجنوب. فجاء مجهوده متمماً لمجهود سلفه؛ وقد سلخ كل منهما شرخ شبابه فى تعرف أحوال الأمكنة والمجتمعات التى ألقت به إليها أقدار رحلته. وإذا كان للرحالة الفرنجى فضل السبق فى كشف ما كشف من مجاهل المجتمعات الأسيوية، فإنما تدين بهذا الفضل إليه أمم الغرب التى كانت يومئذ أقلية فى العالم المتمدن؛ وإنما يرجع الفضل إلى الرحالة المسلم فى تعريف الأمم الشرقية والإسلامية بعضها بأحوال بعض، وأحوال ما يشوق من أسرار مجتمعات كان ذكرها يجرى يومئذ مجرى الأساطير والقصص الرائعة؛ بل إن مشاهدات مركو پولو لم تكن عرفت ولا ذاعت بعد، يوم بدأ ابن بطوطة جولته من مغرب الأرض إلى مشرقها. هذا إلى أن الرحالة المسلم يمتاز عن سلفه الفرنجى باجتيازه مجاهل إفريقية الشرقية، وكثيراً من الأقطار والجزائر الأسيوية الجنوبية. ويمتاز عنه بما هو أهم من ذلك، أعنى بدقة البيانات والملاحظات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية؛ ويرجع ذلك إلى أن الرحالة المسلم كان بتربيته وظروف المجتمع الذى نشأ فيه، أقرب من سلفه إلى تفهم أحوال الأمم والمجتمعات التى أتيح له أن يتجول فيها.

ومع ذلك فإن مشاهدات مركو پولو صفحة من أنفس صفحات التاريخ الأسيوى، وتاريخ التتار والترك السلاجقة بوجه خاص. وهى مازالت وثيقة يرجع إليها فى تحقيق كثير من الحوادث التى تقترن بسيرة هذه الدول المغولية، التى كانت تبسط سلطانها من شواطئ المحيط الهادئ إلى شرقى أوربا.

* * *

وقد نشأ مركو پولو رحالة بالمصادفة . ولذلك قصة شائقة طريفة ؛ ففي القرن الثالث عشر كانت البندقية (فينيزيا)[١] أهم بلد تجارى فى بحر الروم (البحر المتوسط) ، وكانت سفنها التجارية تجوس خلال الثغور الشرقية حتى بلاد القرم ، وتجارها يجوبون آفاق المشرق كله . وكان من هؤلاء والد الرحالة نيكولو پولو ، وهو بندقى من أسرة نبيلة وصاحب بيت تجارى يعمل فى قسطنطينية ما بين البندقية والمشرق . ففى سنة ١٢٦٠ م ركب نيكولو پولو البحر فى مركب خاصة ، محملة بنفيس البضائع ، ومعه أخوه وشريكه مافيو ، إلى بيزنطية (قسطنطينية) فوصلاها بسلام . وكان ذلك فى عهد بلدوين الثانى آخر ملوكها من الأمراء الصليبيين . وبعد أن أنفقا حيناً فى المتاجرة ، اعتزما أن يتابعا الرحلة إلى ثغور البحر الأسود ، فقصدا سولدانيا (سوداق) من ثغور القرم ؛ ثم سافرا بمتاعهما على ظهور الخيل حتى وصلا إلى « بلغارا » ، ونزلا ببلاط أمير تترى يحكم تلك الأنحاء ، فرحب بهما وأكرم مثواهما ، فرأيا أن يثيباه عن حسن اللقيا ، وقدما إليه ما معهما من الجواهر الغالية هدية خالصة ، فأعجب الأمير بكرمهما ، وأمر بأن يدفع إليهما ثمن الجواهر مضاعفاً ، وأن تقدم إليهما طائفة من نفيس الهدايا والتحف .

وبعد أن أقام الأخوان عاماً فى أرض الأمير أرادا العودة إلى وطنهما ؛ ولكن الحرب نشبت بين هذا الأمير وبين « ألاوو » وهو أمير تترى آخر يحكم الولايات الشرقية ، فقطعت السبل . وأضحى من المستحيل على نيكولو وأخيه أن يعودا إلى بيزنطية من حيث قدما ؛ فسلكا طريقاً غير مطروقة ، وسافرا شرقاً إلى بخارى ، وكانت يومئذ تابعة لحكومة فارس ، وفيها اضطرا بحكم الظروف إلى الصبر والانتظار ؛ وتعرفا هنالك بعظيم من أكابر التتر كان قد أوفده « ألاوو » سفيراً إلى الملك الأكبر « كوبلاى خان » إمبراطور التتار جميعاً ؛ وكان بلاطه يومئذ « فى نهاية القارة فيما بين الشرق والشمال الشرقى » فأعجب هذا السفير بذكاء الإيطاليين وخلالهما الحسنة ، ولم يكن رأى فرنجياً من قبل . وكانا قد درسا اللغة التتارية ، فاقترح عليهما أن يصحباه إلى « الخان » (الملك) الأكبر فيسر برؤيتهما ويغدق عليهما عطفه وكرمه ؛ ولما كانا قد يئسا مؤقتاً من العودة إلى البندقية ، فقد

---

(١) يسمى العرب فنيزيا بالبندقية تحريفاً لاسمها اللاتينى Venetiae

قبلا دعوته وسارا معه سنة كاملة حتى وصلا إلى بلاط الملك الأكبر ، فاستقبلهما بأدب واحتفى بهما ؛ وكانا أول من وفد على بلاطه من الفرنج . وسألهما عن ملوك النصرانية وإمبراطور الروم وأحوال ديارهم ومدى أقطارهم ، وطرق إجراء العدل لديهم ، وأساليبهم فى الحرب إلى غير ذلك ؛ وسألهما بالأخص عن البابا وعن دين النصرانية ، فأجاباه بالتتارية عن كل ما سأل إجابات حسنة شافية سر منها وقربهما إليه ؛ واعتزم أن يبعث بهما سفيرين مع أحد رسله إلى رومة ، ليطلبا إلى قداسة البابا أن يبعث إليه بمائة رجل من ذوى العلم والتقى ليذيعوا فى أقطاره دعوة النصرانية ، ثم يحملان إليه قدراً من الزيت المقدس الذى يحرق فى قبر السيد المسيح فى بيت المقدس .

فلما سمعا هذه الأوامر من الخان الأكبر سجدا أمامه وأعلنا أهبتهما لتنفيذ ما طلب ؛ فزودهما بالرسائل والجوازات ، وانتدب رسولا من قبله معهما يدعى « خوجاتان » . ولكن رسول الخان ما لبث أن مرض بعد أسابيع قلائل من السير ، فتركاه بإذنه وأمره فى مدينة « ألاو » وجدا فى السير ، والجوازات الملكية تفتح لهما كل طريق وتذلل كل صعب ، حتى وصلا بعد ثلاثة أعوام إلى ثغر لايسوس فى جنوب الأناضول ، وسافرا من هنالك إلى عكا فوصلاها فى شهر أبريل سنة ١٢٦٩ ؛ وهنالك علما أن البابا كليمنضوس (كليمان) الرابع قد توفى . وكان يقيم فى عكا سفير بابوى يدعى تبالدو دى بياشنزا فأبلغاه رسالة الخان ، فنصح إليهما أن ينتظرا حتى ينتخب البابا الجديد ويبلغاه الرسالة فعملا بنصحه وساروا إلى البندقية ، وهنالك ألفى نيكولو پولو أن زوجه قد توفيت ، بعد أن تركت له طفلا كانت تحمل به حين سفره واسمه (مركو) ، وكان يومئذ فى الخامسة عشرة من عمره ، وهو الرحالة المستقبل الذى كان أول من كشف للمجتمع الأوربى أسرار الشرق الأقصى .

ولسنا نعرف شيئاً عن طفولة « مركو پولو » ، ولكن الظاهر أنه قضى أعوامه الأولى فى منزل أحد أعمامه فى البندقية . وقضى نيكولو وأخوه مافيو عامين فى البندقية انتظاراً لانتخاب البابا الجديد ، فلما يئسا من ذلك اعتزما العودة إلى الخان الأكبر ، ليبلغاه بما كان من أمر رسالته وكيف أنهما أخفقا فى مهمتهما . فركبا البحر فى سنة ١٢٧١م ومعهما « مركو » ، وكان عندئذ فتى فى السابعة عشرة . فلما

وصلا إلى عكا ، أخذا من السفير البابوى خطاباً للخان شرح فيه حقيقة الحال ، وحملا للخان شيئاً من الزيت المقدس . ثم تابعا السير نحو الشمال ، غير أنهما لم يبعدا كثيراً حتى أرسل السفير فى أثرهما ينبئهما بأنه قد انتخب خليفة للكرسى المقدس ، واتخذ اسم البابا جريجورى العاشر ، وأنه يستطيع الآن أن يحقق أمنية الخان . فعادا مسرعين إلى عكا فى سفينة مسلحة قدمها إليهما ملك أرمينية . وكان قداسته قد أرسل إليهما لدى سفيره ، عدة رسائل بابوية للخان ، وأوفد إليهما قسيسين ليقوما فى البلاط التترى بمهمة الوعظ وسائر الإجراءات الدينية ، ومعهما من لدنه علة تحف مقدسة للخان باركها بنفسه . ثم ركب الجميع البحر ثانية إلى ثغر لايسوس . وماكادوا يتوغلون فى الأراضى الأرمينية ، حتى نمى إليهم أن الحرب تضطرم فى تلك الأنحاء ، وأن جيوش سلطان مصر الظاهر بيبرس « البندقدارى » تمعن فيها قتلا وتخريباً ؛ فارتاع القسان واعتزما العودة وسلما ما معهما من الرسائل والتحف إلى الأخوين ؛ واستمر نيكولو ومافيو ومركو فى طريقهم حتى عبروا حدود أرمينية سالمين . ثم جازوا عدة صحارى مقفرة ومفاوز وعرة ، وتوغلوا فى الشمال الشرقى ؛ حتى علموا أن الخان الأكبر يقيم يومئذ فى مدينة فخمة كبيرة تسمى « كلمنفو » ؛ فقصدوها ووصلوا بسلام بعد رحلة شاقة دامت أكثر من ثلاثة أعوام . واستقبلهم كوبلاى خان فى مجلس حافل ، فقصوا عليه ما آلت إليه سفارته وقدموا إليه خطابات البابا وهداياه والزيت المقدس ؛ ثم استفهم من نيكولو عن ذلك الفتى الذى رآه لأول مرة فأجابه « أنه عبدك ولدى » ، فسر الخان بذلك وأمر بأن يلحق « مركوپولو » بغلمانه ؛ وسرعان ما شق الفتى طريقه فى البلاط وأعجبت بطانة الخان بظرفه وخلاله . ودرس مركو اللغة التتارية واعتنق عادات التتار بسرعة . فقربه الخان وأحبه لذكائه ومواهبه . وأرسله فى عدة مهام فى بعض أقطاره النائية ؛ فكان يؤديها على أكمل وجه ؛ ويطرب الخان بما يقصه عليه من أنباء الرحلات وأحوال الرعية .

وأنفق مركو وأبوه وعمه فى بلاط كوبلاى خان زهاء سبعة عشر عاماً ، قام مركو خلالها بكثير من المهام السياسية والإدارية فى جميع أقطار الدولة المغولية الشاسعة ؛ وتوغل فى أقصى جنباتها ، ودرس أحوالها ومواقعها ؛ واستطاع أن

يقف على كثير من الأمور والشئون ، سواء مما شاهد بنفسه أو مما سمعه من الثقات ؛ وكان البنادقة بعد طول البعاد يضطرمون شوقاً إلى الأهل والوطن ، ويخشون أن يموت كوبلاى خان وقد شاخ وضعف ، قبل أن يمهد لهم سبيل العودة . ولكن الخان لم يأذن لهم وأصر على استبقائهم ، فصبروا مكرهين حتى سنحت فرصة رأوها صالحة لتدبير العودة . وذلك أن الملكة بلغان زوج أرجون خان ملك فارس وخراسان توفيت ، وكانت من البيت التتارى الملكى . فبعث أرجون إلى الخان الأكبر فى كاتاى يلتمس إليه أن يبعث إليه بزوج جديدة من أسرة الملكة المتوفاة . والتقى رسله هنالك بالبنادقة ، واهتم الخان الأكبر بالتماس أرجون . واختار له فتاة حسناء رفيعة التربية والخلال تدعى كوجاتين ، وأعد لها أسباب الرحيل مع رسل أرجون . وسار الركب الملكى مدى ثمانية أشهر فى وهاد ومفاوز شاقة ؛ حتى اعترضته الأنباء بأن حروباً جديدة نشبت فى الغرب بين الأمراء التتار ، وأن السبل إلى فارس متقطوعة خطرة . فارتد مرغماً إلى بلاط الخان الأكبر . وكان مركو پولو قد عاد وقتئذ من رحلة بحرية قام بها فى البحار الجنوبية إلى جزائر الهند الشرقية ، وروى للخان أن الملاحة فى هذه البحار آمنة جداً . فاهتم رسل أرجون لقوله ، واجتمعوا بالبنادقة واتفق الفريقان أن يلتمس الرسل إلى الخان أن يعودوا بالملكة إلى بلادهم من طريق البحر الآمن طبقاً لقول مركو پولو ، وأن يلتمسوا إليه فى الوقت نفسه أن يأذن بأن يصحبهم البنادقة فى رحلتهم لأنهم قوم مهرة فى الملاحة . وعلى ذلك تقدم الرسل إلى الخان بهذا الالتماس المزدوج فأذن به مكرهاً . ودعا البنادقة وخاطبهم فى رفق وعطف ، وطلب إليهم أن يقطعوا على أنفسهم عهداً بالعودة إليه بعد أن يروا أهلهم وأوطانهم . ثم زودهم بالجواز الإمبراطورى ، وعهد إليهم أن يكونوا سفراءه إلى ملوك فرنسا واسبانيا وغيرهم من ملوك النصرانية . وأعد الخان للركب أربع عشرة سفينة كبيرة ، ووهب البنادقة طائفة من الحلى والأحجار النفيسة . وركب الجميع البحر ومعهم العروس الملكية فوصلوا إلى جاوة بعد ثلاثة أشهر ، ثم جازوا البحار الهندية فوصلوا إلى ثغور الملك أرجون بعد ثمانية عشر شهراً ، مات خلالها مئات من البحارة واثنان من رسل الملك ولم يبق سوى الثالث . فلما رسوا عرفوا أن الملك أرجون قد توفى وأن أخاه كيا كاتو

يحكم مكانه بالنيابة عن ولده الصبي كاسان ، فتقرر أن تزوج الأميرة الفتية من كاسان . واستراح البنادقة هنالك عدة أشهر ، ثم منحهم كياكاتو الجوازات الملكية ، وأمر أن يزودوا أينما ساروا بالحرس والمؤن ، وأن يذلل فى سبيلهم كل صعب حتى يخرجوا من أرضه . فاستأنفوا سيرهم ، وعلموا أثناء الطريق بموت الخان الأكبر كوبلاى ، ووصلوا إلى ثغر طرابزون ، ثم ساروا إلى قسطنطينية ، ثم إلى جزيرة نجروبنت . وأخيراً وصلوا إلى البندقية فى أمن وسلام فى سنة ١٢٩٥ م . وقد رويت عن مقدمهم قصص غريبة ، من ذلك أن أقاربهم لم يعرفوهم حين وفدوا عليهم فى ثياب تتارية خلقة لايكادون ينطقون بلسانهم القومى . ولم يعرفوهم حتى انتزعوا تلك الأطمار البالية ، وأخرجوا من بطانتها أنفس الجواهر . على أن مركوپولو لم يمكث طويلا بين أسرته ، فقد كانت الحرب ناشبة بين البندقية وجنوه . ولما كان آل پولو من النبلاء الأغنياء فقد دعوا إلى تجهيز مركب خاصة . وقاد مركو مركب أسرته فى أسطول أندريا داندولو صاحب البندقية ، فهزم البنادقة فى مياه كرسولا فى ٧ سبتمبر سنة ١٢٩٧ ، وأسر مركو پولو ، وحمل سجيناً إلى جنوه حيث بقى زهاء ثلاثة أعوام رغم ما بذل لافتدائه . والغالب أنه أنشأ سيرة رحلاته فى تلك الفترة ، وقد أملاها بفرنسية رديئة على رفيق أسير . ثم عاد إلى البندقية فى سنة ١٢٩٩ ، وتزوج بعدئذ بقليل . ولسنا نعرف كثيراً عنه بعد عودته من الأسر ؛ وخلاصة ما نعرف أنه عاش غنياً شهيراً ، وأنه كان يسمى « المليونى » أعنى صاحب الملايين ، لما كان يذيعه من القصص الرائعة عن بذخ كوبلاى خان . ومرض الرحالة فى سنة ١٣٢٤ مرضاً أنذره بدنو أجله ، فكتب وصيته وتوفى بعد تنفيذها بقليل ، ودفن فى كنيسة القديس لورنزو ، ولكن موقع قبره الحقيقى غير معروف .

* * *

تلك هى السيرة العجيبة التى تخرج فى حوادثها الشائقة أول رحالة كشف للعالم عظمة الشرق الأقصى وصور روعته وبهائه . بيد أن المجتمع الذى أفضى إليه مركو پولو بمشاهداته ومباحثه كان ضنيناً فى تأييده والإيمان به ، فلم تلق روايات الرحالة يومئذ كبير ثقة . بل لعل مركو پولو تأثر بتلك العاطفة ولم يكشف عن كل ما رأى

وسمع مما قد يذهب لدى قومه مذهب الأساطير المدهشة . ولنا فى روح هذا العصر وأحواله مايفسر ذلك ، فلم تعرف أوربا فى القرون الوسطى عن المشرق من الصور إلا ما جاء فى التوراة وما رواه الصليبيون ، ولم تشهد منها إلا ماعرضته ثغور الشام وبيزنطية وماجاورها من ثغور البحر الأسود . أما الشرق الأقصى فكان يحجبه عن العالم الأوربى ستار كثيف من الخيال الرائع . ومع ذلك فإن روايات مركو پولو جاءت أعجب من كل ما تصور الناس يومئذ عن هذا الشرق ، وذهبه الوهاج وملوكه العظام ، وقصوره السحرية ، وأنهاره التى تفيض بالشهد واللبن ، وحوره وولدانه ، وجنه وشياطينه وكنوزه ، وعلى العموم كل ما يحيط به من أسباب الخفاء والبهاء والروعة . وقد لاقى ابن بطوطة من مجتمع عصره ، مثل ما لقيه مركو پولو من الإنكار والتحامل .

ومع ذلك فإن مشاهدات مركو پولو وبحوثه من أعظم ماكتب الرحالون ؛ فما زالت إلى اليوم حجة لبعض أنحاء آسيا الوسطى والصين ، وستبقى دائماً من أثمن المصادر للجغرافى والمؤرخ والباحث فى شئون الحياة الأسيوية . وإذا كان مركو پولو يمزج مشاهداته بطائفة من الصور والأساطير التى لايسيغها العقل الحديث والتى تذكرنا « بالكرامات » التى يذكرها ابن بطوطة فى روايته من آن لآخر ، فإن ذلك يرجع إلى روح العصر وعقليته من جهة ، وإلى الوسط الذى استقى فيه مركو پولو صوره من جهة أخرى ؛ فقد وفد مركو پولو على أعظم قصور هذا العصر ، وشاهد من بذخ « ملك الملوك » (كوبلاى خان) ومن شاسع أقطاره ، وعظم سلطانه ، ووفرة ماله وترفه ، وسمع من بطانته وقادته وضباطه ، عباده وعبيده ، ما أذكى خياله — خيال العصور الوسطى — إلى الذروة ، ودفع لسانه وقلمه بما قد يقبله خيال عصره ، وما يلفظه العقل الحديث . على أن هذا الانحراف الذى يرجع إلى طبيعة العصر ، لم ينزع من الرحالة صدق الرواية ولاعمق البحث ، فى كثير من الأمور ، التى قد تنبو عن ذهنه لدقتها وغرابتها . وللتدليل على هذه الدقة نورد روايته عن الإسماعيلية فى عصره ففيها يقول :

« فى التعريف بشيخ الجبل ، وقصره وبساتينه وأسره وموته .

« وإذ ذكرنا هذه البلاد (مشيراً إلى شمال فارس وولايات قزوين) فسوف

نتكلم الآن عن شيخ الجبل . إن البقاع التى يشغلها تعرف « بالملحدة » وهوما يعنى فى لغة العرب مكان الكفرة ، وسكانها هم الملاحدة أو أصحاب العقائد الزائغة كما نطلق نحن صفة الباتارينى (الباتالان أوالألبيون) فى النصرانية على بعض الكفرة . وهذه قصة هذا الزعيم كما سمعها مركوپولو من أناس علمة . كان اسمه علاء الدين ودينه دين محمد ، وقد أنشأ فى واد جميل يقع بين جبلين شاهقين بستاناً فخماً فيه من كل فاكهة لذيذة وكل نبات عطر فى العالم ؛ وأقيمت قصور ذات أحجام وأشكال مختلفة فى جهات مختلفة زينت بنقوش الذهب ، وفرشت بأثاث من الحرير النفيس تخترقها فى كل ناحية بواسطة صهاريج مصنوعة ، قنوات من الخمر واللبن والشهد والماء أحياناً . أما سكان هذه القصور فقد كن غانيات فاتنات ، بارعات فى الغناء والموسيقى والرقص ، وبالأخص فى الإغواء والنفثات الغرامية ؛ وكن يرتدين ثياباً نفيسة ويقطعن أوقاتهن بالتريض واللهو فى البستان والخمائل ؛ أما حراسهن الإناث فكن يتوارين داخل الأبواب ولايظهرن قط . وكانت غاية الزعيم من إنشاء هذه الحديقة الفاتنة ما يأتى : بما أن محمداً قد وعد من أطاعه بمتعة الجنة حيث يوجد كل أنواع الملاذ الحسية بصحبة حور حسان (كذا) ، فقد أراد « الزعيم » أن يفهم أتباعه أنه أيضاً نبى قرين محمد ، وأنه يستطيع أن يدخل جنته من شاء . ولما كان يحرص على أن لاينفذ إلى واديه البديع إنسان دون إذنه ، فقد أنشأ فى مدخله قلعة منيعة يدخل منها إليه بمدخل سرى . وكان هذا الزعيم يجمع فى بلاطه أيضاً عدداً من الفتيان بين الثانية عشرة والعشرين ، يختارهم من سكان الجبال المجاورة ممن يميلون إلى الرياضة العسكرية ، ويتصفون بالشجاعة الوافرة ، ويحادثهم كل يوم فى موضوع الجنة التى ذكرها النبى ، وفى موضوع قدرته أن يدخل فيها من شاء . وكان أحياناً يضع الأفيون فى شراب عشرة فتيان أواثنى عشر . فإذا فقدوا الرشاد أمر بحملهم إلى بعض قصور البستان . فإذا استيقظوا من سباتهم ، التهبت حواسهم بكل ما وصفنا من الأمور ، وألفى كل حوله طائفة من الحوارى يغنين ويلعبن ويجذبن بصره بأرق إيماء ، ويقدمن إليه اللحوم اللذيذة ، والخمور الفاخرة ، حتى يذهب برشده الإفراط فى المتعة بين قنوات اللبن والخمر ، فيتوهم أنه فى الجنة بلا ريب ، ويشعر بأنه لايريد أن يفارق نعيمها ؛ فإذا قضى الفتيان

بضعة أيام على هذا النحو ، ألقى إليهم المخدر ثانية حتى يسلب رشدهم ثم ينقلون من البستان ؛ فإذا قدموا إلى الزعيم وسألهم أين كانوا ، أجابوا « فى الجنة ، بشفاعتك ياذا السمو» ، ثم يقصون أمام جميع البطانة وهم يصغون إليهم بلهف ودهشة ، كل مارأوا ؛ وعندئذ يخاطبهم الزعيم بقوله : « لقد أكد نبينا أن من يدافع عن سيده يرث الجنة ، فإذا أخلصتم أنتم إلى الطاعة فسوف تنعمون بهذا المصير السعيد» فتثور حماستهم لأمثال هذه العبارة ، ويصرحون بأنهم جميعاً سعداء إذ يتلقون أوامر سيدهم وإذ يموتون فى خدمته . وكانت نتيجة هذا النظام هو أنه إذا اجترأ على هذا الزعيم أحد الأمراء المجاورين أوغيرهم قتلهم أولئك القتلة المدربون؛ ولم يكن أحد منهم يحرص على حياته من خطر قط ، فلم تكن الحياة فى نظرهم شيئاً مادامو يستطيعون تنفيذ أوامر سيدهم ، ومن ثم كان بطشه موضع الرعب فى الأنحاء المجاورة . وقد أقام لنفسه أيضاً وكيلين أحدهما بجوار دمشق والآخر فى كردستان، كل منهما ينفذ الخطة التى وضعها لتدريب الأنصار الفتيان . وهكذا لم يكن ثمة إنسان يعرض لنقمة شيخ الجبل ، ليستطيع النجاة من القتل مهما كان من القوة . وكان مركز شيخ الجبل يقع فى أراضى أولاء و (هولاكو) أخى الخان الأكبر « منجو» ؛ فنمى إلى هذا الأمير ما يرتكبه شيخ الجبل من الفظائع التى ذكرناها ، وأنه يستخدم الأشقياء فى سلب المسافرين الذين يمرون بهذه الأنحاء ، فسير إليه فى سنة ١٢٦٢ جيشاً حاصره فى قلعته . على أنها كانت من المناعة بحيث لبثت ثلاثة أعوام دون أن تتأثر بشدة الحصار ؛ وأخيراً أرغم على التسليم لفقد المؤن ؛ وأسر وأعدم وهدم حصنه . وخربت حدائقه وجنته ، وطويت صفحة شيخ الجبل »[1] .

* * *

فى هذه الصفحة التى أوردها مركو پولو عن الإسماعيلية دقة فى البحث والاستقصاء ، يقدرها كل من عرف تاريخ الإسماعيلية وأحوالهم . ونجد هذه الدقة ماثلة فى كثير مما يكتبه مركو پولو عن دول آسيا الوسطى فى عصره ، وعن الدول التتارية بنوع خاص . وعن تاريخها وقصورها ومجتمعاتها . وقد لبثت مذكرات مركوپولو عصوراً حجة المؤرخين والباحثين فى استقصاء كثير من أحوال هذه الأمم والدول فى العصور الوسطى . ومازالت إلى يومنا وثيقة نفيسة فى تاريخ آسيا وجغرافيتها ، تربط تراث الماضى والبحث الحديث بأوثق الصلات .

---

(١) كان مقتل شيخ الجبل علاء الدين الذى يشير إليه مركوبولو سنة ١٢٥٥ م بعد حكم طال أمده ، فخلفه ابنه ركن الدين الذى حكم عاماً فقط ، وهو الذى حاصره جيش هولاكو وكان على يده مصرع دولة الإسماعيلية .

الفصل الثانى

ابن بطوطـــة

فى الوقت الذى اختتم فيه « مركوپولو » البندقى تجواله فى أعماق الأراضى والمجتمعات الأسيوية ، ودون رحلاته ومشاهداته . ولد بطنجة رحالة مسلم هو إحدى هذه الشخصيات البارزة القليلة ، التى يقدمها تاريخ الإسلام فى القرن الرابع عشر ؛ ففى سنة ١٣٠٣ م (٧٠٣ هـ) ولد أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجى المعروف بابن بطوطة . ولم نتلق الكثير عن نشأته أو تربيته الأولى . ولكن الظاهر أنه نشأ فى بيئة وظروف عادية ، وأنه درس الفقه وعلوم الدين دراسة حسنة . كذلك لسنا نعرف ظروفاً أوبواعث خاصة هى التى حملت الرحالة المسلم على أن يسلخ شبابه وكهولته ، فى طواف الأرض حتى أقاصى العالم المعروف يومئذ ؛ وكل ما نعرف عن ذلك ؛ هو أن الفتى الطنجى ما كاد يبلغ الثانية والعشرين حتى ملكه شغف الحج وزيارة البقاع المقدسة ؛ وكان الحج من أسمى النزعات التى يضطرم بها يومئذ قلب كل مسلم يستطيع تحقيق هذه الأمنية . والظاهر أيضاً أن ابن بطوطة لم يكن يملك نفقات الرحلة إلى مكة وأنه كان يقرن عزمه ، بنوع من المغامرة . وقد كان اختراق صحارى المغرب وأمم الإسلام من طنجة إلى مكة فى ذلك العصر مغامرة كبيرة . فخرج الرحالة المستقبل من مسقط رأسه طنجة فى شهر رجب سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥ م) حسبما يقص فى رحلته « معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفرداً عن رفيق آنس بصحبته . وركب أكون فى جملته ، لباعث من النفس شديد العزائم » . وكان ارتحاله فى عهد السلطان أبى سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينى (٧١٠ – ٧٣١ هـ) ، فجاز أمصار المغرب الشهيرة يومئذ مثل تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة ، حتى وصل إلى تونس وسلطانها عندئذ أبو يحيى بن أبى زكريا أحد أمراء بنى حفص . ولم يكن للرحالة الفتى يومئذ صبر على تحمل مرارة البعاد ووحشته ، وكان بعيداً كل البعد عن فكرة الطواف حول الأرض ، حتى أنه لما وصل إلى تونس ولم يسلم عليه أحد

لغربته « وجد من ذلك فى النفس ما لم يملك معه سوابق العبرة ، واشتد بكاؤه» .
ثم ارتحل فى ركب الحاج إلى طرابلس ونزل بالإسكندرية التى يصفها بأنها « الثغر المحروس ، والقصر المأنوس ، بها ماشئت من تحسين وتحصين ،ومآثر دنيا ودين» وكان ذلك لعشرة أشهر من مغادرته لطنجة ؛ ثم قصد إلى القاهرة ،وهو يصفها فى تلك الكلمات الشعرية : « ثم وصلت إلى مدينة مصر أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة . المتناهية فى كثرة العمارة ، المتناهية بالحسن والنضارة . مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر . تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها . شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لايبرح عن منزل السعد . قهرت قاهر الأمم ، وتمكنت ملوكها نواصى العرب والعجم » . وقد بهر الرحالة مارأى فى مصر وشاهد من مظاهر العمران والرخاء فلم يشأ أن يمر بها مروراً فقط ، فنراه يجوس خلال الإسكندرية ويدقق فى وصف منارتها وعمودها وسائر آثارها ومواقعها ، ويتجول فى جميع أنحاء القاهرة وينفذ إلى جميع مساجدها ومعاهدها وآثارها الشهيرة ، ويطوف أنحاء الوجه البحرى من الشمال إلى الجنوب ، ثم يهبط إلى صعيد مصر حتى نهايته ، ويرى جميع الآثار المصرية القديمة . ونراه يتعرف بسلطان مصر وهو يومئذ الملك الناصر بن قلاوون . وأمرائها وعلمائها وقضاتها ، ثم يفيض فى وصف عمرانها ومدنيتها ونيلها وأهرامها ومشاهد الحياة الاجتماعية فيها . ثم يعود من طريق الصحراء بحذاء البحر الأحمر فيصل إلى فلسطين من طريق سيناء ، ويتفقد بيت المقدس وآثارها الشهيرة من إسلامية ونصرانية . ثم يتجه شمالا بحذاء البحر مخترقاً بلاد الشام كلها حتى حلب الشهباء ، متصلا فى كل سفراته بالأمراء والكبراء والعلماء ، متفقداً كل ما يقع عيه من مساجد وآثار ومعاهد شهيرة . ثم يهبط إلى دمشق فتبهره محاسنها ، فيستقر فيها حيناً ويفيض فى وصف جامعها الأموى وأسواقها ورياضها ومعاهدها وأهلها .

وهنا فقط يعتزم ابن بطوطة أن يحقق الأمنية التى دفعت به إلى ديار الغربة أعنى قضاء الحج ؛ فخرج من دمشق فى ركب الحاج واخترق الطريق العادية حتى وصل إلى المدينة ، وطاف بالحرم والآثار المقدسة ، ثم إلى مكة حيث أدى فريضة

الحج ، وطاف بالكعبة الشريفة ، والمسجد الحرام ، وقبور الصحابة والتابعين .
ويفرد الرحالة قسما ضافياً من رحلته لوصف البقاع والمشاهد المقدسة ، وما إليها
من الرسوم والروايات والأساطير ، ومجتمعات مكة والمدينة ، ومواقعها ومعاهدها
وأسواقها ؛ وعباراته فى ذلك القسم تنم عن الخشوع والإجلال والحماسة ، أو
بالحرى عن شديد إسلامه وعميق إيمانه .

* * *

على أن الرحالة لم يفكر فى العودة إلى وطنه بعد تحقيق الأمنية التى يقرر فى رحلته
أنها كانت باعث سفره . ومن المرجح أن فكرة الانقطاع إلى السفر وطواف العالم
لم تخطر فى ذهن ابن بطوطة إلا فى هذا الظرف فقط ؛ ذلك أنا نراه يتجه فجأة نحو
الشمال الشرقى ميمماً شطر العراق بدلا من أن يسلك طريق العود إلى وطنه . ونراه
يستسلم لاجتياز مفاوز الصحراء العربية بما يحيط بها من وعورة وقفر ومخاطر ومشاق ،
وهو قد اجتاز إلى ذلك الحين أمم الإسلام الواقعة فى الغرب والشرق الأدنى . على أنها
لم تكن مجاهل بالنسبة إليه . فقد كانت مصر والشام كعبة السياح والتجار الوافدين
من المغرب والأندلس ؛ وكانتا ممراً للحاج فى كل عام ؛ وكانت مجتمعاتهما
وتقاليدهما وعاداتهما أقرب إلى عرفان المغرب من أى مجتمع إسلامى آخر . ولكن
الاتجاه نحو المشرق يعتبر فى حياة ابن بطوطة فاتحة مغامراته الحقة ورحلته الشهيرة ؛
فهو من ذلك الحين يجوز أقطاراً تختلف فى أقليمها وطبيعتها كل الاختلاف عما عرفه
فى الشطر الأول من رحلته ، ويجوز مجتمعات لا يعرفها ولا يعرف شيئاً من عاداتها
وإن تكن إسلامية ؛ ثم هو يلقى فوق ذلك مجتمعات تتكلم غير العربية ، التى كان
يتحدث بها حتى هذا الشطر من رحلته . وهنا تبدو مواهب الرحالة البارزة فى
تعرف كل ما يقع عليه بصره من مشاهد جغرافية واجتماعية ، ودقته فى استقصاء
هذه المشاهد ، وقوته فى تصويرها ؛ وهنا أيضاً يبدأ ابن بطوطة فى تعلم الفارسية
والتركية ، وقد كانت الفارسية له سلاحاً فى طوافه بالمجتمعات الهندية ، كما كانت
التتارية سلاحاً لسلفه مركوپولو فى طوافه بالممالك التتارية .

اتجه الرحالة إلى المشرق فجاز نجداً وصحراء العرب إلى العراق ، ووصف هذه
المسالك وما تحتويه من بقاع تاريخية ومشاهد أثرية وما قيل فيها من أساطير . وهذه

من خواص ابن بطوطة حين يصف الآثار . ثم جاز الفرات ودجلة إلى العراق الفارسى ، وزار شيراز وإصفهان . وعاد من طريق شمالية نوعاً فعبر الدجلة والفرات ثانية إلى العراق العربى ، ونزل ببغداد ، ولقى فيها يومئذ سلطان العراقين وخراسان وهو السلطان أبو سعيد بهادر خان ؛ وكانت بغداد يومئذ قد جردت من صفة الرياسة فلم تعد قاعدة الملك مذ دخلها التتار ، وقتل بها المستعصم آخر خلفاء بنى العباس (٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م) ، وكانت قد فقدت رونقها القديم وبهاءها السالف ، وغلب عليها الخراب والعفاء . وترى تأثر الرحالة ظاهراً فيما كتبه عن بغداد وآثارها ومجتمعاتها ورصافتها التى كانت يومئذ عاصة بقبور الخلفاء . وهنا يعنى أيضاً بالتاريخ فيقص تاريخ الأسرة الملوكية التى كانت تحكم العراق عندئذ ، كما يقص بعد تاريخ كل الأسر السلجوقية والهندية التى كانت متربعة فى فى دست الملك .

وغادر الرحالة مدينة الخلفاء إلى الموصل ثم إلى نصيبين ثم إلى سنجار . واتصل بملوكها جميعاً . ذلك أن الإقطاع كان سائداً فى تلك الأنحاء بأوسع معانيه ، وكان الأمراء السلاجقة يقتسمون الولايات والمدن ، فلكل ولاية أو مدينة فقط ، حاكم مستقل يسمى بالسلطان أو الخان (الملك) . وهنا تنتهى أول مرحلة فى جولات ابن بطوطة . ولسنا نعرف ما الذى جال بخاطره عندئذ فدفع به إلى الجنوب ثانية أعنى إلى بغداد ثم إلى مكة . بيد أنه يقول لنا فى رحلته إنه وصل إلى مكة للمرة الثانية مريضاً منهوكاً . فارتاح فيها زهاء عام ، ثم جاور عاماً آخر . ويلوح لنا أنه فى تلك الفترة وطد عزمه نهائياً على طواف العالم ، وانتفع بأحاديث الحاج الذين يفدون من جميع الأقطار فى وضع شبه برنامج لهذا الطواف ؛ فبدأ عندئذ بالسفر جنوباً إلى اليمن فبلاد الصومال ، ثم طاف ساحل البحر العربى حتى عمان والبحرين ، وشهد هنالك مغاص اللؤلؤ ووصف طريق استخراجه ، واتصل بأمراء هذه الأنحاء . ثم اخترق الصحراء ثانية إلى مكة فحج للمرة الثالثة . وكان ذلك فى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) والتقى هنالك بالملك الناصر سلطان مصر . ثم ركب البحر الأحمر إلى السودان واخترق بلاد النوبة فصعيد مصر إلى القاهرة . ولم يمكث بها كثيراً ، بل تابع سفره إلى الشام وركب البحر من اللاذقية فوصل إلى بر « تركية » أو ساحل الأناضول سنة (٧٣٣ هـ — ١٣٣٣ م) .

وكانت آسيا الصغرى تموج يومئذ بالأمراء السلاجقة ، ولكن قبيلة عثمان كانت قد بدأت تظهر عليهم جميعاً . وكان عثمان مؤسس دولة الترك العثمانيين قد توغل غرباً فى أقطار الدولة البيزنطية ، وهزم إمبراطورها أندرونيكوس الكبير فى عدة مواقع ، واستولى على كثير من أراضيه . وكانت بورصة عاصمة العثمانيين يومئذ ، وملكهم على عهد قدوم الرحالة أورخان ولد عثمان . وكان فى الأناضول غير بنى عثمان عدة ملوك أقوياء أخر منهم أوزبك خان ملك الولايات الشمالية . وكان الإسلام قد ساد معظم هذه الأنحاء عندئذ ، ولكن دولة الإسلام فيها كانت جديدة . فكانت هذه المجتمعات غريبة فى روحها ورسومها وتقاليدها عن أى مجتمع شهده الرحالة من قبل ؛ كذلك كان الإقليم غريباً ، والطبيعة أغرب . فاخترق الرحالة مفاوز الأناضول من شرقه إلى غربه ومن جنوبه إلى شماله ، وأفاض فى وصف مارأى ولاحظ من جغرافية ، ونظم وطبائع ، ومحاصيل وعادات وأخلاق ، ثم اخترق أراضى السلطان أوزبك خان إلى ضفاف البسفور مع جماعة أوفدها هذا السلطان إلى إمبراطور بيزنطية .

* * *

وكان الجالس على عرش قسطنطين يوم أن وفد الرحالة المسلم على قسطنطينية ، الإمبراطور أندرونيكوس الثالث أو الأصغر . وكان قد ارتقى العرش فى سنة ١٣٢٨ م . وكان قدوم ابن بطوطة إليها كما قدمنا فى ركب أرسله السلطان محمد أوزبك خان بصحبة زوجه الخاتون (بيلون) إبنة الإمبراطور ،وكانت قد ذهبت لزيارة أبيها فى قسطنطينية . فسافر الرحالة فى ركبها معززاً مكرماً . وأشرف على مدينة قسطنطين بعد رحلة دامت زهاء شهر فى البر والبحر ، فدخلها مع الركب الملكى فى ظهر يوم من أيام سنة ٧٣٣ هـ (سنة ١٣٣٣ م) . ويصف الرحالة دخوله إليها فى تلك العبارة الشائقة : « وكان دخولنا عند الزوال . أو بعده إلى القسطنطينية العظمى ، وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها . ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانه وسمعتهم يقولون . سراكنو سراكنو ومعناه المسلمون »(١) . ويصف مقابلته

---

(١) المرجح أنه يقصد سرازنو **Sarrazino** وهى الكلمة التى أطلقها الكتاب اليونانيون على مسلمى شبه جزيرة العرب .

للإمبراطور فيما يأتى : « وفى اليوم الرابع بعث إلى الخاتون الفتى سنبل الهندى فأخذ بيدى وأدخلنى إلى القصر ، فجزنا أربعة أبواب فى كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم ، فلما وصلنا إلى الباب الخامس تركنى الفتى سنبل ودخل ، ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ففتشونى لئلا يكون مع سكين ، وقال لى القائد تلك عادة لهم لابد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام ، غريب أو بلدى . ثم قام الموكل بالباب فأخذ بيدى ، وفتح الباب وأحاط بى أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمى واثنان من ورائى ، فدخلوا بى إلى مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد ، وفى وسطه ساقية ماء ومن جهتيها الأشجار والناس واقفون يميناً ويساراً ، سكوتاً لايتكلم أحد منهم ، وفى وسط المشورة ثلاثة رجال وقوف أسلمنى أولئك الأربعة إليهم ، فأمسكوا بثيابى كما فعل الآخرون وأشار إليهم رجل ، فتقدموا بى وكان أحدهم يهودياً فقال بالعربى : لا تخف وأنا الترجمان . ثم وصلت إلى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته بين يديه ، وعن يمينه ستة رجال ، وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح ، فأشار إلى قبل السلام والوصول إليه ، بالجلوس هنيهة ليسكن روعى ففعلت ذلك . ثم وصلت إليه فسلمت عليه وأشار إلى أن أجلس فلم أفعل ، وسألنى عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القمامة ، وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل ، ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم ، فأجبته عن كل ذلك واليهودى يترجم بينى وبينه ، فأعجبه كلامى وقال لأولاده أكرموا هذا الرجل وآمنوه . ثم خلع على خلعة وأمر لى بفرس مسرج ملجم ومظلة وهى علامة الأمان » . ويسمى الرحالة الإمبراطور « تكفور » وأباه بجرجيس [١] ، وقد كان الإمبراطور كما قدمنا هو أندرونيكوس الثالث وأبوه أندرونيكوس الثانى .

وكانت قسطنطينية قد فقدت يومئذ كثيراً من فخامتها السالفة ، وكان الفرنج الصليبيون قد افتتحوها قبل ذلك بقرن وربع ، وعاثوا فى أنحائها وخربوا كثيراً من قصورها وكنائسها ، وأحرقت أثناء الحرب مراراً . على أنها كانت أعظم منظر رآه الرحالة فى رحلاته قاطبة ؛ وهو يصف مواقعها وصفاً يشهد له بعمق البحث

---

(١) كان الترك يطلقون على قيصر قسطنطينية وحكامه فى المقاطعات كلمة « تكير » وتحرف لدى العامة بكلمة « تكفور » أى قيصر.

ودقة التحرى إذ يقول : « وهى متناهية فى الكبر ، منقسمة إلى قسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر (يقصد القرن الذهبى) ، واسم هذا النهر إبسمى . وأحد القسمين من المدينة يسمى اصطنبول ، وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس ، وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفائح متسعة : والمدينة فى سفح جبل داخل فى البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر ، وفى أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان ، والسور يحيط بهذا الجبل وهو مانع لاسبيل إليه من جهة البحر . والكنيسة العظمى «أياصوفيا» هى فى وسط هذا القسم. وأما القسم الثانى فيسمى الغلطة وهو بالعدوة الغربية ، وهذا القسم خاص بنصارى الإفرنج ومنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومة وأهل إفرانسة .. » : ويفيض الرحالة فى وصف الكنيسة العظمى « أياصوفيا » والمانستارات[1] (الأديار) التى كانت تغص بها قسطنطينية يومئذ ، ويصف رسومها وأحوالها وسكانها من رهبان وعذارى ، وقد دخلها وطاف بها بإذن خاص من الإمبراطور الذى عين له مترجماً يصحبه فى طوافه .

وأقام الرحالة فى مدينة قسطنطين عدة أسابيع ، ثم غادرها وقد بهرته الحضارة اليونانية وآيات عمرانها وفخامتها ، وماكشفت من ترف كان يقضم يومئذ أسس المجتمع البيزنطى .واخترق شمال الأناضول ثانية فى فصل الشتاء ، وعانى قره وثلجه . ثم اتجه شرقاً إلى بلاد التركستان ونزل بخوارزم ، وكانت يومئذ ولاية من أقاليم السلطان أوزبك خان الذى تقدم ذكره . ثم قصد بخارى وكانت قد خربها التتار يومئذ ، ووقف خاشعاً أمام قبر إسماعيل البخارى مصنف الجامع الصحيح ، وجال فى تلك الأنحاء حيناً وألم فى رحلته بتلك المناسبة بلمحة من تاريخ التتار من عهد چنكيزخان ؛ ثم اخترق بلوخستان ودخل الهند من الشمال الغربى فوصل إلى أقليم البنجاب حسبما يروى فى سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م) :

* * *

وهنا تبدأ مرحلة جديدة فى رحلات ابن بطوطة ؛ وهنا تبدو روح المخاطرة قوية فى نفسه ، فنراه يضطرم عزماً إلى التوغل غير مكترث بما يلقى من صنوف

---

(١) هذه لفظة ابن بطوطة عربها كما هو ظاهر عن كلمة **Monastère** وهو تعريب حسن .

الشدائد ؛ فيجوز أقاليم الهند الشاسعة من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق ويتصل بملوكها من المسلمين أوغيرهم ؛ ونراه يطمئن إلى الاستقرار فى بعض هذه الممالك ، ويحاول التقرب إلى ملوكها وخدمتهم ونيل الحظوة لديهم . وقد وصل إلى غايته أكثر من مرة ، فتقرب إلى السلطان أحمد شاه ملك الأقاليم الشمالية وصاحب بلاط « دهلى » (دلهى) فولاه القضاء وعهد إليه ببعض المهام والسفارات ، فسلخ فى خدمته أعواماً ؛ ومن ثم نراه يخصص فى رحلته قسماً كبيراً لتاريخ هذه المملكة ونظمها وعمرانها . ويذهب الرحالة فى مخاطراته إلى أبعد من ذلك فيصطحب الحملات الحربية ، ويؤسر ذات مرة ويشرف على الهلاك فلاينجو إلا بأعجوبة . ولا يقتصر على جوب الأقاليم الداخلية ، بل يجوس خلال الشواطئ الهندية حتى نهايتها الجنوبية ، ويعبر إلى « سيلان » حيث يصف « القدم المقدس » المعروف بقدم آدم . ويقدم لنا الرحالة فى هذا القسم من رحلته طائفة كبيرة من الروايات والصور الطريفة ، فيصف لنا كثيراً من معتقدات الهندوس ، وتقاليدهم الدينية ، ومعابدهم الخفية ، وحياتهم الاجتماعية ، وما يتخللها من رسوم مثيرة ، كحرق النساء عند وفاة أزواجهن ، والحج إلى نهر (الكنغ) وإغراق البعض لأنفسهم فيه تقرباً إلى الله وتخليداً للروح ؛ وفيه يكشف عن عميق تأثره وانفعاله من روعة هذه الرسوم الوثنية ، ويقول إنه كاد يسقط عن فرسه حين رؤيته لمشهد الإحراق . كذلك يصف كل ما وقع عليه من غرائب الطبيعة والشجر والحيوان فى هذه الأنحاء الحافلة . ووصفه لكل ذلك قوى ممتع . ويقول لنا فى هذا القسم إن القرصان الهندوس طلعوا على ركبه ذات مرة فسلبوه كل شىء ، بما فى ذلك مذكرات كان يدونها عن كثير من المشاهد . ولعل فى ذلك ما يفسر دقة الرحالة فى ذكر التواريخ والمواقع والحوادث والصور . فهو بلا ريب كان يدون كثيراً من مشاهداته ، وقد احتفظ بكثير من هذه المذكرات عند عودته ، وعليها اعتمد فى إملاء رحلته .

وتقلب ابن بطوطة فى الهند وممالكها وبحارها وجزائرها أعواماً طويلة ، ثم جاز إلى الشرق أيضاً ؛ فطاف جزائر الهند الشرقية أعنى جاوة وسومطرة ، ثم اتجه نحو الشمال ؛ وهنا يقول لنا إنه سافر بعد ذلك إلى الصين ، ويصف طبيعتها ومجتمعاتها ، غير أنه ليس واضحاً فى هذا القسم ، ويخيل لنا أنه يعنى بالصين ،

الهند الصينية وجنوب الصين ، وأنه لم يتوغل فى اتجاه الشمال إلا قليلا . وبعد أن تجول فى تلك الأنحاء حيناً عاد إلى جاوة مخترقاً المحيط الهندى إلى الهند فاخترقها ثانية ؛ ثم ركب البحر إلى شاطئ السند الجنوبى ، ثم اخترق فارس والعراق والشام ومصر عائداً إلى وطنه؛ وركب البحر من تونس فطاف بسردانية ثم اخترق المغرب إلى فاس فوصلها سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) أعنى بعد أن سلخ ربع قرن فى الطواف حول الأرض ، وذلك فى عهد السلطان أبى عنان المرينى . ثم قصد إلى مسقط رأسه طنجة ، وزار قبر والدته . ولم يمكث طويلا حتى دفعه شغف الطواف والتجوال إلى عبور البحر إلى الأندلس ، وتعرف ثغورها وقواعدها التى كانت يومئذ مازالت زاهرة نضرة رغم انحصارها فى جزء صغير من شبه الجزيرة ، ورغم اشتغال المسلمين يومئذ بالذود المتواصل عن أراضيهم وحرياتهم التى كانت تنذرها اسبانيا النصرانية بالمحو العاجل . وكان قدومه إلى غرناطة أيام النصريين فى عهد السلطان أبى الحجاج يوسف بن أبى الوليد النصرى ، فتعرف بعلمائها وفقهائها . ثم جاز البحر ثانية إلى المغرب ولم يستقر هنا أيضاً ، بل قصد إلى الجنوب ، وتوغل فى قلب الصحراء الكبرى ، وفى أعماق السودان ، وتجول فى الممالك السوداء التى كانت مزدهرة يومئذ فى غرب جنوبى الصحراء وفى حوض نهر النيجر ، ووصل فى تجواله جنوباً حتى مدينة مالى عاصمة مملكة مالى الكبرى ، وعرج فى طريقه على مدينة تنبكتو ، وغيرها من القواعد السوداء فى تلك المنطقة ، واتصل بأمرائها وسلاطينها ، ووصف لنا أحوال قبائلها ومجتمعاتها ، وقد كان يظن فى تلك العصور ، أن نهر النيجر هو نهر النيل الأكبر أوهو فرع من فروعه ، وهذا ما يعتقده ويذكره ابن بطوطة . على أن ابن بطوطة يعتبر صاحب الفضل الأول فى استكشاف هذه المنطقة بطريقة مفصلة ، وهو يقدم لنا عن ممالكها وأحوال شعوبها فى رحلته بيانات ضافية ، هى فى الواقع أوفى معلومات وصلتنا عنها فى ذلك العصر المبكر . وإن فضل الرحالة المغربى الكبير ، ليبدو واضحاً ، متى ذكرنا أن الرواد الأوربيين ، لم يستطيعوا النفاذ إلى تلك المنطقة واستكشافها قبل أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وبالرغم مما تذكره التواريخ الأوربية من أن الرحالة الإنجليزى منجو بارك ، والرحالة الفرنسى رينيه كاييه ، هما أول

من اكتشف أعالى نهر النيجر وقبائله وشعوبه ، فإن الحقيقة هى أن الفضل الأول فى هذا الاكتشاف يجب أن ينسب إلى ابن بطوطة ، وأن ما جاء فى رحلته عنها من البيانات المفصلة ، يؤيد هذه الحقيقة كل التأييد . وحينما عاد ابن بطوطة من هذه الرحلة الأخيرة ، وصلته أثناء رجوعه أوامر السلطان أبى عنان بالعودة إلى فاس ، فكر إليها راجعاً واستقر بها بعد طول التجوال والغربة فى سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤ م) أى لثلاثين سنة كاملة من خروجه الأول من مسقط رأسه. وكان يومئذ كهلا فى الثالثة والخمسين من عمره ، وقد خرج من طنجة كما رأيت فتى فى الثانية والعشرين.

* * *

استقر ابن بطوطة فى بلاط فاس بعد طول البعاد والتجوال ؛ وقربه السلطان إليه ، وكان يطربه بطريف أخباره وبديع سمره ، ويقص عليه أخبار البلاد والمجتمعات التى رآها . وذاع أمر الرحالة يومئذ واشتهر بغريب أخباره وقصصه ، ورماه البعض بالمبالغة والكذب ؛ ذلك أنه يجب أن نذكر أن المجتمع الذى أفضى إليه الرحالة المسلم بما رأى وسمع من عجائب المجتمع الأسيوى وروائعه ، لم يكن أقل إنكاراً أو تحاملا من المجتمع الذى قص عليه سلفه مركوبولو مشاهداته . ويعرب ابن بطوطة عن تألمه لهذا التحامل فى بعض المواطن فيقول : « إن الله يعلم صدق ما أقول وكفى به شهيداً » : وكانت قصة ابن بطوطة وقصة رحلاته ما تزال حية قوية حينما كتب الفيلسوف ابن خلدون مقدمته الشهيرة ؛ ولم يكن مضى على وفاة الرحالة يومئذ سوى أعوام قلائل . وقد رأى ابن خلدون الرحالة وعرفه فى بلاط فاس أيام خدمته للسلطان أبى عنان ، وهو يصفه فى مقدمته بما يأتى : « ورد على المغرب فى عهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين ، رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق ، وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند ، واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه مكانة واستعمله فى خطة القضاء . ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان ، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض . . فتناجى الناس فى الدولة بتكذيبه . ولقيت أنا يومئذ فى بعض الأيام وزير السلطان ، فارس بن وردار ؛ ففاوضته فى هذا

الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه ، فقال الوزير إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره . . » . وهكذا غمط الرحالة الكبير حقه من مجتمع عصره كما غمط سلفه مركو پولو . على أن الصدى الذى أثارته رحلاته كان أبعد مدى وأعمق أثراً من ذلك الذى أثارته رحلات مركوپولو ؛ فقد نفذ الرحالة المسلم إلى مجتمعات إسلامية على الأغلب ، قاصية غير معروفة من بقية العالم الإسلامى ، واستطاع أن يصل إلى أعماق نظمها ورسومها وعقليتها ؛ وقد نفذ إلى جنبات مجتمعات متنوعة : فمن الأندلس إلى شرق إفريقية إلى الهند إلى جاوة إلى الصين ،وجال فى كل منها وشاهد ودرس ؛ ولكن مركوپولو اقتصر على اختراق أواسط القارة الأسيوية أعنى ممالك التتار فقط ، ودخلها بعقلية غريبة بعيدة عن تفهمها كل الفهم . ومن ثم جاءت ملاحظات الرحالة المسلم أدق وأصدق من ملاحظات سلفه الفرنجى . وإذا استثنينا بعض الروايات الغريبة التى اتهم من أجلها بالإغراق ، فإن رواياته سواء فى التاريخ أو الجغرافيا أو الأحوال الإجتماعية بما يتجلى فيها من عمق فى البحث وقوة فى التصوير ، تكون وثيقة من أنفس وثائق التاريخ الأسيوى والجغرافيا الأسيوية . ثم إن فى أسلوب الرحالة فوق ذلك من طلاوة وفكاهة ما ينم عن خفة روحه ووفرة ملحه . فهو يحملك طوال رحلته مشوقاً إلى أتباعه فى مشاهداته وملاحظاته وصوره، وفى كل ما يرويه عن شخصه . وللرحالة فيما يقص عن شخصه روايات طريفة ، فهو يقص عليك مثلا كيف تزوج أثناء رحلته مراراً ورزق أولاداً عدة ، وكيف كان التجوال يقضى عليه بترك زوجاته وأولاده إلى مصاير لا يعرفها ولم يسمع بها ؛ وكيف كان يتعشق المآكل الشهية والفواكه العذبة ؛ وكيف يصل سفراته من بلد إلى بلد وإقليم إلى إقليم بما كان يحصله فى طريقه من هدايا الأكابر وصلات الأمراء والملوك ؛ وكيف حاول ذات مرة أن يحمل أحد سلاطين الهند على أداء ديونه الفادحة بمدحه بقصيدة نظمها ؛ وكيف كان شديد الفضول فى تعرف العادات الاجتماعية الغريبة من الشعائر الوثنية ورسوم الجنائز والزواج ؛ وكيف شاهد فى الهند أعمال السحرة والفقراء ، فراعه أن رأى ذات يوم ساحراً يقطع أمامه شخصاً حياً إلى أربع قطع ثم يلحمها ثانية فيعود الشخص حياً يرزق ؛ ومع أنه يصعب

أن تصدق هذه الرواية ، فإنها قد تكون ضرباً من أعمال الشعوذة الحديثة التى نسمع بحدوث أمثالها اليوم سواء فى الهند أو فى غيرها . هذا إلى نبذ تاريخية صادقة ، وصور قوية فى كل نواحى الطبيعة والحياة العامة .

وأنفق ابن بطوطة بقية حياته فى هدوء ودعة يدهش مجتمع عصره بما رأى وشهد ، وتوفى بعد أن جاوز السبعين من عمره ، نحو سنة ٧٧٥ هـ (١٣٧٤ م) . وقد أملى ابن بطوطة رحلته ولم يكتبها . أملاها على ابن جزىّ وهو فقيه أندلسى تقرب مثل ابن بطوطة إلى بنى مرين ، وكان إملاؤها بأمر السلطان أبى عنان سنة ٧٥٦ هـ فى مدينة فاس . ويصف ابن جزى الرحالة فيها « بالشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوال الأرض ، ومخترق الأقاليم بالطول والعرض ، الذى طاف معتبراً وطوى الأمصار مختبراً » . ولكن روح ابن بطوطة ورشاقة أسلوبه وقوة تعبيره تمثل فى ما سطره ابن جزى . ويقول ابن جزى نفسه « إنه نقل كلام الشيخ أبى عبد الله (ابن بطوطة) بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها موضحة للمناحى التى اعتمدها . وربما أوردت لفظه على وضعه » . وهكذا دونت تلك الرحلة الشهيرة التى تعتبر تحفة من تحف الأدب العربى ، والتى تحفظ للرحالة المسلم مقاماً رفيعاً بين أقطاب الرحل فى العالم ، وأطلق عليها هذا الاسم الشائق :

« تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار »

وقد أدرك البحث الحديث قيمة أثر ابن بطوطة فترجمت رحلته إلى الإنجليزية والفرنسية ، وظهرت فى أوربا منذ أوائل القرن الماضى ، قبل أن تظهر فى المشرق بمدة طويلة . وما زالت تحتفظ بقيمتها التاريخية والجغرافية بين أنفس آثار العصور الوسطى[1] .

---

(١) نشرت رحلة ابن بطوطة منذ منتصف القرن التاسع عشر فى باريس بعناية المستشرقين دفريمرى وسانجنيتى مع ترجمة فرنسية ، فى أربعة مجلدات صدرت بين سنتى ١٨٥٣ و ١٨٥٩ ، وطبعت بالقاهرة أكثر من مرة . وترجمت إلى الإنجليزية منذ سنة ١٨٢٩ بعناية المستشرق الإنجليزى « س. لى » . وترجم المستشرق الألمانى فون متسيك فصولها المتعلقة بالهند والصين إلى الألمانية ، وترجمت مقتطفات منها إلى لغات أخرى .

الفصل الثالث

أساطير دينيـــــــة

توجه سير التاريخ

كان للأساطير الدينية أثرها فى التاريخ فى كل العصور ، فكانت مبعثاً لطائفة من الظواهر والحوادث الكبرى ، وكانت سنداً لدول شامخة قامت على أسسها ، وبطولات غامضة اشتقت منها أسباب بطولتها واستعارت ثوب زعامتها ، ثم كانت أشد وأعمق فى تأثيرها المعنوى ، فكانت تغزو مجتمعات التاريخ . فترسم لها مناهج الحياة ، وتصوغ لها ما ترى من العقائد والمبادئ والتقاليد .

ولم يخل دين من الأديان الكبرى من طائفة من هذه الأساطير القوية . ولكن تلك التى ترتبط منها بالملك والسياسة ، كانت أبعدها أثراً فى سير الحوادث التاريخية . على أن الزعامة السياسية فى أمثال هذه الأساطير لم تكن إلا نتيجة للزعامة الدينية . ولما كانت الدعوة إلى النبوة قد ضعفت هيبتها على كر العصور . منذ قامت الأديان الكبرى وتوطدت دعائمها ، فإن هذه الأساطير كانت تتخذ دائماً شكل تراث النبوة أوملحقاتها ليس غير .

وقد بلغت هذه الأساطير الدينية السياسية فى الدول الإسلامية ذروة القوة والازدهار ، وكانت أسطورة المهدى من بينها أقواها وأبعدها أثراً . ونعرف أن الشيعة شادوا صرح دعوتهم الدينية والسياسية على طائفة من هذه الأساطير والمزاعم ، وكان التبشير بالمهدى المنتظر علَماً لدعوتهم السياسية بعد أن وطدوا دعائم دعوتهم الدينية ، واستطاعوا بما حشدوه من الفرق الثورية والسرية الهدامة ، أن يقوضوا أسس الدولة العباسية عنوان المبادئ والدعوات الخصيمة . على أن أسطورة المهدى ليست من خلق الشيعة . وإن كان الشيعة هم الذين استغلوها على كر العصور . فالكلام يرجعها إلى عصر النبى ذاته . وهنالك طائفة من الأحاديث المختلفة تشير إلى هذه الأسطورة ؛ ولكنها موضع كثير من الجدل والريب . هذا إلى طائفة

اخرى من الأقوال المأثورة تنسب لجماعة من كبار الصحابة . وخلاصة هذه الأحاديث والأقوال « أنه لابد فى آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت ، يؤيد الدين ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويعيد مجد الإسلام ودولته ، ويسمى بالمهدى » ولم يكن للأسطورة أهمية فى بدء الدولة الإسلامية ، ولكنها قويت فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، واتجهت إليها فكرة الشيعة ، وعنى أئمتهم ودعاتهم بأن يضعوا لها الأسانيد الكلامية والشروح التاريخية ، حتى أصبحت جزءاً من العقيدة الشيعية ذاتها ؛ واتخذت أسطورة المهدى صبغتها السياسية على يد إحدى فرقهم المعروفة بالإثنى عشرية ، وهم من الإمامية الذين يسوقون حق الإمامة فى ولد على بن أبى طالب حتى جعفر الصادق ؛ ثم يختلفون إلى فرقتين تقول الأولى بإمامة ابنه إسماعيل وهم الإسماعيلية ، وتقول الثانية بإمامة ابنه موسى الكاظم ثم جماعة من ولده بالتوالى حتى محمد المهدى ، وهو الثانى عشر من الأئمة ولذا سموا بالإثنى عشرية . ويقول هؤلاء إن محمداً المهدى خاتم أئمتهم لم يمت ولكنه اختفى ، ولايزال مختفياً إلى آخر الزمان ، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، ويسمونه بالمهدى المنتظر ، أو الفاطمى المنتظر لأنه فى زعمهم من ولد فاطمة . وهذا تخصيص من الشيعة للأسطورة العامة التى لم يقف أصحابها عند إرسال النبوءة جزافاً بل جرأ بعضهم على التحديد والضبط ، فعينوا لظهور المهدى آخر المائة السابعة ، بل عينوا لذلك سنة معينة هى سنة ٦٨٣ هـ . فلما انصرم هذا العصر ولم يظهر المهدى زعم بعض الدعاة أن هذا التاريخ إنما هو ميلاد المهدى لاعام ظهوره . وزعم آخرون أن ظهور المهدى يكون فى سنة ٧٤٣ هـ . وكلهم يتقدم لتأييد نبوءته بأسانيد واهية ويستتر وراء الرموز والإشارات الغامضة ، مما يدل على أنهم كانوا ينطقون بوحى دعوة سرية . وزعم الكندى الفيلسوف أن المهدى يجدد الإسلام ويظهر العدل ويفتتح الأندلس ورومة وقسطنطينية ويملك الأرض ، وهو ما ندهش لصدوره من فيلسوف حر التفكير (١) .

---

(١) راجع فى شرح دعوة المهدى المنتظر ، وما يتعلق بها من الجدل الفقهى فى ابن خلدون — المقدمة — (بولاق) ص ٢٦٠ وما بعدها . وراجع فى عقائد الشيعة ومساق الإمامة الشيعية — المقدمة — ص ١٦٤ وما بعدها .

وقد حاول الشيعة منذ عصور الإسلام الأولى أن يطبقوا هذه الأسطورة بصورة عملية ، فخرج كثير من دعاتهم أيام الدولة العباسية فى الحجاز ، وفى خراسان ، وانتحلوا الإمامة ، وزعم بعضهم أنه المهدى . ولكن أولئك الدعاة الذين ظهروا فى المشرق لم يستطيعوا القيام إلا بطائفة من ثورات محلية ، تحطمت جميعها على صخرة الدولة العباسية التى كانت يومئذ فى أوج قوتها . ولكن لاح للشيعة فى أواخر القرن الثالث أن الفرصة قد سنحت لأن يقوموا بضربة حاسمة . فشهروا أسطورة المهدى من جديد سلاحاً فى يدهم وآثروا أن يحاولوا التجربة هذه المرة بعيداً عن المشرق ، فى صحارى المغرب وبين قبائله البربرية وقد كان يسودها يومئذ انحطاط فكرى شامل ، وغمار مظلمة من البداوة والخرافة تدنو إلى الوثنية . وكان رسولهم ومروج دعوتهم بين هذه القبائل داعية اليمن أبو عبد الله الشيعى فاستطاع بدهائه وشعوذته أن يجذبهم ، وقاتل فى صحبه جند الأغالبة وهزمهم ، واستولى على مدينة القيروان (سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٨م) ، وسار فى أثره عبيد الله المهدى ، مسلحاً بهذه الأسطورة ، واستطاع بعد خطوب ووقائع جمة أن يجوز إلى إفريقية ، وأن يضع يده على ملك الأغالبة وأن ينشئ فى إفريقية (تونس) أول دولة شيعية ، هى دولة العبيديين الفاطميين ، وأن يجنى الثمار السياسية لدعوة دينية ؛ لبثت تعمل فى الخفاء على تقويض أسس الدولة العباسية زهاء قرن .

وفى قفار إفريقية وهضاب المغرب الأقصى أيضاً . عرف التاريخ الإسلامى أعظم تجربة لأسطورة المهدى المنتظر . وكانت وقتئذ قد خرجت من التخصيص الذى قصدها به الشيعة ، إلى التعميم الذى عرفت به فى عصور الإسلام الأولى . وكانت مجتمعات المغرب وقبائله كما قدمنا مهداً صالحاً لأمثال هذه الدعوات ، ولاسيما فى هذا العصر الذى انحدرت فيه إلى أشنع مراحل الانحطاط الفكرى والتعصب الدينى . ففى سنة ٥١٥ من الهجرة قام بالمغرب داعية جديد من دعاة الأسطورة المهدية هو محمد بن عبد الله بن تومرت ، وأصله من منطقة السوس . ولم ينتحل لنفسه صفة معينة فى المبدأ ، بل اكتفى بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان قد درس فى المشرق ، فى بغداد وغيرها ، ثم عاد إلى المغرب ، وطاف بأمصاره مشهراً دعوته أينما حل . وكانت دولة المرابطين قد دخلت يومئذ

فى دور انحلالها ، فالتفت حوله قبائل مصمودة التى كان ينتمى إلى إحدى بطونها . وبعد أعوام من الدعوة زعم أنه المهدى المنتظر والإمام المعصوم وساق نسبته إلى آل البيت ، وانتحل لتأييد دعواه امارات وشواهد وأحاديث معينة ، ثم رفع لواء الثورة ومازال يحارب المرابطين حتى تصدعت دولتهم ،وسقطت فريسة فى يد عبد المؤمن خلفه وأعظم صحبه ، وأسس المهدى ودعاته بذلك دولة الموحدين، التى حكمت أقطار المغرب كلها ، وافتتحت الأندلس وأسبغت على دولة الإسلام فى المغرب واسبانيا قوة وبهاء جديدين . وكان ابن تومرت من بين دعاة المهدية أوفرهم براعة وعلما وذكاء وحزماً وزهداً ، وكان نفوذه الروحى أقوى دعامة لقيام دولته التى لبثت عصراً تحافظ على خواصها الروحية وتخضع السياسة والحرب لصولة الدين .

وفى أوائل القرن الثامن الهجرى خرج بالسوس فى عصر السلطان يوسف بن يعقوب ، داعية من الصوفية يعرف بالتويزرى زعم أنه المهدى المنتظر ، وتبعه كثير من الدهماء . ولكن ولاة الأمر دسوا عليه من قتله غيلة ، فانقطع أمره بذلك قبل أن يستفحل . وظهر أيضاً فى أواخر هذا القرن داعية آخر يعرف بالعباس فزعم أنه المهدى وتبعه كثير من أهل غمارة وهاجم مراكش وأحرقها ، ولكنه قتل غيلة أيضاً .

ولم ينس الجيل الحاضر بعد قيام محمد أحمد المهدى بطل السودان القومى فى أواخر القرن الماضى ، وما اقترن بدعوته من حوادث جسام .

* * *

ومثل أسطورة المهدى المنتظر . أسطورة المسيح المنتظر. وهى ترجع إلى أصل يهودى ، ولها فى الإسلام مكان أيضاً . بل تمزج أحياناً بأسطورة المهدى ، فيقال إن المسيح المنتظر يظهر فى أثر المهدى ، أو يظهر معه ويأتم به . على أنها لم تلق فى النصرانية تطبيقا عملياً . وقد يرجع ذلك إلى أن الأساطير الدينية هى تراث الكنيسة تصوغها طبقاً لما تهوى ، وتلوح بها وتوحى بتطبيقها متى شاءت لتحقيق غاية من غاياتها . على أن فكرة المسيح المنتظر قويت فى المجتمع اليهودى فى وقت من الأوقات ، فظهر شابيتاى تسيبى فى أواخر القرن السابع عشر فى أزمير ، وزعم أنه

المسيح المنتظر وتبعه كثير من اليهود فى أوربا وفى المشرق ، ولقب نفسه « بملك ملوك » ولم تخمد دعوته إلا باعتقال السلطان إياه ووفاته فى سنة ١٦٧٦ ؛ غير أن بقية من أتباعه لاتزال اليوم فى سلانيك وتركيا . وظهر فى أثر شابيتاى ، فى سهول روسيا الغربية مثل اليوكرين وبولونيا عدد من الدعاه اليهود فى القرن الثامن عشر ، استتروا بهذه الأسطورة وأمثالها لقيادة الدهماء واستغلال إيمانهم ، وهم جميعاً من « الكاباليين » ،ومنهم من كان يتقن ضروب السحر والكيمياء ويستعين بها على شق طريقه وتقوية دعوته ؛ على أنهم جميعاً لم يكونوا أكثر من أفاقين محليين وكانت دعواتهم تخمد بسرعة ، وقلما تخلف أثراً . ويرجع ذلك إلى ظروف العصور والأمكنة التى ظهروا فيها ، وبخاصة إلى انحطاط مجتمعاتها . ومن ثم فإنا نراهم يظهرون فى أظلم بقاع أوربا ، فى مجتمعات روسيا الجنوبية التى كانت يومئذ فى حالة شنيعة من التأخر والانحطاط الفكرى ، وهنالك فقط يحرزون شيئاً من النجاح .

ونرى فى النصرانية أسطورة القيامة تؤثر فى خيال المجتمعات الأوربية أعمق تأثير فى أواخر القرن العاشر . والمعروف أن فكرة انتهاء العالم فى المستقبل القريب كانت منذ أقدم عصور النصرانية تستهوى جموعاً غفيرة من النصارى ، وهى ترجع فى نفس الوقت إلى فكرة ظهور المسيح أو عودته إلى وجه الأرض ، وفاء لوعد يقال إنه قطعة على نفسه . وعندئذ ، على ما تزعم الأسطورة ، يفصل النصارى عن باقى البشر ويستأثرون بحياة الجنان . وكان المقدر أن هذه الظاهرة الكبرى تحدث بعد ألف عام من مولد المسيح ، ففى أواخر القرن العاشر ، قويت هذه الأسطورة فى أذهان المجتمعات النصرانية ، وهبت على أوربا ريح من الروعة والاستكانة ، واتخذت شكلها المادى فى إحياء حياة الزهد والرهبانية فى كثير من أنحاء أوربا ولاسيما فى إيطاليا ، وفى اشتداد بأس الكنيسة ، وتوطد سلطانها الروحى . ولما حلت سنة ألف استولى على كثير من المجتمعات نوع من الرعب العام . ويروى أن كثيراً من الناس هاموا يومئذ فى رؤوس الجبال ، ومنهم من استأمن الأديرة على أمواله . ولم تنقشع هذه السحب المروعة من جو أوربا حتى كانت الكنيسة قد استقت منها قوة جديدة وحتى امتلات أقبية الأديرة بالكنوز والنفائس ؛ وكانت فرصة الكنيسة التالية فى تقوية نفوذها وبسط سلطانها على مجتمعات أوربا المظلمة ، فى دفع أوربا إلى سهول المشرق لتخوض معارك الحروب الصليبية .

وفى الحروب الصليبية بثت الكنيسة أساطيرها الروحية فى عقول الدهماء والكافة بل فى عقول الفرسان والسادة ، فتدفق سيل النصارى إلى المشرق ، فى الظاهر « لينقذوا قبر المسيح وبيت المقدس وليموتوا شهداء ويظفروا بجنات الخلد ويطهروا من كل إثم » ولتوطد الكنيسة فى الواقع سلطانها ، وتدفع خطر الإسلام الداهم عنها ؛ وقد كان سيل الإسلام يومئذ ينذر باقتحام أوربا من آسيا الصغرى على يد السلاجقة ، ومن إسبانيا على يد المرابطين ؛ فكان للأساطير الدينية بذلك آثارها العميقة فى تلك المعارك البربرية الكبرى .

وقد ملأت أسطورة المهدى المنتظر فراغاً كبيراً فى الكلام الإسلامى . ومن الغريب أنها لبثت حتى فى أزهر عصور الإسلام مورداً لا ينضب للتنبؤ والجدل ؛ وقد رأيت أنها لم تخل من حدس فلاسفة كالكندى ؛ على أن مفكراً عظيما هو ابن خلدون يعامل الأسطورة بتحفظ ، ويقنع بعرض ما قيل بشأنها ، ويترك مجال الإثبات والنفى لعلماء الكلام ، ولكنه يميل فى نفس الوقت إلى ناحية النفى [1] .

وعلى أى حال فإن هذه الأسطورة الكبرى لم تلق مهاداً خصبة ولم تزدهر إلا فى قفار إفريقية وهضابها النائية ، وبين قبائلها المتعصبة ، التى كانت يومئذ فى حال تدنو إلى الوثنية والهمجية ، منها إلى الإسلام والتمدن .

---

(١) المقدمة ص ٢٧٣ و ٢٧٥

ثبت المراجع

تاريخ الطبرى (الأمم والملوك) .
تاريخ ابن الأثير (الكامل) .
تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر) .
عيون الأخبار لابن قتيبة .
فتوح البلدان للبلاذرى .
تاريخ أبوالفدا (المختصر فى أخبار البشر) .
فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم .
العيون والحدائق فى أخبار الحقائق المطبوع بعناية دى جوية (المؤلف مجهول) .
معجم البلدان لياقوت الحموى .
خطط المقريزى(المواعظ والاعتبار) .
السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى (القاهرة — لجنة التأليف والترجمة) .
سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (مصر) .
البيان المغرب لابن عذارى المراكشى .
بغية الملتمس للضبى (فى المكتبة الأندلسية) .
أخبار مجموعة فى فتح الأندلس .
أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر .
التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (المكتبة الأندلسية) .
الحلة السيراء لابن الأبار المطبوع بعناية دوزى .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (المطبوع منه والمخطوط)
روض القرطاس لابن أبى زرع الفاسى .
الحلل الموشية لمؤلف مجهول (طبع تونس) .
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى .

رحلة ابن بطوطة (طبعة القاهرة الأهلية) .
وفيات الأعيان لابن خلكان .
صبح الأعشى للقلقشندى .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة سنة ١٩٥٦) .
أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت) .
دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان (الطبعةالثالثة ١٩٦٠) .
دول الطوائف لمحمد عبد الله عنان .
نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان (الطبعة الثانية١٩٥٨).

* * *

CREASY : Decisive Battles of the World.
FINLAY : Greece under the Romans.
« : Byzantine Empire.
GIBBON : Decline and Fall of the Roman Empire.
HODGKIN : Charles the Great.
W. H. HUTTON : The Story of Constantinople.
IRVING : The Conquest of Granada.
LANE - POOLE : A History of Egypt in the Middle Ages.
» » : The Moors in Spain
G. MILLER : History philosophically illustrated.
MILNE : Egypt under Roman Rule.
MUIR : Life of Mohamed.
PRESCOTT : History of Ferdinand and Isabella.
« : History of Philip II. of Spain.
TACITUS : Annals.
THUCYDIDES : Peloponnesian War.
TRAVELS OF MARCO POLO, the Venetian.
BAYLE : Dictionnaire Historique et Critique.
BOUQUET : Recueil des Historiens de Gaule et de la France.
CARDONNE : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne.
DE JOINVILE : Histoire de Saint Louis.
DOZY : Essai sur l'Histoire de l' Islamisme.
: Histoire des Musulmans de l'Espagne jusqu'a la Conquête des Almoravides. (Paris 1932).
: Recherches sur l'Histoire et Littérature de l' Espagne pendant le moyen âge.

DOZY : Le Cid. d'aprés de nouveaux Documents (Leyde 1860).
ENCYC. DE L'ISLAM.
FAMIN : Invasions des Sarrazins en Italie.
REINAUD : Histoire des Invasions des Sarrazins en France.
ZELLER : Histoire de L'Allemagne.
ASCHBACH : Geschichte der Omajaden in Spanien.
GOLDZIHER : Die Religion des Islams.
FR. VON SCHLEGEL : Philosophie der Geschichte.
MORDTMANN : Belagerung und Eroberung Constantinopels (Stuttgart 1858).
WEIL : Mohamed der Prophet.
VON HAMMER-PURGSTALL : Geschichte des Osmaniachen Reiches
SPRENGER : Das Leben und Lehre Mohameds.
MÜLLER : Der Islam.
CONDE : Historia de la dominançion de los Arabes en Espana (English and French versions).
R. M. PIDAL : La Espana del Cid (Madrid 1947).
« « « : La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Madrid 1959).
A.P. IBARS : Valencia Arabe (Valencia 1901).
LAFUENTE ALCANTARA : Historia de Granada.
DIRENBOURG : Les Manuscrits Arabes de L'Escurial.

فهرس لبعض الأعلام التاريخية والجغرافية

ومقابلها الإفرنجي

قيصريوس	Caesarius
قلورية	Calabria
سبتة	Ceuta
خلقيدونة	Chalcedon
قارلة	Charles - Karl, Charlemagne
الغزيرى	Casiri
قشتالة	Castile
قصريانة	Castrogiovanni
السيد الكنبيطور	Cid el Campeador
مدينة الباب	Ciudad de la Puerta
إقريطش	Crete-Candia
قونقة ـ كونكة	Cuenca
كيروس (المقوقس)	Cyrus
مدينة الرّها	Edessa
فيمي	Euphemius
الفرنج	Franks
نظام الإقطاع	Feudalism
جلّيقية	Galicia
غاليس (فرنسا)	Gaul - La Gaule
جرجنت	Girgento
القوط	Goths
غرناطة	Granada
وادى آش	Guadix
مضيق الدردنيل	Hellespont

أبدس	Abydos
حى البيازين	Albaicin
شنتمرية الشرق	Albarracín
الأدفنش أو الأذفنش	Alfonso
الجزيرة الخضراء	Algeciras
الحمـــراء	Alhambra
الألخميادو ـ الأعجمية	Aljamiado
ألمـــرية	Almeria
المنكّب	Almuñecar
الموحدون	Almohades
المرابطون	Almoravides
ألبونت	Alpuente
البشرات أو البشرة	Alpujarras, Alpuxarras
نسطاس	Anastasius
أندرّش	Andrax
عمّورية	Amorium
الثغر الأعلى أو أرغن	Aragon
أشتروريش	Asturias
بطليوس	Badajoz
بسطة	Baza
بارة	Bari
بلاد البشكنس أو بسكونية	Bascons Navarre
أبو عبد الله (ملك غرناطة)	Boabdil
بردال	Bordeaux

Inquisition	ديوان التحقيق
Jatiba	شاطبة
Jucar	نهر شقر
Leo of Tripolis	غلام زرافة
Leon	ليون أو إليون (القيصر)
Lerida	لاردة
Loja	لَوْشه
Lombardy	أنكبردية أو بلاد اللنبرد
Lucena	حصن اللسانة
Lyon	لوذون
Malaga	مالقة
Mauresques	الموريسكيون أو العرب
Moriscos	المتنصرون
Munuza	منوسة
Murviedro	مربيطر
Naples	نابل
Narbonne	أربونة
Niebla	لَبلة
Normans	النورمان أو المجوس
Palermo	بلرم
Pergamus	برجان
Phoenix	فينقية
Propontis	بحر المرمرة
Puerta de Elvira	باب إلبيرة
Pyrénées	جبال البرت أو الممرات
Ragusa	رغوس
Requena	ركّانة
Roger	رجّار
Le Rhône	نهر — وادى رذونة
Roncesvalles	باب الشزرى
Sancho	شانجُه — سانشو
Santa Fé	شنتنى
Santaver	شنت برية
Saragossa Zaragoza	سَرُقسطة
Sclavonians Slaves	الصقالبة
Segura	نهر شقورة
Seville	إشبيلية أوحمص
Sierra Morena	جبل الشارات
Sierra Nevada	جبل شلير — جبل الثلج
Syracuse	سرقوسة
Taranto	تارانت
Tarsus	طرسوس
Theodosius	تيدوس
Toledo	طليطلة
Toulouse	تولوشة
Thessalonica	سلانيك
Tours et Poitiers	بلاط الشهداء
Valenica	بلنسية
Vélez	بلّش
Vélez Malaga	بلش مالقة
Villa Leunga	جبل بللنقة
Xenil-Genil	نهر شنيل
Zamora	سمّورة

فهرست الموضوعات

فهرست الخرائط والصور

فهرست القبائل والطوائف والدول

د — ز

س — غ

ف — ل

م — ى

فهرست البلدان والأماكن

ب — ث

ج – خ

د — ز

س — ش

ص — غ

ف ـ ك

ل — م

ن – ى

فهرست الأعـــلام

ب — ث

ج — خ

د — ز

س — ظ

ل — م

ن — ى

مقدمة الطبعة الخامسة

● بلغت سعادتي ذروتها وأنا أعيد قراءة هذا السفر الجيّد في تاريخ الإسلام (مواقف حاسمة) الذى كتبه أستاذنا الجليل محمد عبدالله عنان أستاذ التاريخ الإسلامى الفذ أحد مؤسسي علم تاريخ العرب فى الأندلس، والذى أفادت مؤلفاته المتعددة الكثيرين جداً من طلاب العلم والأدب و الكثيرين من الباحثين والمبدعين شعراء وقصاصين ونقاداً.

● وقد تناول المؤلف بوعي تاريخي وحضارى كل هذه المواقع الدرامية فى تاريخ علاقتنا بالآخرين هادفاً برؤيته العميقة والنافذة إلى إثارة الحاضر المعاصر وإعادة استفزازه بقصد النهوض من كبوته والإنطلاق مُسلّحاً بكل أدوات العصر الحديث وبكل زخم الماضى المجيد لتحقيق وجوده فى المستقبل القريب والبعيد على السّواء.

● إنه ـ كما قال فى التمهيد للكتاب ـ يسعى لتحقيق «وثبة العرب» المعاصرين متمثلين نضال أسلافهم العظام وهم يحققون «وثبة العرب الأولى» عند ظهور الإسلام الذى كان أهم سلاح فى هذه النهضة القومية التى امتدت آثارها إلى أقصى الآفاق فى العالم القديم.

● هى إذن، رحلة أدبية ـ فقد صاغها صاحبها فى أسلوب أدبى شديد الإيحاء قوى التأثير – علمية.. فقد التزم صاحبها بكل ما يطلبه العلم من موضوعية وأمانة حين نكتب التاريخ.

● وفى هذه الرحلة الأدبية التاريخية يسْتعيد الإنسان العربى المعاصر كل العناصر الضائعة من إنسانيته ويعود من رحلته مع محمد عبد الله عنان أشد قوة مما كان، وأرْقى تفكيراً مما قبل.

(وبالله التوفيق)

الجيزة : ٧ يناير ١٩٩٧م
٢٨ شعبان ١٤١٧هـ

دكتور يسرى العزب

أستاذ الأدب الحديث بكلية الآداب – بنها

مؤلفات محمد عبد الله عنان

١ - مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية
٢ - الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية
٣ - مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى
٤ - تاريخ الجامع الأزهر
٥ - موسوعة التاريخ الأندلسى عدد ستة أجزاء
 - دولة الإسلام فى الأندلس (مجلدان - الطبعة الرابعة ١٩٦٩)
 - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى (الطبعة الثانية ١٩٦٩)
 - عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (مجلدان - الطبعة الأولى ١٩٦٤)
 - نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين (الطبعة الثالثة - ١٩٦٦)
 - الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال (الطبعة الثانية ١٩٦١)
 - الإحاطة فى أخبار غرناطة للوزير ابن الخطيب (تحقيق) (أربعة مجلدات - الطبعة الأولى ١٩٧٣ - ١٩٧٨)
٦ - تراجم إسلامية شرقية وأندلسية
٧ - ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى
٨ - لسان الدين ابن الخطيب حياته وتراثه الفكرى
٩ - مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام
١٠ - ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى
١١ - تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة
١٢ - تاريخ المؤامرات السياسية
١٣ - المذاهب الاجتماعية الحديثة
١٤ - المآسى والصور الغوامض
١٥ - مأساة مايرلنخ.